أليف شافاك

رواية

جزيرة الأشجار المفقودة

ترجمة: أحمد حسن المعيني

دار الآداب

مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d

جزيرةُ الأشجار المفقودة

مكتبة الحبر الالكتروني

أسعد الكناني

أليف شافاك

جزيرةُ الأشجار المفقودة

ترجمة: أحمد حسن المعيني

رواية

دار الآداب

جزيرةُ الأشجار المفقودة
أليف شافاك / كاتبة تركيَّة
ترجمة : أحمد حسن المعيني
الطبعة الأولى عام 2022
ISBN 978-9953-89-730-1
The Island of Missing Trees
Copyright © 2021 Elif Shafak
http://www.elifshafak.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزءٍ منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكلٍ من الأشكال، من دون إذنٍ خطّيٍّ مسبّق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني :
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

إلى المهاجرين والمنفيِّين في كلِّ مكان..

أولئك المنبتِّين عن جذورهم، ومَن غرَسوا لهم جذورًا جديدة، ومن لا جذور لهم..

وإلى الأشجار التي تركناها وراءنا

المتجذِّرة في ذكرياتنا.

لا يعرفُ هذا الكوكبَ من لم يزُر الغابة التشيليَّة. وقد خرجتُ من تلك الأرض، من ذلك الطين، من ذلك الصمت، كي أُحلِّق، كي أظلَّ أُغنِّي في العالم.

(بابلو نيرودا، كتاب الذكريات)

سيكون في الأمرِ دمٌ: يقولون إنَّ الدمَ يُورِث الدم.

والأحجارُ، على عهدِها، تتحرَّك، والأشجارُ تنطق...

(وِليَم شكسبير، مسرحيَّة ماكبث)

المحتويات

مدخل: الجزيرة 11

الجزء الأوَّل: كيف تَدفن شجرة 19

الجزء الثاني: الجذور 107

الجزء الثالث: الجذع 203

الجزء الرابع: الفروع 269

الجزء الخامس: النظام البيئيّ 363

الجزء السادس: كيف تستخرج شجرةً بعد دفنها 431

ملحوظة للقارئ 479

شكرٌ وامتنان 484

الجزيرة

كان يا ما كان، في سالف الذكرى، في الطرَف القصيِّ من البحر الأبيض المتوسِّط، جزيرةٌ هامَ في حبِّها الرحَّالةُ والحجَّاج والتجَّار وفرسان الحروب المقدَّسة، فكانوا لفرط جمالها وزُرقتها إمَّا لا يطيقون فراقها، أو يحاولون أن يجرُّوها معهم بحبالٍ متينةٍ إلى بلادهم.

لعلَّها محضُ أساطير.

غير أنَّ الأساطير ما وُجِدت إلاَّ لكي تقصَّ علينا ما تسلَّلَ من ذاكرة التاريخ.

سنواتٌ طويلة مرَّت منذ أن هربتُ من ذلك المكان على متن طائرة، في حقيبة سفرٍ من الجلد الأسود الناعم، ولم أعُدْ إليه مرَّةً أخرى. فقد اتَّخذتُ منذئذٍ موطنًا آخر، «إنجلترا». كبرتُ فيها وترعرعتُ، غير أنِّي لا أذكر يومًا واحدًا لا أحنُّ فيه إلى الرجوع. الوطن. أرض الآباء والأجداد.

لا بدَّ من أنَّ الجزيرة ما تزال هناك حيث تركتُها، تعلو وتغرقُ مع الأمواج التي تتكسَّر على ساحلها وتُزبد. هناك في مفترق الطرق بين قارَّاتٍ ثلاث (أوروبا وإفريقيا وآسيا) وبلاد المشرق، تلاشت تلك المنطقة الشاسعة المنيعة بأكملها من خرائط الوقت الحاضر.

الخريطةُ تمثيلٌ ثنائيّ الأبعاد، برموزٍ اعتباطيَّةٍ وخطوطٍ محزَّزة، تُقرِّرُ من يكون عدوَّنا ومن يكون الصديق، من يستحقُّ محبَّتنا ومن يستحقّ كراهيَّتنا، ومن لا نبالي به على الإطلاق.

رَسمُ الخرائط إذن مجرَّد اسمٍ آخر للحكايات التي يرويها المنتصرون. أمَّا الحكايات التي يقصّها المهزومون فلا يوجد اسمٌ لها.

*

هذا وصفُ الجزيرة كما أتذكَّرها: سواحل ذهبيَّة، ومياهٌ تركوازيَّة، وسماوات صافية. في كلِّ عامٍ، تأتي السلاحفُ إلى الساحل كي تضع بيضها في الرمال الناعمة. وكانت رياحُ العصْر تحملُ معها رائحة الياسمين الحجازيّ، وبَخُور مريم، واللاڤندر، والعَسَلَة. فُروع الوِستارية تتسلَّق الجدران

المبيَّضة، تشقُّ طريقها نحو السحاب، في رجاءٍ لا يعرفهُ إلاَّ الحالمون. وحين يَطبعُ الليلُ قبلَته عليكَ كعهده دائمًا، تشمُّ رائحةَ الياسمين في أنفاسه. القمرُ على هذه الجزيرة قريبٌ من الأرض، وضَّاءٌ رقيقٌ فوق أسطح البيوت، يسكب وَهْجًا واضحًا على الأزقَّة والشوارع المعبَّدة بالحصى. ومع ذلك، كانت الظِلال تجد سبيلها إلى الزحف في هذا النور. نَسَماتٌ من الريبة والتآمر تتموَّجُ في الظلام؛ فالجزيرة كانت مقسومةً إلى قسميْن: شمالاً وجنوبًا. كلُّ قسمٍ تغشاهُ لغةٌ مختلفة، وخطٌّ مختلف، وذاكرةٌ أخرى. بل إنَّ الإلٰه الذي يبتهلُ إليه أهل الجزيرة نادرًا ما يكون نفسه عند الجميع.

كانت العاصمة مقسومةً بحاجزٍ يقطعها مثل شَقٍّ في القلب. على طول خطِّ الترسيم (أو الحدود) بين القسمَيْن منازلُ خَرِبةٌ غَرْبَلَتْها ثقوبُ الرصاص، وأفنيةٌ فارغةٌ موسومةٌ بانفجارات القنابل، ومحالٌّ أصبحتْ أنقاضًا بلافتاتها، وأسيجةٌ مزخرفةٌ متدلِّيةٌ من مفاصلها، وسيَّاراتٌ فارهةٌ من حقبةٍ أخرى تصْدأُ تحت طبقات الغبار... كانت الشوارع مسدودةً بلفائف الأسلاك الشائكة، وأكياس الرمل المكوَّمة، وبراميلَ مملوءةٍ بالإسمنت، وخنادقَ مضادَّةٍ للدبَّابات، وأبراج مراقبة. كانت الشوارع تنتهي على حين فجأة، مثل أفكارٍ غير مكتملة، أو مشاعرَ مُعلَّقة.

الجنودُ في غير أوقات دوريَّاتهم يقفون ببنادقهم الرشَّاشة على أهبَّة الاستعداد، شبابًا ضَجِرين، وحيدِين، قَدِموا من شتَّى بقاع الأرض، لا يعرفون إلاَّ القليل عن الجزيرة وتاريخها الشائك، حتى وجدوا أنفسهم مُكلَّفِين بالخدمة في هذا المناخ الغريب. أمَّا الجدران، فكانت تكسوها اللافتات الرسميَّة بألوانٍ بارزةٍ وحروفٍ كبيرة:

يُمنع الدخول بعد هذه المنطقة

يُرجى الابتعاد، منطقةٌ محظورة

التصوير ممنوع

وبعد مسافةٍ في هذا الحاجز إضافةٌ غير رسميّةٍ خطَّها عابر سبيلٍ بالطباشير على برميل:

مرحبًا بك في الأرض المُحايدة

ذلك التقسيمُ الذي مزَّق قبرص من طَرَفها إلى الطرف الآخر عبارةٌ عن منطقةٍ عازلةٍ تُشرف عليها قوّات الأمم المتَّحدة، يبلغ طولها مئةً وسبعةٍ وسبعين كيلومترًا تقريبًا. أمّا عرضُها فيَصِلُ في بعض المناطق إلى ستَّة كيلومترات ونصف، وفي مناطق أخرى، لا يتعدَّى بضعة أمتار. تطوفُ هذه المنطقةُ في شتَّى التضاريس (من القرى المهجورة إلى المناطق الساحليَّة، فالمناطق الرطبة، فالمناطق البُور، وغابات الصنوبر، والسهول الخصبة، ومناجم الفحم، والمواقع الأثريَّة)، تهيم في طريقها مثل شبحِ نهرٍ عتيق. غير أنَّ التقسيم كان أكثر وضوحًا وتجسُّدًا في العاصمة وما حولها، أي أنَّ حضورَه كان أقوى هناك وأثقل. نيقوسيا، العاصمةُ الوحيدة المقسَّمة في هذا العالم.

يكادُ الأمر يبدو إيجابيًّا حين يُوصف على هذا النحو؛ وكأنَّ فيه شيئًا مميَّزًا (إن لم نقل فريدًا)، حِسًّا من الجاذبيَّة المستمِيتة، مثل حبَّة الرمل الوحيدة التي تتحرَّك باتِّجاه السماء في ساعةٍ رمليَّةٍ قُلِبَت لتوِّها. لكنَّ الواقع غيرُ ذلك؛ فنيقوسيا لم تكن استثناءً، وإنَّما اسمًا آخر ينضاف إلى قائمة الأماكن المفصولة والجماعات المعزولة، تلك التي سُجِّلت في دفاتر التاريخ، وتلك التي سوف تأتي لاحقًا. مع ذلك، ففي تلك اللحظة تحديدًا كانت نيقوسيا علامةً فارقة؛ آخرَ مدينةٍ مقسَّمةٍ في أوروبا.

مسقِطُ رأسي.

*

هناك أشياءُ كثيرة لا تقوى الحدودُ على منعها من العبور (وإنْ كانت حدودًا واضحةً محروسةً مثل هذه). الرياحُ الموسميَّة مثلاً، رياح مِلتيمي أو مِلتم باسمها اللطيفِ وتأثيرها العنيف. الفراشاتُ، والجنادبُ، والسحالي. بل الحَلَزونات أيضًا، على الرَّغم من بُطئها القاتل. ومن حينٍ إلى آخر، ينفلتُ بالونُ عيد ميلادٍ من قبضة طفلٍ، فتذروهُ الرياح، ثم يهيمُ إلى الجانب الآخر، في أرض العدوّ.

الطيورُ أيضًا. مالكُ الحزين الأزرق، وطائرُ الدرسة أسود الرأس، وصقرُ العسل، وطائرُ الذرعة، وطائرُ نقشارة الصفصاف، والصرَّد المقنَّع، والطائر المفضَّل عندي: طائرُ الصُفيْر الذهبيّ. كلُّها تهاجر من شمال الأرض ليلاً في أغلب الأحيان، تجتمعُ الظلمة على أطراف أجنحتها، وتحفرُ دوائر حُمْرًا حول أعينها، فتتوقَّف هنا في منتصف رحلتها الطويلة، قبل أن تستأنف مشوارها إلى إفريقيا. الجزيرةُ بالنسبة إليها مكانُ استراحةٍ، أو فجوةٌ في الحكاية، في منطقةِ المابَيْن.

ثمَّة تلَّةٌ في نيقوسيا تجتمع فيها الطيورُ بشتَّى أنواعها لتجمعَ الغذاء وتتغذَّى. والتلَّةُ كثيفةٌ تنتشرُ فيها نباتات العلَّيْق، والقرَّاص اللاسع، وأجَمات الخَلَنج. وفي وسَط هذه الخضرة الكثيفة بئرٌ قديمةٌ فيها بَكْرةٌ تَصِرُّ مع أضعف سَحبةٍ، ودلوٌ معدنيٌّ موثوقٌ بحبلٍ مهترئٍ مغطًّى بالطحالب من أثر الإهمال. والبئرُ في أعماقها سوداء معتمةٌ، باردةٌ حدّ التجمُّد دائمًا، حتى حين تكون شمسُ الظهيرة فوقها مباشرة. إنَّما البئرُ فَمٌ جائعٌ، ينتظرُ وجبَته التالية. تبتلعُ كلَّ شعاعٍ من الضوء، وكلَّ أثرٍ من حرارة، إذْ تُمسكُ كلَّ ذرَّةٍ من تلك الذرَّات في حَلْقِها الحَجَريّ المستطال.

إنْ ذهبتَ يومًا إلى هناك، وإنْ دفعتْك الغريزةُ أو الفضول إلى أن تميل على الحافَّة وتسترق النظر، في انتظار أن تتكيَّف عيناك مع العتمة، فقد تلمحُ التماعةً في الأسفل، كالوميض الهارب من حراشف سمكةٍ قبل أن تختفي في الماء مرَّةً أخرى. لا يخدعنَّك هذا، فلا أسماك هناك، ولا أفاعٍ، أو عقارب، ولا عناكب تتدلَّى من خيوطٍ حريريَّة. تلك الالتماعةُ ليستْ من كائنٍ حيّ، بل من ساعةِ جيبٍ قديمة، مصنوعةٍ من ذهب الثمانية عشر قيراطًا، ومكسوَّةٍ بعَرَق اللؤلؤ، نُقش عليها بيتُ شِعْرٍ يقول:

مقدورُكَ أن تصل

فلا تتعجَّل الرحلةَ أبدًا

على ظهر الساعة حَرفان، أو بالأحرى حرفٌ واحدٌ مكرَّر:

ي ي

يبلغ عُمق البئر أربعًا وثلاثين قدَمًا، وعرضُها أربع أقدام. بُنِيَت من حجارةٍ منحوتةٍ مُقوَّسةٍ بعض الشيء، في صفوفٍ أفقيَّةٍ متطابقة نزولاً حتى المياه الخرساء الفاسدة. وفي الأسفل هناك، رَجُلان عالقان، كانا يملكان حانةً معروفة. كلاهما ذو بِنيةٍ رفيعة، وطولٍ متوسِّط، وأذنيْن كبيرتَيْن بارزتَيْن ـــــ كانا كثيرًا ما يضحكان عليهما. وُلد الرجلان وعاشا في هذه الجزيرة، ثم اختُطفا في الأربعينيَّات من العمر وأُنزل بهما العذاب ضربًا. أُلقيَ بهما في هذا المهوى بعد تقييد بعضهما ببعض، ثم بصفيحةِ زيتِ زيتونٍ مملوءةٍ بالإسمنت، كي لا يخرجا من الماء أبدًا. ساعةُ الجيب التي كان أحدهما يرتديها يوم ضُربا توقَّفتْ عند الدقيقة الثامنة بالضبط قبل منتصف الليل.

الزَمنُ طائرٌ مغرِّد، في وِسعك أن تأسِره، شأنه شأن أيّ طائرٍ مغرِّد. يمكنك أن تحبسه في قفصٍ لفترةٍ أطول ممَّا تتخيَّل، بيد أنَّ الزمنَ لا يُمكن السيطرة عليه إلى أبد الآبدين.

فلا يوجدُ أسْرٌ يدوم إلى الأبد.

*

ذاتَ يومٍ سيصدأُ المعدنُ في الماء، فتنفكُّ الأغلال، ثم يلينُ قلبُ الإسمنت مثلما تميل أكثرُ القلوب قسوةً بمرور السنوات. عندها فقط ستسبح الجثَّتان (إذْ تتحرَّران أخيرًا) إلى بصيصٍ من السماء فوقهما، فتلتمعان تحت أشعَّة الشمس. سوف تصعدان ذات يومٍ إلى تلك الزرقةِ السعيدة، ببطءٍ في أوَّل الأمر، ثم في سرعةٍ واهتياج، مثل غوَّاصٍ على اللؤلؤِ يَشهَقُ طَلَبًا للهواء.

عاجلاً أم آجلاً، سوف تنهارُ هذه البئر القديمة الخَرِبة فوق تلك الجزيرة الجميلة الوحيدة، في الطرَف القصيِّ من البحر الأبيض المتوسِّط، وسوف يخرجُ سرُّها إلى السطح، مثل أيّ سرٍّ مقدورٍ له أن يخرج في نهاية المطاف.

الجزء الأوَّل

كيف تَدفن شجرة

فتاةٌ تُسمَّى جزيرة

إنجلترا، أواخر العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين

كانت الحصَّةَ الأخيرة في ذلك العام الدراسيّ بمدرسة «بروك هِل» الثانويَّة في شمال لندن. صفُّ السنة الثانية، حصَّةُ التاريخ، قبل خمس عشرة دقيقة فقط من الجرس. كان الضجرُ قد استبدَّ بالتلاميذ، وها هم يتحرَّقون شوقًا إلى عطلة أعياد الميلاد. كلُّ التلاميذ، ما عدا تلميذةً واحدة.

جلستْ آدا كازنتزاكِس ذات الستَّة عشر ربيعًا بجِدَّةٍ هادئة في مقعدها المعتاد عند النافذة، في مؤخِّرة الصفّ. شَعرها البنِّيّ بلون المهوغَني الصقيل ملمومٌ في ذيل حصانٍ خفيض. ملامحها الدقيقةُ مشدودةٌ مزمومة، وعيناها الكبيرتان البنِّيَّتان كلونِ الظبْي تفضحان قلَّة نومها في الليلة الفائتة. لم تكن تنتظر موسم الأعياد، ولا تشعر بأيِّ حماسٍ لاقتراب الثلوج. كانت تختلسُ النظر بين الفينة والأخرى إلى الخارج، على الرَّغم من أنَّ تعابيرها ظلَّت في الغالب نفسها لا تتغيَّر.

قُرب منتصف النهار تساقط البَرَدُ، كُرَياتٍ متجمِّدةً حليبيَّةَ اللون تَسفَحُ آخر ما تبقَّى من أوراق الشجر، تطرقُ على سقيفةِ الدرَّاجات الهوائيَّة، وتتقافز على الأرضِ برقصةِ نقرٍ جامحة. صحيحٌ أنَّها هدأت الآن، لكنَّ الجميع كان يعرف أنَّ الجوّ قد انقلب إلى الأسوأ بكلِّ تأكيد. كانت هناك عاصفةٌ في الأفق. أعلنت الإذاعةُ ذلك في الصباح، إذْ سوف تتعرَّض بريطانيا في خلال ثمانٍ وأربعين ساعةً على الأكثر لإعصارٍ قُطبيٍّ تنخفضُ معه درجاتُ الحرارة إلى معدَّلاتٍ غير مسبوقة، مصحوبًا بأمطارٍ وعواصفَ ثلجيَّة. ومن المتوقَّع أن يؤدِّي نقصُ المياه وانقطاع الكهرباء وانفجاراتُ أنابيب المياه إلى شللٍ في قطاعاتٍ كبيرةٍ من إنجلترا وأسكتلندا، علاوةً على أجزاءٍ من شمال أوروبا. كان الناس قد بدأوا يكنزون المؤن، من السمك المعلَّب والفاصولياء وأكياس المعكرونة ومناديل الحمَّام، كما لو أنَّهم يستعدُّون لحِصارٍ وشيك.

يتحدَّث التلاميذ عن العاصفة طوال النهار، قَلِقِين على مخطَّطات العطلة والسَفَر. إلاَّ آدا. لم تكن لديها تجمُّعات عائليَّة، أو مناطق بعيدة تخطِّط لزيارتها. لم يكن والدُها ينوي الذهاب إلى أيِّ مكان. لديه أعمالٌ يقوم بها. دائمًا لديه أعمالٌ يقوم بها. كان والدُها مُدمنَ عملٍ لا يُرجى شفاؤه، ومن يعرفه يشهد له بذلك، غير أنَّه انعزل مع أبحاثه منذ وفاة والدتها، مثل حيوانٍ يختبئ في جُحره طلبًا للدفءِ والأمان.

كانت آدا قد استوعبت في فترةٍ من حياتها الصغيرة أنَّ والدها مختلفٌ عن الآباء الآخرين، غير أنَّها مع ذلك لم تستطع أن تتقبَّل هَوَسه بالنباتات. كان آباءُ الجميع يعملون في المكاتب والمحالّ والمؤسَّسات الحكوميَّة، يرتدون بذلاتٍ رسميَّةً وقمصانًا بِيضًا وأحذيةً سُودًا لامعة، أمَّا والدُها فكان دائمًا يرتدي معطفًا واقيًا من المطر، وبنطالاً زيتيًّا أو بنِّيًّا من الفرو، وحذاءً طويلاً خشنًا. وفي حين كان الآخرون يحملون حقائب الأوراق الرسميَّة، كان هو يحمل معه حقيبةً يعلِّقها على كتفه تحتوي على أدواتٍ من كلِّ شكلٍ ونوع: عدسةٍ يدويَّة، ومبضع، وحافظة العيِّنات، وبوصلة، ودفاتر. يثرثرُ الآباء الآخرون دائمًا عن مشاريعهم وما يخطِّطون لفعله بعد التقاعد، أمَّا أبوها فكان مهتمًّا بالآثار السامَّة للمبيدات الحشريَّة على إنبات البذور، أو الضرر البيئيّ لقطع الأشجار. كان يتحدَّث عن آثار اجتثاث الغابات بشغفٍ لا يُبديه أقرانُه إلاَّ في حديثهم عن تقلُّبات الأسهم التي اشتروها. لم يكن يكتفي بالحديث عن ذلك، بل كان يكتب أيضًا. كان عالم نباتٍ وعالمًا بيئيًّا تطوُّريًّا، نُشر له اثنا عشر كتابًا. من بينها كتابٌ اسمه المملكة الغامضة: كيف شكَّلت الفطريَّات ماضِينا، وكيف ستغيِّرُ مستقبلنا. وله كتابٌ آخر عن نبات الشمبلان المغمور، والنباتات الكَبِديَّة، والطحالب. على الغلاف جسرٌ حجريٌّ فوق خليجٍ يزبدُ حول صخورٍ مكسوَّةٍ بالأخضر المخمليّ. وفوق هذه الصورة الحالمة كُتب العنوان بلون الذهب: دليلٌ ميدانيٌّ إلى النباتات الطُحلبيَّة الشائعة في أوروبا؛ وتحت ذلك اسمُه مطبوعًا بالحروف الكبيرة: كوستاس كازنتزاكِس.

لم تكنْ آدا تعرفُ أيَّ نوعٍ من الناس قد يقرأ هذه الكتب التي يكتبها والدُها، غير أنَّها لم تجرؤ على ذكرِها لأيِّ أحدٍ في المدرسة. فلم تكن تودّ أن تقدِّم لرفاقها سببًا آخر كي يستنتجوا أنَّها (وأسرتها) غريبو الأطوار.

كان والدُها فيما يبدو يفضِّل صحبةَ الأشجار على صحبة البشر، ليلاً أو نهارًا. كان هذا شأنه دائمًا، غير أنَّ والدتها كانت تستطيع أن تخفِّف من غرابة أطواره، ربَّما لأنَّها هي أيضًا لها أطوارها

الغريبة. شعرتْ آدا منذ وفاة والدتها أنَّ أباها ينزاح بعيدًا عنها، أو ربَّما هي التي كانت تنحسر بعيدًا عنه، فمن الصعب تحديدُ من يتحاشى الآخر في بيتٍ موبوءٍ بالحُزْن. سيبقيان في البيت معًا إذن، لا في فترة الإعصار فحسب، بل في موسم أعياد الميلاد كلّه. كانت آدا ترجو أن لا يكون والدُها قد نسي الذهاب لشراء أغراض البيت.

انزلقتْ عيناها إلى دفترها. كانت قد رسَمَت على أسفل الصفحة المفتوحة فراشة. أخذتْ تمرِّر إصبعها ببطءٍ على الجناحَيْن. يا لرقَّتهما، من السهل أن يُكسرا!

«هيه. لديكِ عِلكة؟»

انتبهتْ آدا فجأةً من حُلم يقظتها، فالتفتتْ جانبًا. كانت تحبُّ الجلوس في مؤخِّرة الصفِّ، غير أنَّ ذلك يجعلها دائمًا إلى جانب إمَّا روز، تلك المزعجة بعادتها في طرقعة أصابعها، ومضغ العِلكة واحدةً بعد الأخرى (على الرَّغم من أنَّ ذلك لم يكن مسموحًا به في المدرسة)، والثرثرة في أمورٍ لا تهمُّ أحدًا غيرها.

قالت آدا: «لا، آسفة»، وهزَّت رأسها ثم رمقت المعلِّمةَ بنظرةٍ متوتِّرة.

في تلك اللحظة، كانت مِسِز وولكوت تقول وقد انغرس حذاؤها وراء طاولتها، كما لو أنَّها كانت في حاجةٍ إلى حاجزٍ تُلقي الدرسَ من ورائه لتلاميذها التسعة والعشرين: «التاريخُ موضوعٌ مدهشٌ جدًّا. فكيف لنا أن نُشكِّل مستقبلنا إن لم نفهم ماضينا؟»

تَمْتَمت إمَّا روز بصوتٍ خفيض: «يا إلٰهي، لا أطيقها».

لم تعلِّق آدا على ذلك. لم تكن تدري ما إذا كانت هي المقصودة أم المعلِّمة. إنْ كانت هي المقصودة، فلا شيء عندها لتقوله دفاعًا عن نفسها. وإن كانت المعلِّمة، فلن تشارك في ذمِّها. كانت تحبّ مسز وولكوت التي من الواضح أنَّها على الرَّغم من طيبتها لم تكن تعرف كيف تحافظ على انضباط الصفّ. كانت آدا قد سمعتْ أنَّ المعلِّمة ترمَّلت قبل سنواتٍ قليلة. وقد تخيَّلت عدَّة مرَّاتٍ ما قد تفعله المعلِّمة هذه في أيَّامها. كيف تجرُّ جسدها المدوَّر كلّ صباحٍ من على السرير، وتهرع كي تستحمّ قبل أن ينفد الماء الساخن، ثم تنقِّب في خزانتها بحثًا عن ملبسٍ مناسبٍ يكاد لا يختلف عن ملبس الأمس، وبعدها تجهِّز فطورًا سريعًا لطفلَيْها التوأمَيْن قبل أن توصلهما إلى الحضانة بوجهٍ

محمرٍّ ونبرةٍ معتذِرة. كما تخيَّلتْ معلّمتَها تستمني في الليل، ترسمُ بيديْها دوائر من تحت منامتها القطنيَّة، وفي بعض الأحيان، تدعو رجالاً يخلّفون وراءهم آثار أقدامٍ مبلَّلةٍ على سجَّادها، ونَكَدًا في روحها.

لم تكن آدا تدري ما إذا كانت أفكارها تلك تطابق الواقع، لكنَّها هكذا كانت تظنّ. كانت هذه مهارةً لديها، ولعلَّها المهارة الوحيدة. كان بمقدورها أن ترصد حزن الناس، كالحيوان الذي يشمُّ رائحةَ حيوانٍ من فصيلته من بعيد.

قالت مسز وولكوت وهي تصفِّق بيديْها: «طيِّب يا أحبَّتي، ملاحظةٌ أخيرة قبل أن تذهبوا! في الفصل القادم، سندرُس موضوع الهِجرة وتغيُّر الأجيال. سيكون مشروعًا ممتعًا قبل أن ننشغل بالمراجعة لاختبار الشهادة الثانويَّة العامَّة. وأريد منكم أن تحضِّروا لهذا المشروع في العطلة بأن تُجروا مقابلةً مع قريبٍ لكم من كبار السنِّ. في الوضع الأمثل، سيكون واحدًا من أجدادكم، لكنَّه يمكن أن يكون أيّ شخصٍ آخر في العائلة. أريدكم أن تسألوهم عن طبيعة الحياة في شبابهم كي تكتبوا مقالاً من أربع صفحات إلى خمس.

تهادَتْ تنهيداتُ استياءٍ في الصفِّ.

قالت مسز وولكوت وهي تتجاهل تذمُّرهم: «احرصوا على أن تدعموا ما تكتبونه بالحقائق التاريخيَّة. أريد أن أرى بحثًا رصينًا مدعومًا بالدلائل، لا التخمينات».

مزيدٌ من التنهيدات والتأوُّهات.

«آه، صحيح. لا تنسوا أن تسألوا عن أيِّ موروثاتٍ إن وُجدت. خاتمٍ عتيق، أو فستان زفاف، أو طقم صحونٍ ثمين، أو لحافٍ مطرَّز، أو صندوق رسائل أو وصفات طبخٍ خاصَّة. باختصار، أيُّ تذكارٍ أورثه جيلٌ إلى الجيل الذي يليه».

أسقطتْ آدا نظرتَها إلى الأرض. فلم يسبق لها أن قابلت أحدًا من عائلتها، لا من جهة أبيها ولا من جهة أُمِّها. كانت تعرف أنَّهم يعيشون في قبرص في مكانٍ ما، ولا تعرف أكثر من ذلك. تُرى كيف كانوا؟ وكيف يقضون أيَّامهم؟ وهل يعرفونها لو صادفوها في الشارع أو السوبرماركت؟ لم

تسمع عن قريبٍ مقرَّبٍ لأسرتها إلاَّ خالةٍ تُدعى مريم كانت تُرسل بطاقاتٍ بريديَّةً مَرِحة عليها شواطئ مشمسة ومراعٍ مُزهرة تتناقضُ مع غيابها التامّ عن حياتهم.

ولئنْ كان أقرباؤها لغزًا لم يُحلّ، فإنَّ قبرص بأكملها كانت لغزًا أكبر. صحيحٌ أنَّها شاهدت صُورًا في الإنترنت، لكنَّها لم تسافر قطّ إلى تلك الجزيرة التي سُمِّيت باسمها.

فاسمُ «آدا» في لغةِ أُمِّها يعني «جزيرة»، لكنَّها في صغرها كانت تعتقد أنَّ المقصود بريطانيا، فهي الجزيرة الوحيدة التي كانت تعرفها، ثم عَرِفت لاحقًا أنَّ المقصود جزيرةٌ أخرى بعيدة، وقد سُمِّيت باسمها لأنَّ والدتها حملت بها هناك. لقد خلَّفَ هذا الاكتشاف في نفسها شيئًا من الحَيْرة، إنْ لم يكنْ نوعًا من الضيق. فأوَّلاً، كان ذلك يذكِّرها بأنَّ والدَيْها مارسا الجنس، وهو أمرٌ لم تكن تريد التفكير فيه. وثانيًا، لأنَّ هذا كان يربطها ربطًا محتومًا بمكانٍ لا يوجد إلاَّ في مخيِّلتها. ومنذ ذلك الحين، أضافت اسمها لمجموعة المفردات غير الإنجليزيَّة التي كانت تحملها معها، تلك المفردات التي على الرَّغم من غرابتها وجمالها إلاَّ أنَّها كانت تبدو بعيدةً غير مألوفة، إلى الحدِّ الذي يجعلها مَنيعةً، كحصًى رائعة تلتقطها من الشاطئ وتحملها معك إلى المنزل ثم لا تدري ماذا تفعل بها. كانت لديها مجموعةٌ منها الآن، وبعض التعابير، والأغاني، والألحان السعيدة. ولا شيء غير ذلك. لم يعلِّمها والداها لغتهما الأصليَّة، وفضَّلا أن يتحدَّثا إليها بالإنجليزيَّة وحدها. لم تكن آدا تتحدَّث يونانيَّة أبيها، ولا تركيَّةَ أُمِّها.

كانت آدا في كلِّ مرَّةٍ تسأل لماذا لا يسافرون إلى قبرص للقاء أهلهم، أو لماذا لا يأتي أهلهم إلى إنجلترا لزيارتهم، فيقدِّم والداها الأعذار من كلِّ شكلٍ ولون. الوقتُ غير ملائم، أو لدينا أعمالٌ كثيرة، أو مصاريف كثيرة... شيئًا فشيئًا بدأ الشكّ يسكنُ فيها: ربَّما لم يقبل الأهل بهذا الزواج. وإنْ كان الأمر هكذا، فهي أيضًا ليست مقبولةً تمامًا، بما هي ثمرةٌ لهذا الزواج. مع ذلك، فقد كانت دائمًا تعتقدُ (في أملٍ) أنَّ أيًّا من أقاربها لو قضى بعض الوقت معها ومع والدَيْها فسوف يسامحهما على أيِّ ذنبٍ لم يكن قد سامحهما عليه.

لكنَّ آدا كفَّتْ عن السؤال عن أقربائها منذ وفاة والدتها. لئنْ كانوا لا يحضرون جنازة قريبتهم، فلا رجاء في أن يحملوا شيئًا من المحبَّة لابنتها، تلك الفتاة التي لم يروها في حياتهم قطّ.

قالت مسز وولكوت: «تذكَّروا أنْ لا تطلقوا الأحكام على الجيل القديم حين تُجرون المقابلة. أنصِتوا لهم، وحاولوا أن تروا الأشياء بأعينهم. واحرصوا على تسجيل المقابلة». فقاطعها جيسن الجالس في الصفِّ الأوَّل: «إذنْ إذا أجرَيْنا مقابلةً مع مجرمٍ نازيّ، فهل نكون لطيفين معه؟»

تنهَّدت مسز وولكوت وقالت: «هذا مثالٌ متطرِّف. لا، لا أنتظر منك أن تكون لطيفًا مع شخصٍ كهذا»، فتبسَّم جيسن وكأنَّه أحرز نقطةً لصالحه.

قالت إمَّا روز فجأةً: «أستاذة! لدينا كَمانٌ قديمٌ في البيت، فهل يُعدّ من الموروثات؟»

«طبعًا، إذا كان مُلكًا لعائلتك منذ أجيال».

«بلى، نحتفظ به منذ زمنٍ طويل. تقول أُمِّي إنَّه مصنوعٌ في فيينَّا في القرن التاسع عشر. أو ربَّما الثامن عشر. المهمُّ أنَّه ثمين. لكنَّنا لن نبيعه».

رفعَ زفَار يَده، وقال: «عندنا صندوقُ عروسٍ يعود إلى أيَّام جدَّتي، فهي التي أحضرتْه معها من البنجاب. هل ينفع؟» شعرتْ آدا بقلبها يخفق، ولم تسمع حتى جواب المعلِّمة أو بقيَّة الحديث. هكذا تصلَّبت أطرافها تمامًا وهي تحاول أن تمنع نفسها من النظر إلى زفار، لئلاَّ تفضحها مشاعرها.

فقَبْل شهرٍ، اختيرَ الاثنان ليعملا معًا في مشروعٍ علميٍّ مشترك، يهدف إلى تركيب جهازٍ يقيس السعرات الحراريَّة في أطعمةٍ مختلفة. وبعد أيَّامٍ من محاولة تنسيق لقاءٍ يجمعهما دون جدوى، استسلمتْ آدا وأنجزتْ معظم البحث بنفسها، فبحثتْ عن المقالات البحثيَّة واشترتْ الأدوات وصنعت مقياس السعرات. وفي نهاية المطاف، حصل الاثنان على علامة «أ». حين رآها زفار، ارتسمتْ على طرف شفتيْه ابتسامةُ شكرٍ صغيرةٌ غريبة، قد تعني تأنيب الضمير، وقد تعني اللامبالاة أيضًا. ولم يتحدَّثا إلى بعضهما بعضًا بعد ذلك.

لم يسبق لآدا أن قبَّلت وَلَدًا. كان لجميع الفتيات في صفِّها شيءٌ يتحدَّثن عنه حين يتجمَّعن في غرف التبديل بعد حصَّة الرياضة (سواء أكان حقيقيًّا أم مُتخيَّلاً). أمَّا صمتُها المطْبِق فلم يمرّ مرور الكرام، إذْ لاحظتْه الفتيات الأخريات وانهلنَ عليها بالمزاحِ والسخرية. ذات مرَّةٍ، وجدتْ آدا مجلَّةً إباحيَّةً في حقيبتها المدرسيَّة وضعها أحدٌ ما لإثارة فزَعها بالتأكيد. كانت تعاني طوال النهار خشية أن ترى إحدى المعلِّمات المجلَّة فتُخبر أباها. لم تكن فَزِعةً من أبيها كما هو الحال مع أقرانها. لم يكن

خوفًا ذاك الذي تشعر به، ولا حتى شعورًا بالذنب (بعد أن قرَّرت الاحتفاظ بالمجلَّة). في الحقيقة، لم يكن ذلك ما منعها من إخباره بتلك الحادثة (أو غيرها). لقد توقَّفت آدا عن إخبار والدها بما يحدث في حياتها منذ أنْ شعرت في مكانٍ ما في نفسِها بأنَّها لا بدَّ من أنْ تحميه من أيِّ آلامٍ أخرى.

لو كانت أُمُّها حيَّةً، لربَّما أرتْها المجلَّة. لعلَّهما كانتا ستنظران فيها وتقهقهان! تتحدَّث كلّ واحدةٍ منهما وهي تحتضن كوبًا من الشوكولاتة الساخنة، وتستنشقُ البخار الصاعد إلى وجهها. كانت أُمُّها تتفهَّم الأفكار الجامحة، الأفكار الشقيَّة، تتفهَّم ذلك الجانب المظلم من القمر. قالت ذات مرَّةٍ شبه هازلة إنَّها كانت لفرط تمرُّدها لا تصلح أن تكون أُمًّا جيِّدة، ولفرطِ أمومتها لا تصلح أن تكون متمرِّدةً جيِّدة. الآن فقط، بعد أن رحلت، أقرَّتْ آدا بأنَّها على الرَّغم من كلِّ شيءٍ كانت خير أُمٍّ، وخير متمرِّدة. لقد مضى أحد عشر شهرًا وثمانية أيَّامٍ بالضبط على وفاتها. وستكون أعياد الميلاد هذه أوَّل أعيادٍ تقضيها من دونها. فجأةً، سألتْ مسز وولكوت: «وما رأيك أنتِ يا آدا؟»

فلمَّا كانت آدا قد عادت إلى رسْمَتها، استغرق منها الأمرُ لحظةً أخرى كي تنقل نظرتَها من الفراشة وتُدرك أنَّ المعلِّمة كانت تنظر إليها. تورَّد وجهُها كلُّه إلى مفرق رأسِها، وتصلَّبَ ظهرُها كما لو أنَّ جسدَها أحسَّ بخطرٍ وشيكٍ لم تُدركْه بعد. وحين عاد إليها صوتُها، كان مرتعدًا جدًّا، فلم تدرِ ما إذا قالت شيئًا أم لا.

«عفوًا؟»

«كنتُ أسألكِ إنْ كنتِ تتَّفقين مع رأي جيسن».

«آسفة، أستاذة... أتَّفق مع ماذا؟»

عَلَت ضحكةٌ مكتومة.

قالت مسز وولكوت بابتسامةٍ مُتعَبة: «كنَّا نتحدَّث عن موروثات العائلة. وذكَر زفار صندوق جدَّته. ثم تساءل جيسن لماذا النساء هنَّ اللائي يتعلَّقن بهذه التذكارات والمقتنيات القديمة التي لا قيمة لها. فأردتُ أن أعرف ما إذا كنتِ تتَّفقين مع رأيه أم لا».

ازدردَتْ آدا لعابها الجافّ، وأخذَ العِرْق في جبينها ينبض. ثمَّة صمتٌ سميكٌ، لَزِجٌ، دبَّ في المسافة من حولِها. تخيَّلَتْه ينتشرُ مثل حبرٍ أسود على مفارشَ بِيض مطرَّزة، كتلكَ التي وجدتْها ذات

مرَّةٍ في دُرجِ تسريحةِ والدتها. كان مُتلَفًا، مقطَّعًا إلى قِطَعٍ صغيرةٍ بحِرْصٍ مهووس، موضوعةٍ بين طبقاتٍ من المحارم الورقيَّة، وكأنَّ أُمّها لم تقوَ على الاحتفاظ بها كما هي، ولا على التخلُّص منها.

قالت مسز وولكوت بصوتٍ رقيقٍ لكنَّه لا يخلو من إلحاح: «ألديكِ رأي في الموضوع؟»

وقفتْ آدا، ببطءٍ ودون تفكير، تكشطُ الكرسيّ بصوتٍ عالٍ فوق الأرضيَّة الحجريَّة. تَنَحْنحتْ، على الرَّغم من أنَّها لم تكن تدري ماذا ستقول. لقد تبخَّر كلُّ شيءٍ من عقلها. على الصفحةِ المفتوحة أمامها، انطلقت الفراشةُ وقد أحسَّت بالخطر، تستميتُ لكي تهرب، على الرَّغم من أنَّ جناحَيْها غير المكتملَيْن يكادان لا يقويان على حملها.

«لا... لا أظنّ أنَّ الأمر متعلِّقٌ بالنساء وحدهنَّ. أبي يفعل ذلك أيضًا».

فسألتْها مسز وولكوت: «صحيح؟ كيف؟»

حدَّق زملاؤها كلُّهم فيها، منتظرين أن تقول شيئًا معقولاً. بعضهم كان يحمل شيئًا من شَفَقةٍ في عينَيْه، فيما الأمرُ عند البعض الآخر محضُ لامبالاة، وهذا ما يطيب لآدا. شعرتْ بأنَّهم يرفعون مرساتها من البحر، فيزداد الضغطُ على أذنَيْها كأنَّما تغرق.

قالت مسز وولكوت: «هلاَّ أعطيتنا مِثالاً؟ أيُّ شيءٍ يَجمعُ والدُك؟»

قالت آدا وهي تُطيل الحروف: «آه، والدي...» ثم توقَّفت. ما الذي قد تقوله عنه؟ أتقولُ إنَّه ينسى الأكل بل حتى الكلام أحيانًا، فتنقضي أيَّامٌ دون أن يأكل طعامًا حقيقيًّا أو ينطق جملةً كاملة؟ أم تقول إنَّه لو كان باستطاعته لقضى بقيَّة حياته في الحديقة الخلفيَّة، أو في غابةٍ يدفن يدَيْه في تربتها، مُحاطًا بالبكتيريا والفطريَّات والنباتات التي تنمو وتفسد بين دقيقةٍ وأخرى؟ ما الذي تُخبرهم به عن أبيها فيفهمون طبيعته، في حين أنَّها هي نفسها أصبحت تكاد لا تعرفه؟

لكنَّها اكتفت بكلمةٍ واحدة: «النباتات».

«نباتات...». كرَّرَتها مسز وولكوت وقد انقلبَ وجهُها حَيْرةً.

فأردفتْ آدا بسرعة: «أبي مُولَع بها»، ثم نَدِمت على المفردة التي استخدَمتْها.

قال جيسن بنبرةٍ رومنسيَّة: «أوه، ما ألطفه.. قلبُه مولعٌ بالزهور!»

فانتشرت الضحكاتُ في الصفِ، لكنَّها هذه المرَّة لم تعد مكتومة. لاحظتْ آدا أنَّ صديقها إذْ كان يتجنَّب النظر إليها، يتظاهر بأنَّه يقرأ شيئًا في كتابه، فأرخى كتفَيْه وأنزل رأسه. بعد ذلك، بحثتْ بعينَيْها عن زفار، فوجدتْ أنَّ عينَيْه السوداوَيْن البارقتَيْن اللتيْن نادرًا ما تنظران إليها كانتا تتفرَّسان فيها بفضولٍ يقارب القلق.

قالت مسز وولكوت: «جميل. ولكنْ هل هناك شيءٌ محدَّدٌ يهتمّ به؟ شيءٌ له قيمةٌ عاطفيَّة عنده».

في تلك اللحظة، لم تكن آدا تتمنَّى أكثر من أن تجد الكلمات الصحيحة. لماذا توارت عنها؟ انقبض بطنُها بطعنةِ ألمٍ حادَّة حتى إنَّها لبضع ثوانٍ شعرتْ بأنَّها لا تستطيع التنفُّس، فضلاً عن الكلام. لكنَّها تكلَّمت، وحين تكلَّمتْ سمعتْ نفسها تقول: «يقضي وقتًا طويلاً مع أشجاره».

هزَّت مسز وولكوت رأسها، وابتسامتها تنحسرُ عن شفتيْها.

«لا سيّما شجرة تين. أظنُّها المفضَّلة عنده».

«طيِّب يا آدا. يمكنكِ الجلوس الآن».

لكنَّ آدا لم تجلس. فالألم الذي اخترق ضلوعها كان يبحث عن مخرج. تصلَّب صدرُها، كأنَّما تعصره يدان خفيَّتان. شَعَرتْ بدُوار، فكان الصفُّ يتأرجح تحت قدمَيْها.

همَس أحدُ التلاميذ همسةً تكفي لكي تسمعها: «يا إلٰهي كم هي مُحرِجَة».

أغمضتْ آدا عينَيْها بقوَّة، إذْ شعرتْ بأثرِ الجملة، كعلامةِ حَرقٍ على جسدها. ولكنْ لم يكن هناك شيءٌ يقولونه أو يفعلونه أسوأ من كرهها لنفسها في تلك اللحظة. ما بالها؟ لم لا تستطيع أن تُجيب على سؤالٍ بسيطٍ مثل البقيَّة؟

كانت آدا في طفولتها تحبّ الدوران على السجَّاد التركيّ كي تدوخ ثم تسقط على الأرض، فتشاهد العالم من مكانها يلفّ ويلفّ. ما تزال تذكر الخيوط المنسوجة باليد على السجَّاد وهي تذوب في ألف ومضةٍ وومضة، فتختلطُ الألوان بعضها ببعض، القرمزيّ بالأخضر، والزعفرانيّ

بالأبيض. أمَّا الذي كان يحدث لها الآن فهو دُوارٌ من نوعٍ آخر. كانت تشعر بأنَّها تدخل مصيدةً، فينغلقُ الباب خلفها بالمزلاج. شعرتْ آدا بالشلل.

كثيرًا ما ساورتها الظنونُ بأنَّها تحمل في داخلها حُزنًا ليس حزنَها. في حصَّةِ العلوم، تعلَّمُوا أنَّ الإنسان يرث كروموسومًا واحدًا من أُمِّه وآخر من أبيه (خيطَيْن طويلَيْن من الحمض النوويّ بهما آلاف الجينات التي تصنع مليارات النيورونات وتريليونات الروابط بينها). وتلك المعلومات الجينيَّة كلُّها تنتقل من الأبوَيْن إلى ذرِّيَّتهما (البقاءُ، والنموّ، والتكاثر، ولون الشعر، وشكل الأنف، والبثور، والحساسيَّة من أشعَّة الشمس). كلُّ شيءٍ مكتوبٌ هناك. لكنَّ هذا كلّه لا يُجيب عن السؤال الذي يُشقيها: هل من الممكن أن يرث الإنسان شيئًا غير محسوسٍ وغير قابلٍ للقياس، كالحزن؟

قالت مسز وولكوت مرَّةً أخرى: «يمكنكِ الجلوس».

لكنَّها لم تتحرَّك.

«آدا.. ألم تسمعيني؟»

ظلَّت آدا واقفة، تحاول أن تلفظَ الخوف الذي امتلأ به حلقُها وسدَّ منخرَيْها. ذكّرَها هذا بمذاق البحر تحت شمسٍ حارقةٍ قاسية. ذاقتْه بطرف لسانها. لم يكن ملحَ البحر، بل دمًا دافئًا؛ فقد كانت تعضّ على باطن خدِّها.

انزلقتْ عيناها نحو النافذة، حيث كانت العاصفة تقترب من بعيد. لاحظتْ في السماء الرماديَّة بين أكوام السحب قطعةً قرمزيَّةً تنزف في الأفق، مثل جرحٍ قديمٍ لم يلتئم.

جاء صوتُ المعلِّمة: «اجلسي من فضلك».

لكنَّ آدا لم تجلس.

لاحقًا، بعد مدَّةٍ، حين انتهى الأمرُ وكانت آدا تجلس وحيدةً في سريرها في الليل يجافيها النومُ وهي تسمع خطوات أبيها الذي كان عاجزًا عن النوم هو الآخر، استعادتْ تلك اللحظة، تلك الثغرة في الزمن، حين كان بإمكانها أن تفعل ما طُلب منها وأن تجلس، فتبقى مخفيَّةً عن الجميع في

الصفِّ، لا يلاحظها أحد، ولا يزعجها أحد. كان بإمكانها أن تُبقي الوضع على حاله كما كان، لو أنَّها استطاعت أن تمنع نفسها ممَّا فعلتْه بعد ذلك.

التينة

كانت السُحُب العاصفةُ في عصر هذا اليوم تُرخي سدولها فوق لندن، والعالمُ يصطبغُ بلونٍ من شَجَن، حين كان كوستاس كازنتزاكِس يدفنني في الحديقة، الخلفيَّة أعني. بطبيعةِ الحال، أحببتُ هذا المكان، بين الكاميليا الوارفة، وزهر العسل ذي الرائحة الحُلوة، وشجيرات بندق الساحرة بأزهارها العنكبوتيَّة. لكنَّه لم يكن يومًا عاديًا بأيِّ حال. حاولتُ أن أبتهجَ وأنظرَ إلى الجانب المشرق من الأمر، لكنَّني لم أفلح. كنتُ متوتِّرةً، متوجِّسة. فأنا لم أُدفَن من قبل.

كان كوستاس يكدح في الخارج منذ ساعات الصباح الأولى، وقد تفصَّد فوق حاجبَيْه بريقٌ كان يلتمعُ في كلِّ مرَّةٍ يدفع فيها حدَّ المجرفة في التربة اليابسة. من خلفِه أطيافُ التعريشات الخشبيَّة التي تغطِّيها في الصيف أزهارٌ متسلِّقةٌ ونباتاتٌ مُعترشة، لكنَّها الآن لم تكن أكثر من حاجزٍ شفَّافٍ يفصل حديقتنا عن شرفة الجيران. تتراكمُ عند حذائه الجلديّ كومةٌ من ترابٍ بمحاذاة أثرٍ فضِّيٍّ شقَّه حلزون، كومةٌ مبتلَّةٌ تكاد تنهار من أدنى لمسة. كانت سُحُب أنفاسه تتشكَّل أمام وجهه، وكتفاه مفتولان داخل معطف الفرو الأزرق (ذلك الذي اشتراه من محلِّ موضاتٍ قديمةٍ في شارع بورتوبيلو)، أمَّا مفاصلُ أصابعه فكانت حمراء متقشِّرة، تنزفُ قليلاً، ويبدو أنَّه لم يتفطَّن إليها.

كنتُ أشعر بالبرد، والخوف أيضًا على الرَّغم من أنِّي لم أرغب في الاعتراف لنفسي بذلك. لكم تمنَّيتُ أن أصارحه بهواجسي. لكنَّني حتى لو تمكَّنت من الكلام ما كان ليسمعني لفرط انشغاله. كان مستغرقًا في أفكاره، يحفرُ ويحفرُ دون حتى أن يصوِّب نظرةً باتِّجاهي. فلمَّا انتهى، كان من المفترض أن يضع المجرفة جانبًا، وينظر إليَّ بعينَيْه الخضراوَيْن اللتَين طالما قرأتُ فيهما أوجاعه وأفراحه، ثم يدسَّني في جوف الأرض.

لم تبقَ سوى أيَّامٍ معدودةٍ على أعياد الميلاد، والحيُّ كلُّه قد تلألأ بزخارف معدنيَّةٍ وأضواءٍ عجائبيَّة. تنتظرُ هنا فترى الألعاب المنفوخة على شكل الأيائل وبابا نويل، بابتساماتٍ بلاستيكيَّة،

وتنظر هناك فترى الأكاليل البرَّاقة تتدلَّى من سقائف المحالِّ، فيما تلتمع النجومُ في نوافذ البيوت، تعطيك فرصةً لاستراق النظر إلى حيوات الناس، تلك الحيوات التي بدت لسببٍ أو لآخر أقلّ تعقيدًا، وأكثر إثارةً وسعادة.

في داخل السور، شرع عصفورُ الحنجرة البيضاء يغرِّد ألحانًا رشيقةً، وخَّازة. تُرى ما الذي يفعله هذا الغرِّيدُ من شمال إفريقيا في حديقتنا في هذا الوقت من السنة؟ ما منعهُ أن يرحل إلى أماكن أدفأ مع بقيَّة الطيور التي لا بدَّ أن تكون في طريقها الآن إلى الجنوب؟ تلك التي إنْ غيَّرتْ شيئًا يسيرًا في مسارها فربَّما تتَّجه صوب قبرص، وتزور موطني.

كنتُ أعرف أنَّ هذه الطيور الجاثمة تتِيه أحيانًا. يندرُ أن يحدث ذلك، لكنَّه يحدث. بل إنَّها في بعض الأحيان، لا تعود قادرةً على أن تواصل رحلتها، عامًا وراء عام، لا تستطيع أن تشقَّ تلك المسافات نفسها (وهي لا تبقى أبدًا على حالها)، أميالاً من الفراغ تمتدُّ في كلِّ اتِّجاه. لذلك كانت تبقى في مكانها، حتى وإن ترتَّب على بقائها الجوعُ والبردُ، بل الموتُ في كثيرٍ من الأحيان.

كان شتاءً طويلاً، بعكس الجوِّ المعتدل في العام الفائت بسماواته المكفهرَّة، وأمطاره المتناثرة، ومخلَّفاته الطينيَّة. كان شلاَّلاً من الظُلمة والكآبة. غير أنَّ المناخ في هذا العام كان جانحًا، فكنَّا نسمع في الليل عواء الريح، يوقظِ في دواخلنا أشياء لم نكن مستعدِّين لأنْ نواجهها، فضلاً عن أن نستوعبها. كنَّا في صباحاتٍ كثيرةٍ نجد الطرقات قد التمعت بالثلج، وأوراقَ العشب وقد تيبَّست مثل كِسَر الزمرُّد. كان هناك آلافٌ من المشرَّدين يفترشون الشوارع في لندن، ولا يوجد ما يكفي لإيواء رُبع أعدادهم.

كان من المقدور لهذه الليلة أن تكون أبرد ليلةٍ في هذا العام. الهواء كما لو أنَّه مؤلَّفٌ من شظايا الزجاج، يطعنُ كلَّ شيءٍ في طريقه. من أجل هذا كان كوستاس في عجلةٍ من أمره، يريدُ أن ينتهي ممَّا يفعله قبل أن تستحيل الأرضُ حَجَرًا.

العاصفةُ «هيرا». هذا ما أطلقوه على الإعصار المرتقب. هذه المرَّة، لم يسمُّوه جورج أو أولِفْيا أو تشارلي أو ماتِلدا، وإنَّما اختاروا له اسمًا من الأساطير القديمة. قالوا إنَّه سيكون أسوأ إعصارٍ مرَّ منذ قرون، أسوأ حتى من «العاصفة الكبيرة» التي هبَّت عام 1703 م، فدكَّت من شدَّتها بلاطات الأسقف، ولم تُبقِ باروكةً على رأس رجل، أو مِشدًّا على خصر امرأة، أو أسمالاً على ظهر

شحَّاذ. لقد حطَّمت تلك العاصفة بيوتَ الطِّين العشوائيَّة والقصور المدعَّمة بالعوارض الخشبيَّة على حدٍّ سواء، وهشَّمت القوارب الشراعيَّة كما لو أنَّها قوارب من ورق، وفجَّرتْ مياه الصرف الصحِّيّ من نهر التايمز لتُلقي بها على ضفاف النهر.

لعلَّها قصصٌ تُحكى، لكنِّي كنتُ أُصدِّقها، مثلما أُصدِّق الأساطير، والحقائق الكامنة التي تحاول أن توصلها.

قلتُ في نفسي لو سار كلُّ شيءٍ على خطَّتِه، فلن أبقى دفينةً إلاَّ ثلاثة أشهرٍ أو أقلّ. سوف أُخرَج من الأرض ما إنْ يُزهر النرجسُ على الطرقات وتلتحفُ الغابات بعشب الجريس، وتعود الطبيعةُ حيَّةً تنبض. سأخرجُ من الأرض منتصبة القامة، مستيقظةً تمامًا. ولكنْ، مهما حاولتُ جاهدةً، لم أستطع أن أتمسَّك بكسرة الأمل تلك، فيما الشتاء الشديدُ يبدو كأنَّه هاجعٌ لن يبرح مكانه. لم أكنْ في حياتي أُجيد التفاؤل على أيِّ حال. لا بدَّ من أنَّ هذا الأمر يسري في جيناتي؛ فقد تحدَّرتُ من نسلٍ طويلٍ من المتشائمين. ولذلك رحتُ أفعل ما كنتُ دائمًا أفعله؛ إذْ بدأتُ أتخيَّل كلَّ خطأٍ مُمكن. ماذا لو لم يأتِ الربيعُ هذا العام فأبقى تحت الأرض.. إلى الأبد؟ ماذا لو حلَّ الربيعُ أخيرًا، غير أنَّ كوستاس كازنتزاكِس نسي أن يُخرجني من الأرض؟

*

هبَّت الريحُ، تضربني مثل سكِّينٍ مسنونة.

لا بدَّ من أنَّ كوستاس لاحظ هذا، فقد توقَّف عن الحفر. «مسكينة! إنَّكِ تتجمَّدين».

كان يرعاني دائمًا. فكلَّما اشتدَّ البردُ اتَّخذ التدابير كي يُبقيني على قيد الحياة. أذكرُ أنَّه ذات عصرٍ قارسٍ في كانون الثاني/يناير وضعَ مصدَّاتٍ للرياح من حولي، ولفَّني بطبقةٍ تلو طبقةٍ من الخيش، كي يقلِّل من فقدان الرطوبة. وذات مرَّةٍ، غطَّاني بمهادٍ للتربة.

وضع مصابيح حراريَّةً في الحديقة للتدفئة آناء الليل، لا سيَّما قُبيل شقشقة النهار، فتلك أحلك ساعةٍ في النهار وأكثرها برودة. تلك هي الساعة التي ندخل فيها في نومٍ لا نصحو منه أبدًا؛ أعني المتشرِّدين في الشوارع، ونحن...

... أشجار التِّين.

فأنا من جِنس فِيكَس كاريكا، المعروف بالتِّين الشائع المأكول، لكنِّي أؤكِّد لكم أنَّ وصف «شائع» لا ينطبق على أيِّ شيءٍ فيَّ. فأنا أنتمي بفخرٍ إلى فصيلة التوتيَّات في المملكة النباتيَّة، وتعود أصولنا إلى آسيا الصغرى، على الرَّغم من أنَّنا ننتشر في مساحةٍ جغرافيَّةٍ شاسعة، من كاليفورنيا إلى البرتغال حتى لبنان، ومن سواحل البحر الأسود إلى تلال أفغانستان وأودية الهند.

يُعدُّ دفنُ أشجار التين في الخنادق أثناء الشتاءات القاسية ثم إخراجها في الربيع تقليدًا غريبًا، لكنَّه قديمٌ راسخ. الإيطاليُّون الذين استقرُّوا في بلدات ما تحت الصفر في أميركا وكندا يعرفون ذلك حقَّ المعرفة. وكذلك الإسبان والبرتغاليُّون والمالطيُّون واليونانيُّون واللبنانيُّون والمصريُّون والتوانسة والمغاربة والجزائريُّون والفلسطينيُّون والإسرائيليُّون والإيرانيُّون والكُرد والتُّرك والأردنيُّون والسوريُّون واليهود الشرقيُّون... ونحن القبارصة.

لعلَّ كثيرًا من شباب اليوم لا يعرفون هذه الممارسة، لكنَّها مألوفةٌ عند الكبار. أولئك الذين هاجروا بادئ الأمر من المناخات الأكثر اعتدالاً في البحر الأبيض المتوسِّط إلى المدن والحواضر العاصفة في الغرب. أولئك الذين ما يزالون (بعد كلِّ هذه السنوات) يخترعون شتَّى الطرق لتهريب ما يفضِّلونه من جبنةٍ مُنتنة، وباسترامي مدخَّن، وأمعاء خرافٍ محشوَّة، وفطائر المنتو المجمَّدة، والطحينة المنزليَّة، وشراب الخرُّوب، والـ «كاريداكي غليكو»، وحساء بطن البقر، وسجق الطحال، وعيون التونة، ومخاصي الكبش... على الرَّغم من أنَّهم لو بحثوا في أوطانهم الجديدة لوجدوا بعض هذه الملذَّات على الأقلِّ في قسم «الأغذية العالميَّة» في السوبرماركت. لكنَّهم على الأرجح سيقولون إنَّ المذاق ليس نفسه.

الرعيل الأوَّل من المهاجرين نوعٌ من الكائنات قائمٌ بذاته. يُكثر هؤلاء من ارتداء لون البيج والرماديِّ والبنِّيِّ؛ أي تلك الألوان التي لا تلفت الانتباه. الألوان التي تهمس ولا تصرخ أبدًا. كما أنَّهم يميلون إلى الرسميَّة في تصرُّفاتهم المتصنِّعة، رجاةَ أن يُعامَلوا بكرامة. تجد الواحد منهم يتحرَّك على نحوٍ أخرق، فلا يكون على طبيعته أبدًا. يشعر هؤلاء بالامتنان أبدًا للفرص التي منحتْهم الحياةُ إيَّاها، لكنَّهم موصومون أيضًا بما انتزعتْه منهم، فهم دائمًا خارج المكان، مفصولون عن الآخرين بتجربةٍ مسكوتٍ عنها، كالناجِين من حادث سيَّارة.

يتحدَّث المهاجرون الأوائل إلى أشجارهم طوال الوقت، أقصد حين لا يكون ثمَّة أحدٌ في الجوار. يأتمنوننا على أسرارهم، يصفون لنا أحلامهم وتطلُّعاتهم، بما فيها تلك التي تركوها وراءهم،

مثل خُصل صوفٍ عالقةٍ في سلكٍ شائكٍ أثناء عبور السياج. الأمرُ وما فيه أنَّهم يسعدون برفقتنا، يتحدَّثون إلينا كأنَّما يتحدَّثون إلى صديقٍ قديمٍ يشتاقون إليه. ما أحنَّ قلوبهم على نباتاتهم، لا سيَّما تلك التي أحضروها معهم من أوطانهم المفقودة! إنَّهم يعرفون في داخلهم أنَّ المرء إذا أنقذ شجرة تينٍ من عاصفةٍ، فإنَّه ينقذ ذاكرةَ شخصٍ ما.

الفَصْل

قالت مسز وولكوت مرَّةً أخرى وقد ازداد صوتها توتُّرًا: «آدا، اجلسي من فضلك».

لكنَّ آدا لم تتحرَّك قيد أنملة. ليس لأنَّها لم تسمع المعلِّمة؛ فقد استوعبت تمامًا ما طُلب منها، ولم تفكِّر لحظةً في رفضه، لكنَّها في تلك اللحظة، لم تستطع أن تقنع جسدها بالانصياع لعقلها. ثم لمحتْ من طرف عينها بقعةً تحوم في المكان.. كانت الفراشةُ التي رسمتْها في دفترها ترفرف في الفصل. راقبتْها في قلقٍ خشية أن يراها أحدٌ آخر، على الرَّغم من أنَّ شيئًا صغيرًا في داخلها كان يُدرك أنَّهم لن يروها.

سارت الفراشةُ في دربٍ متعرِّج، ثم استقرَّت على كتف المعلِّمة، ونطَّت بعد ذلك على واحدٍ من قرطَيْها الفضِّيَّيْن المتدلِّيَيْن في شكل ثريّا. ثم انطلقت بالسرعة نفسها، ومضتْ نحو جيسن، فحطَّت على كتفَيْه الرفيعَيْن، تتلوَّى تحت قميصه. عندها تخيَّلتْ آدا الكدمات تحت قميص جيسن، أغلبها قديمةٌ باهتة، عدا واحدةً كبيرة ما تزال طريَّة، بلونٍ برَّاقٍ.. أرجوانيٍّ فاقع. فهذا الولدُ الذي لا يفتأ يُلقي بالنكات ويشعُّ ثقةً في المدرسة، كان أبوه يضربه في البيت. شهقتْ آدا. ثمَّة ألم. كثيرٌ من الألم في كلِّ مكان، وفي كلِّ أحد. لا فرق إلاَّ في ما بين أولئك الذين يستطيعون إخفاءه، والذين لم يعودوا قادرين على ذلك.

قالت مسز وولكوت بصوتٍ أعلى: «آدا؟»

فعلَّق أحد التلاميذ: «لعلَّها صمَّاء! أو متخلِّفة!»

فسارعت مسز وولكت تقول: «نحنُ لا نستخدم هذه الألفاظ في الفصل»، لكنَّ ذلك لم يُقنع أحدًا. تركَّزتْ نظرتُها على آدا، ووجهها العريضُ ينبض بالحَيرة تارةً والقلق تارةً أخرى. «هل أنتِ على ما يرام؟»

غير أنَّ آدا لم تقل كلمة، وعيناها ما تزالان على البقعة.

«يمكننا أن نتحدَّث بعد الحصَّة إن كان لديكِ ما تريدين قوله. ما رأيك؟»

لكنَّ آدا لم تستجب. كانت أطرافها تتصرَّف من تلقاء رغبتها. تذكَّرتْ والدها حين أخبرها عن بعض الطيور (مثل القرقف الكبير أسود الرأس) التي تدخل فتراتٍ قصيرة من الخَدَر كي تحتفظ بطاقتها في الأجواء القارسة. هذا بالضبط ما كانت تشعر به، إذْ تداعتْ إلى شكلٍ من الجمود الذي يمكِّنها من تهيئة نفسها لما سيأتي.

اجلسي يا حمقاء. لا تحرجي نفسك أكثر!

أتُراه تلميذًا آخر همس بها، أم أنَّه صوتٌ ناقمٌ من داخلها؟ لا تستطيع أن تجزم أبدًا. كانت شفتاها مزمومتَيْن في خطٍّ ضيّق، وفكَّاها مغلقَيْن بإحكام، فقبضتْ على طرف طاولتها في استماتةٍ للتمسُّك بشيءٍ ما، خشية أن تفقد توازنها وتسقط. كان توتُّرها يزبد ويدور في رئتَيْها مع كلِّ شهيق، فينزُّ في كلِّ أعصابها وخلاياها، وما إنْ فتحتْ فمها مرَّةً أخرى حتى انسكب وتدفَّق، مثل ينبوعٍ جوفيٍّ يتوق إلى الفكاك من أسره. تفجَّر من داخلها صوتٌ مألوفٌ وغريبٌ عن صوتها في الوقت نفسه. كان صوتًا عاليًا، أجشَّ، فجًّا وخاطئًا.

صَرَختْ.

كان صوتُها مفاجئًا، قويًّا، حادًّا على نحوٍ لا يقبل الوصف، حتى أطبق الصمتُ على التلاميذ الآخرين. ظلَّتْ مسز وولكوت ساكنةً، تضغط بيدَيْها على صدرها، فيما تتعمَّقُ التجاعيد تحت عينَيْها. لم يسبق لها أن رأتْ شيئًا كهذا في مشوارها التدريسيّ كلِّه.

انقضتْ أربع ثوانٍ، ثمان، عشر، اثنتا عشرة ثانية... كانت عقارب الساعة على الجدار تسير ببطءٍ موجِع. تلوَّى الوقتُ وانحنى على نفسه، كخشبٍ جافٍّ متفحِّم.

ها هي مسز وولكوت تقف إلى جانبها تحاول أنْ تُكلِّمها. أحسَّتْ آدا بأصابع معلِّمتها فوق ذراعها، وأدركتْ أنَّها تقول شيئًا، لكنَّها لم تستطع أن تتبيَّن الكلمات وهي مستمرَّةٌ في الصراخ. وانقضت خمس عشرة ثانية، ثماني عشرة، عشرون، ثلاث وعشرون...

كان صوتُها البساطَ السحريَّ الذي حملها عاليًا، دون إرادةٍ منها. أحسَّتْ أنَّها تطفو، ترى كلَّ شيءٍ من مصباحٍ معلَّقٍ في السقف. غير أنَّها لم تشعر بأنَّها في مكانٍ عالٍ بقدر ما كان مكانًا خارجيًّا، إذْ كان شيئًا أشبه بالخروج من ذاتها، خارج تلك اللحظة، وذلك العالم.

خطرتْ في بالها خُطبةٌ سمعتْها ذات مرَّة، ربَّما في كنيسةٍ أو مسجد، فقد كانت تزور هذَيْن المكانَيْن في فتراتٍ مختلفةٍ من طفولتها، وإنْ لم يطُل ذلك. حين تغادرُ الروحُ الجسدَ، تصعدُ إلى عنان السماء، وفي طريقها إلى هناك تتوقَّف كي تنظر إلى كلِّ الأكاذيب التي في الأسفل، دون أن تتأثَّر بها، أو تتألَّم منها. أتراه كان الأسقف ڤاسيليوس أم الإمام محمود؟ عبرتْ في رأسها الأيقونات الفضِّيَّة، والشموع المصنوعة من شمع النحل، ولوحات القدِّيسين والحواريِّين، ولوحة الملَكِ جبريل إذْ يطوي جناحًا ويفتح الآخر، ونسخةٌ قديمةٌ من إنجيل الأرثوذوكس، تكرمشت صفحاتُها وتهالك كعبُها... وسجاجيدُ حريريَّة، ومسابيحُ من الكهرمان، وكتبُ الحديث الشريف، ونسخةٌ مهترئةٌ من تفسير الأحلام يُرجَع إليها بعد كلِّ حلمٍ وكلّ كابوس... كان كِلا الرجلَيْن يحاول إقناع آدا باختيار دينِه، والوقوف إلى صفِّه. لكنَّها في نهاية المطاف (كما أصبح يبدو لها) اختارت الفراغ. اختارت اللاشيء. ما تزال الصَدَفةُ الفارغةُ تطوِّقها، وتُبقيها في معزلٍ عن الآخرين. غير أنَّها لمَّا استمرَّت في الصراخ في تلك الساعة الأخيرة من اليوم الأخير في المدرسة، شعرتْ بشيءٍ يكاد يكون مُفارقًا متعاليًا، كما لو أنَّها لم تكنْ في يومٍ من الأيَّام محصورةً في حدود جسدها.

مرَّتْ ثلاثون ثانية. أبديَّة.

بُحَّ صوتُها، لكنَّه استمرَّ. ثمَّة شعورٌ مُخجلٌ إلى أبعد الحدود في سماع المرءِ نفسَه وهو يصرخ، لكنَّه شعورٌ مُهيِّجٌ للعواطف في الوقت نفسه. أن تفترق، وتنفصل، دون عائقٍ أو قيود، ودون أن تعرف إلى أيِّ مدى سوف تأخذك تلك القوَّة الجامحة التي خرجت من داخلك. كان شيئًا حيوانيًّا. شيئًا من عالم البرِّيَّة. في تلك اللحظة، لم يكن شيءٌ فيها ينتمي إلى ذاتها السابقة، لا سيَّما صوتها. لعلَّها كانت صيحة الصقر العالية، أو عواء الذئب الذي يطارد الأرواح، أو صيحة الثعلب التي تدوِّي في منتصف الليل. كان يمكن لذلك الصوت أن يكون أيَّ شيءٍ من تلك، إلاَّ أن يكون صيحة تلميذةٍ في سنِّ السادسة عشرة.

حدَّق التلاميذ الآخرون في آدا وقد اتَّسعت أحداقهم في دهشةٍ وغير تصديق، إذْ أخرَسَهم ضربُ الجنون الذي رأوه أمامهم. بعضهم أمال رأسه جانبًا، كما لو أنَّه يحاول أن يفهم كيف لمثل

هذه الفتاة الخجولة أن تُصدر صيحةً مزعزعةً كهذه. استشعرتْ آدا خوفهم، وبدا لها شعورًا جميلاً للمرَّة الأولى أن لا تكون الشخصَ الذي يخاف. هكذا تجمَّعوا كلّهم في طرف بصرها الزائغ، تشابهتْ وجوهُهم وإيماءاتهم الذاهلة، مثل سلسلةٍ ورقيَّةٍ من أجسادٍ متطابقة. أمَّا هي فلم تكن جزءًا من تلك السلسلة. لم تكن جزءًا من أيِّ شيء. كانت مكتملةً بذاتها في وحدتها المستمرَّة. غير أنَّها لم تشعر قطّ بأنَّها مكشوفةٌ هكذا، وشديدة البأس في الوقت نفسه.

مرَّتْ أربعون ثانية.

غير أنَّ آدا كازنتزاكس ما زالت تصرخ، وقد اندفع غضبُها (إن كان غضَبًا) كوقودٍ سريع الاحتراق، لا يبدو أنَّه سينطفئ. تحوَّلتْ بشرتُها إلى القرمزيِّ الأرقش، وانكشط حلقُها وصار يخفقُ ألمًا، فيما تنبضُ عروقُ رقبتها مع تسارع الدم، ويداها مفتوحتان أمامها غير أنَّهما لا تمسكان شيئًا. خطرتْ ببالها حينئذٍ صورةُ أمّها، ولأوَّل مرَّةٍ منذ وفاتها لم تدمع العينان لذكراها.

رنَّ الجرس.

من خارج الفصل، تتهادى أصوات الخطوات العجلى وهي تتضاعفُ في الممرَّات، مشفوعةً بحواراتٍ تنبض بالحياة. حماسٌ. ضحكٌ. هَرْجٌ ومرْجٌ قصير. إنَّها عطلة عيد الميلاد.

أمَّا داخل الفصل، فكان سُعار آدا منظرًا آسرًا، إلى الحدِّ الذي لم يجرؤ معه أحدٌ على الحركة.

مرَّت اثنتان وخمسون ثانية.. تكاد تصل إلى الدقيقة، فانطفأ صوتُها، إذْ جفَّ حلقُها وتجوَّف مثل عود قصبٍ ظمآن. حينئذٍ غَرِق كتفاها، وارتعشتْ ركبتاها، وبدأ وجهها يتقلَّب كما لو أنَّها استيقظت من نومٍ غير هانئ. صمتتْ. هكذا توقَّفتْ فجأةً، مثلما ابتدأت فجأةً.

وتمتم جيسن بصوتٍ عالٍ: «ما هذا بحقِّ الجحيم؟»، لكنَّ أحدًا لم يجبه.

انهارت آدا على مقعدها دون أن تنظر إلى أحد، لاهثةً مستنفَدَة الطاقة، مثل دميةٍ تقطَّعتْ خيوطُها على المسرح أثناء عرض المسرحيَّة. سيأتي وصفُ هذا لاحقًا على لسان إمَّا روز بتفاصيل مضخَّمة. أمَّا الآن، فحتى إمَّا روز نفسها لاذت بالصمت.

سألتْها مسز وولكوت مرَّةً أخرى وقد نُقشت في وجهها الصدمة: «هل أنتِ بخير؟». سمعتْها آدا هذه المرَّة.

أغمضتْ عينَيْها، فيما تجمَّع ركام السحب في السماء البعيدة، وسقط ظلٌّ على الجدران كما لو أنَّه من جناحَي طائرٍ عملاق. في تلك اللحظة، تردَّد صوتٌ داخل رأسها، بإيقاعٍ ثقيلٍ ثابت... كراك كراك كراك، ولم يخطر في بالها شيءٌ آنذاك إلاَّ أنَّه في مكانٍ ما خارج ذلك الفصل، بعيدًا بعيدًا، كانت عظامُ شخصٍ تتكسَّر.

التِّينة

قال كوستاس وهو يغرز المجرفة في الأرض: «بعد أن أدفنك، سآتيكِ وأحدِّثكِ يومًا بعد يوم». دفع بثقله على المقبض، ورفع كتلةً من التربة، فألقى بها على الكومة التي بدأت تتشكَّل إلى جانبه. «لا تقلقي. لن تشعري بالوحدة».

تمنَّيتُ لو قلتُ له إنَّ الوحدة محضُ اختراع البشر؛ فالأشجارُ لا تشعر بالوحدة أبدًا. يظنُّ الناس أنَّهم يعرفون على محمل التأكيد أين تنتهي كينونتهم، وتبدأ كينونة الآخرين. الأشجار لا تعرف هذه الأوهام؛ فجذورنا المتشابكة تحت الأرض، وارتباطنا بالفطريَّات والبكتيريا يجعل كلّ شيءٍ بالنسبة إلينا مرتبطًا بالآخر.

مع ذلك، فقد أسعدني أنَّ كوستاس ينوي زيارتي بانتظام. أمَلتُ أفرعي نحوه في امتنان. كان في تلك اللحظة يقف قريبًا جدًّا، حتى إنِّي شممتُ رائحة الكولونيا التي تعطَّرَ بها. مزيجٌ من الصندل والبرغموت والعنبر. لقد حفظتُ كلَّ تفصيلٍ من تفاصيل وجهه الوسيم، بجبهته العريضة، وأنفه الرفيع البارز ذي الطرف المدبَّب، وعينَيْه الصافيتَيْن المستظلَّتَيْن بأجفانٍ تلتوي مثل أنصاف أقمار... وتموّجِ شعره الذي ما يزال كثيفًا أسود، على الرَّغم من أجزاء الفضَّة المتناثرة هنا وهناك، وصدغَيْه الرماديَّيْن.

لقد تسلَّلَ الحبُّ إليَّ هذا العام (شأنه شأن الشتاء) بتدرُّجٍ وبراعةٍ في شدَّته، حتى إنِّي حين أدركتُ ما كان يحدث لي كان الأوان قد فات. كنتُ متولِّهةً بحُمق، ودون جدوى، برجلٍ لن يفكِّر فيَّ أبدًا على هذا النحو. لقد أحرجَني هذا الأمر، هذا الاحتياج المباغت الذي اجتاحني، هذا التوق العميق إلى ما لا يمكن أن أحصل عليه. ذكَّرتُ نفسي بأنَّ الحياة ليست عَقدًا تجاريًّا، أو اتِّفاقًا محسوب الأخذِ والعطاء، وأنَّ المشاعر ليست مشروطةً بالمثل، غير أنِّي لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بما سيحدث لو أنَّ كوستاس كازنتزاكس بادلني المشاعر يومًا ما، إنْ كان لبشرٍ أن يهوى شجرة.

أعرف ما يدور في بالكم. كيف لي أنا الفِيكَس كاريكا العاديَّة أن أعشق إنسانًا عاقلاً؟ أعرف جيِّدًا أنَّني لستُ فاتنة الجمال، ومظهري عاديّ. لستُ ساكورا، شجرة الكرز اليابانيَّة البديعة بأزهارها الورديَّة الخلاَّبة إذْ تمتدُّ في الاتِّجاهات الأربعة في اختيالٍ وفتنةٍ وبُهرج. لستُ قَيقَبة سكَّرٍ وضَّاءةً في ظلالٍ ساحرةٍ من الأحمر الياقوتيّ، والبرتقاليِّ الزعفرانيّ، والأصفر الذهبيِّ، منعَّمةً بأوراقٍ غَاويةٍ مثاليَّة. ولستُ نبتةَ الوِستاريَّة، تلك الفاتنة القتَّالة الأرجوانيَّة، المنحوتة نحتًا. ولستُ نبتةَ الغاردينيا المخضرَّة دائمًا بعطرها المُسكِر وأوراقها الخضراء اللامعة، ولا نبتة الجهنَّميَّة بلونها القرمزيِّ البهيّ وهي تتسلَّق وتتدلَّى على جدران الطوب تحت الشمس الحارقة. ولا أنا شجرة المنديل التي تجعل المرء ينتظرُ وقتًا طويلاً، ثم تُقدِّم له أحلى الزهور الرومنسيَّة الساحرة التي ترفرف مع النسيم كالمناديل المعطَّرة.

أعترفُ أنِّي لا أملك أيًّا من تلك المفاتن. ولو أنَّكم مررتم بي في الشارع ربَّما لن تنظروا إليَّ نظرةً أخرى. مع ذلك، يطيب لي أنْ أُصدِّقَ أنَّني جذَّابةٌ، على طريقتي الخاصَّة. فما أفتقر إليه من جمالٍ وشُهرة، أعوِّض عنه بالغموض والقوَّة الداخليَّة.

لقد أغريتُ على مرِّ التاريخ أسرابًا من الطيور والخفافيش والنحل والفراشات والنمل والفئران والقرود والديناصورات... علاوةً على زوجَيْن حائرَيْن كانا يهيمان بلا هدفٍ في جنَّة عدْن، تعلو وجهَيْهما نظرةٌ برَّاقة. وليكن في معلومكم أنَّ الثمرة إيَّاها لم تكن تُفَّاحة. لقد حان الوقتُ لتصحيح الفكرة الجاهلة هذه؛ فآدمُ وحوَّاء إنَّما انقادا إلى جاذبيَّة التِينة، فاكهة الإغراء، والرغبة والشغف، لا التفَّاحة المقرقشة. لا أقصد أن أُقلِّل من شأن نبتةٍ أخرى، ولكنْ أيُّ فرصةٍ قد تحظى بها تفَّاحةٌ تَفِهة في مجاراة تينةٍ لذيذةٍ، ما يزال مذاقُها إلى يومنا هذا (بعد دهورٍ من الخطيئة الأولى) مذاقَ الفردوس المفقود؟

مع خالص احترامي للمؤمنين، لا يبدو منطقيًّا أن ينقاد أوَّل رجلٍ وامرأةٍ إلى الخطيئة عبر تناول تفَّاحةٍ عاديَّة، ثم حين يجدان نفسَيْهما عاريَيْن يرتعشان في خزيٍ من سوءاتهما، يتجوَّلان في الجنَّة المسحورة على الرَّغم من خوفهما من ربِّهما، إلى أن يتعثَّرا بشجرة تينٍ، فيقرِّرا أن يتستَّرا بأوراقها. قصَّةٌ لافتة، غير أنَّ بها شيئًا غير مقنع، وأنا أعرفه تمامًا: أنا! فأنا تلكم الشجرة، شجرة الخير والشرّ، والضوء والظلام، والحياة والموت، والحبّ والأسى.

لقد تقاسم آدمُ وحوَّاء تينةً غضَّةً عَطِرةً ناضجة، ساحرةَ اللذَّة. فَلَقاها من أوسطها، فلمَّا ذابتْ حلاوتها الوافرة المكتنزة على لسانَيْهما، شَرَعا ينظران إلى الكون من حولهما نظرةً جديدة تمامًا، فهذا ما يحدث لأولئك الذين يتحصَّلون على المعرفة والحكمة. بعد ذلك، غطَّيا نفسَيْهما بأوراق الشجرة التي تصادف أنَّهما يقفان تحتها. أمَّا التفَّاحة (واعذروني) فلم يكن لها أيّ شأن.

انظر في كلِّ دينٍ ومعتقد، وسوف تجدني هناك، حاضرةً في كلِّ قصَّةِ خلق، شاهدةً على أفعال البشر وحروبهم المستمرَّة، أدمجُ حمضي النوويَّ بطرقٍ جديدةٍ كثيرة، حتى غدوتُ اليوم منتشرةً في كلِّ القارَّات تقريبًا. وقد كان لي أحبابٌ وعشَّاقٌ كثُر. بعضهم جُنَّ في حبِّي، بل بلغ به الهيام أن ينسى كلَّ شيءٍ ويبقى معي إلى نهاية حياته القصيرة، مثل دبابير التين الصغيرة.

لكنِّي أتفهَّم أنْ لا شيء من هذا يؤهِّلني لأنْ أعشق كائنًا بشريًّا، وأرجو أن يعشقَني. أعترفُ أنَّه ليس شيئًا معقولاً، أن تحبَّ شخصًا ليس من نوعك، شخصًا سوف يعقِّد حياتك، ويعكِّر صفوها، ويعبث باستقرارك وتجذُّرك. ولكنْ، إنْ كنتَ تنتظر من الحبِّ أن يكون معقولاً، فالأرجحُ أنَّك لم تعرف الحبَّ قطّ.

قال كوستاس: «ستنعمين بالدفء تحت الأرض يا فِيكَس. ستكونين بخير».

ما يزال يتحدَّث الإنجليزيَّة بلكنةٍ يونانيَّةٍ واضحة، على الرَّغم من السنوات التي قضاها في لندن. كانت راؤه الخشنة مألوفةً على نحوٍ يبعث فيَّ السكينة، كما هاؤه المهموسة، وشِينه المطموسة، وحروف العلَّة المقتضبة، وإيقاعه المتسارع حين يتحمَّس، المتراجع حين يتأمَّل أو يحَار. كنتُ أعرف كلَّ شاردةٍ وواردة في صوته إذْ يترقرق ويتمايل، فيغسلني مثل ماءٍ صافٍ.

قال: «لن يطول الأمرُ على أيِّ حال. بضعة أسابيع لا أكثر».

كنتُ معتادةً أن يكلِّمني، ولكنْ ليس بقدر ما كان يكلِّمني اليوم. تساءلتُ في أعماقي ما إذا كانت العاصفةُ الشتويَّة قد استثارت شعور الذنب فيه. فهو في نهاية المطاف مَن أحضرني من قبرص إلى هذه البلاد التي لا تعرف الشمس، مخبَّأةً داخل حقيبةٍ جلديَّةٍ سوداء. إنْ شئنا الدقَّة، فقد دخلتُ إلى أوروبا تهريبًا.

في مطار هيثرو، حين جرَّ كوستاس الحقيبة أمام موظَّف الجمارك الفظَّ، شعرتُ بالتوتُّر. توقَّعتُ أن يوقفوه ويفتِّشوه في أيِّ لحظة. أمَّا زوجته فكانت تمشي أمامنا رشيقة الخطى، ثابتة العزم، ضَجِرةً كعادتها. كانت ديفني آنذاك حبلى بآدا، على الرَّغم من أنَّهما لم يكونا يعرفان ذلك بعد. كانا يظنَّان أنَّهما أحضراني أنا فقط إلى إنجلترا، ولا يدريان أنَّهما يحملان معهما طفلةً غير مولودة.

فلمَّا انفتحتْ أبواب القادمين، قال كوستاس وقد فقد السيطرة على الحماس في صوته: «وصلنا، نجحنا! مرحبًا بكِ في بلدك الجديد».

أتُراه كان يتحدَّث إليَّ أم إلى زوجته؟ أُفضِّلُ أنْ أُصدِّق الخيار الأوَّل. على أيِّ حال، كان ذلك قبل أكثر من ستَّة عشر عامًا، ولم أعد إلى قبرص منذ ذلك الوقت.

غير أنِّي ما زلتُ أحمل قبرص معي. الأماكن التي نولد فيها تُشكِّل حياتنا، حتى حين نبتعد عنها، بل بالذات حين نبتعد. بين فترةٍ وأخرى، أجد نفسي في المنام في نيقوسيا، أقف تحت شمسٍ مألوفة، يسَّاقطُ ظلِّي على الصخور، فَيصلُ إلى شجيرات الوزَّال الشوكيَّة التي تتفجَّر بالأزهار، وكلّ زهرةٍ منها كاملةٌ برَّاقة، كالعملات الذهبيَّة في حكايا الأطفال.

أتذكَّر كلّ شيءٍ من الماضي الذي تركناه وراءنا. السواحلَ المرسومة على التضاريس الرمليَّة، مثل شقوق اليد تنتظر من يقرأها، وجوقةَ السيكادات خلف الحرارة المرتفعة، وطنينَ النحل فوق حقول اللاڤندر، والفراشات التي تبسط أجنحتها عند أوَّل وعدٍ بالضوء... كثيرون قد يحاولون، ولكنْ لا أحد يجيد التفاؤل مثل الفراشات!

يظنُّ الناس أنَّ الأمر يتعلَّق بالشخصيَّة، ما إذا كانت متفائلةً أم متشائمة. لكنِّي أرى أنَّ أصل الأمر يتعلَّق بالعجز عن النسيان. فكلَّما ازددتَ قوَّةً في التذكُّر قلَّ زادُك في التفاؤل. لا أزعم أنَّ الفراشات لا ذكريات لديها. لديها ذكريات طبعًا؛ فالعثَّة يمكنها أن تتذكَّر ما تعلَّمتْه وهي يرَقَة. أمَّا أنا ومَن على شاكلتي فنحن مُبْتَلون بالذاكرة الخالدة. لا أتحدَّث عن سنواتٍ أو عقود، بل قرون.

لعنةٌ، هذه الذاكرة الدائمة. وحين تودّ عجائزُ القبرصيَّات أن يدعيْن على أحدٍ، فلا يدعين أن يحلَّ السوء به. لا يدعين ببرقٍ أو حادثٍ أو تصاريف أقدارٍ مفاجئة، بل يكتفين بالقول:

حَرَمكَ الله من النسيان.

ساقَكَ الله إلى قبرك وأنت تحمل ذكرياتك.

أظنُّ إذن أنَّ الأمر في جيناتي. أقصدُ هذه السوداويَّة التي لا أستطيع التخلُّص منها أبدًا. محفورةٌ بسكِّينٍ خفيَّةٍ في جلدي الشجريّ.

*

قال كوستاس وهو يتفحَّص الخندق بعينَيْن راضيتَيْن عن طوله وعمقه: «حسنٌ. هذا سيؤدِّي الغرض».

مدَّ ظهره المتألِّم، ومسح الطين من يديْه بمنديلٍ أخرجه من جيْبه، ثم قال: «عليَّ أن أُقلِّمكِ قليلاً. هكذا يكون الأمر أسهل».

تناول مقلّمَيْن، وقصَّ فروعِي الجانبيَّة المنفلتة، بحركاتٍ بارعةٍ متمرِّسة. ثم أحكمَ ربط فروعي الأكثر سمكًا بحبلٍ من النايلون. ثم زمَّ الحزمةَ بحرصٍ، وصنع عقدةً مربَّعة، رخوةً بما يكفي لتلافي أيَّ ضرر، ومُحكمةً بما يكفي لكي أدخل في الخندق.

قال: «أوشكتُ أن أنتهي. عليَّ أن أسرع. العاصفةُ ليست بعيدة».

لكنَّني كنتُ أعرفه بما يكفي لكي أشعر أنَّ العاصفة القريبة ليست السبب الوحيد في إسراعه بدفني هكذا. كان يريد أن ينتهي من الأمر قبل أن تعود ابنته من المدرسة. لم يكن يريد لآدا الصغيرة أن تشهد دفنًا آخر.

في اليوم الذي أُصيبت فيه زوجته بغيبوبةٍ لم تفق منها قطّ، خيَّم الحزنُ على هذا البيت مثل نسرٍ لا يتركك حتى يُتخم نفسه بآخر ما تبقَّى من مرحٍ وسعادة. لقد ظلَّ كوستاس شهورًا بعد وفاة ديفني (وما يزال حتى الآن بين الفينة والأخرى) يأتي قُبيل منتصف الليل إلى الحديقة فيجلس إلى جواري، متدثِّرًا بلحافٍ خفيف، عيْناه حمراوان موجوعتان، وحركاته فاترة كما لو أنَّه جُرف من قاع بحيرةٍ غصبًا. لم يكن يبكي داخل البيت قطّ، لئلاَّ ترى ابنته عذابه.

في تلك الليالي، كنتُ أشعر بحبٍّ وتعلُّقٍ شديدَيْن به، حدَّ الألم. في تلك اللحظات نفسها، كان الفرق بيننا يؤلمني أكثر من أيِّ وقتٍ آخر. كنتُ أتحسَّر على عجزي أن أحوِّل أغصاني إلى أذرعٍ

تعانقه، أو أحوِّل أفناني إلى أصابع تربّت عليه، أو أُحوِّل أوراقي إلى آلاف الألسن التي تهمس بكلماته، أو أُحوِّل جذعي إلى قلبٍ يأوي إليه.

*

قال كوستاس وهو ينظر حوله: «حسنٌ. انتهينا. سأدفعكِ الآن إلى الأسفل».

ثمَّة إشفاقٌ في وجهه، ولمعةٌ رقيقةٌ في عينَيْه تعكس الشمس الغاربة ببطءٍ في الأفق.

قال: «ستنكسر بعض جذورك، ولكنْ لا تقلقي. الباقية منها كافيةٌ وزيادة كي تبقيكِ على قيد الحياة».

حاولتُ أن أحافظ على اتّزاني، أن لا أرتبك، فأرسلتُ تحذيرًا إلى أطرافي المنتشرة في الأرض، أُخبرها أنَّ الكثير منها سوف يموت عمَّا قريب. بالسرعة نفسها ردَّت في مئات الإشارات الدقيقة، تُخبرني أنَّها تعرف ما سوف يحدث. كانت مستعدَّة.

سحب كوستاس نَفَسًا سريعًا، ثم مال ودفعني نحو الحفرة في الأرض. لم أتزحزح عن مكاني بادئ الأمر. فوضع راحتَيْه على جذعي، وحاول بقوَّةٍ أكبر هذه المرَّة، بضغطٍ متمهّلٍ متوازنٍ لكنَّه قويٌّ ثابت.

ثم قال في هُيام: «ستكونين بخير. ثقي بي، عزيزتي فِيكس».

احتواني ذلك اللطفُ في نبرته، فأبقاني في مكاني تمامًا. مجرَّد كلمةٍ واحدةٍ من التودّد منه كانت لها جاذبيَّةٌ خاصَّة، سحبتْني إليه مرَّةً أخرى.

شيئًا فشيئًا تبدَّدتْ كلّ مخاوفي وشكوكي، وطافت بعيدًا مثل أسراب الضباب. عرفتُ في تلك اللحظة أنَّه سوف يُخرجني مع أوَّل لمحةٍ لقطرات الثلج وهي تخرج رأسها من الأرض، أو لطيور الصفاريَّة التي ترفرف عائدةً في السماء الزرقاء. كنتُ أعرف كما أعرف نفسي أنَّني سأرى كوستاس كازنتزاكس مرَّةً أخرى، وسيكون باقيًا هناك خلف عينَيْه الجميلتَيْن، محفورًا في روحه ذلك الحزنُ الحارق الذي استوطنه منذ أن فقد زوجته. كم تمنَّيْتُ أن يحبَّني كما أحبَّها.

وداعًا كوستاكي. إلى اللقاء في الربيع...

عبرتْ في وجهه نظرةُ استغراب، سريعةً متطايرةً جدًّا، حتى بدا وكأنَّه قد سمعني. كان الأمر أشبه بالإدراك، بالاعتراف. كان هناك، ثم اختفى.

أمسك بي بقوَّةٍ أكبر، ودفعني دفعةً أخيرة إلى الأسفل. هنا، مال العالم، وانحرفت السماء وانحسرت، فامتزجت السحبُ الخفيضة بكتل التربة في تشوَّشٍ طينيٍّ واحد.

هيَّأتُ نفسي للسقوط وأنا أسمع جذوري تقاوم ثم تنكسر، واحدًا تلو الآخر. علا صوتٌ غريبٌ مكتومٌ من الأرض تحتي: كراك كراك كراك. لو كنتُ بشرًا، لكان هذا صوت عظامي تتكسَّر.

الليل

وقفتْ آدا جوار النافذة في غرفتها، تضغط جبينها على لوح الزجاج، تراقب أباها في الحديقة وقد انعكستْ عليه أضواءُ قنديلَيْن، فيما ظهرُه إليها وهو يجرف الأوراق اليابسة على الأرض القاسية. ما يزال يعمل في الخارج تحت البرد منذ عودتهما معًا هذا المساء. قال إنَّه حين تلقَّى الاتِّصال من المدرسة ترك التِينة وحدها مُهمَلة، أيًّا ما كان معنى ذلك. افترضتْ أنَّها واحدة من غرائب أبيها. قال أيضًا إنَّ عليه أن يُغطِّي الشجرة بسرعة، ووعدها بالانتهاء من الأمر في دقائق، لكنَّ الدقائق امتدَّت إلى قرابة الساعة، وما يزال في الحديقة.

ظلَّ عقلُها يعود إلى ما حدث بعد ظهر اليوم. كان الخزيُ الذي ألمَّ بها مثل أفعى تتلوَّى في بطنها، تعضّها مرَّةً تلو الأخرى. ما تزال غير قادرةٍ على تصديق ما فعلتْه. كيف صرخَتْ من قمَّة رأسها هكذا أمام الفصل كلّه؟ ما الذي حلَّ بها؟ كان وجه مسز وولكوت شاحبًا، مرتعبًا. ولا بدَّ من أن يكون ذلك التعبير مُعديًا؛ فقد رأتْه آدا على وجوه المعلِّمين الآخرين بعد أن أُبلغوا بما حدث. انقبضتْ أحشاؤها وهي تسترجع اللحظة التي استُدعيت فيها إلى مكتب المدير. كان التلاميذ الآخرون قد انصرفوا، فغدا الصوتُ يتردَّد في المبنى مثل صَدَفَةٍ فارغة.

عاملوها بطيبةٍ، مع قلقٍ واضح، وحَيْرة من تصرُّفها. كانوا إلى اليوم ربَّما يعدُّونها واحدة من المنطوين، لا هي خجولة ولا هادئة، لكنَّها ليست من النوع المولع بتقدُّم الصفوف. كانت فتاةً تحبّ التأمُّل وتفضِّل العيش في عقلها، لكنَّها ابتعدتْ شيئًا فشيئًا وانسحبتْ إلى ذاتها منذ وفاة أُمِّها. وها هم الآن حائرون في أمرها.

هاتفوا والدها فورًا، فهُرع إلى هناك، دون حتى أن يغيِّر ما كان يرتديه للعمل في حديقته، بحذاءٍ مغطًّى بالطين، وورقةٍ صغيرةٍ عالقةٍ في شعره. تحدَّث إليه المدير قليلاً، فيما كانت آدا تنتظر في الممرِّ وهي جالسةٌ على دكَّةٍ تهزّ ساقها.

ظلَّ والدها يلحّ في السؤال طوال الطريق، يحاول أن يفهم السبب الذي دعاها إلى ما فعلتْه، لكنَّ إلحاحه زاد من سكوتها. وفور وصولهما إلى البيت التجأتْ هي إلى غرفتها، وانطلق إلى حديقته.

اغرورقتْ عيناها بالدموع حين خلصتْ إلى أنَّها لا بدَّ من أن تغيِّر المدرسة. لا يوجد حلٌّ آخر. في أثناء ذلك، قد يقرِّر المدير إصدار عقابٍ لها أو شيئًا كهذا. إن حدث ذلك فهو أقلّ ما تخشاه؛ إذْ لا يوجد عقابٌ أكثر رعبًا من نظرات التلاميذ الآخرين التي سيحرصون على إلقائها عليها حين يبدأ الفصل الجديد. من الآن فصاعدًا، لن يرغب فتًى من الفتيان في مواعدتها، ولن ترغب فتاةٌ من الفتيات في دعوتها إلى حفل عيد ميلادها، أو مشوارٍ للتسوُّق. من الآن فصاعدًا، سوف يلتصق بها لقب الغريبة والمريضة النفسيَّة، مثل وشْمٍ على جلدها. وكلَّما مشت إلى فصلها سيكون هذا الوشم أوَّلَ شيءٍ يراه الجميع. مجرَّد التفكير في الأمر أثار رغبتها في التقيُّؤ. كان حملاً ثقيلاً داخل أحشائها، كأنَّه ترابٌ مبتلّ.

فلمَّا بلغ بها التوتُّر هذا الحدّ لم تستطع أن تبقى وحيدةً في غرفتها أكثر من ذلك. خرجتْ، فمرَّت من البهو، بجدرانه المزخرفة برسوماتٍ مبروَزةٍ وصورٍ عائليَّة في العطلات وحفلات الميلاد والرحلات وذكرى الزواج... كانت صورًا متوهِّجةً تلتقط اللحظات السعيدة، لكنَّها ولَّت منذ زمن، مثل نجومٍ ميِّتة تشعُّ بآخر ضوءٍ فيها.

عبرت آدا الصالة، وفتحت الباب المنزلق الذي يفضي إلى الحديقة الخلفيَّة. وما إنْ فتحت الباب حتى انطلقت الريح في الداخل، تقلب صفحات الكتب فوق الطاولة، وتبعثر الأوراق على الأرض. أخذتْ تلتقطها، فأبصرتْ واحدةً فوق الكومة عرفتْ فيها خطَّ أبيها الأنيق: كيف تدفن شجرة تينٍ في عشر خطوات. كانت قائمة إرشاداتٍ مفصَّلة، مع صورٍ بدائيَّة. لم يكن والدها يحسن الرسم، على عكس والدتها.

فور أن خطتْ إلى الحديقة، جفلتْ من شدَّة البرد. كانت غارقةً في همومها فلم تعبأ بالعاصفة هيرا، لكنَّها الآن بدت أمرًا حقيقيًّا بالفعل. طافت في الهواء رائحةٌ فاسدةٌ عفنة، رائحة أوراق شجرٍ متعفِّنة، وأحجارٍ رطبة، وخشبٍ مبتلَّ يحترق.

مشتْ بخطًى ثابتة على الممشى الحجريّ، فيما الحصيات تقرقش تحت نعلَيْها، نعلَيْن أبيضَيْن قشديَّيْن من الفرو المنفوش، مفتوحَيْن من الخلف. كان ينبغي لها أن ترتدي حذاءً طويلاً، لكنَّ الوقت فات. كانت عيناها مثبَّتتيْن على والدها الذي أصبح على بعد خطواتٍ منها. كم ليلةٍ شاهدته من نافذة غرفتها، في المكان نفسه عند التينة، حين يتجمَّع الظلام حوله كغربانٍ على جيفة. كان يبدو تحت السماء المتوهِّجة طَيْفًا مطأطئ الكتفَيْن، منكوبًا. كانت تشعر أنَّه لن يرغب لابنته في أن تراه على ذلك الحال، فلم تكن تخرج إليه.

قالت بصوتٍ بدا لها مرتجفًا: «أبي؟»

لم يسمعها. دَنَت منه أكثر، فلاحظت أنَّ ثمَّة شيئًا مختلفًا في الحديقة، تغييرًا لم تدركه بعد. فلمَّا نظرت من حولها، سحبتْ نَفَسًا وأدركت الأمر. التينة غير موجودة.

«أبي».

استدار كوستاس، فأشرق وجهُه حين رآها. «حبيبتي، لا ينبغي لكِ الخروج دون معطف». ثم انزلق بنظرته إلى قدمَيْها. «ومن دون حذاءٍ طويل؟ آدا مو[1]، ستُصابين ببرد».

«أنا بخير. أين التينة؟»

«أوه، إنَّها هنا، تحت». أشار بعينَيْه إلى صفائح خشبٍ كان قد وضعها بحرصٍ على الأرض عند قدمَيْه.

اقتربت آدا وحدَّقت بعينَيْن مستغربتَيْن في الخندق المغطَّى جزئيًّا. كان والدها قد قال على الإفطار إنَّه ينوي دفن التينة، لكنَّها لم تولِ ما قاله اهتمامًا. لم تكن تفهم ما يقصده. فتمتمت الآن: «إذن، دفنتَها فعلاً!»

«كان لا بدَّ من فعل ذلك، خشية أن تُصاب بموتٍ رجعيّ».

«وما الموت الرجعيّ؟»

«حين تموت الأشجار في المناخ الشديد. أحيانًا يكون الصقيع هو الذي يسبِّب التلف، وأحيانًا يحدث بسبب تكرار التجمُّد والذوبان. بعدها تموت». وعندها جثم كوستاس وألقى بحفنةٍ من مهاد

التربة فوق الخشب، وطقطق عليه بيدَيْه العاريتَيْن.

«أبي؟»

«همم؟»

«لماذا تتحدَّث عن الشجرة دائمًا وكأنَّها امرأة؟»

«هي... إنَّها أنثى».

«وكيف عرفتَ ذلك؟»

نهض كوستاس، وأخذ لحظةً كي يردّ. «بعضُ الأنواع ثنائيَّةُ المسكَن، أي أنَّ الشجرة إمَّا أن تكون ذكرًا أو أنثى. الصفصافُ، والحور، والطقسوس، والفرصاد، والحور الرجراج، والعرعر، والبَهشيَّة... كلُّها هكذا. غير أنَّ هناك أنواعًا أخرى عديدة أحاديَّة المسكن، أي أنَّها تحمل أزهارًا ذَكَريَّةً وأنثويَّةً في الشجرة نفسها. مثل السنديان، والسرو، والصنوبر، والبتولا، والبندق، والأرْز، والكستنة...».

«والتينُ إناث؟»

«التينُ وضعُها معقَّد. نصفُها تقريبًا أحاديَّة المسكن، ونصفها الآخر ثنائيَّة. هناك أصنافٌ مزروعةٌ من التين، وهناك التين البرِّيّ في البحر الأبيض المتوسِّط، وهذا يُنتج ثمارًا لا تؤكل، عادةً ما تُعلف به الماعز. وشجرة فيكس كاريكا التي عندنا أنثى، من صنفٍ بِكريِّ الإثمار، أي أنَّ بمقدورها أن تنتج الثمار بمفردها، دون الحاجة إلى شجرةٍ ذكريَّةٍ بجانبها».

عندها توقَّف، بعد أن أدرك أنَّه قال أكثر ممَّا كان يريد قوله، خشية أن يُشتِّت تفكيرها كما يفعل دائمًا هذه الأيَّام. اشتدَّت الريح، فحَفْحَفْت الشجيراتُ. «أخشى أن تُصابي بالبرد يا حبيبتي. عودي إلى الداخل، وسآتي خلال دقائق».

قالت آدا وهي تهزُّ كتفَيْها: «قلتَ هذا قبل ساعة. أنا بخير. لمَ لا أبقى وأساعدك هنا؟»

«لمَ لا، إن كنتِ تريدين ذلك».

حاول ألاَّ يُبدي تعجُّبه من رغبتها في مساعدته. فمنذ أن تُوفِّيت ديفني بدا له أنَّ علاقته بابنته صارت أشبه ببندول عواطف. كلَّما سألها عن المدرسة أو عن أصدقائها، تقوقعت على نفسها، ولا تنفتح شيئًا يسيرًا إلاَّ حين يعود إلى عمله. هكذا، بدأ يلاحظ أنَّه لكي يجعلها تقترب منه خطوةً كان عليه أن يبتعد خطوةً قبل ذلك. لقد ذكَّره هذا الأمر بطفولتها، حين كانا يذهبان إلى حديقة الألعاب كلَّ إجازةٍ أسبوعيَّة، يده في يدها. كان مكانًا مُبهجًا يحتوي على مضمار حواجز وأدوات تريُّضٍ خشبيَّةٍ كثيرة، غير أنَّ آدا لم تكن تعبأ بها. كانت تحبّ الأرجوحة وحدها. يدفعها كوستاس، ويشاهدها وهي تطير بعيدًا عنه في الهواء، فيما تضحك وتركل وتصرخ: «أعلى يا أبي، أعلى!» وعلى الرَّغم من خوفه من وقوعها من الأرجوحة أو تفكُّك السلاسل المعدنيَّة، كان يدفعها بقوَّةٍ أكبر، وحين تعود الأرجوحة يبتعد كي يفسح لها المجال. وهكذا ظلَّ الأمرُ بينهما؛ يتركُ الأب مساحةً لابنته كي تحظى بحرِّيَّتها. بيد أنَّهما في تلك الأيَّام الخوالي كانا يتبادلان الحديث باستمرار. لم يكن هذا الصمت المربك المؤلم قد استقرَّ بينهما بعد.

لم يقل شيئًا حتى الآن، فسألَتْه: «إذن، ماذا أفعل؟»

«آه، نعم. ينبغي تغطية الخندق بالتربة والأوراق، وبعض القشّ الذي أحضرتُه إلى هنا».

«لا بأس».

وهكذا شرعا يعملان جنبًا إلى جنب. كان يعمل بتركيزٍ وإتقان، وهي مشتَّتة الذهن، بطيئة.

انطلقتْ من مكانٍ بعيد صفَّارة إسعافٍ شقَّتْ هدأة الليل، ونبَحَ كلبٌ في الشارع. بعدها عاد الهدوء، إلاَّ من البوَّابة المرتخية في مقدِّمة البيت، إذْ كانت تئزُّ من مفاصلها من حينٍ إلى آخر.

ثم قالت آدا بصوتٍ هادئٍ كأنَّما تتمتم لنفسها: «هل هو مؤلم؟»

«ماذا؟»

«حين تدفن شجرةً، هل تشعرُ بالألم؟»

رفع كوستاس وجهه، وبدا فكَّاه مزمومَيْن. «هناك طريقتان للإجابة عن هذا السؤال. يُجمع العلماء على أنَّ الأشجار ليست كائناتٍ واعيةً تحسّ، بما تحمله هذه الكلمة من معنى لدى معظم

الناس...»

«ولكنْ يبدو أنَّك تخالفهم الرأي».

«أعتقدُ أنَّ هناك الكثير ممَّا لم نعرفه بعد. ما زلنا نستكشف لغة الأشجار. لكنَّ الذي نستطيع الجزم به هو أنَّها تسمع وتشمُّ وتتواصل، وبالتأكيد تتذكَّر. تستطيع أن تحسَّ بالماء والضوء والخطر. ويمكنها أن تُرسل إشاراتٍ إلى نباتاتٍ أخرى ليساعد بعضها بعضًا. الأشجار أكثر حياةً ممَّا يُدرك معظم البشر».

لا سيَّما تينتنا. لو أنَّكِ تعلمين كم هي مميَّزة. كان يريد أن يقول هذا، لكنَّه منع نفسه.

تفحَّصتْ آدا وجه أبيها تحت أضواء القناديل. لقد شاخ كثيرًا في هذه الشهور الفائتة. تشكَّلتْ تحت عينَيْه أنصاف دوائر، مثل أهلَّةٍ شاحبة. أعادَ الألمُ نحتَ سيمائه، فأضاف زوايا وأسطحًا. أشاحت بوجهها، وسألتْه: «لماذا تتحدَّث دائمًا إلى التينة؟»

«أنا؟»

«نعم، تتحدَّث إليها دائمًا. سمعتُك من قبل. لماذا؟»

«ربَّما لأنَّها تُجيد الإصغاء».

«لا تمزح يا أبي. أتحدَّث بجدّ. هل تعرف كيف يبدو الأمر مجنونًا؟ ماذا لو سمعك أحد؟ سيظنُّون أنَّك فقدتَ عقلك».

تبسَّم كوستاس. كان قد خطر في باله أنَّ أحد الفروق الكاشفة بين الشباب والكبار ربَّما يكمن في هذه النقطة تحديدًا. فحين يكبُر المرءُ يقلّ اهتمامه بصورته عند الآخرين، وعندها تزداد حرِّيَّته.

«لا تقلقي، آدا مو. لا أتحدَّث إلى الأشجار أمام الآخرين».

ثم قالت وهي تنثر حفنةً من الأوراق الجافَّة على الخندق: «نعم، ولكن... قد يراك أحدٌ ما ذات يوم. المعذرة، ولكن ما الذي نفعله هنا؟ لو رآنا أحد الجيران لظنَّ أنَّنا ندفن جثَّة. قد يبلغ الشرطة!»

أخفض كوستاس عينَيْه، وحلَّ محلَّ ابتسامته شيءٌ من الحيرة.

«بأمانةٍ يا أبي، لا أريد أن أجرح شعورك، لكنَّ تينتك تخيفني. ثمَّة شيءٌ غريبٌ فيها. أحسَّ به. أشعر أحيانًا بأنَّها تستمع إلينا. تتجسَّس علينا. أعرف أنَّ ما أقوله يبدو جنونًا، لكنَّ هذا ما أشعر به. هل هذا ممكن أصلاً؟ أقصد، هل يمكن للأشجار أن تسمع ما نقوله؟»

اهتزَّ وجهُ كوستاس بنظرة اضطرابٍ سريعة، قبل أن يقول: «لا يا حبيبتي. لا تقلقي من أشياءَ كهذه. صحيحٌ أنَّ الأشجار كائناتٌ رائعة، ولكنْ لا ينبغي لنا أن نشطح في تفكيرنا».

«طيِّب، جيِّد إذن». تزحزحتْ آدا جانبًا وظلَّت فترةً تشاهده بصمتٍ وهو يعمل. «وإلى متى ستبقى مدفونة؟»

«بضعة أشهر. سأُخرجها حين يصبح الجوّ دافئًا».

فصفَّرتْ آدا: «بضعة أشهرٍ فترةٌ طويلة. متأكِّدٌ أنَّها تتحمَّل ذلك؟»

«ستكون بخير. لقد مرَّت تينتُنا بظروفٍ صعبة كثيرة. كانت أمُّكِ تُسمِّيها المحاربة».

عندها سَكَت، كما لو أنَّه خشي من قول أكثر ممَّا ينبغي. وبسرعةٍ، بسط قماشًا مشمَّعًا فوق الخندق، ووضع أحجارًا على زواياه الأربع لئلاَّ تُحرِّكه الرياح.

ثم نفض يدَيْه وقال: «أعتقد أنَّنا انتهيْنا. شكرًا للمساعدة حبيبتي».

مشيَا عائدَيْن إلى داخل البيت، يتشابك شعرُهما من أثر الريح. وعلى الرَّغم من معرفة آدا بأنَّه لا يمكن لشجرة التين (المحبوسة في حفرةٍ تحت الأرض مع جذورها المتبقِّية) أن تخرج من الحفرة وتتبعهما، إلاَّ أنَّها قبل أن تغلق الباب لم تستطع أن تمنع نفسها من استراق نظرةٍ من فوق كتفَيْها نحو الأرض الباردة المظلمة. فلمَّا نظرتْ، أحسَّت بقشعريرةٍ تسري في عظامها.

التينة

تقول: «تينتُك تخيفني». أمَّا لماذا قالت ذلك، فلأنَّها تتوجَّس من غموضي. نعم، بالتأكيد ثمَّة غموضٌ فيَّ، لكنَّ هذا لا يعني أنَّني مخيفة. بَشَر! لقد وصلتُ إلى نتيجةٍ حزينةٍ بعد أن خبرتهم فترةً طويلة جدًّا، وهي أنَّهم ليسوا جادِّين في معرفة الكثير عن النباتات. لا يريدون التيقُّن ممَّا إذا كنَّا نملك الإرادة، والإيثار، وعلاقات القربى. واللافتُ أنَّهم حين يتفكَّرون في هذه الأسئلة على المستوى التجريديّ، يفضِّلون أن يتركوها دون بحثٍ، دون أجوبة. يسهلُ عليهم (كما أعتقد) الافتراضُ بأنَّ الأشجار لا تعرف إلاَّ أكثر أشكال الوجود بدائيَّةً، بما أنَّه لا دماغ لديها بالمعنى المتعارف عليه.

أُدركُ أنَّه ليس واجبًا على نوعٍ من الكائنات أن يحبَّ نوعًا آخر. لكنَّكَ إذا زعمتَ (كما يفعل البشر) أنَّك متفوِّقٌ على جميع أشكال الحياة، ماضيها وحاضرها، فعليك أن تفهم أقدم الكائنات الحيَّة على وجه الأرض، تلك التي وُجدت هنا قبل مجيئك بوقتٍ طويل، وسوف تظلُّ هنا بعد رحيلك.

أظنُّ أنَّ البشر يتجنَّبون معرفة المزيد عنَّا، ربَّما لأنَّهم يشعرون (شعورًا بدائيًّا) بأنَّ ما سوف يكتشفونه قد يزعجهم. أتُراهم يرغبون في معرفة أنَّ الأشجار تتأقلم وتغيِّر سلوكها لتحقيق هدفٍ معيَّن؟ وإنْ كان هذا صحيحًا فمعنى ذلك أنَّ الكائن لا يعتمد في نباهته على الدماغ بالضرورة. هل يسعدهم أن يعرفوا أنَّ الأشجار يمكنها إرسال إشاراتٍ عبر شبكةٍ من الفطريَّات في التربة، فتُنذر جاراتها من خطرٍ وشيك (مفترسٍ قادمٍ أو حشراتٍ إمراضيَّة)، وأنَّ هذه الأخطار قد تزايدت مؤخَّرًا بسبب إزالة الغابات وتآكل الغابة والجفاف، وكلّ ذلك من أعمال البشر؟ هل يرغبون في معرفة أنَّ الكرمة الخشبيَّة المتسلِّقة بوكْويلا ترايفوليولاتا تستطيع أن تُغيِّر أوراقها إلى شكل النبات الذي يدعمها أو لونه، ما جعل العلماء يتساءلون فيما إذا كان للكرمة شكلٌ من القدرة البصريَّة؟

ماذا عن حَلَقات الشجر التي لا تُنبئ عن عمرها فحسب، بل عن كلّ ما مرّت به من تجارب مؤلمة (بما في ذلك الحرائق)، فتنحفرُ في كلِّ حلقةٍ تجربةُ الاقتراب من الموت، والجرحُ غير

الملتئم؟ ماذا عن رائحة المرجِ المجزوز لتوِّه، تلك الرائحة التي يربطها البشرُ بالنظافة والتجدُّد والحيويَّة، فيما هي في واقع الأمر إشارةُ محنةٍ جديدة يُرسلها العشبُ كي يُنذر النباتات الأخرى ويطلب عونها؟ ماذا عن قدرة النباتات على التعرُّف على أقاربها، والشعور بك حين تلمسها؟ بل إنَّ بعضها مثل خنَّاقة الذباب يمكنها أن تعدّ. كذلك تستطيع أشجار الغابة أن تحدِّد متى يوشك الغزالُ على أكلها، وأن تحمي نفسها بإفراز شكلٍ من الحامض الساليسيليكي في أوراقها، إذْ يساعد في إنتاج حمض التنيك فينفرُ منه أعداؤها. وحتى وقتٍ ليس ببعيد، كانت هناك شجرة أكاسيا في الصحراء الكبرى (أطلقوا عليها اسم الشجرة الأكثر وحدةً في العالم)، كانت قائمةً في مفترق طرقٍ قديمٍ للقوافل، فاستطاعت هذه المعجزة الطبيعيَّة أن تستمرَّ وتنشر جذورها بعيدًا على الرَّغم من الحرارة وشحَّ الماء، إلى أن أطاح بها سائقٌ مخمور. وثمَّة نباتات كثيرة حين تتعرَّض للخطر أو الهجوم أو القطع يمكنها أن تنتج الإثيلين (وهو أشبه بالمخدِّر)، وقد وصف الباحثون هذه المادَّة الكيميائيَّة بأنَّها تكاد تشبه سماع نباتاتٍ مُجهَدةٍ تصرخ. النصيبُ الأكبر من معاناة الأشجار إنَّما يأتي من الجنس البشريّ.

أشجارُ المناطق الحضريَّة تنمو أسرع من أشجار الأرياف، وتموت أسرع.

هل يودّ البشر فعلاً أن يعرفوا هذه الأشياء؟ لا أظنّ. وأصْدقكم القول إنَّني لستُ واثقةً حتى من أنَّهم يروننا.

يمشي البشرُ من أمامنا كلَّ يوم، يتفيَّأون ظلالنا جالسين أو نائمين، يدخِّنون ويقضون نزهاتهم، يقطفون أوراقنا، ويشبعون من ثمارنا، ويكسرون أغصاننا، يركبها الأطفالُ منهم أحصنةً يلعبون بها، ثم حين يشتدَّ عودُهم وقسوتُهم يستخدمونها لجَلدِ الآخرين، وينحتون على جذوعنا أسماء معشوقيهم، ويُقسمون على الحبِّ الخالد، وينسجون القلائد من أوراقنا، ويرسمون في فنونهم أزهارنا، ويقطِّعوننا إلى ألواحٍ كيما يدفِّئون بيوتهم، وفي بعض الأحيان، يقطِّعوننا لا لشيءٍ إلاَّ لأنَّنا نعيق المنظر من أمامهم. يصنعون منَّا أسرَّةَ أطفالهم، وسدَّادات الخمر، والعِلكة، والأثاث الريفيّ، وينتجون منَّا أكثر أشكال الموسيقى سحرًا، ويحوِّلوننا إلى كتبٍ يغرقون فيها في ليالي الشتاء الباردة. يستخدمون أخشابنا لصنع التوابيت التي يودعون فيها حيواتهم، يُدفَنون معنا على مسافة ستّ أقدامٍ تحت الأرض. بل إنَّهم يؤلِّفون القصائد العاطفيَّة عنَّا، ويسمُّوننا حلقة الوصل بين الأرض والسماء. مع ذلك كلّه، لا يروننا.

أعتقد أنَّ واحدًا من الأسباب التي تجعل البشر يستصعبون فهم النباتات هو أنَّهم لا يقيمون صِلةً ووزنًا واهتمامًا حقيقيًّا بشيءٍ إلاَّ إذا كان له وجهٌ يتفاعلون معه، وجهٌ على صورتهم قدر الإمكان. فكلَّما برزتْ للحيوان عينان ظاهرتان ازداد ما يلقاه من تعاطفٍ بشريّ.

وهكذا، تحصلُ القططُ والكلاب والخيول على نصيبٍ جيِّدٍ من المودَّة البشريَّة، وكذلك البومُ والأرانب والقرود، بل حتى النعام عديم الأسنان الذي يبلع الحصى كالكرز. أمَّا الأفاعي والجرذان والضباع والعناكب والعقارب وقنافذ البحر، فلا تحصل على كثير. وأمَّا المخلوقات التي لها أعينٌ أصغر من ذلك أو عديمة العيون، فلا أمل لها. ولا الأشجار أيضًا.

قد لا تكون للأشجار أعين، لكنَّها تُبصر. فأنا أستجيبُ للضوء، وأرصد الموجات فوق البنفسجيَّة وتحت الحمراء والكهرومغناطيسيَّة. ولولا أنَّني مدفونة، لاستطعتُ أن أُحدِّد في المرَّة القادمة ما إذا كانت آدا ترتدي معطفها الأزرق أم الأحمر.

أنا أعشقُ الضوء. لا تقتصرُ حاجتي إليه على النموّ والإنبات وتحويل الماء وثاني أكسيد الكربون إلى سكَّريات، بل أحتاجُ إليه أيضًا كي أشعر بالأمان. يميل النباتُ دائمًا ناحية الضوء، فلمَّا اكتشف البشرُ ذلك استخدموه لخداعنا والتلاعب بنا من أجل مصالحهم. فالجنائنيّون يُشعلون المصابيح في منتصف الليل لخداع الأقحوان كيما يُزهر في وقتٍ لا ينبغي له فيه الإزهار. إنْ منحتَنا قليلاً من الضوء يمكنكَ أن تدفعنا إلى فعل أشياء كثيرة؛ وإن منحتنا وعدًا بالحبِّ...

*

سمعتُ آدا تقول: «بضعةُ أشهرٍ فترةٌ طويلة...». المسكينةُ لا تعرف أنَّنا لا نقيس الزمن بالطريقة نفسها!

الزمن البشريُّ خطِّيّ، سلسلةٌ متَّصلة من ماضٍ يُفترض أنَّه انتهى، في اتِّجاه مستقبلٍ لم تعبث به يدٌ بعد. فكلُّ يومٍ يُفترض أن يكون جديدًا، ممتلئًا بأحداثٍ جديدة، وكلُّ حبٍّ يختلف تمام الاختلاف عن الحبِّ السابق. للبشر شهيَّةٌ نَهِمة إلى الجِدَّة، ولا أدري ما إذا كان هذا في صالحهم!

أمَّا الزمنُ الشجريّ فهو دائريّ، متكرِّر، مستديم. يتنفَّسُ الماضي والمستقبلُ في هذه اللحظة نفسها، والحاضرُ لا يتدفَّق بالضرورة في اتِّجاهٍ واحد. بل يرسم حَلَقاتٍ ضمن حلقات، مثل الحلقات

التي تجدُها حين تقطعنا.

والزمنُ الشجريّ مثل زمن القصَّة، فهو لا ينمو في خطوطٍ مستقيمة ومنحنياتٍ تامَّة، وزوايا قائمة، بل ينحني ويتلوَّى ويتشعَّب إلى أشكالٍ خياليَّة، يُفرز أفرعًا من العجائب، وأقواسًا من الإبداع.

زمنُ الشجر وزمنُ البشر لا يتواءمان.

كيف تدفن تينةً في عشر خطوات

الرجاء أخذ الصورة من فايل وورد صفحة 54 ***** وضع المجسم المرفق**

1 ـــــ انتظر حتى تتساقط أوراقُ الشجرة من شدَّة الصقيع أو العاصفة الشتويَّة.

2 ـــــ احفر خندقًا أمام الشجرة قبل أن تتجمَّد الأرض. واحرص على أن يكون طويلاً وعريضًا بما يكفي لدخول الشجرة بأكملها.

3 ـــــ قلِّم الفروع الجانبيَّة والعموديَّة الطويلة.

4 ـــــ استخدم حَبْلاً من القنَّب واربط الفروع العموديَّة المتبقِّية، واحذر من الإفراط في ثَنْيِها.

5 ـــــ احفر مسافة قَدمٍ تقريبًا حول مقدِّمة الشجرة وخلفيَّتها. قد تحتاج إلى استخدام مجرفةٍ أو مِعولٍ لقطع الجذور، مع وجوب الحرص على تجنُّب الجذور الواقعة على الجانبيْن، فمن المهمّ الإبقاء على بعض الجذور. وتأكَّد من الحفاظ على سلامة كُرة الجذور المركزيَّة وإمكانيَّة سحبها إلى داخل الخندق.

6 ـــــ اثنِ الشجرة بحرصٍ باتِّجاه الأسفل، وواصل الدفع إلى أن تصبح الشجرة في وضعٍ أفقيٍّ داخل الخندق (قد تنكسر بعض الأغصان، وتنفصم الجذور الشعريَّة، لكنَّ الجذور الكبيرة ستبقى).

7 ـــــ املأ الخندق بمادَّةٍ عضويَّةٍ، كالأوراق الجافَّة، والقشّ، والسماد الأخضر والمهاد الخشبيّ. ولا بدَّ من تغطية الشجرة بقَدمٍ واحدة على الأقلِّ من التربة. يمكنك بعد ذلك استخدام الألواح لتعزيز خاصِّيَّة العزل.

8 ــــ ضع شرائح من الخشب الرقائقيّ فوق الشجرة، مع ترك بعض الفجوات لانتشار الماء والهواء.

9 ــــ غطِّ الخندق بقماشٍ نافذٍ أو قماش القنَّب، مع إضافة خمسة سنتيمترات من التربة السطحيَّة أو الأحجار على أطراف القماش كي لا يطير مع الرياح.

10 ــــ حدِّث تينتك بكلماتٍ تبعث فيها الهدوء والسكينة، وثِق بها، ثم انتظر الربيع.

الغريبة

في اليوم التالي، وفيما كان البرد يشتدُّ، لم تكن آدا ترغب في الخروج من تحت لحافها. كانت تودّ لو تقضي الصباح كلّه تغفو وتقرأ، لولا أنْ رنَّ هاتف البيت. بصوتٍ عالٍ، وإلحاح. قفزتْ من سريرها، وثمَّة خوفٌ غير منطقيٍّ يستحوذ عليها من أن يكون المدير هو المتَّصل (على الرَّغم من أنَّها إجازة أسبوعيَّة)، كي يُخبر والدها بنوع العقاب الذي وجده مناسبًا لها.

تسارعت نبضاتُ قلبها مع كلِّ خطوةٍ تخطوها في الرواق، إلى أن توقَّفت في منتصف المسافة إلى المطبخ حين سمعتْ أباها يرفع سمَّاعة الهاتف.

«ألو؟ أهلاً... مرحبًا. كنتُ أفكِّر في الاتِّصال بك اليوم». ثم انضافَ شيءٌ جديدٌ في صوته. شرارةٌ من ترقُّب.

ضغطتْ آدا ظهرها على الجدار وحاولتْ أن تُخمِّن الشخص الذي يكلِّمه. كان لديها إحساسٌ بأنَّها امرأة. قد تكون أيّ امرأةٍ طبعًا، زميلة، صديقة طفولة، أو حتى مجرَّد امرأةٍ التقاها في السوبرماركت، على الرَّغم من أنَّه ليس من النوع الذي يقيم الصداقات بسهولة. ثمَّة احتمالاتٌ أخرى أيضًا (على الرَّغم من بُعدها)، لكنَّ آدا لم تكن مستعدَّةً لأخذها في الاعتبار.

«نعم، بكلِّ تأكيد. الدعوة ما تزال قائمة. يمكنك المجيء متى شئت».

سحبتْ آدا نَفَسًا عميقًا وهي تتأمَّل كلماته. كان أبوها نادرًا ما يستقبل الضيوف، لا سيَّما بعد وفاة والدتها. وحين يزوره أحد، يكون في الغالب زميلاً من زملاء العمل. لكنَّ هذا الاتِّصال بدا من نوعٍ آخر.

«يسعدني أنَّك استطعت السفر. كثيرٌ من الرحلات أُلغيت». ثم تحوَّلت نبرتُه إلى تمتمةٍ خفيضة وهو يُضيف بهدوء: «في الحقيقة، لم أجد فرصةً لإخبارها بعد».

شعرتْ آدا بوجنتَيْها تحترقان. ثمَّة بساطٌ من الغمِّ استقرَّ عليها وهي تُدرك أنَّ هذا لا يعني سوى شيءٍ واحد؛ وهو أنَّ لوالدها عشيقة. تُرى منذ متى؟ متى بدأت؟ أبعدَ وفاة أُمِّها مباشرةً، أم قبل ذلك؟ لا بدَّ من أنَّها علاقةٌ جدِّيَّة غير عابرة، وإلاَّ ما طلب منها الحضور إلى هذا البيت الذي تسكنُ ذكرى والدتها كلّ ركنٍ فيه.

وراحتْ آدا تتلصَّص من باب المطبخ.

كان والدها جالسًا إلى طرف الطاولة، مخفضًا عينَيْه، يعبث بسلك الهاتف. من الواضح أنَّه متوتِّرٌ بعض الشيء.

«لا، لا! بالتأكيد لا! لن أقبل ذهابك إلى فندق. يؤسفني وصولك في هذا الجوِّ السيِّئ؛ فقد كنتُ أودّ أن آخذك في جولة. نعم، من المطار إلى هنا مباشرة. الأمر بسيط. أحتاجُ إلى بعض الوقت فقط كي أُخبرها». وبعد أن أغلق الخطَّ، عدَّت آدا إلى الأربعين ثم دخلت المطبخ. غرفتْ لنفسها قليلاً من حبوب الإفطار ورشَّت عليها الحليب.

قالت على الرَّغم من أنَّها قرَّرت مبدئيًّا التظاهر بأنَّها لم تسمع المكالمة: «من المتَّصل؟»

أمال كوستاس رأسه قليلاً، في إشارةٍ إلى أقرب كرسيٍّ. «آدا مو، اجلسي. أريد أن أخبرك بشيءٍ مهمّ».

قالت في نفسها ليست إشارة خير، على الرَّغم من أنَّها امتثلت لطلب أبيها.

نظر كوستاس في كوبه وقد بردتْ قهوتُه. لكنَّه أخذ رشفةً منها، وقال: «خالتُك هي التي اتَّصلت».

«من؟»

«مريم. شقيقة والدتك. كنتِ تحبِّين البطاقات البريديَّة التي ترسلها لنا. ألا تذكرين؟»

وعلى الرَّغم من أنَّ آدا قرأتْ تلك البطاقات مئات المرَّات منذ أن كانت صغيرة، إلاَّ أنَّها أبت الاعتراف بذلك الآن. جلستْ منتصبةً وسألت والدها: «ما بها؟»

«مريم في لندن الآن. وصلت اليوم من قبرص وتودُّ زيارتنا».

طَرَفتْ آدا، فمسحتْ وجنتَيْها برموشها السود. «لماذا؟»

«تريد أن ترانا يا حبيبتي.. ولكنَّها في المقام الأوَّل تريد أن تراكِ. عرضتُ عليها أن تُقيم معنا بضعة أيَّام، أو في الواقع أطول قليلاً. خطر لي أنَّها ستكون فرصةً جيِّدة لكي تتعرَّفا إلى بعضكما بعضًا أكثر».

أدخلتْ آدا ملعقتها في الوعاء، فانسكبتْ قطرات الحليب من جانبيْه. أخذتْ تُحرِّك الحبوب ببطء، وظلَّت هي في مظهرها متماسكة.

«إذن، ليست لديك صديقة؟»

تغيَّر وجه كوستاس. «هل هذا الذي كان يدور في بالك؟»

هزَّت كتفَيْها.

مدَّ يده عبر الطاولة، وتناول يد ابنته واعتصرها بلطف. «لا صديقة عندي، ولا أبحث عن واحدة. أنا آسف، كان لا بدَّ من أن أُخبرك عن مريم، فقد اتَّصلت بي الأسبوع الماضي وأخبرتني بأنَّها تعتزم زيارتنا لكنَّها لم تكن متأكِّدة. وبما أنَّ رحلاتٍ كثيرة أُلغيْت فقد قلتُ في نفسي ستُضطرّ بالتأكيد إلى تأجيل الزيارة. وكنتُ أنوي أن أخبركِ في نهاية الأسبوع هذا».

«ما دامت راغبةً في رؤيتنا إلى هذا الحدِّ، فلماذا لم تأتِ إلى جنازة أُمِّي؟»

عاد كوستاس بظهره إلى الكرسيّ، وبرزتْ خطوط وجهه كأنَّها منقوشةٌ بفعل الأضواء الواقعة عليها. «أعرف أنَّكِ مستاءة.. ولديكِ كلُّ الحقّ في ذلك. ولكنْ ما رأيكِ أن تستمعي إليها؟ لعلَّ لديها إجابةً عن هذا السؤال».

«لا أعرف لماذا تتعامل بطيبةٍ مع هذه المرأة. لماذا تدعوها إلى بيتنا؟ إن كنتَ راغبًا جدًّا في رؤيتها، يمكنك أن تدعوها إلى فنجان قهوةٍ في مكانٍ ما».

«يا حبيبتي. أعرفُ مريم منذ أن كنتُ صبيًّا. وهي شقيقة والدتك الوحيدة. هذه عائلتك».

فسخرتْ آدا قائلة: «عائلتي؟ هي بالنسبة إليَّ مجرَّد غريبة».

«أتفهَّم ذلك. لكنِّي أقترح أن نستضيفها، فإنْ ارتحتِ لها سيسعدكِ أنَّكِ التقيتها، وإنْ لم ترتاحي لها فسوف يسعدكِ أنَّكِ لم تلتقي بها من قبل. في كلا الحاليْن لن تخسري شيئًا».

فهزَّت رأسها: «هذه طريقة غريبة يا أبي».

نهض كوستاس وخطا إلى المغسلة، وفي عينيْه إعياءٌ لم يستطع أن يخفيه. سكب ما تبقَّى من قهوته، وغسل الكوب. وهناك في الخارج، عند المكان الذي دُفنت فيه التينة، كان طائر الدغناش ينقر في المعلف، على مهلٍ، وكأنَّه يشعر بأنَّ الطعام سيكون متوافرًا دائمًا في هذه الحديقة.

قال كوستاس وهو يعود إلى الطاولة مستسلمًا: «طيِّب يا حبيبتي. لا أريد أن أضغط عليكِ. إن لم تكوني مرتاحةً للأمر، فلا بأس. سأقابل مريم بمفردي. قالت إنَّها بعد الإقامة معنا سوف تزور صديقةً قديمة. أعتقد يمكنها أن تذهب إليها مباشرةً. وسوف تتفهَّم الأمر. لا عليكِ».

نفختْ آدا وجنتَيْها ثم أطلقت الهواء شيئًا فشيئًا. فكلّ الكلام الذي جهَّزَتْه في عقلها بدا عقيمًا. ثم استحوذ عليها نوعٌ جديدٌ من الغضب؛ فلم تكن تريد لوالدها أن يستسلم بسهولةٍ هكذا. لقد سئمتْ من رؤيته يخسر كلَّ معاركه معها، ثم ينطوي على نفسه وينسحب مثل حيوانٍ جريح.

هكذا تحوَّل غضبُها إلى حزن، والحزنُ إلى استسلام، والاستسلام إلى نوع من الخَدَر، يتضخَّم بكثافة، يملأ الفراغ داخلها. في نهاية المطاف، ما الذي سيحدث لو جاءت خالتها لزيارتهما بضعة أيَّام؟ سيكون الأمر عابرًا معدوم القيمة، مثل البطاقات البريديَّة التي كانت تُرسلها. صحيحٌ أنَّ وجود غريبةٍ في البيت سيكون مزعجًا، لكنَّه ربَّما يحجب تلك الفجوة المتَّسعة بينها وبين والدها.

«أتدري؟ لا يهمّني. افعل ما تشاء. دعها تأتي. ولكنْ لا تنتظر منِّي أن أُجاريك في الأمر. طيِّب؟ هي ضيفتك، لا ضيفتي».

التينة

مريم! هنا في لندن. غريب! مضى زمنٌ منذ آخر مرَّةٍ سمعتُ فيها صوتها المبحوح في قبرص.

أعتقد أنَّ الوقت قد حان كي أخبركم فيه بشيءٍ مهمٍ عنّي؛ فلستُ كما تظنُّون، تينةً شابَّةً رقيقةً مزروعةً في حديقةٍ بشمال لندن. نعم ينطبق عليَّ هذا، وأكثر منه بكثير. أو ربَّما عليَّ القول إنَّني عشتُ حيواتٍ كثيرة في حياةٍ واحدة، وهي طريقةٌ أخرى للقول إنَّني عجوز.

وُلدتُ ونشأتُ في نيقوسيا، في يومٍ من الأيَّام. وأولئك الذين كانوا يعرفونني آنذاك لم يملكوا إلاَّ أن يتبسَّموا لي مع التماعة أعينهم. كنتُ محبوبةً ومقدَّرةً إلى الحدِّ الذي جعلهم يسمَّون حانةً باسمي. ويا لها من حانة! كان أفضل مطعم على مسافة كيلومترات، مكتوبٌ على اللوحة النحاسيَّة فوق مدخله:

التينة السعيدة

في هذا المطعم المحبوب نفسه (الذي يعجّ بالزحام والضجيج والفرح والضيافة)، نشرتُ جذوري وكبرتُ عبر فجوةٍ في السقف فُتحت خصِّيصًا من أجلي.

كان كلّ زائرٍ إلى قبرص يودّ لو يتناول عشاءه هناك، ويتذوَّق محشيَّ الكوسا الشهير، مع سوڤلاكي الدجاج المطبوخ على الفحم، هذا إنْ حالفهم الحظّ في الحصول على طاولة. كان أفضل الطعام يُقدَّم هناك، وأفضل الموسيقى، وأفضل النبيذ، وأفضل أطباق الحلو الذي تتميَّز به تلك الحانة. أقصد التين المشويّ في الفرن بالعسل، مع آيس كريم اليانسون. على أنَّه كان هناك شيءٌ آخر يتميَّز

به ذلك المكان كما يقول روّاده: كان يجعل المرء ينسى، وإنْ لسويعاتٍ قليلة، العالم الخارجيَّ وأحزانَه الجامحة.

كنتُ فارعة الطول، متينةً، ركينةً؛ وكنتُ على الرَّغم من سنِّي، ما أزال أحمل ثمار تينٍ حلوةً غنيَّة، تفوح من كلِّ واحدةٍ منها رائحةٌ عطرة. كنتُ آناء النهار أتلذَّذ بالاستماع إلى جلجلة الأطباق، وثرثرة الزبائن، وغناء الموسيقيّين، إذْ ينشدون الأغاني اليونانيَّة والتركيَّة، أغاني الحبّ والخيانة والقلب المفطور. أمَّا في الليل، فكنتُ أنام نومًا هانئًا، نوم الذي لا سببَ يدعوه إلى الشكِّ بأنَّ غدًا سيكون أفضل من اليوم السابق. إلى أن انتهى كلُّ شيءٍ على حين فجأة.

بعد تقسيم الجزيرة بوقتٍ طويل، وخراب الحانة، استلَّ كوستاس كازنتزاكس قصاصةً من أحد أغصاني، ووضعها في حقيبته. أظنُّني سأبقى مدينةً له دائمًا على ذلك، فلولاه لما تبقَّى شيءٌ منِّي، أنا الشجرة التي كنتُ في قبرص. لكنَّ القصاصة (التي هي أنا أيضًا) بقيَت. كنتُ شيئًا ضئيلاً، لا يزيد طوله عن عشر بوصات ولا يزيد عرضه عن الخنصر. غير أنَّ تلك القصاصة أصبحتْ نسيلةً، متطابقةً جينيًّا. ومن هذه النسيلة، أينعتُ في بيتي الجديد في لندن. صحيحٌ أنَّ نمط أغصاني لن يكون هو نفسه، لكنَّنا نتشابه في كلِّ التفاصيل الأخرى، ما كنتُه في قبرص وما سوف أصبح عليه في إنجلترا. الفرقُ الوحيد أنَّني لم أعد شجرةً سعيدة.

ولكي أتحمَّل تلك الرحلة الطويلة من نيقوسيا إلى لندن، لفَّني كوستاس بحرصٍ في طبقاتٍ من الخيش الرطب، ثم وضعني في قاع حقيبته. كان يعلم أنَّ في ذلك مخاطرة. فالمناخ الإنجليزيّ ليس دافئًا بما يكفي لكي أنمو، ناهيكم عن أن أُثمر. غير أنَّ كوستاس أقدم على هذه المخاطرة، ولم أُخيِّب أمله.

أحببتُ بيتي الجديد في لندن، وجاهدتُ لكي أتأقلم وأنتمي إلى هذا المكان. كنتُ من وقتٍ إلى آخر أشتاق إلى دبابيري، دبابير التين، ولكنْ من حسن الحظّ وتصاريف التطوُّر الذي امتدَّ آلاف السنين أنَّ هناك أشجار تينٍ بكريَّة لا تحتاج إلى تلقيح، وأنا واحدةٌ منها. مع ذلك، فلا بدَّ من مضيّ سبع سنواتٍ قبل أن أطرح ثمارًا من جديد. هذا ما تفعله بنا الهجرات والانتقالات. فحين تترك موطنك متَّجهًا إلى سواحلَ مجهولة لا تبقى كما كنت. ثمَّة جزءٌ في داخلك يموت، كيما يمكن لجزءٍ آخر أن يبدأ من جديد.

واليوم، حين تسألني الأشجار الأخرى عن عمري، أجد من الصعب أن أُقدِّم إجابةً نهائيَّة. كنتُ في السادسة والتسعين في آخر مرَّةٍ أذكرها في الحانة في قبرص. أمَّا أنا التي كبرتُ من قصاصةٍ مغروسةٍ في إنجلترا، فأبلغ من العمر ستَّة عشر عامًا أو أكثر قليلاً.

هل ينبغي دائمًا أن يحسب المرء عمر شخصٍ آخر بإضافة الأشهر والسنوات في حسابٍ مباشرٍ بسيط؟ أم أنَّ هناك حالاتٍ يكون فيها من الحكمة أن يوفِّق المرءُ بين الفترات الزمنيَّة كيما يصل إلى العدد النهائيّ الصحيح؟ وماذا عن أسلافنا؟ هل يمكن أن يستمرُّوا في الوجود من خلالنا؟ ألهذا السبب حين تقابل بعض الأشخاص (وبعض الأشجار أيضًا) لا تملك إلاَّ أن تشعر بأنَّهم بالتأكيد أكبر من أعمارهم بكثير؟

من أين تبدأ قصَّةُ المرء حين يكون لكلِّ حياةٍ أكثر من خيطٍ واحد؟ وحين يكون ما نُسمِّيه مولدًا ليس البداية الوحيدة، في حين أنَّ الموت ليس بالضبط نهايةً؟

الحديقة

كان ذلك في مساء السبت، وقد فرغتْ آدا لتوِّها من زجاجة الدايت كولا، في حين فرغ كوستاس من تناول آخر فنجان قهوةٍ لهذا اليوم. وفجأةً، شقَّ صوتُ الجرس الصمتَ السائد في البيت.

جَفَلتْ آدا. «أيُعقل أن تكون قد وصلتْ؟»

فقال والدها وهو يرمقها بنظرة اعتذارٍ بينما يغادر الغرفة: «سأفتح الباب».

وضعتْ آدا يدَيْها على حجرها، تتأمَّل أظافرها المقضومة حتى الجلد، ثم أخذتْ تسحب ببطءٍ قطعة جلدٍ في إبهامها الأيمن. وما هي إلاَّ ثوانٍ حتى تناهت الأصواتُ من الردهة.

«أهلاً أهلاً مريم. سعيدٌ برؤيتك».

«كوستاس، يا إلٰهي كيف تغيَّر شكلك!»

«أمَّا أنتِ فلم يتغيَّر فيكِ شيء».

«آه، هذه كذبة كبيرة طبعًا، ولكنْ في هذه السنّ يسعدني أن أحمل منها قدر ما أستطيع».

ضحك كوستاس. «ودَعيني أنا أحمل حقائبك».

«شكرًا. لكنَّها ثقيلة قليلاً. المعذرة، أعرف أنَّه كان ينبغي لي الاتِّصال مسبقًا للتأكيد على قدومي، لكنَّ الأمور جرت سريعةً متتابعة. والحقيقة أنِّي حتى اللحظة الأخيرة لم أكن واثقةً من أنَّني سأجد حجزًا على الطائرة. بل إنِّي تشاجرتُ قليلاً مع وكالة السفريَّات».

فقال كوستاس بنبرةٍ لطيفة: «لا عليكِ. يُسعدني أنَّكِ جئت».

«وأنا كذلك... سعيدةٌ جدًّا بوجودي هنا، أخيرًا».

استقامت آدا في جلستها وهي تنصت، متفاجئةً من حسِّ الحميميَّة في ذلك الحوار. ثم سحبتْ جلد إصبعها بقوَّةٍ، حتى ظهرت بقعةٌ حمراء فاقعة بين الجلد والظفر، فمصَّتها بسرعة.

بعد لحظاتٍ، دخلت امرأةٌ ترتدي معطفًا رماديًّا طويلاً مجعَّدًا، وعليها قبَّعةٌ تضيف إلى استدارة وجهها ولون بشرتها الزيتونيّ. كانت عيناها تتحوَّلان إلى اللون البندقيّ مع شيءٍ من لون النحاس، تحت حاجبَيْها الرفيعَيْن. أمَّا شعرُها فكان منسدلاً على كتفَيْها في دوائر كستنائيَّة متموِّجة. غير أنَّ أنفها كان العلامة الأبرز في وجهها، قويًّا بارز العظام. في منخرها الأيسر حَلَقٌ صغير من الكريستال. تفحَّصت آدا الضيفةَ القادمة، وخلُصت إلى أنَّها لا تشبه والدتها في شيءٍ على الإطلاق.

«أوه، واو... أنتِ آدا بالتأكيد».

نهضتْ آدا وهي تقضم باطن وجنتها. «مرحبًا».

«يا إلٰهي. كنتُ أتخيَّل أنَّني سأرى صبيَّةً صغيرة، لكنَّك امرأةٌ شابَّة».

مدَّت آدا يدها بتحفُّظ، لكنَّ مريم كانت قد مالت نحوها بحركةٍ سريعة وجذبتْها إلى حضنها، فكان صدرُها الممتلئ الناعم يضرب في ذقن آدا. كانت وجنتاها باردتَيْن من أثر الريح، وتتهادى منها رائحةٌ أقرب إلى مزيج ماء الورد وكولونيا الليمون.

ثم أزاحت ذراعَيْها وأمسكتْ بآدا من كتفَيْها: «دعيني أتأمَّلك. أوه، ما أجملك. مثل أمّك! أنتِ في الواقع أجمل من صوَرك».

تراجعتْ آدا خطوةً، وحرَّرت نفسها من حضن مريم. «لديكِ صُوري؟»

«طبعًا. مئات الصور. كانت أمّك ترسلها إليَّ، فأحتفظ بها في ألبومات. بل عندي طبعةٌ لقدميْكِ الصغيرتَيْن على الطين وأنتِ رضيعة. ما أحلاها!»

أمسكتْ آدا بيدها اليسرى إبهامها النازف الذي بدأ يخفق بنبضٍ مستمرّ.

وعندها دخل كوستاس الغرفة حاملاً ثلاث حقائب كبيرة، كلّ واحدةٍ منها بدرجةٍ من اللون الورديّ، وعليها صورةٌ لمارلين مونرو.

قالت مريم في حَرَج: «أوه، ممتنَّة لك. ضعها هنا، لا تزعج نفسك بها».

«لا عليكِ. غرفتكِ جاهزة إن كنتِ تودِّين أن ترتاحي قليلاً. أو يمكننا أن نشرب فنجان شاي. كما تشائين. أم أنَّك جائعة؟»

هزَّت مريم كتفَيْها وهي تنهار على أقرب مقعد، ورنَّت أساورها الكثيرة في ذراعَيْها، في حين التمعتْ على عنقها سلسلةٌ ذهبيَّة بها خرزةٌ لمنع الحسد. عينٌ زرقاء لا ترمش.

«لا، شكرًا. أكلتُ في الطائرة. صحيحٌ أنَّ وجبات الطيران ضئيلةٌ جدًّا، لكنَّها تجعلك مثل السمكة المنتفخة. أمَّا الشاي فلا أرفضه أبدًا، ولكنْ من دون حليب. لا أفهم أبدًا كيف يشرب الإنجليز الشاي بالحليب!»

فقال كوستاس: «حاضر»، ثم وضع الحقائب على الأرض وتوجَّه إلى المطبخ.

فجأةً وجدتْ آدا نفسها وحيدةً مع هذه الغريبة الصاخبة، فشعرتْ بتوتُّرٍ يجتاح كتفَيْها.

سألتْها مريم بصوتٍ يبدو مثل أجراسٍ فضِّيَّة: «أخبريني، في أيِّ مدرسةٍ تدرسين؟ وأيّ مادَّةٍ تحبِّين؟»

فقالت آدا: «عذرًا، الأفضل أن أذهب لمساعدة أبي»، وانطلقتْ من الغرفة دون أن تنتظر ردًّا.

*

في المطبخ، وجدتْ والدها يملأ الغلاَّية.

همستْ له وهي تقترب: «إذَن؟»

«ماذا؟»

«ألن تسألها عن سبب مجيئها؟ لا بدَّ من سبب. أراهن أنَّ الأمر متعلِّقٌ بالمال. ربَّما تُوفِّي جدَّاي، وهناك خلافٌ على الميراث، فجاءت تريد الحصول على نصيب أمِّي».

«آدامو. اهدأي. لا تتسرَّعي في الحكم».

«إذن، اسألها يا أبي».

«سأفعل. سنسألها. معًا. اصبري قليلاً». ثم وضع الغلاَّية على الموقد، ورتَّب أكواب الشاي في صينيَّة، وفتح آخر كيسٍ من البسكويت. لقد نسي أن يشتري أغراض البيت.

قالت آدا وهي تعضّ شفتها السفلى: «لم تعجبني. تبالغ جدًّا في تصرُّفاتها. هل سمعتَ ما قالته عن طبعة قدميَّ؟ شيءٌ مزعج! لا يجوز أن يقتحم المرء بيت أشخاصٍ لم يلتقِهم من قبل ويتوقَّع أن يأخذوه بالأحضان مباشرةً».

«طيِّب. ما رأيكِ أن تحضِّري الشاي؟ الإبريق جاهز، وما عليكِ إلاَّ إضافة الماء».

فقالت آدا بتنهيدة: «طيِّب».

«سأذهب وأدردش معها. خذي وقتك. يمكنكِ الانضمام إلينا متى رغبتِ».

«وهل يتوجَّب عليَّ ذلك؟»

«يا آديتسا[2]، امنحيها فرصةً. كانت أمّك تحبُّ أختها. امنحيها فرصةً لخاطر والدتك».

*

استندت آدا إلى المنضدة في المطبخ تفكِّر وحيدةً وهي تنتظر الماء يغلي.

قالت لها خالتُها كم أنتِ جميلة! مثل والدتك.

عادت آدا بذاكرتها إلى عصر يومٍ ناعسٍ في الصيف قبل الماضي. كانت أزهار البتونيا والقطيفة تلوِّن الحديقة بلونٍ بهيٍّ من البرتقاليِّ والأرجوانيّ، قبل أن يضع الموتُ قدمَيْه في هذا البيت. في ذلك اليوم، جلستْ مع والدتها على مقعدَيْن منبطحَيْن، حافيتَي الأقدام، والشمسُ تلسع سيقانهما. كانت والدتها تقضم طرفَ قلم الرصاص وهي تحلّ الكلمات المتقاطعة، فيما تشرب آدا عصير ليمون وتكتب مقالاً للمدرسة عن آلهة الإغريق. لكنَّها لم تستطع أن تستجمع أفكارها.

«ماما، هل كانت أفروديت فعلاً أجمل إلٰهةٍ بين آلهة الأولمب؟»

حدجتْها ديفني بنظرةٍ وهي تزيل خصلة شعرٍ من أمام عينَيْها: «كانت جميلةً، نعم. أمَّا من حيث طِيبتها فتلك مسألةٌ أخرى».

«أوه، كانت لئيمةً إذن؟»

«في الحقيقة، نستطيع أن نقول إنَّها كانت ابنة كلب، واعذريني على اللفظ. لم تكن تعبأ بمساعدة النساء، ورأيي هو أنَّها ليس لها من النسويَّة إلاَّ القشور».

قهقهتْ آدا. «تتحدَّثين كما لو أنَّكِ تعرفينها».

«بالطبع أعرفها! نحنُ كلُّنا من جزيرةٍ واحدة. لقد وُلدتْ أفروديت في قبرص، من زَبَد بحر بافوس».

«لم أكن أعرف هذا. إذن، فهي إلٰهةُ الحبِّ والجمال؟»

«نعم، بالضبط. وإلٰهة الرغبة والمتعة أيضًا... والإنجاب. على الرَّغم من أنَّ بعضًا من هذه الصفات نُسب إليها لاحقًا، من خلال تجسيدها الرومانيِّ، ڤينوس. أمَّا أفروديت نفسها فكانت هدَّامةً وأنانيَّة. خلف وجهها الجميل ثمَّة امرأةٌ متنمِّرة تحاول أن تسيطر على النساء».

«كيف؟»

«كانت هناك فتاةٌ شابَّة تُدعى �وليفونتي. ذكيَّةٌ، حرونة. نظرتْ في حال أُمِّها وخالتها، فقرَّرتْ لنفسها حياةً مختلفة. لا «شكرًا»، لا زواج، ولا زوج، لا ممتلكات، ولا واجبات منزليَّة. سوف تسافر في العالم إلى أن تجد ما تبحث عنه، فإنْ لم تجده ذهبتْ إلى أرتميس وانضمَّت إليها راهبةً عذراء. هذا ما كانت تصبو إليه، فلمَّا سمعتْ أفروديت بذلك استشاطت غضبًا. أتعرفين ماذا فعلت ب�وليفونتي؟ لقد قادتها إلى الجنون. المسكينةُ فقدتْ عقلها».

«وما الذي يجعل إلٰهةً تفعل ذلك؟»

«سؤالٌ رائع. في كلِّ الخرافات والحكايات الخياليَّة، لا بدَّ من أن تُعاقب المرأة التي تكسر أعراف المجتمع. وعادةً ما يكون العقاب نفسيًّا، عقليًّا. لا جديد، هاه؟ أتذكرين الزوجة الأولى للسيِّد روشستر في رواية جين آير؟ �وليفونتي هي نسختنا في البحر الأبيض المتوسِّط من الأنثى المختلَّة

عقليًّا، لكنَّنا لم نحبسها في العلِّيَّة، بل قدَّمناها طعامًا لدبّ. يا لها من نهايةٍ غير متحضِّرةٍ، لامرأةٍ لم ترغب في أن تكون جزءًا من الحضارة!»

حاولت آدا أن تبتسم، لكنَّ شيئًا في داخلها أوقفها. قالت ديفني: «على أيِّ حال، تلك أفروديت التي تسألين عنها. ليست صديقةً للنساء، لكنَّها جميلة، نعم!»

التينة

كان ذلك من طقوس الجنائز، طقسًا عتيقًا يَهدي أرواح الأحبَّة الذين رحلوا إلى برِّ الأمان، كي لا تهيمَ في تجاويف الأثير. وقد جرت القاعدةُ أن تُقام تلك الطقوس تحت شجرة تين، غير أنَّها في هذه المرَّة لا بدَّ من أن تكون فوقها، نظرًا لحالتي الآن.

كنتُ من مكاني الذي أقبعُ فيه أُنصتُ إلى وقعٍ خفيضٍ رنَّان، إذْ يوضع الحَجَرُ فوق الحجر، فينتصبُ مثل عمودٍ يدعم قنطرة السماء. أولئك الذين يؤمنون بهذه الأشياء يقولون إنَّ الصوت يرمز إلى خطوات النفس المفقودة، وهي تخطو على الصِّراط، ذلك الجسر الأدقّ من خصلة الشعر، والأحدِّ من السيف، يتأرجحُ في الفراغ ما بين عالم الدنيا وعالم الآخرة. في كلِّ خطوةٍ، تضعُ النفسُ عنها واحدًا من أحمالها الكثيرة، إلى أن تتخلَّص أخيرًا من كلِّ شيء، بما في ذلك مخزون الألم الساكن فيها.

لو سألتمْ العارفين بأشجار التين لقالوا لكم إنَّ البشر يعدُّوننا كائناتٍ مُباركة، منذ أزمانٍ طويلة. ثقافاتٌ كثيرة تعتقد أنَّ الأرواح تسكن في جذوعنا، منها الصالح والطالح، ومنها أرواحٌ بَين ذلك، لا يراها إلاَّ العارفون. ويزعم آخرون أنَّ كلّ جنسٍ من فيكس في واقع الأمر مُلتقى من نوعٍ ما، إذْ تلتقي خلائق الضوءِ والظلّ كلّها، لا البشر والحيوانات فحسب، من تحتنا أو فوقنا أو حولنا. وثمَّة قصصٌ كثيرة عن أوراق تين الهند التي تحفحف دون نسمةٍ من هواء. تظلّ الأشجار الأخرى ساكنةً، والكون كلّه في سكون، فيما يهتاجُ تينُ الهند ويتكلَّم. يتكثَّف الهواءُ كأنَّما يُرسل تحذيرًا إلى الآخرين. مُخيفٌ ذلك المنظر!

لطالما أحسَّ البشر بوجود شيءٍ غريبٍ فينا. ولذلك يأتون إلينا حين تكون لهم حاجةٌ أو مشكلة، يعقدون شرائط المخمل أو خيوط القماش في أغصاننا. ونحن نساعدهم في بعض الأحيان، دون حتى أن يلاحظوا ذلك. كيف إذن كان للذئبةِ أن تجد التوأميْن رومولوس وريموس[3] في نهر

التيبر لولا أن علقت سلَّتهما بجذور فيكس رومينالس؟ وفي اليهوديَّة، ارتبط الجلوسُ تحت شجر التين بتدبُّر التوراة تدبُّرًا خاشعًا. نعم، يُقال إنَّ يسوع ربَّما استاء من شجرة تينٍ جرداء، ولكنْ لا تنسوا أنَّ الضمَّادة التي وُضعت على جرح حزقيا أنقذتْ حياته، والضمَّادة كانت مصنوعةً منَّا[4]. وقد قال النبيَّ محمَّد إنَّ شجرة التين هي التي تمنَّى لو أنَّها من الجنَّة، كما أنَّ هناك سورةً في القرآن باسمنا. أمَّا بوذا فقد وصل إلى الاستنارة حين كان يتأمَّل تحت شجرة فيكس ريليغيوسا. لم أحكِ لكم أيضًا عن محبَّة الملك داوود لنا، وعن الأمل الذي بعثناه في كلِّ حيوانٍ وبشرٍ في سفينة نوح!

ترقُّ عواطفي لكلِّ من يبحث عن ملاذه تحت شجر التين، أيًّا كان سببه. وقد ظلَّ البشر يفعلون هذا قرنًا وراء قرن، من الهند حتى الأناضول، ومن المكسيك حتى السلڤادور. يسوِّي البدو خلافاتهم تحت ظلالنا، ويقبِّل الدروز جذوعنا باحترام، يضعون أغراضهم حولنا، ويصلُّون من أجل المعرفة. يقيم العربُ واليهودُ تجهيزات أعراسهم إلى جانبنا، رجاةَ أن ترسخَ الزواجات وتثبتَ أمام أيّ عاصفةٍ قد تأتي. يحبُّ البوذيُّون والهندوس أن تُزهر قرب أضرحتهم. ونساءُ الكوكويو في كينيا يمسحن على أجسادهنَّ بنسغ التين إن أردنَ الإنجاب، وهنَّ من يدافعن عنَّا بشراسةٍ كلَّما حاول أحدهم أن يقطع شجرة الموغومو المقدَّسة.

تحت ظلَّتنا تُقدَّم القرابين، وتُطرح النذور، وتُلبَس الخواتم، وتُوضَع الثارات. بل إنَّ البعض يعتقد أنَّ المرء إنْ طاف حول شجر التين سبع مرَّاتٍ وهو يحرقُ البخور ويتلو الكلمات المناسبة بالترتيب الصحيح، فقد يستطيع أن يُغيِّر جِنسه الذي وُلد فيه. هناك أيضًا من يطرقُ المسامير الحادَّة في جذوعنا، كي ينقل إلينا الأمراض التي تكالبت عليه. ونحنُ نحتملُ ذلك كلّه بصمت. لا عجبَ إذنْ أنَّهم يسمُّوننا الأشجار المباركة، وأشجار الأمنيات، والأشجار الملعونة، وأشجار الأشباح، والأشجار السماويَّة، والأشجار الغرائبيَّة، والأشجار سارقة الأرواح...

ولا عجب أنْ أصرَّت مريم على إقامة الطقوس لأختها الراحلة تحت شجرة فيكس كاريكا، أو فوقها. كانت تضربُ الأحجار بعضها ببعض، وتنشدُ أنشودة رثاءٍ بطيئة. عويلٌ متأخِّرٌ للجنازة التي لم تستطع أن تحضرها.

في أثناء ذلك، كنتُ واثقةً من أنَّ حبيبي كوستاس يقف على مبعدةٍ، صامتًا. لم أكن في حاجةٍ إلى النظر في وجهه كي أعرف ما فيه من استنكارٍ مؤدَّب. فهو رجل علمٍ ومنطقٍ وبحث، لا يعترف

أبدًا بما وراء الطبيعة، لكنَّه لا يسفِّه أحدًا يؤمن به. صحيحٌ أنَّه عالِم، لكنَّه في نهاية المطاف ابن جزيرةٍ، تربَّى على عين أمٍّ نزَّاعةٍ إلى الخرافة.

سمعتُ ذات مرَّةٍ ديفني تقول له: «لا يمكن لأهل الجُزُر المضطربة أن يكونوا طبيعيِّين أبدًا. قد نتظاهر، ونحقِّق نجاحًا مدهشًا في ذلك، لكنَّنا لا نستطيع أبدًا أن نعرف كيف نشعر بالأمان. فالأرض التي تبدو للآخرين صلبةً كالصخر من تحتهم، ليست بالنسبة إلى بني جلدتنا إلاَّ مياهًا متلاطمة».

كان كوستاس ينصت إليها باهتمامٍ كعادته. فقد ظلَّ دائمًا، في سنوات الزواج وقبل ذلك أيضًا، يحرص على أنْ لا تبتلعها تلك المياه المتلاطمة. لكنَّها ابتلعتْها في نهاية الأمر.

لا أعرف لماذا جاءتني هذه الذكرى الليلة وأنا أستلقي مدفونةً تحت الأرض. لكنِّي كنتُ أتساءل ما إذا كانت الحجارة التي وضعتْها مريم على الأرض الباردة نوعًا من الراحة، أو علامةَ طمأنينةٍ، حين لا يوجد شيءٌ ثابتٌ في مكانه!

المأدبة

أفاقت آدا في الصباح التالي، فوجدتْ البيت مضمَّخًا بروائح غير معتادة. كانت خالتها قد أعدَّت وجبة الإفطار، أو في الحقيقة شيئًا أقرب إلى المأدبة.. جبنَ الحلُّوميّ المشويّ مع الزعتر، وجبنَ الفيتا المخبوز مع العسل، والحلوى التركيَّة بالسمسم، والطماطم المحشوَّة، والزيتون الأخضر بالشمَّر، ولفائف الخبز مع الزيتون الأسود المهروس، والفلفل المقليّ، والنقانق الحارَّة، وبوريك السبانخ، وأعواد الخبز بالجبن، ودبس الرمَّان بالطحينة، وجيلي التوت، ومربَّى السفرجل، وصحنًا كبيرًا من البيض المخفوق، وزبادي الثوم. كان كلَّ ذلك مرتَّبًا فوق الطاولة.

قالت آدا وهي تدخل المطبخ: «أوه، واو!»

التفتتْ إليها مريم مبتسمةً، وهي تقطِّع البقدونس على لوحٍ خشبيٍّ. كانت ترتدي تنُّورةً سوداء طويلة، وسترةً رماديَّة طويلة تكاد تصل إلى ركبتَيْها.

«صباح الخير».

«من أين هذا الأكل كلّه؟»

«وجدتُ بضعة أشياء في الخزانات هنا، والبقيَّة أحضرتُها معي. ليتكِ رأيتِني في المطار! كنتُ مرتعبةً من أن تلتقط تلك الكلابُ الشمَّامةُ رائحةَ الحلوى. عبرتُ من الجمارك وقلبي قد وصل إلى فمي؛ فهم دائمًا ما يستوقفون أمثالي، أليس كذلك؟» وأشارت إلى رأسها: «بشعري الأسود هذا وجواز سفري».

جلستْ آدا في طرف الطاولة، تستمع. كانت تراقب خالتها وهي تقطِّع شريحةً كبيرة من البوريك، وتغرف قطعًا كبيرةً من البيض المخفوق والنقانق في صحن. «هل هذا لي؟ كثيرٌ جدًّا».

«كثير! هذا لا شيء! النسرُ لا يتغذَّى على الذباب».

ربَّما استغربتْ آدا تلك الجملة، لكنَّ ملامحها ظلَّت ثابتة. نظرتْ حولها. «أين أبي؟»

سحبتْ مريم كرسيًّا لنفسها، وهي تحمل كأس شاي. يبدو أنَّها أحضرت معها من قبرص طقم كؤوس شاي، وسماور نحاسيًّا كان يغلي الآن ويهسهس على مقربة.

«في الحديقة. قال إنَّ عليه التحدُّث إلى الشجرة».

تمتمتْ آدا وهي تغرس شوكتها في الطعام: «نعم، كالعادة. إنَّه مهووسٌ بتلك التينة».

عَبرَ طيفٌ على وجه مريم. «لا تحبِّين التينة؟»

«ما الذي يجعلني لا أحبّ شجرة؟ ما لي وما لها؟»

«لكنَّها ليست شجرةً عاديَّة. أحضرها أبواكِ معهما من نيقوسيا».

لم تكن آدا تعرف ذلك، فلم تجد ما تقوله. لا تتذكَّر يومًا في حياتها لم تكن فيه الفيكس كاريكا موجودةً في الحديقة. أخذتْ قضمةً من البوريك، تمضغها على مهل. لا شكَّ في أنَّ خالتها طبَّاخةٌ ماهرة، على عكس والدتها التي كانت دائمًا غير مهتمَّةٍ بأيِّ شكلٍ من أشكال الأعمال المنزليَّة.

أزاحت الصحن جانبًا.

رفعتْ مريم حاجبَيْها المحفوفَيْن حتى صارا كقوسَيْن مرسومَيْن على جبينها العريض. «نعم؟ هذا فقط؟ ألن تأكلي أكثر؟»

«المعذرة. لستُ من هُواة الإفطار».

«وهل هذا صنفٌ جديد من البشر؟ أليس الناس كلّهم من هواة الإفطار؟ كلّنا نفيق في الصباح جوعى».

ألقتْ آدا نظرةً سريعةً على خالتها. كانت للمرأة طريقةٌ غريبةٌ في الكلام، مسلِّيةً ومزعجةً بالقدر نفسه.

جاء صوتُ كوستاس: «صباح الخير». ذرعَ المطبخ، ووجنتاه تغشاهما حُمرة البرد، ورقائقُ الثلج تتناثر على شعره. «ما أروعه من طعام».

«نعم، لكنَّ شخصًا هنا لا يريد أن يأكل».

تبسَّم كوستاس لابنته. «آدا لا تأكل كثيرًا في الصباح. لكنِّي متأكِّدٌ من أنَّها ستأكل لاحقًا».

«لاحقًا شيء، والآن شيء. لا بدَّ للشخص من أن يأكل فطورَ سلطان، وغداء وزير، وعشاء متسوِّل. وإلاَّ فسدَ النظامُ كلُّه».

جلستْ آدا في كرسيِّها، وشبكتْ ذراعَيْها. راحتْ تتأمَّل تلك المرأة التي ظهرت فجأةً في حياتهما. تتأمَّل الأبعاد الوافرة من وجهها، وحضورها الصاخب. «لكنَّكِ لم تخبرينا حتى الآن سببَ مجيئك».

«آدا!»

«نعم؟ قلتَ لي يمكنني أن أسأل».

فقالت مريم: «لا بأس. جيِّدٌ أنْ تسأل». وضعتْ قطعة سكَّر في شايها، وأخذتْ تقلِّب. فلمَّا تحدَّثتْ مرَّةً أخرى خرج صوتُها مختلفًا. «أُمِّي ماتت. منذ عشرة أيَّامٍ بالضبط».

«ماما سلمى ماتت؟ لم أكن أعرف. خالص التعازي يا مريم».

«شكرًا». لكنَّ عينَيْها ظلَّتا تنظران إلى آدا. «كانت جدَّتكِ تبلغ الثانية والتسعين، وماتت في نومها. موتَ نِعمةٍ كما نقول. تدبَّرتُ أمر الجنازة، ثم حجزتُ أوَّل رحلة سفرٍ وجدتُها».

التفتتْ آدا لأبيها. «قلتُ لك إنَّ للأمر علاقةً بالإرث».

فردَّت مريم: «أيُّ إرث؟»

هزَّ كوستاس رأسه. «تعتقد آدا أنَّكِ جئتِ لمناقشة بعض الأوراق والمعاملات».

«آه، وكأنَّني أهتمُّ بذلك! كان أبواي بسيطَيْن. لا، لم آتِ كي أناقش أيّ معاملاتٍ معكما».

فقالت آدا وقد استَعَرَتْ تحديقتُها: «إذنْ، لماذا جئتِ فجأةً هكذا؟»

حلَّ صمتٌ بعد ذلك كان يدور فيه شيءٌ بين مريم وكوستاس، حديثٌ مكتوم. شعرتْ آدا به، لكنَّها لم تعرف ما يكون. جاهدتْ نفسَها كي لا تسأل عن الذي يخفيانه عنها، فجلستْ مستقيمةً، كما علَّمتها أمّها.

فقالت مريم بعد سكتةٍ قصيرة: «كنتُ دائمًا أودُّ أن أزوركما. وكيف لا أريد أن أرى ابنة أختي؟ غير أنِّي كنتُ قد قطعتُ وعدًا. مات أبي قبل أربع عشرة سنة، وكنتِ آنذاك طفلةً صغيرة. لكنِّي كنتُ ملزمةً بوعدي ما دام أبواي على قيد الحياة».

«أيّ وعدٍ هذا؟»

ردَّت مريم وقد ثَقُلتْ أنفاسُها قليلاً: «وعدتُ بأنِّي لن أرى أيًّا منكما ما دام والداي على قيد الحياة. فلمَّا ماتت أُمِّي، شعرتُ بأنَّ لي حرِّيَّة السفر».

«ولكن ما الذي يجعلكِ تقطعين وعدًا فظيعًا كهذا؟ ومن ذا الذي قد يطلب منكِ هذا الوعد؟»

فقال كوستاس بهدوء: «آدامو. اهدأي».

نظرت آدا إلى أبيها، والغضبُ يلتمعُ في عينَيْها. «أبي، لستُ طفلة. أفهم أنَّك يونانيّ، وأُمِّي تركيَّة، من طائفتَيْن متعاديتَيْن. عداوة دم. وأفهم أنَّكما حين تزوَّجتما انزعج البعض من ذلك، صحيح؟ وماذا في ذلك؟ لا شيء يبرِّر هذا التصرُّف. لم يزورونا مرَّةً واحدة. لا أحد زارنا لا من أهلك ولا من أهل أُمِّي. لم يحضروا جنازة أُمِّي. وتريد أن تسمِّي هذه عائلة؟ لستُ مستعدَّةً لأنْ أجلس هنا وآكل الفلافل وأستمع إلى الأمثال الشعبيَّة، وأتظاهر بأنَّ الأمر لا يزعجني!»

وضعتْ مريم قطعة سكَّرٍ في شايها، وقد نسيت أنَّها وضعت قطعةً من قبل. رشَفتْ رشفة. كثيرٌ من السكَّر. أزاحت الكأس جانبًا.

هزَّت آدا رأسها، وقالت: «عذرًا على وقاحتي»، ثم دفعت كرسيِّها للوراء ونهضت. «لديَّ واجباتٌ أُنجزها».

فلمَّا خرجتْ حلَّ صمتٌ مُربك في المطبخ. خلعتْ مريم خواتمها، واحدًا تلو الآخر، ولبستها مرَّةً أخرى. ثم تمتمتْ لنفسها: «لكنِّي لم أطبخ فلافل. ليست من أكلنا أصلاً».

قال كوستاس: «المعذرة. لقد قاست آدا كثيرًا هذا العام. كان عامًا صعبًا عليها».

فقالت مريم وهي ترفع رأسها لتنظر إليه: «وعليكَ أيضًا. لكنَّ الشبه كبير بينهما.. إنَّها.. إنَّها مثل أُمِّها تمامًا».

هزَّ كوستاس رأسه بنصف ابتسامة. «أعرف».

«ولها كلُّ الحقِّ في أن تطرح هذه الأسئلة. الغريبُ أنَّك أنتَ لستَ غاضبًا منِّي».

«وما الفائدة؟ ألم نحتمل ما يكفي من الغضب والكراهية والألم؟ تحمَّلنا ما يكفي وزيادة».

نظرتْ مريم حولها كأنَّما تبحث عن شيءٍ أضاعتْه، ثم تحوَّل صوتُها إلى الهمس حين تحدَّثت. «ما مقدار الذي تعرفه آدا؟»

«ليس كثيرًا».

«لكنَّها تريد أن تعرف. إنَّها شابَّةٌ وذكيَّة. تريد أن تعرف وتتعلَّم».

«قلتُ لها بضعة أشياء متفرِّقة».

«لا أظنُّها تكتفي بها».

أمال كوستاس رأسه، فتعمَّقت خطوطُ حاجبَيْه: «إنَّها طفلةٌ بريطانيَّة، لم تزر قبرص. كانت ديفني على حقّ؛ فلماذا نُحمِّل أطفالنا ماضينا، أو المشاكل التي صنعناها في ذلك الماضي؟ هذا جيلٌ جديد. صفحةٌ بيضاء. لا أريد لها أن تنشغل بتاريخٍ لم نأخذ منه سوى الألم والارتياب».

فقالت مريم في تفكيرٍ مستغرق: «كما تشاء».

ووضعتْ قطعة سكَّرٍ أخرى في شايها، تراقبها وهي تذوب.

الجزء الثاني

الجذور

العاشقان
قبرص، 1974 م

ساعةٌ، قبل منتصف الليل. البدرُ منيرٌ، بهيجٌ، وقد مضى يومٌ على اكتماله. كان من عادة ديفني أن تحبَّ البدر، غير أنَّها الليلة كانت تحتاجُ إلى ستار الليل.

نهضتْ من سريرها، فخلعتْ منامتَها وارتدت تنُّورةً زرقاء حزَّمَتْها بنطاقٍ جلديٍّ مطرَّز، وقميصًا أبيض مزركشًا شهد الجميعُ بأنَّه يليقُ بها. وضعتْ قرطَيْها، لا القرطَيْن الذهبيَّيْن اللذَيْن تصعب ملاحظتهما لفرط صغرهما، بل قرطَي الكريستال إذْ يتدلَّيان إلى كتفَيْها، ويلتمعان لمعة النجوم. هكذا شعرتْ بأنَّها أكبر سنًّا، وأكثر إشراقًا. أوثقتْ رباطَي حذائها معًا، فعلَّقتهما حول رقبتها. كان عليها أن تكون هادئةً كهدأةِ الليل نفسه.

رفعتْ زجاج النافذة، وخرجتْ إلى عتبتها، ثم زحفتْ على الإفريز قليلاً. تناهى إليها صوتٌ من بعيد، نداءٌ خفيفٌ من نغمتَيْن. لعلَّها بومةٌ تطارد فريستها. كتمتْ أنفاسها، تُنصت. كان كوستاس قد علَّمها منظومة النعيق: نغمةً قصيرةً، فسكتةً، فنغمةً طويلة، وأخرى طويلة. كان ذلك أشبه بشفرة مورْس للبوم.

وصلتْ إلى فرع شجرة الفرصاد، فدفعتْ نفسها إليه في حذر. ومن هناك نزلتْ، من فرعٍ إلى آخر، كما كانت تفعل في صغرها. وبمجرَّد أن قفزتْ إلى الأرض، نظرتْ إلى الأعلى لترى ما إذا كان هناك أحدٌ يراقبها. ظنَّتْ للحظةٍ أنَّها رأتْ طيفًا في إحدى النوافذ. أتكون أختها؟ لكنْ من المفترض أن تكون مريم نائمةً في غرفتها. كانت قد تأكَّدت من ذلك قبل خروجها.

تسلَّلتْ إلى خارج الحديقة وبطنُها ينقبض لفرط القلق. كان نورُ القمر ينعكس على أرصفة الحجر في الشارع الضيِّق، حتى صارت جداولَ فضِّيَّةً تتلألأ أمامها كما لو أنَّها تتزلَّج فوق الماء.

سرَّعَتْ خطواتِها، وهي تسترقُ النظرَ بين الوهلة والأخرى خشية أن يكون أحدٌ يلاحقها.

*

كانا في العادة يلتقيان هنا في أواخر الليل، في هذا المنعطف من الطريق عند زيتونةٍ قديمة. يتمشَّيان قليلاً، أو يجلسان فوق جدارٍ خفيض، يتخفَّيان في الظلال، والظلمةُ وشاحٌ أملس يغطِّي القلق. في بعض الأحيان، يطير فوقهما مالك الحزينُ برأسه الأسود، أو يمرّ من أمامهما قنفذ. مخلوقاتٌ ليليَّةٌ تتكتَّم على أمرها كما يفعل هذان العاشقان.

اليومَ تأخَّرتْ. حين اقتربتْ من مكان اللقاء تسارعتْ أنفاسُها. لا مصابيح في الشوارع، ولا منازل، لا شيء سوى الظلام يكاد يكون حالكًا في المكان. فلمَّا اقتربتْ أكثر ضيَّقتْ عينَيْها، تحاولُ أن تتبيَّن هيئتَه بين الأشجار، لكنَّها لم ترَ شيئًا. خرَّ قلبُها خوفًا، فلا بدَّ من أنَّه ذهب. لكنَّها ظلَّت تمشي، في رجاء.

«ديفني؟»

لاسْمها في لسانه لمسةٌ ناعمة، بطريقته في نطق المدّ. تبيَّنت الآن طيفَه. طويلاً، نحيلاً، لا تخطئه العيْن. ثمَّة وهجٌ برتقاليٌّ صغير، يتحرَّك في تناغمٍ مع يده.

همس كوستاس: «أهذه أنتِ؟»

فاقتربت منه وهي تبتسم. «نعم يا ذكيّ، ومَن غيري؟ لم أكن أعرف أنَّك تدخِّن».

«ولا أنا. كنتُ متوتِّرًا، فسرقتُ علبة أخي».

«ولكنْ لماذا تدخِّن، أشكِم؟[5] أوَلا تعرف أنَّها مجرَّد نفثاتٍ قليلة تختفي بمجرَّد أن تنفخ؟»

فلمَّا رأتْ عبوسه ضحكتْ. «أمزح معك. لا بأس، أبواي يدخِّنان. وقد اعتدت الأمر».

يدُه في يدها، فتشابكت أصابعهما. لاحظتْ ديفني أنَّه أكثرَ من الكولونيا. من الواضح أنَّها ليست وحدها التي تحاول أن تثير الإعجاب. قرَّبتْه منها وقبَّلتْه. كانت ترى نفسها أكثر نضجًا منه، بما أنَّها تكبره بعام.

«كنتُ أخشى ألاَّ تأتي».

«أوَلم أعدك؟»

«بلى، ولكن...».

«نحنُ في أسرتنا نفي بالوعود دائمًا. هكذا ربَّانا أبي، أنا ومريم».

ألقى بعقب السيجارة وسحقها بحذائه. «إذن، لم تُخلفي وعدًا في حياتك قطّ؟»

«لا. ولا أظنّ أختي أخلفتْ وعدًا. لستُ فخورةً بهذا، فالأمر مُضجر. بمجرَّد أن نعطي وعدًا يتوجَّب علينا أن نلتزم به. لذلك أحاول ألاَّ أقطعَ وعودًا كثيرة». أمالتْ رأسها إلى الوراء، ونظرتْ في عينَيْه. «لكنَّني أستطيع بسهولةٍ أن أعدك بشيء. أنَّني سأحبُّك دائمًا يا كوستاس».

كانت تستطيع أن تسمع دقَّات قلبه خلف صدره. ما بال هذا الولد الذي كان لطيفًا كالندى في أوَّل الصبح، يغنِّي أعذب الأغاني بلغةٍ لا تستطيع فهمها، هذا الذي يثرثر بحماسٍ عن الشجيرات الخضراء والقبَّرات المتوَّجة، ما باله الآن تخونه الكلمات؟

مالت إلى الأمام، قريبًا، حتى صارت تحسُّ بأنفاسه على وجهها. «وأنت؟»

«أنا؟ لقد تعهَّدت لكِ من قبل، منذ زمنٍ طويل. أعرفُ جيّدًا أنَّني لن أتوقَّف عن حبّك».

ابتسمتْ، على الرَّغم من أنَّ طبعها الشكَّاك لم يسمح لها بأن تصدِّقه. لكنَّها لم تسمح لنفسها أيضًا بالشكِّ فيه. ليس الليلة على الأقلِّ. كانت تريد أن تُحيط بكلماته، وتحميها، كما يُحيطُ المرء شعلةً براحتَيْه كي يقيها من الريح.

قال كوستاس وهو يعطيها هديَّةً صغيرةً من جيْبه: «أحضرتُ لكِ شيئًا».

كان صندوق موسيقى مصنوعًا من خشب الكرز، بتصميمٍ مرصَّعٍ لفراشاتٍ ملوَّنةٍ على الغطاء، ومفتاحٍ به شرَّابةٌ حمراء حريريَّة.

«أوه، ما أجمله! شكرًا...».

حملت الصندوق عند صدرها، تستشعرُ برودته الناعمة. لقد أدركتْ أنَّ كوستاس وفَّر شيئًا من ماله كي يشتريه لها. أدارت المفتاح بحذرٍ، فتعالتْ نغمةٌ جميلةٌ استمعا إليها حتى انتهت.

«وأنا أحضرتُ لكَ شيئًا كذلك».

أخرجتْ لفافةً من حقيبتها. كانت رسمةً بالرصاص له وهو يجلس فوق صخرة، والطيور تسبح في الأفق، فيما تمتدّ مجموعةٌ من الأقواس الحجريَّة من كلِّ جانب. كانا قد تجوَّلا قبل أسبوعٍ عند القنطرة القديمة التي كانت فيما مضى تحمل الماء من الجبال في شمال المدينة. وعلى الرَّغم من خطورة اللقاء في وضح النهار، إلاَّ أنَّهما قضيا عصر ذلك اليوم كلّه هناك، يتنفَّسان رائحة العشب. تلك هي اللحظة التي أرادت أن تلتقطها في الرسمة.

حمل الرسمةَ عاليًا، يتأمَّلها في نور القمر. «جعلتِني وسيمًا».

«لم يكن ذلك صعبًا».

تأمَّلَ وجهها، وأصابعه تمرّ على نعومة وجهها. «أنتِ موهوبةٌ جدًّا».

قبلةٌ أخرى، فأخرى، لمدَّةٍ أطول هذه المرَّة، يندفعان إلى بعضهما بعضًا بإلحاحٍ أكبر، كأنَّما يحميان نفسيْهما من السقوط. مع ذلك، فقد كان ثمَّة شيءٌ من الخوف في حركاتهما، على الرَّغم من أنَّ كلّ لمسةٍ، وكلّ همسةٍ تزيد من هشاشتهما. جسدُ الحبيب أرضٌ بلا حدود. تستكشفه، لا دفعةً واحدة، بل خطوةً مرتبكةً فأخرى، تضلُّ طريقكَ، وتخطو في أوديته المشمسة، وحقوله المتموِّجة، فتجده دافئًا مُرحِّبًا، لكنَّه بعد ذلك يأخذك إلى كهوفٍ خفيَّةٍ، وحُفَرٍ تتعثَّر فيها، وتجرح نفسك.

أحاطها بذراعَيْه، ووضع خدَّه على رأسها، فيما دفنتْ ديفني وجهها في عنقه. كانا يُدركان أنَّه على الرَّغم من لقائهما في هذا الوقت المتأخِّر، إلاَّ أنَّ أحدًا قد يراهما ويشي بهما. فالجزيرة، سواء أكانت كبيرةً أم صغيرة، تمتلئ بالعيون التي تراقب كلّ نافذةٍ مُشبَّكة، وكلّ شقٍّ في جدار، ولدى كلِّ باشقٍ أحمر الذيل يطير عاليًا، تحديقةُ كاسرٍ لا ترفُّ له عيْن.

ما تزال يداهما متشابكتَيْن، لكنَّهما مشيا خوفًا من الجلوس في الظلال، ودون عجلةٍ للوصول إلى مكان. ازداد البردُ قليلاً، فراحتْ ديفني ترتجف في قميصها الخفيف. عرض عليها معطفه،

فأبتْ. فلمَّا عرض عليها ثانيةً غضبتْ، لأنَّها لا تريد أن يعاملها على أنَّها أضعف منه. هكذا كانت، عنيدة.

كان آنذاك في السابعة عشرة، وهي في الثامنة عشرة.

التينة

هنا، تحتَ التراب، أقبعُ ساكنةً أستمعُ إلى أدنى صوتٍ من الأصواتِ العابرة. منقطعةٌ أنا عن كلِّ مصدرٍ من مصادر الضوء، فلا شمس ولا قمر، فاختلَّت ساعتي البيولوجيَّة، وتملَّص النومُ في ساعاته المعتادة. يبدو لي الأمرُ أشبه باختلال ما بعد السفر، إذْ تبعثر نظامُ النهار والليل عندي، فصرتُ في سديمٍ مزمن. سوف أتكيَّف في نهاية المطاف، لكنَّ الأمر سيأخذ بعض الوقت.

الحياةُ تحت السطح ليست بسيطةً أو رتيبة. فالعالمُ الجوفيّ يكتظُّ بالنشاط، بعكس ما يظنّ أغلب الناس. قد يفاجئكَ حين تغوصُ عميقًا في الأرض أنَّ للتربة ألوانًا لا تتوقَّعها. الأحمرُ الباهت، والمشمشيّ الخفيف، والخَردليّ الدافئ، والأخضرُ الليمونيّ، والفيروزيّ الوافر... لكنَّ الناس يعلِّمون أطفالهم أن يلوِّنوا الأرض بلونٍ واحدٍ لا غير. يتخيَّلون السماء في الأزرق، والعشب في الأخضر، والشمس في الأصفر، والأرضَ كلّها في اللون البنّيّ. ليتهم يعلمون أنَّ من تحتهم أقواسَ قزح.

خذْ حفنةً من تراب، واعتصرها بين راحتَيْك، اشعُر بدفئها وملمسها، وأسرارها. في هذه الحفنة كائناتٌ دقيقةٌ أكثر من عدد البشر في العالم كلّه. الأرضُ معقَّدةٌ، قويَّة، وكريمة، تعجُّ بالبكتيريا، والفطريَّات، والبدئيَّات، والطحالب، ودود الأرض، ناهيك عن كِسَر الفخَّار القديمة، وكلّها تعمل على تحويل المادَّة العضويَّة إلى مغذِّياتٍ نتغذَّى عليها نحن النباتات ونكبُر. كلُّ سنتيمتر من التربة نتاجُ جَهدٍ جَهيد؛ فالأمرُ يستلزم عددًا وافرًا من الديدان والكائنات الدقيقة، تعمل مئات السنين كي تُنتج هذا القَدْر. التُربةُ الخصبة الطميَّة أثمنُ بكثيرٍ من الماس والياقوت، على الرَّغم من أنّي لم أسمع بشرًا يقول هذا قطّ.

للشجر آلاف الآذان، في كلِّ اتِّجاه. فأنا أسمع مَضْغ اليسروعات وهي تحفرُ الثقوبَ في أوراقي، وأسمعُ طنين النحل العابر، وصَرْصرة جناح الخنفساء. بل أستطيعُ أن أُميِّز الخريرَ في أعمدة الماء الناعمة إذْ تتكسَّر داخل غصيناتي. للنباتات قدرةٌ على التقاط الاهتزازات، وكثيرٌ من

الأزهار على شكل طاساتٍ، كي تلتقط موجات الصوت التي قد تكون عاليةً جدًّا على الأذن البشريَّة. الأشجار ملأى بالأغنيات، ونحن لا نستحي أن نغنِّيها.

ها أنا مسجَّاةٌ هنا في منتصف الشتاء، أعزِّي نفسي بأحلامٍ شجريَّة. لا أضجرُ أبدًا، لكنَّ هناك الكثير ممَّا أشتاق إليه. شظايا النور الساقطة من النجوم، وجَمالَ القمر على صفحة السماء، مكتملاً ومرقَّشًا كبيضة طائر أبي الحنَّاء، ورائحةَ القهوة التي تُراق في البيوت صباحًا... وفوق هذا كلِّه، آدا وكوستاس.

أشتاقُ إلى قبرص أيضًا. وربَّما بسبب البرد القارس لا أستطيع أن أمنع نفسي من العودة إلى أيَّام الشمس. لعلِّي أصبحتُ شجرةً بريطانيَّة، لكنَّ الأمر ما يزال يستغرقني لحظةً كي أُدرك أين أنا، وعلى أيِّ جزيرةٍ تحديدًا. تتسارعُ الذكريات إليَّ، وحين أُنصتُ جيِّدًا أسمعُ أغنيات الدُوريّ والقبّرة، وصفيرَ الغرِّيد والبطِّ، طيورَ قبرص وهي تنادي باسمي.

المأوى

قبرص، 1974 م

حين التقيا في المرَّة التالية، كانت ديفني قلقةً، يشتعلُ التوجُّس في عينَيْها السوداوَيْن.

قالت: «في تلك الليلة رآني خالي في طريق العودة إلى البيت. سألني عمَّا كنت أفعل في ذلك الوقت المتأخِّر. وكان عليَّ أن أجاهد لإيجاد عذر».

فسألها كوستاس: «وماذا قلتِ؟»

«قلتُ إنَّ أختي كانت متعبةً، واضطُررت إلى الذهاب إلى الصيدليَّة. ولكنْ، تخيَّل أنَّه التقى مريم صدفةً في الصباح التالي! سألها عن حالها كيف صارت، لكنَّ مريم بارك الله فيها سايرتْه، إلى أن عادتْ إلى البيت واستجوبتْني. كان لا بدَّ من أن أُخبرها يا كوستاس. أختي الآن تعرف عنَّا».

«هل تثقين بها؟»

فأجابت ديفني دون أدنى تردُّد: «نعم. ولكنْ لو أنَّ خالي تحدَّث إلى والديَّ، لاختلف الأمر تمامًا. لا يمكن أن نستمرَّ في هذه اللقاءات هكذا».

مرَّر كوستاس أصابعه في شَعرها. «منذ فترةٍ وأنا أفكِّر. أحاول أن أجد مكانًا آمنًا».

«لا يوجد مكانٌ آمن».

«بلى، يوجد مكانٌ واحد».

«أين؟»

«حانة». رأى عينَيْها تتَّسعان، ثم تضيقان. «أعرف ما سوف تقولينه، ولكن اسمعيني. المكان يكاد يكون خاليًا في النهار، فالزبائن لا يتوافدون إلاَّ بعد الغروب. قبل ذلك، لا يوجد إلاَّ العاملون في الحانة. وحتى في المساء، لو أنَّنا التقينا في الغرفة الخلفيَّة وغادرنا من باب المطبخ، لكان هذا أفضل لنا من الشوارع. في الحانات، كلّ شخصٍ غارقٌ في عالمه».

عضَّتْ ديفني شفتها السفلى، تقلِّب الفكرة في رأسها. «أيُّ حانة؟»

«التينة السعيدة».

فأشرق وجهُها. «أوه! لم أزرها من قبل، لكنَّني سمعتُ الكثير عنها».

«أُمِّي تبيع لهم بعض الأشياء كلَّ أسبوع. وأنا آخذ لهم مربَّى الخرُّوب، غليكو ميليتزاناكي».

ابتسمتْ، إذْ كانت تعرف قربَه من أمِّه وكم يحبُّها. «هل تعرف صاحب الحانة؟»

«في الحقيقة هما رجلان، في غاية الطيبة، على الرَّغم من اختلاف شخصيَّتيْهما حدَّ التناقض. أحدهما يهوى الدردشة، ودائمًا ما يحكي القصص والنكات. أمَّا الآخر فهو هادئ، ولا يمكن للمرء أن يعرفه جيِّدًا إلاَّ بعد فترة».

هزَّت ديفني رأسها، على الرَّغم من أنَّها لم تسمع كلَّ ما قاله. في تلك اللحظة، تبدَّد كلّ الخوف الذي في داخلها، فشعرت بأنَّها صارت خفيفةً، وجريئة. لمستْ شفتَيْه، فوجدتهما متشقَّقتَيْن قليلاً، وجافَّتيْن من أثر الشمس. لا بدَّ من أنَّه كان يعضَّهما، مثلها.

«وما الذي يجعلك واثقًا من أنَّهما سيوافقان؟»

«لديَّ شعورٌ بأنَّهما لن يرفضا طلبي. أعرف الرجلَيْن منذ فترةٍ طويلة، وأعرف أنَّهما صادقان، وشغولان، ولا يتدخَّلان في شؤون الآخرين. تخيَّلي أنَّهما يستقبلان الناس من كلِّ شكلٍ ولون، لكنَّهما لا يتحدَّثان عن أحدٍ أبدًا. أحبّ هذه الخصلة فيهما».

فقالت ديفني: «حسنًا، دعنا نجرِّب. فإنْ لم ننجح، لا بدَّ من أن نجد طريقةً أخرى».

تبسَّم، وسرت الراحةُ في عروقه. لم يقل لها إنَّه كان يخشى أن تطلب منه الانفصال في يومٍ من الأيَّام، لأنَّ الأمر خطيرٌ جدًّا، ولا تستطيع أن تحتمل هذا السرَّ. كان كلَّما شعر بهذا الخوف،

أزاحه بلطفٍ إلى بقعةٍ في قبو روحه، يضع فيها كلّ أفكاره المؤلمة الجنونيَّة. فوضع الخوف هذا إلى جانب ذكرياته عن أبيه.

التينة

لا بدَّ أن أُخبركم بضعة أشياء عنِّي وعن وطني، قبل أن تلتقوني في الحانة.

جئتُ إلى هذه الدنيا عام 1878 م، في العام الذي وقَّع فيه السلطانُ عبد الحميد الثاني من على عرشه المذهَّب في اسطنبول اتِّفاقيَّةً سرِّيَّةً مع الملكة ڤكتوريا وهي على عرشها المذهَّب في لندن. وافقت الإمبراطوريَّة العثمانيَّة بموجب الاتِّفاقيَّة على التنازل عن حكم جزيرتنا لصالح الإمبراطوريَّة البريطانيَّة، في مقابل توفير الحماية من العدوان الروسيّ. في ذلك العام نفسه، قال رئيس الوزراء البريطانيّ بنيامين دزرائيلي عن وطني إنَّه «المفتاح إلى آسيا الغربيَّة»، وإنَّ «السيطرة عليه ليس شأنًا متوسِّطيًّا، بل هنديًّا». لم تكن للجزيرة قيمةٌ اقتصاديَّةٌ كبيرة في عينَيْه، لكنَّها كانت في مكانٍ مثاليّ لطرق التجارة المربحة.

وما هي إلاَّ أسابيع قليلة حتى رُفع العلم البريطانيّ فوق نيقوسيا. وبعد الحرب العالميَّة الأولى التي أصبح فيها العثمانيُّون والبريطانيُّون أعداءً، ألحقَ هؤلاء قبرص بإمبراطوريَّتهم، فأصبحتْ مُستعمرةً للتاج البريطانيّ.

أذكرُ اليومَ الذي جاء فيه جنودُ صاحبة الجلالة، متعبين وعطشى من أثر الرحلة الطويلة، حائرين في معرفة رعاياهم الجدد. فالإنجليز (على الرَّغم من أنَّهم أهل جزيرة أصلاً) لم يعرفوا قطّ كيف يحدِّدون موضع جزيرتنا في عقولهم. كنَّا نبدو مألوفين لأعينهم، ثم فجأةً نبدو أجانب غرباء، شرقيِّين.

في ذلك اليوم المشؤوم، جاء السير غارنت ولزلي (أوَّل مندوب سامٍ) إلى سواحلنا ومعه قوَّات كثيرة ترتدي زيًّا ثقيلاً (بنطالاً إنجليزيًّا وسترةً صوفيَّةً حمراء). كان مقياس الحرارة يُشير إلى 43 درجةٍ مئويَّة. عسكَروا في لارنكا، قرب بُحيرة الملح، بخيامٍ صغيرة لم تحمهم من الشمس

الحارقة. وقد كتب السير وولزلي لاحقًا إلى زوجته يقول: «لم يكن من الحكمة أن نُرسل الكتائب البريطانيَّة إلى هنا في هذا الجوّ». لكنَّ ما أثار إحباطه أكثر كان الأرض الجرداء. «أين الغابات التي ظننَّا أنَّها تغطِّي قبرص؟»

فأجبنا نحن الأشجار: «سؤالٌ في محلِّه». لم تكن الحياة سهلةً علينا. فقد ظلَّت أسراب الجراد تغزو الجزيرة، تأتينا في سحبٍ داكنةٍ كثيفة، تلتهم كلَّ شيءٍ أخضر. وأُهلكت الغابات، وأزيلت من أجل الكروم والاستصلاح وخشب الوقود، بل دُمِّرت بالكامل في بعض الأحيان في انتقاماتٍ لا تنتهي.

كان هناك تقطيعٌ مستمرٌّ للأشجار، وحرائق متعدِّدة، وجهلٌ كبير، كلّ ذلك أفضى إلى اختفائنا، ناهيك عن الإهمال الجسيم من الحكومة السابقة. ولكنْ، هكذا كانت الحروب، وقد تتابعتْ علينا كثيرًا قرنًا وراء قرن. غزاةٌ من الشرق، وغزاةٌ من الغرب. حيثيُّون، ومصريُّون، وفينيقيُّون، وآشوريُّون، وإغريق، وفُرس، ومقدونيُّون، ورومان، وبيزنطيُّون، وعرب، وفرنجة، وجِنويُّون، وبنادِقة، وعثمانيُّون، وأتراك، وبريطانيُّون...

كنَّا هناك حين بدأتْ الهجماتُ العنيفة على البريطانيِّين باسم «إينوسيس» (اتِّحاد قبرص واليونان)، وحين انفجرت أولى القنابل في أوائل خمسينيَّات القرن العشرين. وكنَّا هناك حين أضرم الشباب الثائرون النار في المعهد البريطانيّ بساحة ميتاكساس، بما فيه المكتبة، أفضل مكتبةٍ إنجليزيَّة في الشرق الأوسط، فتحوَّلت كلّ الكتب والمخطوطات المصنوعة من لحمنا إلى رماد. وفي عام 1955 م، أُعلنت حالة الطوارئ بعد أن تدهورت الأوضاع أكثر. خسر بائعو الزهور وأصحاب مزارعها خسائر جمَّة، ربَّما لأنَّه لم يوجد أحدٌ يشعر بأنَّه يستحقّ الجَمال حين يسودُ الخوف والفوضى. وهكذا، أصبح هؤلاء يكسبون معظم أموالهم من صنع الأكاليل لجنازات الجنود في «غوردون هايلاندرز»[6] والبريطانيِّين الآخرين الذين سقطوا في المعارك.

بحلول عام 1958 م، منعت المنظَّمة القوميَّة اليونانيَّة المعروفة باسم «إيوكا» كلَّ أشكال الكتابة بالإنجليزيَّة. فشُطبت أسماء الشوارع وطُمست بالطِّلاء. ولن يطول الوقت حتى تُطمس الأسماء التركيَّة أيضًا. بعد ذلك، بدأتْ «منظَّمة المقاومة التركيَّة» في محو الأسماء اليونانيَّة. كان هناك وقتٌ تُركت فيه الشوارع في موطني بلا أسماء. مجرَّد طلاءٍ فوق طلاء، كدهانِ الألوان المائيَّة الذي يبهت شيئًا فشيئًا إلى اللاشيء.

ونحنُ الأشجار كنَّا نراقب، وننتظر، ونشهد.

الحانة
قبرص، 1974 م

كانت حانةُ «التينة السعيدة» مكانًا يحبّ أن يتردَّد إليه اليونانيُّون، والأتراك، والأرمن، والمارونيُّون، وجنود الأمم المتَّحدة، وزوَّار الجزيرة الذين سرعان ما تأسرهم عاداتُ الجزيرة. كان يدير الحانةَ شريكان، قبرصيّ يونانيّ وقبرصيّ تركيّ، كلاهما في الأربعينيَّات من العمر. فتح يورغوس ويوسف هذه الحانة عام 1955 م، برأسمالٍ اقترضاه من الأهل والأصدقاء، وظلَّت الحانة صامدةً منذ ذلك الوقت، بل ازدهرت أكثر فأكثر على الرَّغم من الأزمات التي تعجّ بها الجزيرة من كلِّ صوب.

على مدخل الحانة كرومٌ متشابكة من شجرة العَسَلة، وفي الداخل عوارض متينة مسودَّة تمتدّ بطول السقف وعرضه، تتدلَّى منها أكاليل الثوم والبصل والأعشاب المجفَّفة والفلفل الحارّ والنقانق المملَّحة. تتوزَّع في الحانة اثنتان وعشرون طاولة بها مقاعد غير متناسقة، وطاولةٌ خشبيَّةٌ منحوتٌ بها مقاعد خشبيَّة، وشوَّايةٌ في الخلف تتهادى منها رائحة الخبز، مع روائح لذيذةٍ من اللحم المشويّ. في الرواق مزيدٌ من الطاولات، إذْ كانت الحانة تعجّ بالمرتادين كلَّ ليلة.

لكلِّ مكانٍ تاريخه وكراماته. فهنا، تُحكى قصص الكدح والبطولات، وتُسوَّى الحساباتُ القديمة، وتُمزج الضحكات بالدموع، وتُقطع الوعود والاعترافاتُ، ويُباحُ بالأسرار والخطايا. بين جدران الحانة، يتحوَّل الغرباء إلى أصدقاء، والأصدقاء إلى عشَّاق. هنا، تشتعلُ الجذواتُ القديمة، وتُبرأُ القلوبُ المكسورة والمحطَّمة. كثيرٌ من المواليد وُضعت نُطفتهم بعد ليلةٍ سعيدةٍ في هذه الحانة. كانت التينةُ السعيدة تلامس حياة الناس بأشكالٍ كثيرةٍ غير معروفة.

لم تكن ديفني تعلم شيئًا عن هذا حين دخلت الحانةَ للمرَّة الأولى مع كوستاس. وضعتْ خصلة شعرها حول أذنها، وراحت تنظر حولها في فضول. بدا لها أنَّ مَن زيَّن المكانَ يُقدِّس اللون

الأزرق. فالمدخلُ من الآزوريّ الناصع، بخرزات العيْن المعلَّقة وحَدوات الحصان المسمَّرة؛ وملاءاتُ الطاولات مربَّعاتٌ بلونٍ سماويٍّ وأبيض؛ والستائرُ من ياقوت؛ وألواحُ الجدران مزخرفةٌ بأشكالٍ من الزبرجد؛ بل حتى مراوح السقف البطيئة كانت في لونٍ قريب. ثمَّة عمودان تحتشد بهما براويز صُورٍ لمشاهير زاروا الحانة على مرّ السنين. مطربين، وممثِّلات، ونجوم تلفزيون، ولاعبي كرة، ومصمِّمي أزياء، وصحافيِّين، وأبطال ملاكمة...

فوجئتْ ديفني حين رأت ببَّغاءً في مكانٍ عالٍ فوق خزانة، مستغرقًا في أكل بسكويتة. كان طيرًا أجنبيًّا قصير الذيل، برأسٍ أصفر وريشٍ أخضر فاتح. لكنَّ الذي رأتْه ديفني في منتصف الحانة هو الذي خطف انتباهها على الفور. فهناك، في وسط الحانة تستكينُ شجرةٌ، تنمو عبر فجوةٍ في السقف.

ارتسمتْ على وجهها سعادةٌ مفاجئة: «تينة! هل هي حقيقيَّة؟»

فجاء من خلفهما صوتٌ يقول: «أوه، بالطبع حقيقيَّة».

استدارتْ ديفني، فرأتْ رجلَيْن متوسِّطَي القامة والقوام، يقفان جنبًا إلى جنب. أحدهما بشعرٍ قصير وصليبٍ فضِّيٍّ في رقبته. خلع هذا قبَّعته المتخيَّلة في تحيَّةٍ لها، وقال: «ليتكِ ترين هذه الشجرة ليلاً، حين تُضاء الأنوارُ كلّها. حينها تبدو متوهِّجةً، ساحرة! هذه ليست شجرةً عاديَّة. فرغم أنَّها تبلغ من العمر أكثر من تسعين عامًا، إلاَّ أنَّها ما تزال تُثمر أحلى التينات في البلدة بأكملها».

أمَّا الرجل الآخر، وكان في مثل سنِّه تقريبًا، فكان ذا شاربٍ مهذَّبٍ وذقنٍ حليقٍ به فَلْجَةٌ واضحة. كان شعره منسدلاً في خصلاتٍ طويلةٍ على كتفَيْه. أشار إلى كوستاس قائلاً: «هذه إذن الصد ـــ صد ـــ صديقة التي أخبرتَنا عنها».

فابتسم كوستاس: «نعم، هذه ديفني».

قال الرجل وقد تغيَّر وجهه: «أوه.. ت ـــ ت ـــ تركيَّة؟ لم تخبرنا بهذا».

سألتْه ديفني فورًا: «لماذا؟»، فلمَّا طال انتظارها للإجابة احتدَّت نظرتُها. «لديكم مشكلة في هذا؟»

فتدخَّل الرجل الأوَّل: «أوه، لا تستائي! يوسف نفسُه تركيّ. لم يقصد شيئًا، لكنَّه بطيء الكلام. وإن حاولتِ استعجاله، يتأتئ». ثم لوى شفتَيْه محاولاً ألاَّ يبتسم، وهزَّ يوسُف رأسه موافقًا. عندها انحنى على صديقه وتمتم بشيءٍ في أذنه، فقهقه هذا.

«يوسف يسأل، هل هي سريعة الغضب دائمًا هكذا؟»

فقال كوستاس بابتسامةٍ عريضة: «أوه، نعم».

قال الأوَّل: «فليساعدنا الربّ إذن». ثم أخذ يد ديفني وضغط عليها بلطفٍ وهو يقول: «اسمي يورغوس. أمَّا الشجرةُ فلا اسم لها، والببَّغاء اسمه تشيكو. لا بدَّ من أن أحذِّركِ منه، فإنْ حطَّ على كتفك وحاول أن يسرق طعامك، لا تتفاجئي. مدلَّلٌ جدًّا هذا الطائر! لا بدَّ من أنَّه عاش في قصرٍ أو شيءٍ كهذا قبل أن يأتينا. على كلِّ حال، أهلاً بكِ في حانتنا المتواضعة».

فقالت ديفني وقد شعرتْ بالحرَج قليلاً من غَضبَتها: «شكرًا».

«والآن اتبعاني».

قادهما إلى غرفةٍ في الخلف يضع فيها صناديق البطاطس وسِلال التفَّاح والبصل، ومحاصيل أخرى من البساتين المحلِّيَّة وبراميل البيرة. وكانت هناك طاولةٌ صغيرةٌ في الطرف مع كرسيَّيْن مجهَّزَيْن مسبقًا لهما، وستارةٌ مخمليَّةٌ خضراء عند الباب يمكن سحبها للشعور بشيءٍ من الخصوصيَّة.

قال يورغوس: «المعذرة، أعرف أنَّ المكان ليس فخمًا. ولكنْ على الأقلِّ هنا لن يزعجكما أحد أو يقطع حديثكما».

فقال كوستاس: «المكان ممتاز. شكرًا».

«طيِّب، وماذا تريدان أن تأكلا؟»

عدَّ كوستاس بأصابعه العملات المعدنيَّة في جيبه. «أوه، لا نريد أن نأكل شيئًا. ماء فقط».

وقالت ديفني مؤكِّدة: «نعم، يكفي الماء».

ولم تكد تُنهي جملتها حتى ظهر الجرسون، يحمل صينيَّةً مملوءةً بورق العنب، وساغاناكي الربيان، وسوڤلاكي الدجاج، وصلصة التزاتزيكي، والموساكا، وخبز ال�يتا، ودورقَ ماء.

«هذه تحيَّةٌ من يوسف، على حساب المحلّ. يقول لكما بالهناء والشفاء».

بعد دقيقةٍ، حين صارا وحدهما أخيرًا، ولأوَّل مرَّةٍ منذ أشهر لا يُضطرَّان فيها إلى القلق من أن يراهما أحدٌ فيَشي بهما، نظرا إلى بعضهما بعضًا وأخذا يضحكان. كانت ضحكةَ من لا يُصدِّق، ضحكةَ ارتياحٍ هائجٍ لا يأتي إلاَّ بعد خوفٍ وكرب.

يأكلان ببطءٍ، يستطعمان كلَّ لقمة. يتحدَّثان دون توقُّف، يستغلاَّن أكبر قدرٍ ممكن من اللغة، كأنَّما يخشيان أن تختفي الكلماتُ غدًا. في أثناء ذلك، كانت الروائحُ والأصوات تزداد في الحانة. أطيافٌ من ضوء الشمعة الموضوعة على الطاولة تتراقصُ على الجدران المبيَّضة. وكلَّما فُتح باب الحانة ورفرفَت الستارةُ من أثر الهواء القادم، رقصت الأطيافُ رقصةً خفيفةً، لهما وحدهما فقط. تناهت إليهما أصوات الزبائن، وأدوات المائدة، والحديث المتكاسل. ثم صحنٌ ينكسر، تتبعُه ضحكةُ امرأة. وشخصٌ راح يغنِّي بالإنجليزيَّة:

So kiss me and smile for me

Tell me that you'll wait for me

وانضمَّ الآخرون إليه. جوقةٌ عفويَّةٌ صاخبةٌ مبحوحة. كانوا جنودًا بريطانيِّين، كثيرٌ منهم حديث التخرُّج من المدرسة، تعلو أصواتهم وتهبط، تتعلَّق ببعضها بعضًا، تنشدُ العونَ والرِفقة. ثمَّة حسٌّ بالوطن، بالانتماء. شبابٌ عالقون في منطقة صراع، في جزيرةٍ لا يتكلَّمون لغاتها، ولا يستوعبون دقائق المشهد السياسيّ فيها. جنودٌ يطيعون الأوامر، مدركون أنَّ مِنهم من قد لا يعيش غدًا.

*

بعد نحو ساعتَيْن، فتحَ يوسفُ باب المطبخ، وأخرجهما في هدوء.

«ت ـــــ ت ـــــ تعالا مرَّةً أخرى. نفتقدُ العشَّاق الشباب هنا. س ـــــ س ـــــ ستكونان فألَ خيرٍ علينا».

خرجا إلى نسيم الليل، يبتسمان لمضيفهما وقد اعتراهما الخجلُ فجأةً. عشَّاق شباب!

لم يخطر هذا ببالهما قطّ إلاَّ حين قاله شخصٌ آخر. نعم، لقد أدركا أنَّهما بالتأكيد عاشقان.

التينة

وهكذا، دَخَلتْ حياتي.. ديفني.

كان عَصْرًا هادئًا، وكنتُ أغفو داخل الحانة، أهنأ بلحظةٍ من لحظات الهدوء قبل اصطخاب المساء. فُتح الباب ودخلا، ينسلَّان من وهج النهار إلى الظلِّ البارد.

«تينة! هل هي حقيقيَّة؟»

هذا ما قالتْه ديفني بمجرَّد أن وقعت عيناها عليَّ. كانت الدهشة واضحةً عليها.

اشرأْببتُ، أريد أن أعرف مَن قال ذلك. قد يكون ما أفعله ضربًا من الزهو، لكنِّي كنتُ دائمًا مهتمَّةً بما يراه البشرُ فينا، أو ما يعجزون عن رؤيته.

أذكر أنَّ يورغوس قال شيئًا، قال إنِّي أبدو متوهِّجةً في الليل. أذكر أنَّه استخدم وصف «ساحرة». أسعدني سماعُ ذلك. وقد صدَق. في المساءات، حين يُشعل الموظَّفون المصابيح والشموع في أطراف المكان، ينعكسُ ضوءٌ ذهبيٌّ على جذعي، ويتوهَّج عبر أوراقي. تمتدُّ أغصاني في ثقة، كما لو أنَّ الأشياء كلَّها امتدادٌ لي، لا الطاولات والكراسي الخشبيَّة فحسب، بل كذلك اللوحات على الجدران، وسلاسل الثوم المعلَّقة، والنُدُل الهارعون هنا وهناك، والزبائن القادمون من شتَّى بقاع الأرض، حتى تشيكو وهو يجوب المكان في بريق ألوانه. كان كلّ ذلك يحدث تحت إشرافي.

لم يكن لديَّ ما يبعث على القلق آنذاك. فَتيناتي كانت نَضِرة، كثيرة، ناعمة، وأوراقي قويَّةً خضراء ناصعة، وثماري الجديدة أكبرَ من القديمة، ما يدلّ على نموِّي نموًّا صحِّيًّا. كنتُ فاتنةً لدرجة أنِّي أعدِّل مزاج الزبائن؛ إذ ترتخي الخطوطُ في جباههم، وترِقُّ النبرات في أصواتهم. لعلَّهم صدَّقوا حين تحدَّثوا عن السعادة في هذا المكان؛ فالسعادة مُعديةٌ على كلِّ حال. من الصعب ألاَّ تشعرَ بالأمل في حانةٍ تُسمَّى الحانة السعيدة، وبها شجرةٌ وارفةٌ في منتصفها.

أعلمُ أنَّه لا يجدر بي قول هذا، أعلم أنَّه خطأ، وإنكارٌ للودِّ والمعروف، ولكنْ منذ ذلك اليوم الذي مضت عليه سنواتٌ طويلة، شعرتُ بالندم غير مرَّةٍ على أنّي التقيت ديفني، وتمنَّيتُ لو أنَّها لم تدخل عالمنا قطّ. ربَّما ما كان لحانتنا أن تأكلها النار. ربَّما كنتُ سأظلّ تلك الشجرة السعيدة نفسها!

الوَحدة

لندن، أواخر العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين

دكَّت العاصفةُ لندن بعد منتصف الليل. وضعت السماءُ كلَّ حمولتها على المدينة، سوداءَ كصدر غراب. تلتمعُ البروق في الأعلى، فتمتدّ في أغصانٍ وفسائلَ من النيون، كأنَّها غابةُ أشباحٍ اقتُلعت من مكانها.

ظلَّتْ آدا في سريرها ساكنةً، وحيدةً في غرفتها، والأضواء مطفأةٌ إلاَّ مصباحَ قراءةٍ إلى جانبها، تشدُّ لحافها إلى ذقنها، تستمع إلى الرعد، وتفكِّر في قلق. صراخُها أمام زملائها كان أمرًا مخيفًا دون شكّ، لكنَّ الأكثر رعبًا من ذلك، إدراكُها أنَّه يمكن أنْ يحدث مرَّةً أخرى.

كانت تستطيع أن تطرد تلك الذكرى من عقلها خلال النهار، إذْ تنشغلُ بحضور خالتها، لكنَّها ما تلبث أن تعود إليها. وجهُ المسز وولكوت، وسخريات التلاميذ، والحَيرة على وجه زفار، وذلك الإحساس الذي ينخر معدتها. خطر لها أنَّ بها مشكلةً ما. ثمَّة خطبٌ في عقلها. ربَّما فيها هي أيضًا ما كان في أمِّها، ذلك الشيء الذي لم يتحدَّثا عنه قطّ.

ظنَّتْ أنَّها لن تستطيع النوم، لكنَّها نامت.. نومًا سطحيًّا متقطِّعًا، ما لبثت أن فتحتْ عينَيْها في منتصفه، لكنَّها لا تدري ما الذي أوقظها! كان المطر ينهمر في الخارج، والعالم يغرقُ في وابلٍ جارف. وكانت شجرة الزعرور أمام غرفتها تلامسُ النافذة كلَّما هبَّت الريح، كما لو أنَّها تريد أن تقول لها شيئًا من خلال الزجاج.

مرَّت سيَّارةٌ في الشارع. لا بدَّ أنَّها حالةٌ طارئة، وإلاَّ ما خرجوا في هذا الجوّ. تجتاحُ أضواء السيَّارة ستائر غرفتها، ففي لحظةٍ عابرةٍ، نهضت كلُّ الأشياء من ظلامِها، كأنَّما بُعثتْ من جديد. تقافزتْ الأطياف حولها مثل شخوصٍ في مسرح الظِلال، ثم اختفتْ بالسرعة نفسها. تذكَّرت آدا،

كعادتها دائمًا في تلك الشهور المنصرمة، لمسة أمِّها، ووجه أمِّها، وصوت أمِّها. كان الحزنُ يدثِّرها، يُحكم قبضته عليها كلفَّةِ حبل.

شيئًا فشيئًا جلستْ في سريرها. كم كانت تتوق إلى إشارة! صحيحٌ أنَّها كانت تخاف أو تُنكر الأشباح والأرواح وكلّ المخلوقات الغيبيَّة التي قد تؤمن بها خالتُها، إلاَّ أنَّ شيئًا في داخلها كان يرجو لو أنَّها تستطيع العثور على بابٍ إلى بُعدٍ آخر، أو تسمح لذلك البُعد بأن يكشف عن نفسه، كيما تنظر إلى أمِّها مرَّةً أخرى.

انتظرتْ، وسكنتْ أطرافُها، على الرَّغم من أنَّ قلبها كان يخفق بقوَّةٍ وراء صدرها. لكنَّ شيئًا لم يحدث. لا إشاراتٍ من وراء الطبيعة، ولا ألغازَ من عالمٍ آخر. أخذتْ نفَسًا عنيفًا، في ارتباك. لقد ظلَّ الباب الذي كانت تبحث عنه مغلقًا، هذا إن كان له وجود.

ثم فكَّرتْ في شجرة التين المدفونة وحدها في الحديقة، يتدلَّى ما بقي من جذورها إلى جانبها. انزلقتْ عيناها إلى الامتداد الفارغ من وراء النافذة. في تلك اللحظة، اجتاحها شعورٌ غريبٌ بأنَّ الشجرة كانت مستيقظةً هي الأخرى، تستمعُ إلى كلِّ حركةٍ من حركاتها، وتنصت إلى كلِّ صوتٍ في البيت، تنتظرُ، مثلَها، دون أن تعرف ماذا تنتظر.

*

نهضتْ عن سريرها، وأشعلت الأضواء. جلستْ أمام مرآة زينتها، تتفحَّص أنفها الذي طالما رأتْه كبيرًا جدًّا، وذقنها الذي كانت تخشى أن يكون بارزًا جدًّا، وشعرها المتموِّج الذي حاربت بقوَّةٍ كي تجعله أملس... ثم تذكَّرتْ يومًا ليس بعيدًا، حين كانت تنظر إلى أمِّها وهي ترسم في مرسمها.

«حين أنتهي من هذه اللوحة، سأرسمك يا آداسيم»[7].

كانت أمُّها ترسمها منذ أن كانت طفلةً صغيرة، فالبيت مملوءٌ باللوحات، بعضها بالألوان وبعضها بالأبيض والأسود.

لكنَّ آدا في ذلك اليوم رفضتْ، للمرَّة الأولى. «لا أريدها».

وضعتْ أمّها الفرشاة جانبًا، ونظرتْ إليها. «ولماذا يا حبيبتي؟»

«لا تعجبني صُوري».

سكتتْ أمُّها لحظةً، وعَبَرتْ وجهَها نظرةٌ تشبه الألم. «ما اسمه؟»

«اسم مَن؟»

«الولد... أو البنت... ما اسم هذا الأحمق الذي جعلكِ تشعرين بذلك؟»

أحسَّتْ آدا بوجنتَيْها تحترقان، فكادت تحكي لأمِّها عن زفار. لكنَّها سكتت.

«اسمعي يا آدا. نساءُ قبرص كلُّهنَّ جميلات، سواء أكنَّ من الشمال أم الجنوب. وكيف لا نكون، ونحن قريبات أفروديت؟ ربَّما كانت ابنة كلب، ولكنْ لا شكَّ في أنَّها كانت فاتنة».

أطلقتْ آدا صفيرًا طويلاً وقالت: «ماما، لا تمزحي».

«لا أمزح. وأريدكِ أن تفهمي قاعدةً أساسيَّة في الحبِّ. هناك نوعان من الماء: الضحلُ والعميق. تذكَّري أنَّ أفروديت إنَّما خرجتْ من زَبد البحر. حُبُّ الزَبَد هذا جميل، لكنَّه سطحيٌّ كالزَبَد. وحين ينتهي ينتهي، ولا يبقى منه شيء. ابحثي دائمًا عن الحبّ الذي يأتي من العمق».

«لا أحبّ أحدًا!»

«طيِّب، ولكنْ حين تحبِّين، تذكَّري أنَّ حُبَّ الزَبَد ينشغلُ بجمال الزبد. أمَّا حبُّ البحر، فيبحثُ عن جَمال البحر. وأنتِ يا قلبي تستحقِّين حبَّ البحر، ذلك النوع القويّ العميق الساحر».

ثم التقطتْ فرشاتها مرَّةً أخرى، وقالت: «وأمَّا بالنسبة إلى الولد (أو البنت) الذي لا أعرف اسمه، إنْ كان لا يُدرك كم أنتِ مميَّزة، فلا يستحقّ ذرَّةً من اهتمامك».

الآن وهي جالسةٌ أمام المرآة تتفحَّص وجهها، كأنَّما تبحث عن عيوبٍ في سطحٍ جديد، أدركتْ أنَّها لم تسأل أمَّها قطّ أيَّ نوعٍ كان الحبّ بينها وبين أبيها. لكنَّها بالطبع تعرف. تعرف في داخلها أنَّها ثمرة حبٍّ ينشأ من أعماق المحيط، من عُمقٍ لفرط زُرقته يكاد يكون مظلمًا.

*

أخرجتْ آدا هاتفها، بعد أن ضجرتْ من المرآة وما رأتْه فيها. كانت تحبّ أن تتصفَّح الإنترنت حين يجافيها النوم، على الرَّغم من تحذيرات أبيها من استخدام هذه الأجهزة ليلاً، إذْ إنَّها بحسب زعمه، تُفسد إيقاع الساعة البيولوجيَّة. وفور أنْ فتحتْ هاتفها سمعتْ رنينًا. كانت رسالةً من رقمٍ مجهول.

تابعوا هذا.. مفاجأة!!!

انحفرَ في صدرها مخلبٌ من التوتُّر وهي تتردَّد في الضغط على الوصلة المرفقة. ثم ضغطت على «تشغيل».

كان مقطعًا شنيعًا، شنيعًا. لقد صوَّرها شخصٌ وهي تصرخ في حصَّة التاريخ. لا بدَّ من أنَّ أحد زملائها أدخل الهاتف خلسةً. هَوى بطنُها من شدَّة الخوف، لكنَّها استطاعت أن تشاهد المقطع حتى النهاية. كانت هناك، وجانبُ وجهها مثل شعلةٍ شاحبة على خلفيَّة الضوء من النافذة، لكنَّه يكفي للتعرُّف إليها، وصوتُها يرتفع إلى حدَّةٍ تصمّ الآذان.

كانت طعنةً من خزي. صحيحٌ أنَّ ما فعلتْه كان مخيفًا، لكنَّ تسجيله دون علمها كان إذلالاً ما بعده إذلال. بدأ عقلها يدور مع سيطرة الرعب عليها، وطعم المرارة في فمها. من المرعب أن تشاهد جنونك معروضًا أمام الجميع.

وبيدٍ مرتعشةٍ، دخلت موقعًا لمقاطع الفيديو. وكما توقَّعت بالضبط، فإنَّ الشخص الذي صوَّر المقطع نَشَره في الموقع. وتحت المقطع تعليقاتٌ من الزوَّار:

غريبةُ الأطوار! من الواضح أنَّها تتصنَّع الأمر.

بعض الناس قد يفعلون أيّ شيءٍ للفتِ الانتباه.

وسأل شخصٌ: ما مشكلتها؟ فردَّ عليه آخر: ربَّما رأت نفسها في المرآة!

على هذا المنوال، سارت بقيَّة التعليقات. شيءٌ من الإهانة والسخرية، وكثيرٌ من النكات الجنسيَّة والتعليقات النابية. والصور والرموز التعبيريَّة. ونسخةٌ من لوحة مونش، غير أنَّهم وضعوا مكان الوجه فتاةً تبدو مختلَّة العقل.

قبضتْ آدا على هاتفها بقوَّة، وهي ترتعش. أخذتْ تذرع الغرفة مثل حيوانٍ أسير، يزداد التوتُّر في أعصابها مع كلِّ خطوة. سيبقى هذا المقطع المُهين في الإنترنت إلى الأبد، طوال حياتها. لمن تلجأ؟ المدير؟ إحدى المعلِّمات؟

تكتبُ رسالةً إلى شركة الموقع، وكأنَّهم سيهتمَّون!

لم يكن ثمَّة شيء تستطيع هي أو غيرها فعله، ولا حتى والدها. كانت وحيدةً تمامًا.

ارتمتْ على سريرها، وألصقت ركبتيْها بصدرها. ثم بدأتْ تبكي، وهي تهزُّ جسمها في هدوء.

التينة

قرب منتصف الليل، التقطتُ صوتًا غريبًا. توتَّرتُ إذْ شعرتُ بالخطر، ولكنْ تبيَّن لي أنَّ صديقتي العزيزة شجرة الزعرور (وهي شجرةٌ محلِّيَّة، لطيفة، ثنائيَّة الجنس) كانت تُرسل لي إشاراتٍ عبر جذورها والفطريَّات، تطمئنُّ على حالي. كم أثَّرتْ فيَّ طيبتُها، في بساطتها الشديدة! فالطيبةُ هكذا دائمًا: مباشرة، وساذجة، وعفويَّة.

نتواصل نحن الأشجار طوال الوقت، تحت التراب أو فوقه. ليس الماء والمغذّيات وحدها التي نتبادلها، بل كذلك المعلومات المهمَّة. وعلى الرَّغم من اضطرارنا إلى التنافس على الموارد أحيانًا، إلاَّ أنَّنا نُجيد تقديم العون والحماية لبعضنا بعضًا. حياةُ الأشجار تنضحُ بالخطر، مهما بدونا وادعاتٍ في المظهر. فهناك السناجب التي تقشِّر لحاءنا، واليسروعات التي تغزو أوراقنا، والنيران، ومناشير الحطَّابين. علينا أن نعمل معًا، حين تُسقط الريحُ أوراقنا، أو تُحرقنا الشمس، أو تهاجمنا الحشرات، أو تهدِّدنا الحرائق. وعلى الرَّغم ممَّا نبدو عليه من ترفُّع، إذْ ننمو منفصلاتٍ عن بعضنا بعضًا، أو على أطراف الغابات، إلاَّ أنَّنا نبقى على اتِّصالٍ دائمٍ في مساحاتٍ شاسعةٍ من الأرض، نرسل الإشارات الكيميائيَّة عبر الهواء، وعبر شبكات الفطريَّات. يمكن للناس والحيوانات أن يهيموا مسافة أميالٍ بلا توقُّف، بحثًا عن طعامٍ أو ملجأٍ أو شريك، ثم يتكيَّفون مع التغيُّرات البيئيَّة، أمَّا نحن فنفعل كلّ هذا وزيادةً فيما نبقى متجذِّرين في أماكننا.

المأزقُ بين التفاؤل والتشاؤم بالنسبة إلينا ليس جَدلاً نظريًّا؛ فهو جزءٌ لا يتجزَّأ من نشوئنا وتطوُّرنا. تأمَّلْ نباتات الظلِّ مثلاً، فرغم ضآلة الضوء في بيئتها، لكنَّها إذا ما بقيَت متفائلة، أنتجتْ أوراقًا أكثر سُمكًا لكي يزداد حجم البلاستيدات الخضراء، وإنْ شحَّ تفاؤلها ولم تتوقَّع أن تتغيَّر الظروف قريبًا، أبقتْ على أوراقها في الحدِّ الأدنى من السُمك.

تعرفُ الأشجار أنَّ الحياة عبارةٌ عن تعلُّم ذاتيّ. فحين نتعرَّض للإجهاد نصنع مزيجاتٍ جديدةً من «الـ دي. أن. إيه»، تنويعاتٍ جينيَّةٍ جديدة. لا النباتات المُجهدة فقط، بل ذرِّيَّتها كذلك، حتى وإن لم تتعرَّض هي نفسها لأيِّ أضرارٍ بيئيَّةٍ أو جسديَّة. ربَّما نستطيع أن نُسمِّي ذلك ذاكرةً عابرةً للأجيال. في نهاية المطاف، ما يدعونا إلى التذكُّر هو نفسه ما يدعونا إلى النسيان؛ وهو أن نعيش في هذا العالم الذي لا يفهمنا، ولا يقدِّرنا.

حين تقع الأضرار، انظر إلى العلامات، فهناك دائمًا علامات. الشقوقُ التي تظهر في جذوعنا، والصدوع التي لا تندمل، والأوراق التي تظهرُ عليها ألوان الخريف في فصل الربيع، واللحاء الذي يتقشَّر مثل جلدٍ كان ينبغي أن يُطرح. وبصرف النظر عن المشكلة التي تتعرَّض لها الشجرة، فإنَّها تعرف دائمًا أنَّها مرتبطةٌ بأشكالِ حياةٍ لا تنتهي، من فطريَّات العسل (وهو الأكبر) إلى أصغر البكتيريا والبدئيَّات، وتعرف أنَّ وجودها ليس حادثًا عَرَضيًّا، بل جوهريًّا لجمعٍ كبيرٍ من الأحياء. بل إنَّ الأشجار التي لا تنتمي إلى نوعٍ واحدٍ يتضامن بعضها مع بعضٍ بصرف النظر عن اختلافاتها، وهذا ما لا نستطيع قوله عن كثيرٍ من البشر.

*

شجرة الزعرور إذن هي التي أخبرتني أنَّ آدا الصغيرة ليست على ما يرام، فاجتاحني الحزنُ الشديد. إذْ كنتُ أشعر أنِّي مرتبطةٌ بها، حتى وإنْ كانت لا تقيم لي وزنًا كبيرًا. لقد كبُرنا في هذا البيت معًا، طفلةً رضيعةً، وشَتلة.

يطيرُ الكلام
قبرص، 1974 م

في عصر يوم الخميس، دخل كوستاس حانة التينة السعيدة، يصفِّر لحنًا سمعه من الإذاعة، لحن «بيني أند ذا جتس»[8]. في تلك الأيَّام، كان من الصعب أن تستمع إلى شيءٍ دون أن يُقطع لبثِّ أخبارٍ عاجلة عن هجمةٍ إرهابيَّةٍ هنا أو هناك، أو تقريرٍ عن الأزمة السياسيَّة المتصاعدة. ظلَّ يدندن كأنَّما يريد أن يُطيل اللحن، لكي يبقى في عالم الخفَّة والجمال.

كان الوقتُ ما يزال مبكِّرًا على قدوم الزبائن. في المطبخ، يجلس الطبَّاخ وحيدًا، ينظر إلى سلَّة تينٍ وطاسةٍ من الكْريمة المخفوقة، ويدُه على ذقنه. لم يرفع رأسه لرؤية القادم، إذْ كان مستغرقًا في عمله.

أمَّا يورغوس فكان واقفًا وراء الطاولة، يمسح الكؤوس، يعلِّق منشفةً بيضاء على كتفه.

قال كوستاس: «ياسُّو [مرحبًا]. ما الذي يفعله الطبَّاخ؟»

«أوه، لا تزعجه. إنَّه يتدرَّب على طبق الحُلو الذي أخبرتْنا عنه ديفني. وصفةِ أبيها. نريد أن نضيفه إلى قائمة الطعام».

نظر كوستاس حوله. «رائع. وأين يوسف؟»

فأومأ يورغوس بذقنه صوب الرواق. «هناك، يسقي النباتات. هل تعلم أنَّه يغنِّي لها؟»

«صحيح؟»

«نعم، ويتحدَّث إلى التينة كلَّ يوم. أقسمُ بالربِّ! لو تعرف كم مرَّةً ضبطتُه... والمضحكُ أنَّه إذا ما تحدَّث إلى البشر تأتأ وتمتم، لكنَّه حين يتحدَّث إلى النباتات يصبح معسول الكلام، يصبح

أفصح من سمعته في حياتي».

«مذهل!»

فقال يورغوس مقهقهًا: «نعم. ربَّما ينبغي لي أن أتحوَّل إلى صبَّارةٍ كي يقول لي أكثر من كلمتَيْن». أخذ كأسًا آخر من الرفّ، ومسحه بلطفٍ ثم نظر إلى كوستاس نظرةً حادَّة. «أُمُّك جاءت اليوم».

فشحبَ وجه كوستاس: «حقًّا؟»

«نعم، وكانت تسأل عنك».

«لماذا؟ فهي تعرف أنَّني أزوركم. بل هي التي تبعثني إليكم لبيع الأغراض».

«صحيح، لكنَّها كانت تسأل عمَّا إذا كنتَ تأتينا في أوقاتٍ أخرى كذلك، وإنْ كنتَ تأتي، فلماذا؟»

التقت أعينهما لحظةً.

«أظنُّ أنَّ أحدًا رآك تخرج من هنا مع ديفني. في الجُزُر، كما تعرف، يطيرُ الكلامُ أسرعَ من الصقر».

«وماذا قلتَ لها؟»

«قلتُ لها إنَّك ولدٌ من خيرة الشباب، وإنَّني ويوسف نفخر بك. وإنَّك تزورنا أحيانًا في المساء لتساعدنا. قلتُ لها لا داعي للقلق».

أخفض كوستاس رأسه. «شكرًا».

ألقى يورغوس المنشفة جانبًا ووضع راحتَيْه على الطاولة. «اسمع... أنا أتفهَّم. ويوسف يتفهَّم، لكنَّ كثيرين في قبرص لن يتفهَّموا ذلك أبدًا. خذا حذركما. أنت تعرف الظروف السيِّئة التي نمرُّ بها. من الآن فصاعدًا، فليخرج كلُّ واحدٍ منكما منفردًا. لا تمشيا معًا لئلاَّ يراكما أحد الزبائن».

«وماذا عن الموظَّفين؟»

«لا داعي للقلق منهم. أنا أثق بهم».

فهزَّ كوستاس رأسه. «لكنِّي لا أريد أن أسبِّب لكم مشكلةً إن استمرَّ الأمر».

«لا مشكلة لدينا، �اليكاري مو [يا صديقي البطل]. لا تقلق من هذا». ثم التمع وجهه بخاطرٍ جديد، أو لعلَّها ذكرى. «ولكن أرجو أن تعذرني على ما سأقوله: في شبابنا، نعتقد أنَّ الحبّ يدوم إلى الأبد».

فأحسَّ كوستاس بقشعريرةٍ تسري في جسده، مثل تيَّارٍ يتموَّج تحت جلده. «لا أدري ما إذا كانت لك تجربةٌ سيِّئة، لكنَّ الأمر مختلفٌ معنا. حبُّنا إلى الأبد».

لم يقل يورغوس شيئًا. الشبابُ وحدَهم مَن يزعمون ذلك، والشيوخُ وحدهم من يُدركون أنَّه وعدٌ كاذب.

عندها، فُتح الباب ودخلت ديفني، ترتدي فستانًا أخضر يحيطُ به خيطٌ فضِّيّ، وعيناها مشرقتان. تحمَّس الببَّغاء تشيكو لرؤيتها، فراح يرفرف بجناحَيْه وينعق باسمها: «دابني! دابني! قُبلة، قُبلة».

فزَفَرت ديفني وقالت: «تحشَّم!»، ثم التفتتْ إلى الآخرين وقد استطاعت على الفور أن تبدِّد المزاج السائد في المكان. «ياسُّو».

تهلَّلتْ أسارير كوستاس وهو يمشي إليها، على الرَّغم من التوتُّر الذي يكدِّر صفوه.

التينة السعيدة

قائمة الطعام

مأكولاتُنا مزيجٌ من الثقافات الكثيرة التي استوطنت هذه الجزيرة المباركة عبر القرون. طعامُنا طازجٌ، ونبيذُنا معتَّقٌ، ووصفاتنا خالدة.

نحن عائلةٌ هنا. عائلةٌ تُعطي، وتُشارك، وتستمع، وتغنّي، وتضحك، وتبكي، وتغفر. والأهمّ من ذلك كلّه أنَّها تقدِّر الطعام الجيِّد.

استمتعوا!

ي و ي

المقبِّلات

بابا غنَّوج بالطحينة

فافا البازلاَّء الصفراء

محشي الفليفلة (دولماديكا/دولمة)

محشي الكوسى مع مفاجأةٍ بداخلها

ورق العنب بالرزّ واللحم المفروم

الشوربة

شوربة القمح الحامض (تراهاناس/ترهانا)

شوربة الصيَّاد الجائع

السَلَطة

سلَطة القرية القبرصيَّة

سلَطة الرمَّان والبطِّيخ مع جبن الفيتا

سلَطة الحلَّومي المشويّ بالبرتقال والنعناع

أطباق خاصَّة

كرات اللحم بالزبادي (كفتيديس/ كفتة)

لحم خنزير مشويّ على مهل بالأوريغانو

شرائح مقليَّة من سمك البلايس

ساغاناكي الربيان

لحم الخروف المشويّ بالبصل، محشوّ في بطن خروف

موساكا حارَّة مطبوخة في الفرن

يخنة الخرشوف مع بلح البحر والبطاطس والزعفران

لفائف سوڤلاكي الدجاج (تُقدَّم مع البطاطس المقليَّة والتزاتزيكي)

الحلويَّات

تينٌ مشويّ بالعسل في الفرن مع آيس كريم اليانسون (وصفة سرِّيَّة مهرَّبة من أحد زبائننا المفضَّلين)

مهلَّبيَّة الرزَّ على الطريقة التقليديَّة (من دون أسرار)

لُقيمات مقرمشة بالعسل (لوكوماديس/لقمة)

بقلاوة (يونانيَّة/تركيَّة/أرمنيَّة/لبنانيَّة/سوريَّة/مغربيَّة/جزائريَّة/أردنيَّة/فلسطينيَّة/إسرائيليَّة/مصريَّة/تونسيَّة/ليبيَّة/عراقيَّة...هل نسينا أحدًا؟ إن نسينا يُرجى إبلاغنا كي نضيفه).

المشروبات الكحوليَّة

يُرجى النظر في قائمة أنبذتنا المميَّزة.

المشروبات الساخنة

قهوة عالميَّة محمَّصة بالهيل

شاي الجبل المتوسِّطيّ

شاي الخرُّوب بالهندباء

شوكولاتة ساخنة لعوب بالكريمة المخفوقة والڤودكا

لكي تُصَحْصِح

شوربة الكِرش بالثوم والخلّ والليمون المجفَّف والبهارات السبعة

(أقدمُ وصفةٍ في المشرق لآثار السُكْر)

القدّيسون
قبرص، 1974 م

كانت أُمُّه امرأةً متديّنة جدًّا. لا يذكر كوستاس يومًا لم تكن فيه هكذا، لكنَّ الدين صار أكثر حضورًا في حياتهم بمرور السنين. تتوزَّع مجموعاتٌ من الأيقونات الدينيَّة على الجدران المطليَّة بالأبيض، وعلى الأرفف الخشبيَّة، والتجاويف الجداريَّة، تحرس المكان، تحدِّق من عالمٍ مجهول، تراقب في صمت.

كانت �انايوتا تقول: «تذكَّر أنَّ القدِّيسين دائمًا معك. لنا أعينٌ لا ترى إلاَّ الذي أمامنا، لكنَّ الأمر مختلفٌ عند القدِّيسين. إذْ يرون كلَّ شيء. فإنْ فعلتَ شيئًا في السرِّ، ليڤيندي مو [يا ولدي الشجاع]، فورًا يعرفون. تستطيع أن تخدعني أنا، لكنَّك لا تستطيع أن تخدع القدِّيسين أبدًا».

كان كوستاس في طفولته يقضي ساعات فراغٍ طويلة يتفكَّر في التركيب البصريّ لأعين القدِّيسين. فلا بدَّ من أنَّ إبصارهم يُغطِّي ثلاثمئة وستِّين درجة، مثل اليعسوب، لكنَّ هذا التشبيه لن يروق والدته. أمَّا هو فيتمنَّى أن تكون له خصائص اليعسوب. ليته يحوم مثل المروحيَّة، في طيرانٍ فريدٍ من نوعه ألهم العلماء والمهندسين في العالم كلّه.

من أوضح الذكريات التي ما زال يحتفظ بها من طفولته أنَّه كان يجلس عند نار الطبخ، يراقب أُمّه وهي تطبخ، تتفصَّد لمعةٌ من عرَقٍ فوق جبينها. كانت تعمل طوال الوقت، والدليلُ يداها التي تخشَّنت من أثر البثور، وتقرَّحتْ مفاصلُ أصابعها من قسوة المنظِّفات.

أمَّا والده فقد مات وهو في الثالثة من عمره، متأثِّرًا بمرضٍ في الرئة ناتجٍ عن استنشاق الأسبستوس فترةً طويلة. كان موتًا أسودَ، مِن غبارٍ أبيض. فقد كانت قبرص تُصدِّر كمِّيَّاتٍ كبيرةً من المعادن المستخرجة من المنحدرات الشرقيَّة في جبال ترودوس. تستخرجُ شركات التعدين الحديد

والنحاس والكوبلت والفضَّة والبيريت والكروم والعنبر الذي يحتوي على الذهب، فتحصد أرباحًا هائلة، فيما يتسمَّم عمَّال المناجم والمصانع شيئًا فشيئًا.

لم يُدرك كوستاس إلاَّ بعد ذلك بسنواتٍ أنَّ أُسَر العمَّال كانت تتعرَّض أيضًا لتلك المادَّة السامَّة، لا سيَّما الزوجات. إذْ تتدهور صحَّة الزوجة تدريجيًّا، دون أيّ تشخيصٍ للمرض، ودون أيّ تعويض. في ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون شيئًا. لم يدركوا أنَّ السرطان الذي بدأ يمزِّق خلايا �انايوتا إنَّما جاء من غسل ملابس زوجها نهارًا، والالتصاق به في السرير ليلاً، حين تستنشق مسحوق الأسبستوس من شَعره. كانت �انايوتا مريضةً، لكنَّ من يراها وهي تنتقل في نشاطٍ من عملٍ إلى آخر لا يمكن أن يخمِّن ذلك.

يكاد لا يذكر كوستاس شيئًا عن والده. يعرف أنَّ لأخيه الأكبر ذكرياتٍ كثيرةً معه، وأنْ لا ذكرياتٍ على الإطلاق لأخيه الأصغر، الرضيع آنذاك. أمَّا هو فقد أُورث طبقةً من ضباب، وَهمًا مُحبطًا بأنَّه إن أزاح السحاب بيدَيْه فقد يرى وجه أبيه، قد تعود الأجزاء المفقودة لتكتمل الصورةُ أخيرًا.

لم تتزوَّج �انايوتا مرَّةً أخرى، واختارت أن تربِّي أولادها الثلاثة بمفردها. ولمَّا لم يكن لها دخلٌ آخر منذ وفاة زوجها، فقد لجأت إلى بيع المنتجات المنزليَّة للمحالّ القريبة، ثم كوَّنت مشروعها الخاصّ بمرور السنوات. أمَّا الإيرادات الحقيقيَّة فكانت تأتيها من نبيذ الخرُّوب، وهو مشروبٌ لاذعٌ يحرق الحلق، لكنَّه يستقرّ بعد ذلك دافئًا في مجرى الدم مثل نار المخيَّم. وكان أخوها يبعث لها بعض المال من لندن من حينٍ إلى آخر.

بتلك القوَّة التي كانت عليها �انايوتا، استطاعت أن تكون حنونةً وصارمة. كانت تؤمن بأنَّ الأرواح الشرِّيرة موجودةٌ في كلِّ مكان، تفترس ضحاياها الأبرياء. فالزفتُ الذي يلطِّخ حذاءك، والطِّين الذي يعلق بإطاراتك، والغبار المتسلِّل إلى رئتيْك، ورائحة الياسنت التي تدغدغ أنفك، بل حتى نكهة المستكة التي تستقرّ في لسانك، كلّ هذا قد يكون ملطَّخًا بأنفاس الأرواح الشرِّيرة. لا بدَّ للمرء من أن يكون متيقِّظًا، كي يطردها. لكنَّها مع ذلك تتسلَّل إلى البيت عبر فتحات الأبواب، وشقوق النوافذ، وشُكوك النفس البشريَّة.

قد ينفع حرقُ أوراق الزيتون، ولذلك كانت �انايوتا تحرقها بانتظام، برائحةٍ لاذعةٍ خانقةٍ ونافذةٍ لدرجة أنَّها تحرق جلدك. كانت كذلك تُشعل الفحم؛ فمن المعلوم أنَّ الشيطان يكره الدخان. ترسمُ علامة الصليب مرَّةً بعد أخرى، وتذرع البيت في هدوء، وشفتاها مطبقتان في دعاء، فيما تقبض بأصابعها على الكا�نيستيري [المبخرة] الفضِّيَّة. كان على كوستاس أن يرسم الصليب بيده اليمنى دائمًا (اليد الخيِّرة) كلَّما غادر البيت أو عاد إليه.

حين يشعر كوستاس بالتعب أو الأرق، تقول �انايوتا ربَّما أصابتْه عيْن، ولذلك لا بدَّ من الكسيماتيازما لطرد العيْن. هكذا تضعه على كرسيٍّ أمامها، وتحمل كأس الماء في يد، وملعقة زيت الزيتون في اليد الأخرى. يا لعدد المرَّات التي رأى فيها كوستاس تلك القطرات الذهبيَّة وهي تسقط في الماء، في انتظار أن يرى ما إذا كانت ستتجمَّع أم تتفرَّق، حتى يعرفوا قوَّة العيْن الحاسدة! بعد ذلك، تطلب منه أن يشرب الماء وقد امتلأ بالتعويذات، فيشربه إلى آخر قطرة، رجاةَ أن يتخلَّص من المرض الذي ألمَّ به دون أن يدري.

كان في صغره كثيرًا ما يتسلَّل ويجلس تحت شجرةٍ في أوقات العصر الهادئة، منغمسًا في كتابٍ وهو يقرض قطعة خبزٍ بالزبادي ورشَّةٍ من السكَّر. كان يتأمَّل بكلِّ فضولٍ لوحًا تُغطِّيه الطحالب، يستنشق روائح خردل الثوم ونبات اللكِّيَّة، وينصت إلى خنفساءَ تقضم ورقةً، ثم يندهش من خوف أُمِّه من هذا العالم الطافح بالعجائب.

*

كانت القواعد هي التي تعطي الحياة شكلها، والقواعد لا بدَّ من أن تُطاع. لا ينبغي إخراج الملح والبيض والخبز من البيت بعد الغروب، فإن خرجتْ لا تعود أبدًا. إهراقُ زيت الزيتون نذير شؤم، فإنْ حدث ذلك لا بدَّ من الضرب على كأسٍ من النبيذ الأحمر، لإحداث التوازن. وحين تحفرُ الأرض لا تضع المجرفةَ على كتفك، فقد يموت شخصٌ ما. لا تُحصي البثور في جسمك (لأنَّها ستتضاعف)، ولا تعدَّ العملات في جيبك (لأنَّها ستختفي). ويوم الثلاثاء أقلّ الأيَّام خيرًا وبركة. فلا يجدر بالمرء أن يتزوَّج يوم الثلاثاء، أو يسافر، ولا يجدر بالمرأة أن تلد في ذلك اليوم إن استطاعت.

قالت �انايوتا إنَّ العثمانيّين احتلُّوا القسطنطينيَّة، ملكة المُدن كلّها، في يوم ثلاثاء من شهر أيَّار/مايو قبل قرون. وقد حدث ذلك بعد أن حُمل تمثال العذراء لإخفائه في مكانٍ ما أثناء الحصار

المستمرّ، فسقط التمثال وتحطَّم إلى أشلاء صغيرةٍ جدًّا لا يمكن جمعها. كانت تلك إشارةً، لكنَّ الناس لم يُدركوا آنذاك. وقالت إنَّ الإنسان لا بدَّ من أن يتنبَّه إلى الإشارات دائمًا، كنعيق البوم في الظلام مثلاً، وسقوط المكنسة من تلقاء نفسها، وطيران العثَّة في وجهك. فلا خير يُرتجى إن حدث شيءٌ من ذلك. كانت تؤمن أيضًا بأنَّ بعض الأشجار مسيحيَّة، وبعضها محمَّديَّة، وبعضها وثنيَّة.. وعلى الإنسان أن يحرص على اختيار الأشجار التي يزرعها في حديقته.

كانت شديدة الحرص على تجنُّب ثلاثة أشياء: الجلوس تحت شجرة الجوز، لأنَّها تورث الكوابيس؛ وزرع شجرة الكوتسوبيا (شجرة يهوذا، أو الأرجوان)، لأنَّ يهوذا شنق نفسه في غصنها بعد أن خان ابن الربّ؛ وقطع شجرة المستكة، فالمعروف أنَّها بَكَت مرَّتيْن في تاريخها الطويل: مرَّةً حين عذَّب الرومان شهيدًا مسيحيًّا، ومرَّةً حين احتلَّ الأتراكُ العثمانيُّون قبرص واستوطنوا فيها.

كان قلبُ كوستاس ينقبض كلَّما سمع هذه الأشياء من أمِّه. فقد كان يحبّ الأشجار كلّها دون استثناء. أمَّا أيَّام الأسبوع فهي بالنسبة إليه نوعان لا أكثر: الأيَّام التي يقضيها مع ديفني، والأيَّامُ التي يقضيها في اشتياقٍ إليها.

حاول مرَّةً أو مرَّتَيْن، لكنَّه سرعان ما عدل عن ذلك. كان يعرف أنَّه لا يستطيع أبدًا إخبار أُمِّه بأنَّه يهوى فتاةً تركيَّةً مسلمة.

القلعة

لندن، أواخر العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين

بقيَت آدا في غرفتها طوال الصباح، تراقب العاصفة وهي تزداد قوَّةً إلى إعصار. فوَّتَت الإفطار والغداء، وتصبَّرتْ بكيس فُشارٍ وجدتْه في حقيبة المدرسة. جاء والدها مرَّتَيْن يطمئنُّ عليها، فصدَّتْه بحجَّة أنَّها تدرس استعدادًا لامتحان الشهادة الثانويَّة.

في وقتٍ لاحقٍ من عصر ذلك اليوم، قُرِع الباب، قرعًا حادًّا مُلِحًّا. فتحتْ آدا الباب، فوجدتْ خالتها.

سألتْها مريم وقد انعكس ضوءُ السقف على خرزة العيْن في قلادتها: «متى تخرجين من غرفتك؟»

«المعذرة، لديَّ أشياءُ أفعلها... واجبات». شدَّدتْ على الكلمة الأخيرة، لأنَّها تعرف تأثيرها على الكبار. فبمجرَّد أن تقولها يتركونك وشأنك.

لكنَّ الحيلة لم تنجح مع خالتها، بل إنَّها انزعجتْ ممَّا سمعتْ. «ولماذا تفعل المدارس الإنجليزيَّة ذلك؟ انظري إلى نفسك، محبوسةً في غرفتك كالسجينة، وأنتِ ما تزالين صغيرة. تعالي، وانسي الواجبات. هيَّا نطبخ».

«لا يمكنني أن أنسى واجباتي. المفروض أن تشجِّعيني على الدراسة. ثم إنِّي لا أعرف كيف أطبخ».

«لا بأس. أنا سأعلِّمك».

«لكنِّي لا أحبَّ الطبخ أصلاً».

ارتسم استفهامٌ في عينَي مريم العسليَّتيْن، وقالت: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. تعالي، جرِّبي. يقولون إذا وجدتِ قريةً سعيدة، فابحثي عن طبَّاخها».

لكنَّ آدا ردَّت على نحوٍ قاطع: «آسفة. مضطرَّة إلى العودة لدروسي».

وببطءٍ، أغلقت الباب، وتركتْ خالتها واقفةً في الخارج، بإكسسواراتها وأمثالها الشعبيَّة، تبهُت مثل صورةٍ عائليَّةٍ أخرى على الجدار.

*

في العام الذي التحقت فيه آدا بالمدرسة الابتدائيَّة، كانت تستقلُّ الباص إلى بيتها في الظهيرة. يقف في نهاية الشارع، إذْ يصل دائمًا في هذا الوقت، فتجدُ أُمَّها في انتظارها أمام بوَّابة الحديقة، تعلِّق عينَيْها على اللاشيء، وتخبط بطرف نعلها على السور. كأنَّما كانت تدندن لحنًا لا يسمعه أحدٌ غيرها! كانت على موعدها دائمًا هناك، حتى في أيَّام المطر أو الثلج. لكنَّها ذات يومٍ في منتصف حزيران/يونيو، لم تكن هناك.

ترجَّلت آدا من الباص، تُمسك بحذرٍ عملها الفنِّيّ الذي صنعتْه في الفصل. كانت قد صنعت قلعةً من علب الزباديّ وأعواد المصَّاصات وسلال البيض. أمَّا الأبراج فكانت من الكرتون، مطليَّةً بالبرتقاليّ الفاقع. وأمَّا الخندق المحيط بالقلعة، المصنوع من أغلفة الشوكولاتة، فكان يتوهَّج في الشمس الغاربة كالزئبق. ظلَّتْ آدا تعمل طوال فترة الظهيرة كي تُنهي هذا العمل، ولم تعد قادرةً على انتظار أن يراه أبواها.

وما إنْ دخلت البيت حتى تسمَّرتْ في مكانها، إذْ أوقفَها صوتُ أغنيةٍ صاخبٌ جدًّا.

«ماما؟»

وجدتْ أمَّها في غرفة أبويْها، تجلس على كرسيٍّ عند النافذة، تضمُّ ذقنها براحتها. كان وجهها شاحبًا، يكاد يكون شفيفًا، كما لو أنَّه مسلوب الدم.

«ماما، أنتِ بخير؟»

استدارت بسرعةٍ، وهي ترمش. «همم! حبيبتي، وصلتِ. كم الساعة الآن؟» كان صوتها باهتًا، مشوَّشًا. «وصلتِ...؟»

«نعم، جئت بالباص».

«أوه حبيبتي، آسفة. كنتُ جالسةً هنا قليلاً. لا بدَّ من أنّي لم أتنبَّه إلى الوقت».

لم تستطع آدا أن تحوِّل نظرتها عن عينَي أُمِّها. كانتا منتفختَيْن، محمرَّتَيْن على الأطراف. وبهدوءٍ، وضعتْ آدا القلعةَ على الأرض. «لماذا تبكين؟»

«لا... قليلاً فقط. اليوم يوم خاصّ. تحلّ ذكرى حزينة».

اقتربتْ منها آدا.

«كان لديَّ صديقان عزيزان: يوسف ويورغوس. كانت لديهما حانةٌ رائعة. ياه، كم كان الطعام مدهشًا! الروائحُ وحدَها تُشعركِ بالشبع». ثم التفتت ديفني إلى النافذة، وضوءُ الشمس يسقطُ على كتفَيْها مثل وشاحٍ ذهبيّ.

«وماذا حدث لهما؟»

فرقَعت ديفني أصابعها كالساحر الذي انتهى من خدعته. «بووف، اختفيا».

مرَّت لحظةُ صمت. في ذلك الصمت، هزَّت ديفني رأسها باستكانة. «كثيرون فُقدوا في قبرص في تلك الأيَّام. كان أحبَّاؤهم ينتظرون، يحدوهم أمل أن يكونوا أحياء، مأسورين في مكانٍ ما. كانت سنواتٍ فظيعة». ألقتْ ذقنها في الهواء، وضغطتْ شفتَيْها بقوَّةٍ حتى امتقعتا. «لقد عانى الناس كلُّهم من كِلَا الطرفَيْن، لكنَّهم كانوا يكرهون سماع ذلك».

«لماذا؟»

«لأنَّ الماضي مرآةٌ قاتمةٌ مشوَّهة. تنظرين إليها، فلا ترينَ سوى آلامك. لا يوجد مكانٌ لآلام الآخرين». وحين لاحظتْ الحَيْرة على وجه آدا، حاولت أن تبتسم.. ابتسامةً رفيعةً كالجرح.

سألتْها آدا عن أوَّل شيءٍ خطر في بالها: «وهل كان لديهم آيسكريم في الحانة؟»

«أوه، طبعًا. كانت لديهم حلويات رائعة، لكنَّ أفضلها عندي تلك التينات المشويَّة بالعسل وآيسكريم اليانسون. كان مزيجًا عجيبًا من النكهات. الحلو والحامض واللاذع قليلاً». سكتتْ قليلاً ثم قالت: «هل أخبرتكِ عن جدِّك من قبل؟ أتعرفين أنَّه كان طاهيًا؟»

هزَّت آدا رأسها.

«كان رئيس الطهاة في فندقٍ معروف اسمه «ليدرا �الاس» تُقام فيه حفلات العشاء الرائعة كلَّ ليلة. وكان والدي يُعِدُّ هذا الطبق الذي تعلَّمه من طاهٍ إيطاليٍّ. لكنِّي عرفتُ الوصفةَ فأخبرتُ يوسف ويورغوس عنها. أعجبهما الطبقُ جدًّا، فأضافاه إلى قائمة الطعام. كنتُ أشعر بالفخر طبعًا، لكنِّي خشيتُ أن يعلم والدي بالأمر. كان مبلغ قلقي طبق الحلويات هذا! كم هي ساذجة تلك الأشياء التي تُقلقنا في شبابنا». ثم غمزت لآدا كأنَّما تفشي لها سرًّا: «أتدرين؟ أنا لا أطبخ أبدًا. كنتُ أطبخ، ثم توقَّفت».

وانطلقتْ أغنيةٌ جديدة. حاولتْ آدا أن تلتقط الكلمات التركيَّة، لكنَّها لم تنجح.

قالت ديفني: «من الأفضل أن أقوم وأغسل وجهي». نهضتْ على قدمَيْها، فلمَّا فعلت كادت تترنَّح، واستطاعت أن توازن نفسها في آخر لحظة.

سمعتْ آدا صوتَ علب الزباديّ وهي تتحطَّم.

«يا إلٰهي، ماذا فعلتُ؟» انحنتْ ديفني والتقطتْ أبراج الكرتون المنهارة.

«هل هذه أشياؤك؟»

لم تقل آدا شيئًا، خشية إنْ فتحت فمها قد تنفجر باكية.

«صنعتِ ذلك في المدرسة؟ أنا آسفة يا حبيبتي. ماذا كان؟»

استطاعت آدا أن تقول: «قلعة».

«أوه يا حبيبتي».

فلمَّا شدَّتْها إلى حضنها، شعرتْ آدا بتشنُّج جسمها كلّه. احدودبتْ كأنَّ شيئًا يسحقها، لكنَّها لا تراه ولا تستطيع أن تُسمِّيه. في تلك اللحظة، اشتمَّت رائحة الكحول في أنفاس أُمِّها. لم تكن كرائحة النبيذ الذي يطلبه أبواها حين يذهبان إلى مطعمٍ فاخر، أو كرائحة الشم�انبا التي يفتحانها حين يحتفلان مع الأصدقاء. كانت رائحةً مختلفة. لاذعة، كرائحة المعدن.

كانت رائحةً تبعث على الحزن!

*

في وقتٍ لاحقٍ من عصر ذلك اليوم، خرجتْ آدا من غرفتها جائعةً، تمشي متثاقلةً إلى المطبخ. كانت خالتها هناك، تغسل الصحون وقد انغمس معصماها في الماء، تشاهد ما يبدو مسلسلاً تركيًّا على هاتفها.

«مرحبًا».

جفلتْ مريم. «آه! أفزعتِني!»، ثم رفعتْ يدها ودفعتْ إبهامها في سقف حلقها.

نظرتْ إليها آدا باستفهام. «هكذا تفعلون حين تفزعون؟»

«طبعًا. وماذا يفعل الإنجليز؟»

هزَّت آدا كتفَيْها.

قالت مريم وهي تطفئ هاتفها: «والدك يطمئنُّ على التينة مرَّةً أخرى. في العاصفة! قلتُ له إنَّ الجوَّ شديد البرودة، والريح عاتية، لكنَّه لم يسمع».

فتحتْ آدا الثلاَّجة وأخرجت زجاجة حليب. ثم أخذت حبوب الإفطار التي تفضِّلها وأفرغت منها في طاسة.

راقبتْها مريم وهي عابسة. «لا تقولي إنَّكِ ستأكلين أكل العزَّاب هذا!»

«أنا أحبّ حبوب الإفطار».

«صحيح؟ أحسّ أنَّ رائحتها كلَّها مثل العِلك. لا ينبغي للحبوب أن تكون هكذا. هناك شيءٌ غير طبيعيٍّ فيها».

سحبتْ آدا مقعدًا وبدأت تأكل، على الرَّغم من أنَّ كلام خالتها أثَّر في تصوُّرها عن الحبوب. «هل تعلَّمتِ الطبخ من والدك؟ كان طاهيًا، أليس كذلك؟»

لم تحرِّك مريم ساكنًا. «هل سمعتِ عن بابا؟»

«ماما أخبرتني. مرَّةً واحدة فقط. الحقيقة أنَّها لم تكن في وعيها، فلم تكن تتحدَّث عن قبرص قطّ. لا أحد يتحدَّث عن قبرص في هذا البيت».

عادت مريم إلى غسيل الصحون في صمت. نشَّفت كوبًا، ووضعتْه مقلوبًا على لوحٍ، وسألت في حذر: «ما الذي تريدين أن تعرفيه؟»

«كلّ شيء. لقد تعبتُ وسئمتُ من معاملتي كالأطفال».

ردَّدت مريم: «كلّ شيء. ولكنْ لا أحد يعرف كلَّ شيء. لا أنا، ولا أبوك... لا نعرف سوى أجزاءٍ متفرِّقة، والقليلُ الذي يعرفه كلٌّ منَّا ربَّما لا يتطابق مع القليل الذي يعرفه الآخر. فما الفائدة إذن من الحديث عن الماضي إنْ كان لا يفعل سوى تكدير الجميع؟ يقولون: اسجن لسانك في فمك، فتسعةُ أعشار الحكمة في الصمت».

شبكتْ آدا ذراعَيْها. «غير صحيح. لا بدَّ للإنسان أن يقول ما عنده مهما حدث. لا أفهم ممَّ تخافون! ولقد قرأتُ بنفسي أيضًا، وعرفتُ عن العداء وأعمال العنف بين اليونانيِّين والأتراك. وللبريطانيِّين يدٌ في الأمر أيضًا. لا يمكن أن نغفل الاستعمار. ولا أدري لماذا يسكت أبي وكأنَّ ما حدث سرّ. كيف لا يدرك أنَّ كلَّ شيءٍ أصبح موجودًا في الإنترنت؟ أبناء جيلي لا يخافون من طرح الأسئلة. لقد تغيَّرت الدنيا».

سحبتْ مريم السدَّادة، وأخذتْ تنظر إلى الماء وهو يغرغر في الثقوب، في دوائرَ لا تنتهي. ثم مسحتْ يدَيْها في مريلتها، وابتسمتْ ابتسامةً لم تصل إلى عينَيْها. «هل تغيَّرت الدنيا إلى هذا الحدّ؟ أرجو أن تكوني محقَّة».

*

أمسكتْ ديفني تصميمَ آدا بين راحتَيْها كطائرٍ جريح، وأخذتْ تتحدَّث عن قبرص. أخبرتْها أشياءَ لم تذكرها من قبلُ قطّ.

«وُلدتُ قرب كيرينيا يا حبيبتي. وأعرف قلعةً، مثل هذه التي صنعتِها، غير أنَّ قلعتي كانت عاليةً، فوق الصخور. يُقال إنَّها ألهمت ديزني. تذكرين فيلم سنو وايت؟ وبيت الملكة المحاط بالأحراش والأجراف المخيفة؟»

أومأتْ آدا.

«سُمِّيت القلعة هيلاريون، تيمُّنًا بقدِّيسٍ من فلسطين. كان هيلاريون ناسكًا».

«ناسك؟»

«الناسكُ شخصٌ يعتزل الناس والعالم. ولكي تكون الأمور واضحةً، لا بدَّ من القول إنَّ الناسك لا يكره الناس، بل يحبّهم، لكنَّه يفضِّل ألاَّ يختلط بهم».

أومأتْ آدا مرَّةً أخرى، على الرَّغم من أنَّ الأمور لم تكن واضحةً على الإطلاق.

«كان القدِّيس هيلاريون رحَّالة. سافر إلى مصر وسورية وصقلية ودلماسيا... ثم وصل إلى قبرص. ساعد الفقراء وأطعم الجائعين وعالج المرضى. وكانت غايته الأسمى هي أن يبتعد عن الغواية».

«الغواية؟»

«مثلاً، لو أعطيتكِ شوكولاتة وطلبتُ منكِ أن لا تأكليها إلاَّ غدًا، ثم وضعتِها في الدُّرج، لكنَّكِ بعد ذلك فتحتِ الدُّرج للاطمئنان عليها، ثم قلتِ في نفسك لمَ لا أتذوَّق قطعةً صغيرة؟ وينتهي بكِ الأمر إلى أن تضعفي وتأكليها كلَّها. هذه هي الغواية».

«والقدِّيس لم يكن يحبّ ذلك؟»

«لا، لم يكن مغرمًا بالشوكولاتة. كان مصمِّمًا على تخليص قبرص من جميع الشياطين. ظلَّ ينزل في الأودية ويصعد، يذبح العفاريت ويقتل الوحوش الملعونة، إلى أن وصل إلى كيرينيا ذات يومٍ وصعد فوق الصخور كي يرى الجزيرة من فوق. وهنا شعر بأنَّه انتهى من مهمَّته، ويمكنه أن يبحر إلى ميناءٍ آخر. كان يشعر بالرضا عن نفسه، فنظر إلى ما حوله، إلى القرى التي تنام في سلامٍ بفضله. وعندها جاءه صوتٌ يقول: «يا هيلاريون، يا ابن غزَّة، أيُّها الهائم التائه... أواثقٌ أنتَ أنَّك قضيت على كلِّ الشياطين؟»

فردَّ بشيءٍ من اعتداد النفس: «أُشهدكَ اللهمَّ أنِّي فعلت. وإن بَقِيَت شياطين أخرى، أرنيها وسوف أقضي عليها».

فقال الصوت: «وشياطين النفس؟ هل قضيتَ عليها؟»

حينها أدرك القدِّيس أنَّه لم يتخلَّص إلاَّ من الشياطين التي يستطيع رؤيتها. تعرفينَ ماذا فعل؟»

«ماذا؟»

«صبَّ شمعًا مُذابًا في أذنَيْه، كي لا يسمع أصوات الشرِّ والإثم التي في داخله. فظيعٌ، أليس كذلك؟ لا تفعلي شيئًا كهذا أبدًا. لقد أتلف سمعَه وأبى النزول من الجبل. مرَّت سنة، ثم أخرى، وعلى الرَّغم من أنَّ القدِّيس كان راضيًا بالصمت الذي يعيش فيه، إلاَّ أنَّه افتقد بعض الأصوات، كحفيف الأوراق، وخرير السواقي، وطقطقة المطر، وتغريد الطيور على الأخصّ. فلمَّا رأتْه الحيوانات على ما هو عليه من الحزن، صارت تأتيه بكلِّ ما هو لامعٌ برَّاق كي تواسيه. أحضرت له الخواتم والقلائد والأقراط والماسات... لكنَّ القدِّيس لم يكن يعبأ بها. فحفر حفرةً ودفنها كلَّها. لذلك ما يزال الذين يمشون عند القلعة يبحثون خلسةً عن هذا الكنز».

«هل ذهبتِ أنتِ وبابا إلى هناك؟»

«نعم، كانيم [يا روحي]. بِتنا هناك ليلة. قطعنا وعدًا بأن نتزوَّج، بصرف النظر عن موقف أهلنا، وإنْ رُزقنا بطفلٍ فسوف نُسمِّيه على اسم الجزيرة. إن كان ولدًا أعطيناه اسمًا يونانيًّا، نيسوس. وإن كانت بنتًا أعطيناها اسمًا تركيًّا، آدا. لم نكن نُدرك آنذاك أنَّ هذا يعني عدم عودتنا أبدًا».

سألتْها آدا، رغبةً منها في تغيير الموضوع إلى شيءٍ مبهج: «وهل وجدتما أيَّ كنوز؟»

«لا، لكنَّنا وجدنا شيئًا أفضل، شيئًا لا يُقدَّر بثمن. وجدناكِ أنتِ!»

لن تفهم آدا إلاَّ لاحقًا معنى هذه الكلمة. فقد قضى أبواها الليلة قرب القلعة، وهناك وُضعت بذرتها، في المكان الذي شنَّ فيه قدِّيسٌ وحيدٌ حربًا خاسرةً على شياطينه، قبل قرونٍ مضت.

التينة

في عام 1974 م، كان كوستاس كازنتزاكس كثير التردُّد إلى التينة السعيدة، إمَّا خِلسةً للقاء ديفني أو ليوصل المأكولات التي تعدّها أُمّه في البيت.

أذكر ظهيرةً عليلةً حين كان يوسف ويورغوس واقفَيْن إلى جانبي يتحدَّثان إلى كوستاس.

قال يورغوس: «قل لأُمِّك إنَّ نبيذ الخرُّوب الذي تصنعه ساحر! نريد أكثر».

فتدخَّل يوسف بعينَيْه السوداوَيْن الرامشتَيْن: «لا يط ـــ ط ـــ طلب المزيد من أجل الز ـــ ز ـــ زبائن. بل من أجل ـــ ل ـــ له هو».

«وما العيْب في ذلك! الخمرُ رحيقُ الآلهة».

هزَّ يوسف رأسه: «ذاكَ العسل، لا الخمر». كان يوسف هو الوحيد الذي لا يقرب الخمر في هذه الحانة.

«العسل، والحليب، والخمر... ما دامت هذه المشروبات تناسب زيوس، فبالتأكيد تناسبني». ثم غمز لكوستاس، وقال: «ولا تنسَ ال�استيلي من فضلك. نريد المزيد».

كان كوستاس قد بدأ مؤخَّرًا في بيع ألواح السمسم التي تصنعها �انايوتا، بوصفةٍ قديمةٍ جدًّا مع تعديلٍ بسيط. كان السرُّ في جودة العسل، ورشَّة اللافندر التي تُضيفها لما فيه من عَبَقٍ مميَّزٍ ومذاقٍ يشبه الأرض.

قال كوستاس مبتسمًا وهو يتَّجه إلى الباب: «سأقول لأُمِّي. ستفرح بذلك. لدينا خمس أشجار خرُّوب، لكنَّ الطلب كبيرٌ جدًّا».

أعترفُ أنِّي شعرتُ بشيءٍ من الغيرة. لمَ هذا المديح كلّه للخرُّوب العِلكيِّ بقشرته الجلديَّة ولبّه المصفرّ؟ ليس مميَّزًا إلى هذا الحدّ!

لا يُنكر أنَّ لأشجار الخرُّوب خبرةً طويلة، فهي ما تزال موجودةً على وجه الأرض منذ أكثر من أربعة آلاف سنة. يسمِّيها اليونانيُّون كيراتيون، أي «قرن»، ويسمِّيها الأتراك كيتشيبوينوزو، أي «قرن الماعز» (على الأقلِّ اتَّفق الطرفان على شيءٍ واحد). تستطيع شجرة الخرُّوب أن تعيش في أكثر المناخات جفافًا، بفضل أغصانها الصلبة، ولحائها السميك الخشن، وبذورها الصلبة جدًّا خلف غلافٍ منيع. وإنْ أردتم أن تروا قوَّتها، فانظروا إليها في وقت الحصاد؛ إذْ يلجأ البشرُ إلى طرقٍ غريبةٍ جدًّا في حصاد الخرُّوب، فيضربون قرونها بالعصيّ، وينشرون شباك الليف من تحتها. مشهدٌ عنيف!

أسلِّم لأشجار الخرُّوب بالقوَّة إذن، لكنَّها تخلو من العاطفة، بعكسنا نحن التينات. فهي باردة، براغماتيَّة، وليس لها روح. تتوخَّى المثاليَّة دائمًا، على نحوٍ يُزعجني. وبذورُها تكاد تكون متطابقةً في الوزن والحجم، حتى إنَّ التجَّار في الأزمان القديمة كانوا يستخدمونها لوزن الذهب (ومن هنا جاءت كلمة قيراط). بل إنَّها كانت تُعدُّ أهمَّ محصول على هذه الجزيرة، وسلعتها الأساسيَّة للتصدير. لا بدَّ من أنَّكم تفهمون مَبْعث انزعاجي إذن؛ فثمَّة تنافسٌ بين الخرُّوب والتين.

التيناتُ ممتعةٌ، ناعمة، غامضة، عاطفيَّة، شاعريَّة، روحيَّة، منطويةٌ على نفسها. أمَّا أشجار الخرُّوب فتحبّ أن تكون الأشياء مادِّيَّة، عمليَّة، غير عاطفيَّة، قابلةً للقياس. جرِّبوا أن تسألوها عن أحوال القلب، ولن تجدوا ردًّا. ولا مجرَّد ارتعاشةٍ خفيفة. فلو أنَّ شجرة خرُّوبٍ روتْ لكم هذه القصَّة، لكانت مختلفةً جدًّا عن قصَّتي بالتأكيد.

*

توجد شجرة خرُّوبٍ في نيقوسيا مُصابةٌ برصاصتَيْن في جذعها. لقد تعلَّم النبات والمعدنُ أن يعيشا معًا، في كيانٍ واحد. لم يعرف كوستاس أنَّ أُمَّه كانت تزور هذه الشجرة من وقتٍ إلى آخر، تُعلِّق النذور على أغصانها، وتضع البلسم على جروحها، وتُقبِّل لحاءها الجريح.

في عام 1956 م، لم يكن كوستاس قد وُلد بعد، لكنَّني كنتُ حيَّةً أُرزق. كانت تلك أوقاتًا فظيعة؛ إذْ يُفرض حظر التجوال على نيقوسيا كلَّ يومٍ عند الغروب. وكانت الإذاعة تبثُّ أخبار

الهجمات الدمويَّة على الجنود والمدنيّين على حدٍّ سواء. كثيرٌ من الوافدين البريطانيِّين (من بينهم كتَّابٌ وشعراء وفنَّانون) غادروا الجزيرة التي استوطنوها بعد أن فقدوا الشعور بالأمان. أمَّا بعضهم (مثل لورنس دوريل) فقد بدأوا يحملون المسدَّسات لحماية أنفسهم. في شهر تشرين الثاني/نوفمبر وحده (ويسمُّونه نوفمبر الأسود)، وقعت 416 هجمةً إرهابيَّة، ما بين تفجيراتٍ وإطلاق رصاص وكمائن وإعدامات. كان الضحايا بريطانيِّين وأتراك، ويونانيِّين أيضًا يختلفون مع أهداف «أيوكا» وأساليبها. نحنُ الأشجار عانينا أيضًا، لكنَّ أحدًا لم يلاحظ. فتلك هي السنة التي احترقت فيها غاباتٌ بأكملها، أثناء ملاحقة الجماعات المتمرِّدة التي كانت تختبئ في الجبال. أشجارُ الصنوبر، وأشجارُ الأرز... كلُّها احترقت. وفي تلك الفترة تقريبًا، أقيم أوَّل حاجزٍ في نيقوسيا بين جماعة اليونانيِّين وجماعة الأتراك. كان سورًا من الأسلاك الشائكة، به أعمدةٌ حديديَّة وبوَّابات يُمكن إغلاقها بسرعةٍ إن وقعت أيُّ مصادمات. تحت هذا الحاجز، كان صبَّار التين الشوكيّ ينمو، يمدّ أذرعه الخضراء عبر الأسلاك، يلتوي هنا وهناك غير عابئٍ باختراقات الحديد.

في ذلك اليوم، كانت الشمس قد بدأت لتوِّها في الغروب معلنةً بدء حظر التجوال. سارع من في الشوارع إلى البيت، لئلاَّ تقبض عليهم الدوريَّات، باستثناء رجلٍ ذي وجنتَيْن غائرتَيْن وعينَيْن خضراوَيْن كنهر الجبل. كان يمشي على مهل، يدخِّن في هدوء، يصوِّب عينَيْه إلى الأرض. ومن خلف حجاب الدخان الرفيع، كان يبدو وجهه ممدودًا، شاحبًا. كان هذا كوستاس، جدّ كوستاس كازنتزاكِس.

وما هي إلاَّ دقائق حتى ظهرت مجموعةٌ من الجنود البريطانيِّين. كانوا في العادة يخرجون في دوريَّاتٍ من أربعة، لكنَّهم هذه المرَّة كانوا خمسة.

لمحهُ أحد الجنود، فنظر في ساعته، ثم صاح باليونانيَّة: «ستاماتا!» لكنَّ الرجل لم يتوقَّف ولم يُبطئ، بل بدا أنَّه يُسرع الآن. صاح به جنديٌّ آخر بالإنجليزيَّة: «توقَّف! أنت! توقَّف! أنا أُحذِّرك». لكنَّ الرجل ظلَّ ماشيًا في طريقه.

ثم صاح الجنود بالتركيَّة: «دور.. دور ديديم!»

كان الرجل قد وصل إلى نهاية الشارع، حيث تلوح شجرة خرُّوبٍ كبيرةٍ فوق سورٍ مكسور. أخذ نَفَسًا من سيجارته وحبس الدخان، فانبسط فمُه رفيعًا كأنَّه يبتسم، في سخريةٍ من الجنود الذين

يلاحقونه.

«ستاماتا». تحذيرٌ أخير.

ثم أطلق الجنودُ النار.

سقط والد �انايوتا عند شجرة الخرُّوب، فاصطدم رأسه بقاعدة جذعها. ندَّ عنه صوتٌ مكتوم، ثم خيطٌ رفيع من الدم. حدث هذا في سرعةٍ شديدة. ففي لحظةٍ كان يحبس نفسه، وفي الأخرى وقع على الأرض، وجسمه مخرَّمٌ برصاصاتٍ كثيرة، مرَّت اثنتان منها بجانبه فاخترقت شجرة الخرُّوب.

ولمَّا اقترب الجنود منه لتفريغ جيوبه، لم يجدوا مسدَّسًا أو أيَّ سلاح. فحصوا نبضه، فلم يجدوا شيئًا. وفي اليوم التالي، أبلغوا أسرته، وقيل لأطفاله إنَّ أباهم لم يستجب للأوامر على الرَّغم من التحذيرات المتكرِّرة.

وحينها فقط انكشفت الحقيقة. فكوستاس إيليو�ولوس البالغ من العمر واحدًا وخمسين عامًا، وُلد أصمَّ. لم يسمع أيّ كلمةٍ من الكلمات التي وُجِّهت إليه، لا اليونانيَّة ولا التركيَّة ولا الإنجليزيَّة. في ذلك الوقت، كانت �انايوتا حديثة العهد بالزواج، لكنَّها لم تنسَ، ولم تغفر. وحين وضعت ابنها الأوَّل أرادت أن تُعمِّده باسم أبيها القتيل، لكنَّ زوجها أصرَّ على أن يُسمِّيه على اسم أبيه. فلمَّا جاء الابن الثاني لم يكن أحدٌ ليغيِّر رأيها. وهكذا، سُمِّي كوستاس كازنتزاكس تيمُّنًا بجدِّه الأصمَّ البريء، المقتول تحت شجرة خرُّوب.

على الرَّغم من نفوري من شجر الخرُّوب إلاَّ أنَّني مضطرَّةٌ إلى ذكرها في حكايتي. ومثلما تتواصل الأشجارُ وتتنافس وتتعاون فوق التراب وتحته، هكذا القصصُ أيضًا؛ تنبُت، وتنمو، وتُزهر على جذور بعضها بعضًا.

صندوق الموسيقى

لندن، أواخر العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين

في نهار اليوم الثاني من العاصفة، عمَّ الظلامُ المدينة كلّها، كما لو أنَّ الليل انتصر أخيرًا في معركته الأبديَّة مع النهار. مطرٌ ثلجيٌّ حادٌّ يُشرشرُ الهواء، بدا أنَّه سوف يستمرّ دون انقطاع، ثم انسحب يُفسح المجال لعاصفةٍ ثلجيَّةٍ من الشمال.

جلسَ الثلاثةُ في البيت محبوسين، يطالعون الأخبار في الصالة. انهارت ضفافُ الأنهار من شدَّة المطر، وفاضت آلاف البيوت والمحالّ بالمياه في شتَّى أنحاء البلاد. وثمَّة انهيارات في «ليك دِستركت». انخلع سقفُ مجمَّعٍ سكنيٍّ في شارعٍ مزدحمٍ من قوَّة الرياح، فأُصيب أشخاصٌ وتحطَّمت سيَّارات. ثمَّة أشجارٌ متساقطةٌ تعيق الطرق وسكك الحديد. وقد حذَّرت تقارير الأخبار بأنَّ القادم أسوأ، وطلبت من الناس أن يلزموا بيوتهم إلاَّ في حالات الضرورة القصوى.

فلمَّا أطفأوا التلفاز، تنهَّدت مريم بصوتٍ مسموعٍ وهي تهزّ رأسها. «أشعر أنَّها علامات الساعة. يبدو أنَّ نهاية البشر قد اقتربت».

فقالت آدا دون أن ترفع عينَيْها عن هاتفها: «إنَّه تغيُّرٌ مناخيٌّ، وليس انتقامًا إلٰهيًّا. نحن الذين نفعل هذا بأنفسنا، وسوف نشهد المزيد من الفيضانات والأعاصير إنْ لم نتصرَّف فورًا. لا أحد سينقذنا. وعمَّا قريب سيكون الأوان قد فات على إنقاذ الشِعاب المرجانيَّة والفراشات الملكات».

أومأ كوستاس وهو يستمع في اهتمام. كان على وشك أن يقول شيئًا ثم تراجع، كي يمنح آدا فرصةً للتقارب مع خالتها.

صفعتْ مريم جبهتها: «أوه، نعم. الفراشات! تذكَّرتُ الآن. أين كان عقلي؟ نسيتُ أن أعطيكِ شيئًا هامًّا. تعالَي. إنَّه في غرفتي.. في مكانٍ ما!»

لكنَّ آدا كانت قد فقدتْ اهتمامها بالحوار، بعد أن رأتْ تعليقًا قاسيًا آخر منشورًا تحت مقطعها. استغرق منها الأمر بضع ثوانٍ كي تستوعب ما كانت تقوله خالتها.

أومأ كوستاس بذقنه مشجِّعًا: «اذهبي يا حبيبتي».

نهضتْ آدا على مضض. لقد أرسل أشخاصٌ كثيرون مقطعها، فانتشر انتشارًا واسعًا. كان هناك غرباء يعلِّقون على سلوكها، كما لو أنَّهم يعرفونها منذ زمن. يرفقون «مِيمات»[9] ورسوماتٍ كرتونيَّة. مع ذلك، لم تكن جميع التعليقات سيِّئة. كانت هناك تعليقاتٌ داعمة. فقد سجَّلتْ امرأةٌ في أيسلندا نفسها على خلفيَّةٍ ساحرة، وهي تصرخ من قمَّة رأسها، بينما يتفجَّر ينبوعٌ ساخنٌ من ورائها. وتحت المقطع وَسْمٌ، لاحظتْ آدا أنَّ كثيرين كانوا يستخدمونه: # هل ـــــ تسمعني ـــــ الآن.

لم تستطع آدا استيعاب الأمر، لكنَّها كانت في حاجةٍ ماسَّةٍ للانفصال عن حبائل أفكارها، فوضعتْ الهاتف في جيبها وتبعتْ خالتها.

*

دخلتْ غرفة الضيوف، فكادت لا تعرف المكان. كانت حقائب خالتها مفتوحةً مثل حيواناتٍ داميةٍ مطعونة، على خلفيَّة الجدران المطليَّة بالليلكيّ والأثاث الأخضر الذي اختارتْه أمّها بعناية. ملابسُ وأحذية وكماليَّات أخرى مبعثرةٌ في كلِّ مكان.

«أعتذر عن هذه الفوضى».

«لا عليكِ».

«العتبُ على سنِّ اليأس. ظللتُ أنظِّف وراء أختي وزوجي وأبويَّ طوال حياتي. بل حتى حين أذهب إلى مطعم، كنتُ أنظِّف الطاولة كي لا يظنّ النادل بنا ظنًّا سيِّئًا. فهذا عيب. هل تعرفين هذه الكلمة؟ هذه كلمة حياتي كلّها. لا تلبسي تنُّورةً قصيرة. ضمِّي ساقَيْكِ حين تجلسين. لا تضحكي بصوتٍ عالٍ. البنات لا يفعلن هذا، البنات لا يفعلن ذاك. هذا عيب. ظللتُ طوال حياتي مرتَّبةً، منظَّمة.. لكنَّ شيئًا حدث مؤخَّرًا، فلم أعد أرغب في التنظيف. لن أشغل نفسي بذلك بعد اليوم».

بُهتت آدا ممَّا سمعتْ، فهزَّت كتفَيْها نصف هزَّة. «لا بأس».

«جيِّد. تعالَي، اجلسي».

أفرغتْ مريم مساحةً على السرير بعد أن أزاحت كومة قلائد. جلستْ آدا هناك، تُحدِّق في عجبٍ إلى بلبلة الأغراض في كلِّ مكان.

فقالت مريم وهي تسحب علبةً من الحلويات التركيَّة من تحت ركام الملابس ثم تفتحها: «أوه، انظري. كنتُ أتساءل أين هي. أحضرتُ خمس علبٍ منها. هاكِ، خذي».

قالت آدا وقد شعرت بالإحباط من أن يكون الشيء المهمّ الذي قصدتْه خالتها مجرَّد حلويات: «لا، شكرًا. لا أشتهي الحلويات كثيرًا».

«حقًّا؟ كنتُ أحسب أنَّنا كلُّنا نشتهي الحلويات»، ثم دفعت قطعةً من حلوى راحة الحلقوم إلى فمها، وأخذتْ تمصُّها وهي تفكِّر. «أنتِ نحيلةٌ جدًّا. لا تحتاجين إلى حِمية».

«لستُ في حِمية!»

«طيِّب طيِّب».

تنهَّدت آدا وهي تميل إلى الأمام وتختار قطعةً من الحلوى. مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن ذاقت واحدة. رائحةُ ماء الورد، والقوام الدبق يذكِّرانها بأشياءَ من الماضي، أشياءَ ظنَّت أنَّها قد نسيتها منذ زمن.

حين كانت في السابعة من عمرها، رأتْ علبةً مخمليَّةً تشبه هذه العلبة بجانب سرير أمِّها. فتحتْها دون تفكيرٍ وهي تتوقَّع أن تجد فيها حلوى، فلم تجد سوى حبوبٍ بألوانٍ وأحجامٍ متعدِّدة. بدا الأمر غريبًا بالنسبة إليها، أن تكون كلّ تلك الحبوب والكبسولات في هذا الوعاء الجميل. شعرتْ بانقباضٍ مفاجئ، وغثيانٍ في معدتها. ومنذ ذلك اليوم، ظلَّت تتفقَّد العلبة، فتلاحظ نقص الحبوب سريعًا، ثم امتلاء العلبة من جديد. لكنَّها لم تجد الشجاعة قطّ كي تسأل أمّها عن سبب احتفاظها بتلك العلبة عند سريرها، أو سبب تناولها كلّ تلك الأدوية.

ابتلعتْ آدا الحلوى، ونظرت إلى الملابس المكوَّمة على الأرض. سترةٌ مطرَّزةٌ بأشكال الشِعاب المرجانيَّة، وفستانٌ بلونٍ أزرق متوهِّج ذو كمَّيْن واسعَيْن من قماش الأورغانزا، وقميصٌ

مرقَّط، وتنُّورةٌ فستقيَّةٌ من قماشٍ لمَّاعٍ يمكن للمرء أن يرى فيه انعكاس صورته.

«واو! لديكِ جرأةٌ في الألوان».

«هذا ما أرجو أن أكون عليه»، قالت مريم ذلك وهي تنظر إلى الفستان الذي ترتديه. كان فستانها أسْوَد فضفاضًا خاليًا من أيِّ لونٍ آخر أو تطريز. «قضيتُ حياتي أرتدي الأسود والبنِّيّ والرماديّ. كانت أمّكِ تسخر من ذوقي. تقول لا بدَّ من أنَّني المراهقة الوحيدة التي تلبس مثل الأرامل. لا أظنُّني كنتُ الوحيدة، لكنَّ في كلامها شيئًا من الصحَّة».

«وهذه الملابس إذن، أليست ملابسكِ؟»

«بلى! ظللتُ أشتريها وأجمعها منذ أن وقَّعتُ أوراق الطلاق. لكنِّي لم ألبسها قطّ. وضعتُها في خزانتي كما هي ببطاقات أسعارها. وحين قرَّرتُ القدوم إلى لندن قلتُ لنفسي: هذه فرصتكِ يا مريم. لا أحد يعرفكِ في إنجلترا، ولا أحد سيقول عيب. إن لم تلبسيها الآن، فمتى؟ لذلك أحضرتها معي».

«لماذا لا تلبسينها إذن؟»

فتورَّدت وجنتا مريم. «لا أستطيع. إنَّها فاقعةٌ جدًّا لا تناسب سنِّي. صحيح؟ سيضحك الناس عليَّ. على رأي المثل، كُلْ ما يعجبك والبس ما يعجب الناس».

«هناك عاصفةٌ، ونحن محبوسون في البيت! من سيضحك عليكِ؟ وفوق ذلك، ماذا يهمّك من الآخرين؟»

لكنَّها ما إنْ قالت ذلك حتى ارتبكتْ، إذْ شعرتْ فجأةً بثقل هاتفها في جيبها، وسطحه الصقيل البارد، وتلك التعليقات القاسية. كادت تقول لخالتها إنَّه لا ينبغي لها أن تهتمَّ بآراء الآخرين، وإنَّ بعض الناس يحبُّون إيذاء الآخرين، فلا ينبغي لكِ أن تلقي بالاً لسخريتهم. لكنَّها لم تستطع قول شيءٍ من ذلك وهي نفسها غير مقتنعة به.

رفعتْ آدا نظرتها وهي تعضَّ باطن خدِّها. كانت أمامها خزانة الملابس مفتوحة، فرأتْ داخلها الشيء الوحيد الذي كان معلَّقًا ومرتَّبًا: معطف فراءٍ طويل.

«أرجو أن لا يكون ذلك الشيء حقيقيًّا».

فاستدارتْ مريم. «أيّ شيء؟ أوه، هذا؟ إنَّه من فرو الأرانب الخالص».

«هذا فظيع! من المروّع قتل الحيوانات من أجل فرائها».

«في قبرص، نأكل يخنة الأرانب. لذيذةٌ بالثوم المقطَّع والبصل الأبيض. وأُضيف له عود قرفةٍ أيضًا».

«أنا لا آكل الأرانب. ولا ينبغي لكِ ذلك».

فقالت مريم: «لستُ أنا من اشتراه، إنْ كان هذا يخفِّف الأمر. كان هديَّةً من زوجي. اشتراه لي من لندن عام 1983 م، قُبيل السنة الجديدة. اتَّصل بي عثمان، وقال: لديَّ مفاجأة لكِ! ثم أتاني بفرو. في قبرص! في تلك الحرارة القائظة. لطالما أيقنتُ في داخلي أنَّه اشتراه لامرأةٍ أخرى ثم غيَّر رأيه. لعلَّها كانت خليلةً تعيش في بلدٍ بارد. كان يسافر كثيرًا، من أجل «العمل». كان دائمًا يجد الأعذار للسفر. على رأي المثل، إنْ أرادت القطَّة أن تأكل صغارها، قالت إنَّها تشبه الفئران. على أيِّ حال، اشترى عثمان هذا المعطف من «هارودز»، ولا بدَّ من أنَّه كلَّفه الكثير. كان لبس الفراء في ذلك الوقت أمرًا عاديًّا. أقصد.. أعرف أنَّه ليس عاديًّا، ولكنْ حتى مارغريت ثاتشر كانت تلبسه! اشترى المعطف في اليوم نفسه الذي فجَّر فيه الجيش الجمهوريّ الأيرلنديّ محلَّ هارودز. كان يمكن أن يموت زوجي. مجرَّد سائحٍ أحمق يبحث عن هديَّةٍ لعشيقته، فينتهي به المطاف لأن يعطيها لزوجته».

لزمتْ آدا الصمت.

خطتْ مريم نحو الخزانة ثم حرَّكت يدها على المعطف في شرود، تتتبَّع حافَّة الياقة بظهر يدها. «لم أعرف ما ينبغي أن أفعل به. ترتبط به ذكرياتٌ كثيرةٌ جدًّا. لم ألبسه قطّ. ما نفعه في نيقوسيا! لكنِّي حين قرَّرتُ المجيء لرؤيتكِ وسمعتُ عن العاصفة الشتويَّة، قلتُ هذه هي! هذه فرصتي، وسألبسه أخيرًا».

سألتْها آدا في حذر: «ماذا حدث لزوجك؟»

«طليقي. لا بدَّ من أن أعتاد استخدام هذه الكلمة. على أيِّ حال، تركني. تزوَّج امرأةً أصغر، في نصف عمره. وهي حبلى الآن، وقد تضع مولودها في أيِّ يوم. سينجبان ولدًا. وهو يكاد يطير فرحًا».

«ليس لديكم أطفال؟»

«حاولنا... حاولنا سنوات، ولكنْ لا شيء نفع». ثم تنبَّهت مريم، كأنَّما استفاقت من النوم بوجهٍ متجهِّم. «أوه، مرَّةً أخرى نسيت. لقد أحضرتُ لكِ شيئًا». وأخذتْ تنقِّب في حقيبةٍ، تلقي بضعة أحجبةٍ وجوارب طويلة، في بحثٍ عن علبة هديَّة. «آه، وجدتها. خذي، خذي. هذه لك».

مدَّت آدا يدها لتأخذ الهديَّة الملقاة باتِّجاهها، وأخذتْ تُمزِّق ورق التغليف ببطء. كان داخلها صندوق موسيقى مصنوعٌ من خشب الكرز الملمَّع، وبه فراشاتٌ على غطائه.

«كانت أمُّكِ تحبُّ الفراشات».

أدارتْ آدا المفتاح بشرَّابته الحريريَّة الحمراء الأنيقة، فشغَّلت الصندوق. تهادت نغماتٌ أخيرة من أغنيةٍ لم تعرفها. ثم وجدت في رفٍّ مخبوءٍ صدفةً متحجِّرةً، بتشكيل خيوطٍ دقيقةٍ عليها.

«كانت ديفني تحتفظ بهذا الصندوق تحت سريرها. لا أعرف من أين حصلت عليه، فلم تقل لي قطّ. وبعد أن هربتْ مع والدك، غضبتْ منها أُمِّي غضبًا شديدًا فألقتْ بكلِّ أغراضها. لكنِّي استطعتُ أن أُخفي هذا. وقلتُ في نفسي أنتِ الأولى بالاحتفاظ به».

ضمَّت آدا يدها على الصَدَفة، فوجدتْها قاسيةً ورقيقةً في الوقت نفسه. وأمسكتْ باليد الثانية صندوق الموسيقى. «شكرًا لك».

نهضتْ للخروج، ثم توقَّفت. «في رأيي، ينبغي لكِ أن تلبسي تلك الملابس. ما عدا الفرو. كلُّها ستبدو جميلةً عليكِ».

ابتسمتْ مريم، فغدا وجهها مثل ورقةٍ من عواطف متقلِّبة. ولأوَّل مرَّةٍ، تشعر آدا بالمسافة بينها وبين خالتها تقصر أكثر فأكثر!

التينة

يُقال إنَّ العائلةَ مثل الشجرة، في بِنيتها وجذورها المتشابكة وفروعها المستقلَّة التي تشبُّ في اتِّجاهاتٍ مختلفة. ولئنْ صحَّ هذا، يمكننا القول إنَّ الصَدَمات العائليَّة مثل الراتنج (ذلك الصمغ السميك الشفَّاف الذي يتقطَّر من جرحٍ في اللحاء)؛ تنتشرُ من جيلٍ إلى آخر.

تنضحُ تلك الصدمات ببطءٍ، في تدفُّقٍ لا يُدرَك لفرط خفَّته، يعبر الزمان والمكان، حتى يجد شِقًّا يستقرَّ فيه، ويتخثَّر. مسارُ الصدمة الموروثة عشوائيٌّ؛ فلا يُعرف أبدًا من يُصاب بها، لكنَّها تُصيب. فمن بين الأطفال الذين يكبُرون تحت سقفٍ واحد، يتأثَّر بعضهم أكثر من الآخرين. هل التقيتم ذات يومٍ أخَوَيْن لهما الفرص نفسها والظروف نفسها تقريبًا، غير أنَّ واحدًا منهما أكثر انعزالاً، وكآبة؟ في بعض الأحيان، تتخطَّى الصدمات العائليَّة جيلاً كاملاً، ثم تشتدُّ قبضتُها على الجيل الذي بعده. فقد ترونَ أحفادًا يحملون على أكتافهم آلامَ أجدادهم ومعاناتهم.

الجُزُر المقسَّمة طافحةٌ بالراتنج، وعلى الرَّغم من أنَّه يكون مثل القشرةِ في الحوافِّ، إلاَّ أنَّه في داخله ما يزال سائلاً، ما يزال يقطر كالدم. لطالما تساءلتُ ما إذا كان هذا هو الذي جعل أهل الجزر معرَّضين للخرافات، شأنهم شأن البحَّارة في الأزمان القديمة. فنحنُ لم نبرأ بعد من ويلات العاصفة الأخيرة، حين انهارت السماء علينا، وتجرَّد العالم من ألوانه. لم ننسَ الحطام المتفحِّم والمتشابك الذي يطفو هنا وهناك، وما زلنا نحمل في داخلنا خوفًا فطريًّا من أنَّ العاصفة التالية قد لا تكون بعيدةً عنَّا.

لهذا السبب نلجأ إلى التعاويذ، والأعشاب، والوشوشات، والأملاح. نحاول أن نسترضي الآلهة أو الأرواح الهائمة، على الرَّغم من أنَّها متقلِّبةٌ جدًّا. فالقبارصةُ كلّهم، رجالهم ونساؤهم، شبابهم وشيوخهم، في الشمال كما في الجنوب، كلّهم يخشَون العيْن، سواء سمُّوها ماتي أم نَزَر. يشكُّون الخرزات الزجاجيَّة الزُرق في القلائد والأساور، ويعلِّقونها على مداخل البيوت، ويلصقونها

في «تابلوهات» السيَّارات، ويربطونها في أمهاد الأطفال، بل يدبِّسونها كذلك في ملابسهم الداخليَّة. ولا يكتفون بذلك، فيبصقون في الهواء يستجْدون كلَّ ما أمكن من حماية. يبصقُ القبارصةُ أيضًا حين يرون مولودًا معافًى، أو زوجَيْن سعيدَيْن، أو حين يحصل شخصٌ على وظيفةٍ أفضل أو يكسب مالاً أكثر. ويفعلون ذلك حين ينتشون، ويضطربون، وحين يندهشون. في جزيرتنا، يؤمن الجميع (من كلا الطرفَيْن) بأنَّ الأقدار متقلِّبة، فلا توجد سعادةٌ دائمة. وهكذا يظلُّون يبصقون في الهواء دون أن يفكِّروا في أنَّ أشخاصًا من الجانب الآخر ربَّما يفعلون الشيء نفسه، في اللحظة نفسها، وللسبب نفسه.

لا شيء يقرِّب بين نساء أهل الجزيرة أكثر من الحمل. ففي هذا الأمر لا توجد حدود. لطالما آمنتُ بأنَّ حوامل العالم أمَّةٌ مستقلَّة، يتقيَّدن بالقواعد المتعارف عليها نفسها، وتساورهنَّ المخاوف نفسها حين يأوين إلى الفراش ليلاً. ففي تلك الشهور التسعة، لا تحمل القبرصيَّات سكِّينًا لشخصٍ آخر، ولا يتركنَ مقصًّا مفتوحًا على الطاولة، ولا ينظرن إلى حيواناتٍ مشعرةٍ أو حيوانات موصومةٍ بالقبح، ولا يتثاءبن بفمٍ مفتوحٍ خشية أن تتسلَّل روحٌ شرِّيرةٌ إلى الداخل. وحين يضعن المولود يستنكفنَ عن قصِّ أظافرهنَّ أو شعورهنَّ عدَّة أشهر. وبعد أربعين يومًا، حين يدعين الصديقات والقريبات لرؤية الطفل، يقرصْنَه لكي يبكي، خشيةَ أن تصيبه عَيْن.

أولَا ترونَ أنَّنا نخاف من السعادة؟ فقد عُلِّمنا منذ صغرنا أنَّ هناك مقايضةً مدهشةً تحدث في الهواء، وفي الرياح الموسميَّة. ففي مقابل كلِّ ذرَّةٍ من رضًا، لا بدَّ من أن تأتي ذرَّةُ معاناة؛ وفي مقابل كلّ ضحكةٍ تجلجلُ، ثمَّة دمعةٌ تستعدُّ للنزول. تلك سنَّةُ هذا العالم الغريب! ولذلك نحاول أن لا نُظهر سعادةً شديدة، حتى حين نشعر بالسعادة فعلاً.

يتعلَّمُ أطفالُ الأتراك واليونانيين في قبرص أن يُبدوا احترامهم إنْ رأوا قطعة خبزٍ على قارعة الطريق. فكلُّ كَسرة خبزٍ مقدَّسة. الأطفال المسلمون يرفعونها إلى جباههم، في تقديرٍ لا يقلُّ عن تقبيلهم يد جدِّهم أو جدَّتهم في يوم العيد. والأطفال المسيحيُّون يرفعون القطعة ويرسمون علامة الصليب، ثم يضعون أياديهم على قلوبهم، وكأنَّهم يتناولون خبز القربان في الكنيسة، ذلك الذي يُصنع من دقيق القمح النقيِّ من طبقتَيْن، إحداهما للسماء والأخرى للأرض. الحركاتُ هي نفسها، كما لو أنَّها تنعكس على صفحة ماءٍ داكن.

في الوقت الذي يتصادم فيه الدين مع الدين الآخر على من تكون له الكلمة العليا، وتغرس القوميَّات حسَّ التفوُّق والخصوصيَّة، تتعايش الخرافاتُ على كِلا الجانبَيْن من الحدود في انسجامٍ يندر مثيله!

الإخوة

قبرص، 1968 / 1974 م

كان كوستاس جالسًا ذات مساءٍ إلى طاولة المطبخ عند النافذة المفتوحة، كعادته يدفن رأسه بين صفحات كتاب. كان آنذاك في الحادية عشرة من العمر. وعلى عكس شقيقَيْه اللذَين يفضِّلان قضاء الوقت في غرفتهم، كان هو يحبّ أن يجلس في المطبخ، يقرأ أو يدرس، يراقب أمّه وهي تعمل. كان هذا مكانه الأثير في البيت، حيث يتصاعد البخار من القدور على الموقد، وحيث خِرَق التنظيف المعلَّقة على خيطٍ متأرجحٍ في الهواء، في حين تتدلَّى فوق رأسه من العارضة أعواد أعشابٍ مجفَّفةٍ وسلالٌ منسوجة.

كانت �انايوتا في تلك الليلة تطبخ العصافير. تفتح صدورها بإبهامَيْها، ثم تحشوها بالملح والبهارات، وهي تغنِّي لنفسها. وبين الفينة والأخرى، يلقي كوستاس نظرةً على أمِّه، على وجهها الذي يرسمه ضوءُ مصباحٍ زيتيّ. وكانت هناك نكهةُ خلٍّ لاذعة في الهواء، لفرطِ قوَّتها سدَّت مناخر كوستاس ووالدته.

اجتاحتْ كوستاس موجةٌ من الغثيان، واحترق حلقُه بمذاق الملح. أزاح الكتاب الذي كان يقرأه. حاول جاهدًا، لكنَّه لم يستطع أن يزيح نظره عن صفِّ القلوب الحمراء الصغيرة فوق المنضدة، أو الطيور منزوعة الأحشاء في الجِرار الزجاجيَّة، بمناقيرها نصف المفتوحة. فأخذ يبكي في هدوء.

مَسَحت �انايوتا يدَيْها على مريلتها وركضت نحوه. «ماذا حدث �ايدي مو [يا ولدي]؟ هل أنت مريض؟ معدتك تؤلمك؟»

هزَّ كوستاس رأسه، يحاول جاهدًا أن يتكلَّم.

«أخبرني، هل قال لك أحدٌ شيئًا أزعجك يا حبيبي؟»

ثَقُل حلقُه وهو يومئ صوب المنضدة. «لا تفعلي ذلك يا ماما. لا أريد أن آكلها بعد اليوم».

حدَّقتْ فيه في ذهول. «لكنَّنا نأكل الحيوانات. نأكل البقر والخنازير والدجاج والسمك، وإلاَّ متنا جوعًا».

لم يجد جوابًا مناسبًا، ولم يتظاهر بأنَّ لديه جوابًا. تمتم قائلاً: «تلك طيورٌ مغرِّدة».

رفعتْ حاجبَيْها، فسقط طيفٌ من وجهها ثم اختفى. بدت كمن يوشك على قول شيءٍ، ثم يُغيِّر رأيه. فرَّقت شعر ابنها وهي تتنهَّد. «طيِّب. ما دام الأمر يزعجك إلى هذا الحدّ...».

كان العالم يدور في دوائرَ بطيئة، لكنَّ كوستاس لمحَ التماعًا في عينَيْ أُمِّه، يفيض حنانًا وتفهُّمًا. لقد شعر بما تُفكِّر فيه، وأدرك أنَّ أُمَّه رأت فيه شخصًا شديد الحساسيَّة، رهيف المشاعر، وأصعب على الفهم من ابنَيْها الآخرَين.

*

كان الأشقَّاء الثلاثة مختلفين جدًّا، ولم يزدهم مضيُّ العمر إلاَّ اختلافًا. صحيحٌ أنَّ كوستاس كان يحبّ الكتب، لكنَّه لم يكن يريد أن يصبح شاعرًا أو مفكِّرًا، كأخيه الأكبر. كان ميكاليس يعيش في اللغة، يبحث طويلاً عن الكلمة الدقيقة، كما لو أنَّ المعاني أشياءُ لا بدَّ من مطاردتها واصطيادها. كان يصنِّف نفسه ماركسيًّا، ونِقابيًّا، ومناهضًا للرأسماليَّة، وهي تصنيفاتٌ كانت تتشابك في عقل أُمِّه كنبتةٍ جهنَّميَّةٍ تتسلَّق جدارًا. لطالما قال إنَّ أفراد الطبقة العاملة من كلِّ العالم سوف يتَّحدون ذات يومٍ للإطاحة بالأغنياء الذين يضطهدونهم، ومن هذا المنطلق، فالفلاَّحون اليونانيُّون والفلاَّحون الأتراك رفاقٌ، لا أعداء.

لم يكن ميكاليس يستسيغ «إيوكا» أو أيّ شكلٍ من أشكال القوميَّات. ولم يكن يُخفي آراءه تلك، بل يوجِّه انتقاده علنًا للافتات الزرق التي كانت قد بدأت تظهر على كلِّ جدارٍ في الحيِّ تقريبًا: عاشت إينوسيس، الموت للخونة.

لم يكن كوستاس يُشبه أخاه الأصغر أيضًا، أندرياس، الشابّ الطويل الرشيق ذا العينَيْن البنِّيَّتَيْن الكبيرتَيْن والبسمة الخجولة، والذي تغيَّر كثيرًا في غضون أشهرٍ قليلة. كان يتحدَّث عن

غريڤاس (قائد إيوكا ـــــ ب، الذي مات مؤخَّرًا في مخبئه) كما لو أنَّه كان قدِّيسًا. بل كان يُسمِّيه ديجينيس، تيمُّنًا بالبطل الأسطوريّ البيزنطيّ. يقول أندرياس إنَّه على استعدادٍ للقَسَم على الكتاب المقدَّس بأنَّه سوف يحرِّر قبرص من أعدائها (البريطانيِّين والأتراك)، وإنَّه مستعدٌّ للقتل أو الموت من أجل ذلك. لم تصدِّق أسرته شيئًا ممَّا يقوله، لأنَّه كان يقول ما يخطر في باله دون تفكير، ولأنَّه كان الأصغر المدلَّل.

وعلى الرَّغم من أنَّ الثلاثة كانوا في يومٍ من الأيَّام مقرَّبين إلى بعضهم بعضًا، إلا أنَّهم في تلك الأيام كانوا يعيشون تحت سقفٍ واحد ولكنْ في عوالم مختلفة. كانوا نادرًا ما يتشاجرون، يسيرون وفق القواعد التي تضعها �انايوتا، ويتجنَّبون الخوض في حقائق بعضهم بعضًا.

على هذا المنوال سارتْ حياتهم، إلى أن قُتل ميكاليس ذات صباحٍ من شهر آذار/مارس، في وضح النهار. كان يسير في الشارع يتأبَّط كتابًا، فأُطلق عليه الرصاص، وظلَّت في الكتاب إشارةٌ على القصيدة التي كان يقرأها. لم يُعرف من الذي أطلق النار عليه. قال البعض إنَّهم قوميُّون أتراك قتلوه لأنَّه مسيحيّ ويونانيّ، وقال آخرون إنَّهم قوميُّون يونانيُّون كانوا يكرهونه لأنَّه ظلَّ ينتقدهم علنًا. وعلى الرَّغم من أنَّ السلطات لم تستطع تحديد القاتل، إلاَّ أنَّ أندرياس كان مقتنعًا بأنَّه اكتشف الحقيقة من خلال مصادره. وقد أبصر كوستاس شعلة الانتقام في نفس أخيه تزداد توهُّجًا يومًا بعد يوم. وذات يومٍ، أدرك أهلُه أنَّه لم يعد إلى البيت، ولم ينم في فراشه.

علمت �انايوتا وكوستاس أنَّ أندرياس انضمَّ إلى صفوف «إيوكا ـــــ ب»، لكنَّهما لم يتحدَّثا في الأمر. ومنذ ذلك اليوم، لم يسمعا عنه خبرًا، ولم يعرفا ما إذا كان حيًّا أم ميّتًا. لم يبقَ إلاَّ كوستاس وأُمِّه في البيت الذي تضاءل وأظلمتْ أطرافُه، ملتويًا على نفسه كرسالةٍ أُخرجت من حريق.

في الليالي، حين يسطع القمرُ عاليًا فوق أشجار الليمون، وتظهر شظيَّةٌ في الهواء لحشرةٍ لا تراها العيْن، أو لجنِّيَّاتٍ يُطردن من السماء، كان كوستاس يضبطُ أُمَّه وهي تُحدِّق فيه بنظرة المتألِّم. وعلى الرَّغم من يقينه بقلب أُمِّه الكبير العطوف، إلاَّ أنَّه مع ذلك، كان يتساءل ما إذا سألتْ نفسها أو سألتْ القدِّيسين لماذا يُقتل ابنُها الأكثر شغفًا وفصاحة، ولماذا يهجرها ابنُها الأكثر مغامرةً ومثاليَّة، ولا يبقى لها سوى هذا الخجول الشارد الذي لم تكن تفهمه البتَّة؟

التينة

سمعتُ ذات مرَّةٍ صحافيًّا إنجليزيًّا كان يتردَّد إلى التينة السعيدة يقول: إنَّ الساسةَ في أوروبا وأميركا يحاولون أن يستوعبوا الأوضاع في جزيرتنا. فبعد أزمة السويس، نشبت احتجاجاتٌ في لندن، في مكانٍ يُسمَّى «ساحة الطرف الأغرّ». كان الناس يحملون لافتاتٍ تقول «للقانون، لا للحرب». حين أتذكَّر الأمر أُدركُ أنَّ الشباب لم يكونوا قد بدأوا بعد في إنشادِ «للحبِّ، لا للحرب»، فهذا الشعار سيأتي لاحقًا.

وقد أخبر هذا الصحافيّ أصحابه أنَّ أعضاء البرلمان في مجلس العموم في إنجلترا كانوا يتداولون «مشكلة قبرص». ووفقًا لخبرته، لا خير يُرتجى حين توصف الدولة أو الجماعة بأنَّها «مشكلة». وهكذا، أصبحت جزيرتنا في أعين العالم كلّه «أزمةً دوليَّة».

على الرَّغم من ذلك، فقد رأى الخبراء آنذاك أنَّ ما يحدث في قبرص من تأزُّمٍ وعنفٍ مجرَّد «قلاقل من ورق». قالوا إنَّها ليست أكثر من عاصفةٍ في فنجان، وسوف تنتهي عمَّا قريب. لذلك لم يكن ثمَّة سببٌ يدعو إلى الخوف من حدوث قتلٍ وسفك دماء، إذْ كيف يمكن أن تنشب حربٌ أهليَّةٌ في جزيرةٍ بديعة المنظر ذات خضرةٍ وجمال. كانوا كثيرًا ما يستخدمون كلمة «متحضِّرة». يبدو أنَّ الساسة والمثقَّفين كانوا يفترضون أنَّ المتحضِّرين لا يمكن أن يذبحوا بعضهم بعضًا، لا سيَّما إن كانوا في أرضٍ شاعريَّةٍ من تلالٍ خُضر وشواطئ ذهبيَّة. «لا حاجة إلى فعل شيء. القبارصة... أُناس متحضِّرون. ولن يُقدموا على أعمال عنفٍ وتطرُّف».

وما هي إلاَّ أسابيع قليلة بعد هذه التصريحات في البرلمان البريطانيّ حتى نُفِّذت أربعمئة هجمةٍ في قبرص. سُفكت دماء البريطانيِّين والأتراك واليونانيِّين، فتشرَّبت الأرضُ كلّ هذه الدماء، كعهدها دائمًا.

في عام 1960 م، نالت قبرص استقلالها من المملكة المتَّحدة، ولم تعد مستعمرة. كان ذلك عام الأمل، إذْ مثَّل بدايةً جديدة، مع بزوغ شيءٍ من السلم بين اليونانيّين والأتراك. هكذا فجأةً، بدا السلام الدائم ممكنًا، قريبًا، مثل خوخٍ يتدلَّى من أغصانٍ دانيةٍ عند أطراف أصابعك. شُكِّلت حكومةٌ جديدةٌ بأعضاء من كِلا الجانبَيْن. وهكذا، أخيرًا، أصبح المسيحيُّون والمسلمون يعملون معًا. في تلك الأيَّام، كان من يؤمن بإمكانيَّة التعايش في انسجامٍ ومودَّةٍ بين الجماعتَيْن بوصفهم مواطنين متساوين يُنظر إليه على أنَّه طائرٌ ساذج، مثل الشعار الذي يرفعونه، وهو نوعٌ من الحجلة يُسمَّى «تشوكار»، يضع أعشاشه على كِلا الجانبَيْن في الجزيرة، ولا يأبه بالتقسيم. كان هذا رمزًا مناسبًا للوحدة فترةً من الزمن.

لكنَّ ذلك لم يدم طويلاً. فالساسة والزعماء الدينيُّون الذين مدُّوا أيديهم للطرف الآخر جرى إسكاتهم، وإبعادهم، وتخويفهم. بل إنَّ بعضهم أُصيب وقُتل على أيدي متطرِّفين من جماعتهم.

طائر التشوكار مخلوقٌ صغيرٌ بديع، ذو خطوطٍ سُود تلفُّ بدنه. يحبّ أن يحطَّ على الصخور، ويغرِّد بصوتٍ خجولٍ خشن، كما لو أنَّه يتعلَّم الزقزقة لأوَّل مرَّةٍ في حياته. وإنْ أصختم السمع ستسمعونه يقول تشوكار ــــ تشوكار ــــ تشوكار. هذا هو الطائر الوحيد الذي يتغنَّى بترديد اسمه. تقلَّصتْ أعداده كثيرًا، فقد تعرَّض لصيدٍ جائرٍ مستمرٍّ في الجزيرة، في شمالها وجنوبها على حدٍّ سواء.

بقلاوة

لندن، أواخر العقد الأوَّل من القرن الحادي والعشرين

في المساء، انطلقتْ مريم إلى صنع طبق الحلو الأثير لديها: البقلاوة. طحنتْ جرَّة فستقٍ كاملة، فغطَّى صوتُ الخلاَّط لفرط قوَّته عواءَ الريح في الخارج. جهَّزت مريم العجينة من الألف إلى الياء، تطقطقها وتضربها بين راحتَيْها، ثم تغطِّيها وتضعها كي «ترتاح» قليلاً.

في أثناء ذلك، كانت آدا تراقب خالتها من مقعدها في طرف الطاولة، ودفتر التاريخ مفتوحٌ أمامها. لم تكن تدرس، بل تنهي الفراشة التي تركتْها غير مكتملةٍ في اليوم الأخير من المدرسة، قُبيل أن تبدأ بالصراخ.

ألقتْ مريم نظرةً جانبيَّة إلى ابنة أختها وهي تفتح الخلاَّط وتغرف ما فيه في صحن، ثم قالت في ابتهاج: «يا لكِ من طالبةٍ مجتهدة! يسعدني جدًّا أنَّكِ تُنجزين واجباتك هنا إلى جانبي».

فقالت آدا في سأم: «في الواقع، لم يكن لديَّ خيارٌ آخر. ظللتِ تطرقين بابي وتطلبين منِّي أن آتي معك».

قهقهتْ مريم: «طبعًا، وإلاَّ كنتِ ستقضين عطلتك بأكملها في غرفتك. هذا مضرٌّ بصحَّتك».

«والبقلاوة مفيدةٌ للصحَّة؟»

«طبعًا! الطعامُ قلبُ الثقافات. أنتِ لا تعرفين مأكولات أجدادك. لا تعرفين هويَّتك».

«الكلّ يصنع البقلاوة. يبيعونها في السوبرماركت».

«صحيح، الكلّ يصنعها، لكنَّ قليلين من ينجحون. نحن الأتراك نصنعها مقرمشةً بالفستق المحمَّص. تلك هي الطريقة الصحيحة. أمَّا اليونانيُّون فيستخدمون الجوز، ويعلم الله من أين أتوا بهذه

الفكرة. الجوزُ يُتلف الطعم».

أراحت آدا ذقنها على طرف سبَّابتها وهي تنصت في استمتاع.

وعلى الرَّغم من أنَّ مريم كانت ما تزال تبتسم، إلاَّ أنَّ طيفًا عبر وجهها. لم تملك الجرأة كي تقول لآدا إنَّها رأت ديفني في تلك الحركة. كانت الحركة مألوفةً حدَّ الألم.

فقالت آدا: «من يسمعكِ يقول إنَّنا ينبغي أن نحكم على الثقافات من بقلاوتها، لا من آدابها أو فلسفتها أو ديمقراطيَّتها».

«همم، معلوم».

قلَّبَتْ آدا عينَيْها.

«ها أنتِ تفعلين ذلك مرَّةً أخرى».

«أفعل ماذا؟»

«تلك الحركة التي يفعلها المراهقون بأعينهم».

«أنا في سنِّ المراهقة فعلاً».

«أعرف. والمراهقةُ في هذه البلاد تُعدُّ امتيازًا للمراهقين، شأنهم شأن أفراد العائلة المالكة، بل إنَّه أفضل. امتيازٌ من دون ال�ا�اراتزي».

سوَّتْ آدا كتفَيْها.

«هذا ليس انتقادًا. أنا أقرِّر حقيقةً لا أكثر. اللغة الإنجليزيَّة هي السبب؛ ففي الإنجليزيَّة، من يبلغ الثالثة عشرة يُسمَّى «teenthir» أي أنَّه ﴿teen﴾، مراهق، أليس كذلك؟ والأمر نفسه على من يبلغ الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة، والسابعة عشرة... في بلادي، إنْ كنتِ في السابعة عشرة فغالبًا ستكونين مشغولةً بتجهيز مهرك؛ وفي الثامنة عشرة، ستكونين في المطبخ تعدِّين القهوة لأنَّ زوجك المستقبليّ في الصالة مع والدَيْه يطلبون يدك؛ وفي التاسعة عشرة، تجهِّزين

العشاء لحماتك، وإن أحرقتِه ستأكلكِ بلسانها. لا تُسيئي فهمي، فأنا لا أقول إنَّ هذا شيءٌ جيِّد. طبعًا لا. كلّ ما أقوله هو أنَّ هنالك أطفالاً في العالم (بناتٍ وأولادًا) لا يملكون أن يستمتعوا بمراهقتهم».

تفحَّصتْ آدا خالتها وسألتْها: «أخبريني عن طليقك».

«ما الذي تريدين معرفته؟»

«هل كنتِ تحبّينه؟ في البداية على الأقلّ؟»

أشاحت مريم بيدها، فجلجلتْ أساورُها. «الجميع يهذي بالحبِّ ليل نهار. هكذا في كلِّ الأغاني والأفلام. نعم، أتفهَّم أنَّ الحبّ شيءٌ لطيف، لكنَّ الحياة لا تُبنى على الأشياء اللطيفة. لا، الحبّ لم يكن أولويَّةً بالنسبة إليَّ. والداي كانا أولويَّتي، ومجتمعي أولويَّتي. كانت لديَّ مسؤوليَّات».

«لم يكن زواجَ حبٍّ إذن؟»

«لا. ليس كزواج والديْكِ».

أحسَّتْ آدا بشيءٍ جديدٍ في صوت مريم. «هل أنتِ غاضبةٌ منهما؟ هل ترين أنَّ ما فعلاه تصرُّفٌ غير مسؤول؟»

«آه، والداكِ كانا متهوِّرَيْن. لكنَّهما كانا شابَّيْن صغيرَيْن جدًّا آنذاك. أكبر منكِ بقليلٍ فقط».

فشعرتْ آدا بحرارةٍ في رقبتها. «مهلاً... إذن ماما وبابا كانا... حبيبَيْن في المدرسة؟»

«المدارسُ كانت منفصلة. لم يكن الأطفال اليونانيُّون والأتراك يختلطون كثيرًا آنذاك، على الرَّغم من وجود قرى مختلطةٍ وحاراتٍ مختلطة، كحارتنا. كانت هناك معرفةٌ بين عائلتنا وعائلة أبيكِ. كنتُ أحبّ �انايوتا، جدَّتك. امرأةٌ طيِّبة. لكنَّ الأمور ساءت بعد ذلك، وانقطعتْ الصلة بيننا».

نظرتْ آدا بعيدًا. «كنتُ أظنُّ أنَّ والديَّ التقيا في أواخر الثلاثينيَّات من عمرهما تقريبًا. أقصد أنَّ ماما أنجبتني وهي في أوائل الأربعينيَّات. وكانت دائمًا تقول إنَّه كان حملاً متأخِّرًا».

«أوه، حدث هذا لاحقًا. لأنَّهما افترقا، ثم اجتمعا مرَّةً أخرى بعد سنوات. في المرَّة الأولى، كانا مجرَّد طفلَيْن. وكنتُ دائمًا أتستَّر على ديفني. لو أنَّ أبي كشف أمرها لوقعتْ كارثة! كنتُ

مرعوبةً جدًّا. لكنَّ أمّكِ... لم يكن يوقفها شيء. كانت تضع المخدَّات تحت اللحاف وتتسلَّل في منتصف الليل. كانت شُجاعة.. وحمقاء». سحبتْ مريم نَفَسًا، ثم تابعت. «كانت لأمّك روحٌ حرَّةٌ منطلقة. كان فيها هذا الجانب المندفع غير المتوقَّع، حتى وهي صبيَّةٌ صغيرة. إنْ قلتِ لها لا تلمسي النار، ذهبتْ وأشعلتْ نارًا. من المعجزات أنَّها لم تحرق البيت. كنتُ أكبرها بخمس سنوات، لكنَّني حتى وأنا في سنِّها، كنتُ حريصةً على أن أكون عند حُسن الظنّ، وأسعى دائمًا إلى أن أفعل الشيء الصحيح. على الرَّغم من ذلك، فقد كان بابا يحبّ ديفني أكثر. لستُ ناقمةً، إنَّما أقرِّر حقيقةً لا أكثر».

«وهل كنتِ أيضًا تعارضين زواج والديَّ؟»

نشَّفتْ مريم يدَيْها على مريلتها، ونظرتْ في راحتَيْها كأنَّما تبحث عن جواب. «لم أكن أريد لأمّك أن تتزوَّج يونانيًّا. يعلم الله أنِّي حاولتُ تغيير رأيها، لكنَّها لم تسمع. حَسَنًا فَعَلتْ. فكوستاس كان حبَّ حياتها. كانت أمّكِ تعشق أباكِ، لكنَّهما دفعا الثمن غاليًا. ها أنتِ نشأتِ من دون أن ترَي أقاربك. أشعرُ بالأسف الشديد لذلك».

مرَّت فترةُ صمتٍ بعد ذلك، فكانت آدا تسمع أباها يطبع على حاسوبه في غرفته. صوتٌ يشبه قرعَ ألف مطرقةٍ صغيرة. ظلَّتْ تنصت فترةً، ثم أمالت رأسها. «هل كنتِ تعرفين أنَّ ماما مدمنة كحول؟»

جَفَلتْ مريم: «لا تقولي ذلك. تلك كلمةٌ فظيعة».

«لكنَّها الحقيقة».

«لا بأس في أن يشرب الشخص كأسًا من وقتٍ إلى آخر. أنا لا أشرب، لكنِّي لا أرى مشكلةً في أن يشرب الآخرون... مرَّةً كلّ فترة».

«لم تكن تشرب مرَّةً كلَّ فترة. كانت تشرب كثيرًا».

فاكفهرَّ وجه مريم، وفغرت فاها مثل طاسةٍ فارغة. لمستْ طرف خِرقة التنظيف، والتقطتْ ذرَّة غبارٍ خفيَّة، في تركيزٍ كاملٍ على حركة أصابعها.

اعترى الحَرَجُ آدا فجأةً ولم تجد ما تقوله، ورأت أمامها للمرَّة الأولى هشاشة العالم الذي نَسَجتْه هذه المرأة لنفسها بالأكلات والأمثال الشعبيَّة والأدعية والخرافات. لقد أدركتْ آدا أنَّها قد لا تكون الوحيدة التي تجهل الكثير عن الماضي.

التينة

يسمُّونه الخطَّ الأخضر، ذلك الخطّ الذي يقسم قبرص، كيما يفصل اليونانيِّين عن الأتراك، يفصل المسيحيِّين عن المسلمين. لم يكتسب الخطّ هذا الاسم من الغابة التي يجري فيها ميلاً وراء ميل، بل لأنَّ لواءً بريطانيًّا كان يرسم الحدود على خريطةٍ منشورةٍ أمامه، فاستخدم القلم الأخضر.

غير أنَّ اختيار اللون لم يكن عشوائيًّا. فالأزرق يونانيّ أكثر ممَّا ينبغي، والأحمر تركيّ أكثر ممَّا ينبغي. أمَّا الأصفر، لون المثاليَّة والأمل، فكان يُمكن أن يرمز أيضًا إلى الجُبن والخديعة. ولا ينفع اللون الورديّ أيضًا، لارتباطه بالشباب واللعب والأنوثة. ولا الأرجوانيّ يمكن أن يؤتي بالنتيجة المرجوَّة، بما هو رمزٌ للطموح والترف والقوَّة. الأبيضُ لونٌ قاطعٌ، وكذا الأسود. أمَّا الأخضر الذي يُستخدم في الخرائط لرسم المسارات، فكان خيارًا أقلّ جدلاً، وأكثر توحيدًا وحِيادًا.

الأخضر لون الشجَر.

تُرى ما الذي كان سيحدث لو أنَّ يد اللواء �يتر يَنغ ارتعشتْ قليلاً في ذلك اليوم، بعد إكثارٍ من الكافيين أو أثرٍ من آثار الأدوية أو لمجرَّد توتُّرٍ في الأعصاب؟ أكان الحدّ الفاصلُ ينقل جزءًا من السنتيمتر للأعلى أو الأسفل، فيُضيف شيئًا هنا، ويحذف شيئًا هناك؟ لو أنَّ ذلك حدث فعلاً، فهل كان هذا التغيير غير المقصود يؤثِّر على مصيري أو مصير أقاربي؟ هل كانت ستبقى شجرةُ تينٍ أخرى على الجانب اليونانيّ مثلاً، أو تنضافُ شجرةُ تينٍ إلى الأرض التركيَّة؟

أحاول أن أتخيَّل تلك الانعطافة في الزمن، عابرةً مثل رائحةٍ في النسيم. وقفةً قصيرة، تردُّدًا ضئيلاً، صريرَ قلمٍ على سطح خريطةٍ لامعة، أثرَ لونٍ أخضر يترك علامةً نهائيَّةً لها تبعاتها الأبديَّة على حيوات جيلٍ مضى، وجيلٍ حاضر، وجيلٍ سوف يأتي.

هكذا التاريخُ، ينتهكُ المستقبل.. مستقبلنا!

الجزء الثالث

الجذع

موجةُ حرارة
قبرص، أيَّار/مايو 1974 م

كان ذلك في اليوم الذي حطَّت فيه موجةُ حرارةٍ على نيقوسيا. كانت الشمس على أسطح البيوت كرةً متوهِّجةً من غضب، تحرق الأزقَّة الفينيسيَّة، والأفنية الجَنوَيَّة، وساحات التدريب اليونانيَّة، والحمَّامات العثمانيَّة. كانت المحال مغلقة، والشوارع فارغة، إلاَّ من قطَّةٍ ضالَّةٍ هنا أو هناك تتلوَّى على نفسها في قطعةٍ من ظلّ، أو سحليةٍ خاملة تبدو لفرط سكونها مجرَّد زخرفةٍ على الجدار.

كانت الحرارة قد بدأت في ساعات الصباح الأولى، ثم أخذت تشتدُّ بسرعة، ثم اكتملت عند حوالى العاشرة صباحًا، بُعيد أن فرغ الأتراك واليونانيُّون على كِلا الجانبيْن من قهوة الصباح. الوقتُ الآن بعد الظهيرة، والهواء ثقيلٌ على الأنفاس. كانت الشوارع مكسَّرةً في بعض الأماكن، والزفتُ يذوب في جداول صغيرة، بلون الخشب المحروق. ثمَّة سيَّارةٌ تزيد من هدير محرِّكها، وإطاراتها المطَّاطيَّة تعاني على الإسفلت الدبق. وبعدها، صمت.

بحلول الساعة الثالثة، تحوَّلت الحرارةُ إلى كائنٍ متوحِّش، كأفعى تتلوَّى على فريستها. كانت تهسهس وتزحف من رصيفٍ إلى آخر، ثم تُخرج لسانها الناريّ في فتحات الأقفال. هنالك اقترب الناس من مراوحهم، وشرعوا يمصُّون مكعَّبات الثلج ويفتحون النوافذ لحظةً، ثم يغلقونها. ودُّوا لو يجلسون في بيوتهم طوال الوقت، لولا رائحةٌ غريبةٌ انتشرتْ في الهواء، لاذعةٌ نفَّاذة.

في بادئ الأمر، شكَّ الأتراك في أنَّ الرائحة قادمةٌ من حارة اليونانيِّين، وافترض هؤلاء أنَّ الرائحة قادمةٌ من حارة الأتراك من دون شكّ، غير أنَّ أحدًا لم يستطع تحديد مصدرها. بدا الأمر كما لو أنَّ الرائحة انبثقت من الأرض.

كان كوستاس واقفًا عند النافذة يحمل في يدَيْه ديوان شعر، طبعةً قديمةً من روميوسيني كانت لأخيه الأكبر. أخذ يُحدِّق في الحديقة، إذْ كان متأكِّدًا من أنَّه سمع صوتًا في ذلك الصمت الناعس آناء العصر. تحوَّلتْ تحديقته عاليًا، نحو الغصون العالية لأقرب شجرة خرُّوب، لكنَّه لم يجد شيئًا غريبًا. فلمَّا أراد أن يحوِّل عينَيْه عنها لمح وميضًا من طرف عينه. ثمَّة شيءٌ سقط على الأرض بسرعةٍ، لم يستطع أن يتبيَّنه. انطلق خارجًا، تعميه أشعَّة الشمس الرقشاء من خلال أوراق الشجر. أسرع نحو الأطياف التي رآها، على الرَّغم من أنَّه لم يستطع أن يتبيَّنها في ذلك الضوء السافر. فلمَّا اقترب أدرك ما كان ينظر إليه طوال الوقت.

خفافيش! عشراتٌ من خفافيش الفاكهة، بعضها منثورٌ على الأرض مثل ثمارٍ فاسدة، وأخرى معلَّقةٌ من الأغصان من أقدامها، ملتفَّةٌ بأجنحتها كأنَّما تُنشد الدفء. يصل طول أغلبها إلى خمسة وعشرين سنتيمترًا، وبعضها صغيرٌ لا يزيد طوله عن خمسة سنتيمترات. كانت فروخ الخفافيش أوَّل من استسلم للحرارة. بعضها كان ما يزال رضيعًا، يُطبق على حَلَمة أمِّه، فخرَّ صريعًا إذْ لم يستطع أن ينظِّم حرارة جسمه. باتت تلك الحيوانات الذكيَّة ضعيفةً واهنةً، بعد أن جفَّت جلودها وتقشَّرت، بينما تنطبخ أمخاخها في رؤوسها.

انقبض صدرُ كوستاس، فبدأ يجري. تعثَّر فوق صندوقٍ خشبيٍّ، وسقط، فشقَّ الحدُّ المعدنيُّ جبينه. سحب نفسَه وواصل الجري، على الرَّغم من النبض المؤلم فوق حاجبه الأيسر. فلمَّا وصل إلى الخفَّاش الأوَّل خرَّ على ركبتَيْه والتقط ذلك الكائن الصغير، فوجده خفيفًا كالأنفاس. وقف هنالك دون حراك، ممسكًا بالحيوان الميِّت، يستشعر نعومته الحريريَّة تحت أصابعه، بينما تتبخَّر منه آخر ذرَّات الحياة.

لم يبكِ كوستاس حين أحضروا جثَّة أخيه ميكاليس، فرأى فيه وجهًا لفرط طمأنينته لا يُصدَّق أنَّه فارق الحياة. حتى الرصاصة التي اخترقت جسده اختبأتْ، كأنَّما في خجلٍ ممَّا اقترفت. ولم يبكِ حين انضمَّ إلى الآخرين في حمل التابوت إلى الكنيسة، فأحسَّ بالضغط الخفيف على كتفه الذي وضعه تحت الخشب الصقيل، ومذاق الفضَّة الذي استقرَّ على شفتَيْه من تقبيل الصليب، ورائحة الزيت والغبار التي سكنتْ منخَريْه. ولم يبكِ في المقبرة التي أُنزل التابوت في أرضها وسَط العويل. فما استطاع كوستاس أن يقدِّم شيئًا لأخيه سوى حفنةٍ من تراب.

لم يبكِ أيضًا حين رحل أخوه أندرياس في سنِ السادسة عشرة كي ينضمَّ إلى فكرةٍ، وحلمٍ، ورعبٍ، تاركًا إيَّاهم في حالة خوفٍ مستمرّ. لم يذرف كوستاس خلال هذا كلّه دمعةً واحدة، إذْ كان يُدرك تمامًا أنَّ أمَّه في حاجةٍ إليه. أمَّا الآن، وهو يمسك بالخفَّاش الميِّت بين يدَيْه، فقد غدا الحزنُ شيئًا ملموسًا، مثل قطعةٍ مخيطةٍ تتمزَّق أمامه. فبدأ يبكي.

«كوستاس! أين أنت؟» جاءه صوت �انايوتا من داخل البيت، يحمل ارتعاشةً من قلق.

فما استطاع إلاَّ أن يقول: «أنا هنا، مانا [يا أمِّي]».

«لماذا ركضتَ إلى الخارج هكذا؟ قلقت عليك. ماذا تفعل؟»

فلمَّا اقتربتْ منه تغيَّر وجهها من القلق إلى الحيرة. «لماذا تبكي؟ شيءٌ يؤلمك؟»

أراها الخفَّاش. «كلّها ماتت».

رسمتْ �انايوتا علامة الصليب، وشفتاها تتحرَّكان في دعاءٍ سريع. «لا تلمسها. اذهب واغسل يدَيْك».

لكنَّ كوستاس لم يُحرِّك ساكنًا.

«تسمعني؟ هذه حيوانات قذرة، تنقل الأمراض». عادت إليها ثقتها، فأومأت إليه: «اذهب. سأحضر مجرفةً وألقي بها في القمامة».

«القمامة لا. أرجوكِ اتركيها معي. سأدفنها. سأغسل يديَّ».

أبصرتْ �انايوتا الألم في عينَيْه، فلم تصرّ على رأيها. لكنَّها لم تملك وهي تستدير إلاَّ أن تغمغم: «شبابنا يُذبحون في الطرقات، مورومو [يا ولدي]، والأُمَّهات بتنَ لا يعرفن أين أبناؤهنَّ، في الجبال أم في القبور، وأنتَ تنوحُ على بضعة خفافيش؟ أهذه تربيتي؟»

غَمَرهُ إحساسٌ بالوحدة، لفرط قوَّته يكاد يكون ملموسًا. لن يتحدَّث كوستاس بعد ذلك اليوم عن خفافيش الفاكهة وأهمِّيَّتها لأشجار قبرص، وبالتالي لأهلها. في الأرض التي يحاصرها الصراع والحَيْرة وسفك الدماء، لا يسعكَ أن تهتمَّ كثيرًا بأيِّ شيءٍ غير عذابات البشر، وإلاَّ رأى الناس في ذلك إهانةً لآلامهم. لم يكن هذا هو الوقت أو المكان المناسب للحديث عن النباتات والحيوانات،

والطبيعة بشتَّى أشكالها وعظمتها. من أجل ذلك، انغلق كوستاس على نفسه شيئًا فشيئًا، واصطنع لنفسه جزيرةً داخل الجزيرة، فلاذ بالصمت.

التينة

سوف يبقى ذلك اليوم الذي اجتاحت فيه موجةُ الحرارة نيقوسيا مسفوعًا في ذاكرتي، محفورًا في جذعي. فحين أدرك أهل الجزيرة مصدر الرائحة النتنة، شرعوا في التخلُّص من الجثث. كنسوا الشوارع ونظَّفوا البساتين وعقَّموا الكهوف وتفقَّدوا أبنية الحجر الجيري ومهاوي المناجم القديمة. أينما ولَّوا وجوههم وجدوا مئات الخفافيش الميّتة، فأرعبهم ذلك الموت الجماعيّ المفاجئ. لعلَّ هذا الانقراض المفاجئ ذكَّرهم بفنائهم. مع ذلك، ووفقًا للتجربة الشخصيَّة، أستطيع أن أؤكِّد لكم شيئًا عن البشر، وهو أنَّهم سوف يتصرَّفون مع اختفاء جنسٍ من الأجناس كما يتصرَّفون مع كلِّ شيءٍ آخر: بأن ينصِّبوا أنفسهم مركز الكون.

يولي البشرُ اهتمامًا أكبر بمصير الحيوانات التي يعتبرونها جميلة، كالباندا والكوالا والقندس، والدلافين التي تنتشر في قبرص، تسبح وتمرح عند شواطئنا. ثمَّة فكرةٌ رومانسيَّةٌ سائدة عن موت الدلافين، حين يقذف بها الموج إلى الشاطئ بأفواهها المنقاريَّة وابتساماتها البريئة، فكأنَّها جاءت لكي تُلقي وداعًا أخيرًا لبني الإنسان. والحقيقة أنَّ هذا لا يحدث إلاَّ قليلاً؛ فالدلافين حين تموت تغرق في قاع البحر، إذْ تغدو ثقيلةً مثل مخاوف الطفولة. هكذا ترحل، بعيدًا عن الأعين، إلى أعماق الأزرق.

أمَّا الخفافيش فلا توصف بالجمال. حين نَفَقتْ بالآلاف في عام 1974 م، لم أرَ كثيرًا من الناس يذرفون الدمع عليها. غريبون هؤلاء البشر، مليئون بالتناقضات، كما لو أنَّهم يحتاجون إلى الكراهية والإقصاء بقدر احتياجهم إلى الحبِّ والاحتضان. تنغلق قلوبهم بقوَّة، ثم تنفتحُ على وسعها، وتنقبض تارةً أخرى مثل قبضةٍ متردِّدة.

يستقبحُ البشرُ الجرذان والفئران، لكنَّهم يستملحون الهامستر والجربوع. يرون في اليمامة رمزًا للسلام، أمَّا الحمامة العاديَّة فليست سوى حاملةٍ لقذارات المدينة. يزعمون أنَّ صغار الخنازير

بديعة، أمَّا الخنزير البرِّي فيكاد لا يُطاق. يعشقون طائر كسَّار البندق، على الرَّغم من أنَّهم في الوقت نفسه يتجنَّبون ابن عمِّه الغراب. تثيرُ الكلاب فيهم إحساسًا بالدفء، أمَّا الذئاب فتوحي بحكاياتٍ من الرعب. يستحسنون الفراشات، ولا يتقبَّلون العثّ. تميلُ قلوبهم إلى الدعسوقة، أمَّا الخنفسُ الجنديُّ فيسحقونه فور رؤيته. يستحسنون نحل العسل، ولا يطيقون الدبابير. وعلى الرَّغم من أنَّهم يرون في ملك السراطين كائنًا مبهجًا، إلاَّ أنَّ الأمر يختلف تمامًا مع أقاربه البعيدين: العناكب. لقد حاولتُ أن أجد منطقًا في كلِّ هذا، لكنَّني خلصتُ إلى أنَّه لا يوجد منطقٌ على الإطلاق!

نحن أشجار التين نقدِّر الخفافيش تقديرًا كبيرًا، لأنَّنا نعرف دورها الأساسيَّ في النظام الحيويّ بأكمله، نعم نقدِّر هذه الكائنات بأعينها الكبيرة التي لها لون القرفة المحروقة. تساعدنا الخفافيش في التلقيح، فتنقل بذورنا بأمانةٍ إلى أماكن بعيدةٍ شتَّى. في الحقيقة، أعتبرها أصدقائي، وقد انكسرتُ حين رأيتها تتساقط صرعى مثل أوراق الشجر.

*

في عصر ذلك اليوم نفسه، وبينما أهل الجزيرة منشغلون في التخلُّص من الخفافيش النافقة، مشى كوستاس من منزله إلى التينة السعيدة. فوجئتُ بقدومه، فالحانة كانت مغلقة، ولم نكن نتوقَّع قدوم أحد، لا سيَّما أثناء الحرارة التي كانت ما تزال تضرب بقوَّة.

تقدَّم كوستاس متثاقلاً في الممرِّ الملتوي، شاقًّا طريقه عبر الميلة الخفيفة للمنحدر. وكنتُ أستطيع أن أرى كلَّ حركةٍ من حركاته بأطراف أغصاني التي تنتشر في فتحة السقف.

فلمَّا وصل إلى الباب الأماميّ وجده موصدًا. خبط على مقرعة الباب المعدنيَّة في تتابعٍ سريع، وهنا بدأ التوجُّس يجتاحني.

«يورغوس! يوسف! هل أنتما هنا؟»

حاول من جديد، لكنَّ الباب كان موصدًا من الداخل.

تمشَّى كوستاس في الجوار، موجِّهًا تحديقةً قلقةً على الخفافيش الملقاة على الأرض. بحذرٍ، وكز بضعةً منها بعصا، كي يتأكَّد ما إذا كانت حيَّة. ثم ألقى بالعصا جانبًا وهمَّ بالانصراف لولا أنَّه سمع همسةً في الهواء. كان هناك صوتٌ ذكوريّ يتحدَّث بنبرةٍ خفيضة، حالمة.

تقدَّم كوستاس في إصغاء. مشى إلى الرواق في الخلف إذْ أدرك أنَّ الصوت قادمٌ من هناك. قفز فوق صناديقَ من الزجاجات الفارغة وصفائح زيت الزيتون، فاقترب من النوافذ المشغولة بالحديد. وهنا، وقف على أصابع قدمَيْه، كي ينظر إلى الداخل.

وتصاعدت الربكةُ في أطرافي، لأنَّني كنتُ أعرف ما سوف يشاهده.

كان يوسف ويورغوس هنالك في الرواق، يجلسان جنبًا إلى جنبٍ على مقعدٍ حجريّ. همَّ كوستاس بأن يناديهما ثم توقَّف، إذْ رصدتْ عيْناه شيئًا لم يستطع عقلُه أن يستوعبه في تلك اللحظة.

كان الرجلان يتبسَّمان بعضهما لبعض، يشبكان اليد باليد، والأصابع بالأصابع. مال يورغوس على أذن يوسف وتمتم ببضع كلمات، فقهقه. أدرك كوستاس أنَّ الكلام كان بالتركيَّة على الرَّغم من أنَّه لم يسمعه، فقد كان من عادتهما أن يتحدَّثا بالتركيَّة واليونانيَّة في الحوار نفسه حين يكونان وحدهما.

لفَّ يوسف ذراعه حول عنق يورغوس، يلمس ما تحت جوزة حلقه، ويقرِّبه إليه، إلى قُبلة. كانا ساكنَيْن، الجبينُ على الجبين، والشمس تلوح من فوقهما كبيرةً، تغلي. ثمَّة تحنانٌ عفويٌّ في حركاتهما، امتزاجٌ في الألوان والمعالم، وذوبان الأشكال الصلبة إلى سائلٍ نقيّ. كان تدفُّقًا لطيفًا، أدرك كوستاس أنَّه لا يكون إلاَّ بين حبيبَيْن قديمَيْن.

تراجع كوستاس خطوةً إلى الوراء. شعر فجأةً بدُوار، وازدرد ريقه بقوَّة. في فمه مذاق التراب، والحجر الذي سفعتْه الشمس. لزم قدرَ ما يستطيع من الهدوء، وابتعد، والدم ينبضُ في أذنَيْه. تكسَّرتْ أفكاره إلى أفكارٍ أخرى، وهذه بدورها إلى أفكارٍ جديدة، فلم يعد يستطيع أن يحدِّد شعوره في تلك اللحظة. كان قد قضى وقتًا طويلاً مع هذَيْن الرجليْن، غير أنَّه لم يخطر في باله قطّ أنهما أكثر من شريكَيْن في الحانة.

في ذلك اليوم الذي اجتاحت فيه موجةُ الحرارة نيقوسيا، وماتت خفافيش الفاكهة بالآلاف، في اليوم الذي اكتشف فيه كوستاس سرَّنا في الحانة، رأيتُ وجهه يزداد جدّيَّة، وجبينه يتغضَّن في قلق. لقد أدرك أنَّ يوسف ويورغوس قد يكونان في خطرٍ أكبر من الخطر الذي يحدق به هو وديفني. صحيحٌ أنَّ هناك عددًا كبيرًا من أهل الجزيرة يكرهون أن يروا علاقة حبٍّ بين يونانيٍّ وتركيَّة أو تركيٍّ ويونانيَّة، لكنَّ هذا العدد ربَّما يزداد أربعة أضعافٍ في حالة العلاقة بين يوسف ويورغوس!

اسمعني

لندن، أواخر العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين

في اليوم الثالث، تحوَّل مركز العاصفة غربًا، مندفعًا باتِّجاه لندن. في ذلك المساء، كانت نوافذ البيوت تجلجل إذْ تتسارع الريح ويضرب المطرُ على ألواحها. ولأوَّل مرَّةٍ منذ سنوات، ينقطع التيَّار الكهربائيّ عن الحيّ، ولم يعد إلاَّ بعد ساعات. جلسوا في الصالة معًا على أضواء الشموع، فكان كوستاس يكتب بحثًا، وآدا تتفقَّد هاتفها بين الفينة والأخرى، ومريم تحيك وشاحًا كما يبدو.

في النهاية، التقطتْ آدا شمعةً ونهضت. «أشعر بالتعب قليلاً. سأذهب لكي أنام».

سألها كوستاس: «هل أنتِ على ما يرام؟»

فأومأت بتأكيد: «نعم. سأقرأ قليلاً. تصبحان على خير».

وما إنْ وصلت إلى غرفتها حتى فتحت هاتفها مرَّةً أخرى. نُشرت مقاطع فيديو جديدة على شتَّى وسائل التواصل الاجتماعيّ. في أحد المقاطع، فتاةٌ قصيرةٌ بقصَّة شعرٍ تصل إلى حاجبَيْها كانت واقفةً أمام بوَّابة براندنبرغ في برلين، تمسك ببالونةٍ حمراء، أطلقتْها حين بدأتْ تصرخ بأقوى ما أوتيت من رئتَيْن. طارت البالونة وابتعدتْ حتى خرجت من إطار الصورة، والفتاةُ ما تزال تصرخ. وفي مقطعٍ آخر، لمراهق في برشلونة كان يصرخ وهو يتزلَّج في ممشى تحفُّه الأشجار من الجانبَيْن، في حين كان المشاةُ ينظرون إليه في نصف فضول، وعيونٍ شبه منكِرة! ثمَّة مقطعٌ آخر من بولندا، تظهر فيه مجموعة شبابٍ يلبسون الأسود من الرأس حتى القدمَيْن، يحدِّقون في الكاميرا بأفواهٍ مفتوحةٍ على وسعها، لكنَّهم صامتون. وفي الأسفل جُملةٌ تقول: «نصرخ في داخلنا». كان بعض الناس يصرخون فرادى، وغيرهم في جماعات. وكلُّ المنشورات كانت تستخدم الوسم نفسه: # هلتسمعنياالآن. كان حسُّ الخوف والحيرة يتصاعد عند آدا كلَّما رأت مقطعًا جديدًا. لم تُصدِّق أنَّها هي التي بدأت تلك الصرعة العالميَّة، ولم تعرف كيف يمكن لأيِّ أحدٍ أن يوقفها.

ضمَّت آدا ساقَيْها، ولفَّت ذراعَيْها حولهما كما كانت تفعل وهي صغيرة حين تطلب من والدَيْها أن يحكيا لها قصَّة. كان أبوها يجد الوقت دائمًا لكي يقرأ لها، مهما كان منشغلاً. يجلسان جنبًا إلى جنبٍ على السرير، في مواجهة النافذة، ويختار من كتب الأطفال أغربها. كانت كتبًا عن خفافيش الفاكهة، والببغاوات الإفريقيَّة الرماديَّة، وفراشات السيِّدة الملوَّنة... في كلِّ الكتب حشرات وحيوانات، ودائمًا أشجار.

في المقابل، كانت أمّها تفضِّل أن تؤلِّف القصص. كانت تقصّ الحكايات من خيالها، تنسجُ عمود الحكاية وهي تمضي في حبكتها، ثم تعود وتغيِّر الأشياء كما تريد. كانت مواضيعها أكثر رعبًا، تتخلَّلها قصص السحر والأشباح واللعنات. لكنَّها ذات مرَّةٍ، حكتْ لها حكايةً مختلفة. كانت مُزعجةً وباعثةً على الأمل في الوقت نفسه. قصَّت لها أمّها قصَّةَ كتيبة مشاةٍ في الحرب العالميَّة الثانية كانت متمركزةً على طول الجُرف المطلَّة على القناة الإنجليزيَّة. وكان الجنود منهكين وفي حالةٍ يُرثى لها، لكنَّهم خرجوا في دوريَّةٍ على الساحل في عصر يومٍ من الأيَّام. كانوا يعرفون أنَّهم في أيِّ لحظةٍ قد يتعرَّضون لقصفٍ ثقيلٍ من المدفعيَّة الألمانيَّة، جوًّا أو بحرًا. لم يبقَ لديهم طعامٌ كثير، ولم يكن لديهم ما يكفي من الذخيرة، وكلَّما مشوا أكثر امتصَّت الأرض من تحتهم أحذيتهم المبلولة المتشقِّقة أكثر فأكثر، مثل رمالٍ متحرِّكة.

بعد فترةٍ، لاحظ أحدهم منظرًا غريبًا في الأفق. كانت هناك موجات دخانٍ تنساق فوق القناة، ذات لونٍ فاتحٍ جدًّا حتى بدا الدخان من عالمٍ آخر. حاول ألاَّ يصدر صوتًا خشية تنبيه العدوّ، وأشار إلى رفاقه. وسرعان ما كان الجميع يحدِّقون في الاتِّجاه نفسه، وقد انطبع على وجوههم ذهولٌ أوَّل الأمر، ثم رعبٌ شديد. لا يمكن لتلك السحابة الغامضة إلاَّ أن تكون نوعًا من الغازات السامَّة، سلاحًا كيميائيًّا كان يندفع نحوهم مباشرةً من أثر الريح. خرَّ بعض الجنود على الرُكَب، يتمتمون بصلواتٍ إلى إلٰهٍ توقَّفوا عن الإيمان به منذ فترةٍ طويلة. أشعل آخرون سيجارةً، سعيًا إلى متعةٍ أخيرة. لم يكن أمامهم شيءٌ آخر يفعلونه، أو مكانٌ يهربون إليه. فالكتيبة كانت متمركزةً في مسار الغاز الأصفر المميت. وقف أحد الجنود على صخرةٍ، وخلع سترته، وبدأ يعدّ. ساعدتْ صلابةُ الأرقام في تهدئة أعصابه وهو ينتظر المنيَّة. اثنان وعشرون، ثلاثة وعشرون، أربعة وعشرون... ظلَّ هكذا وهو يراقب الخطر الأصفر يقترب، ينبسط وينقبض. فلمَّا وصل إلى الرقم مئة، ضجر من العدّ والتقط منظارًا. حينها فقط أدرك حقيقة السحابة.

صاح بأعلى صوته: «فراشات!»

فما اعتقدوا أنَّه كتلةٌ من الغاز السامّ كان في حقيقة الأمر فراشاتٍ مهاجرةً من أوروبا إلى إنجلترا. أسرابٌ من فراشات السيِّدة الملوَّنة كانت تعبر القناة، تشقُّ طريقها ببطءٍ إلى البرّ. ظلَّت ترفرف وترقص في ضوء الصيف، غير عابئةٍ بجبهة القتال الرماديَّة الباردة.

وما هي إلاَّ دقائق معدودة حتى طارت أنهارٌ من الفراشات فوق الكتيبة، آلافٌ مؤلَّفة. صفَّق الجنود وهلَّلوا، وكان من بينهم فتيان صغار. ضحكوا حتى أدمعت أعينهم، ولم يتجرَّأ أحد، حتى قادتهم، على إسكاتهم. كانت أياديهم تمتدّ إلى الأعلى، ممتلئين بنشوةٍ بريئة، يتقافزون، حتى ظفر المحظوظ منهم بلمسة أجنحةٍ خفيفة، مثل قبلة وداعٍ من حبيبته.

تذكَّرت آدا القصَّة، فأغمضتْ عينَيْها وظلَّت هكذا إلى أن هزَّها قرعٌ على الباب. قالت في نفسها لا بدَّ من أنَّها خالتها مرَّةً أخرى، تناديها كي تذوق طبقًا من أطباقها، فصاحت: «لست جائعة!»

جاءها صوتُ أبيها من خلف الباب. «حبيبتي، تسمحين لي بالدخول؟»

وبسرعةٍ، أخفت آدا هاتفها تحت الوسادة، والتقطت كتابًا من طاولة السرير، كتاب أنا مالالا.

«طبعًا».

دخل كوستاس، حاملاً شمعةً في يده. «الكتاب الذي تقرأينه رائع».

«نعم، صحيح».

«لديكِ دقيقةٌ نتحدَّث فيها؟»

أومأتْ آدا.

وضع الشمعة على الطاولة، وجلس إلى جانبها. «كاردولامو [يا قلبي]، أعرف أنِّي كنتُ بعيدًا عنكِ في السنة الماضية. فكَّرتُ كثيرًا في الأمر، وأعتذر لأنَّني لم أكن دائمًا إلى جانبك».

«لا بأس، بابا. أتفهَّم الأمر».

نظر إليها، بحنانٍ في عينَيْه: «هل يمكنني أن أتحدَّث معك عمَّا حدث في المدرسة؟»

قفز قلبُها. «لا شيء أتحدَّث عنه، صدِّقني. صرختُ لا أكثر. طيِّب! ليس أمرًا خطيرًا. لن أفعل ذلك ثانية».

«لكنَّ المدير قال ـــــ».

«بابا، صدِّقني هذا الرجل غريب الأطوار».

حاول كوستاس مرَّةً أخرى. «يمكننا أن نتحدَّث عن أشياء أخرى. نسيتُ أن أسألك عن مشروع العلوم. كيف سار؟ أما زلتِ تعملين مع ذلك الولد... نسيت اسمه، زفار؟»

قالت آدا، بقليلٍ من الحدَّة: «صحيح. أنهينا المشروع. وحصل كلٌّ منَّا على علامة أ».

«رائع. فخورٌ بكِ يا حبيبتي».

«بخصوص الصرخة، لا داعي لأن تقلق. كلّ ما في الأمر أنَّني شعرتُ بضغوط». في تلك اللحظة، صدَّقت آدا كلّ كلمةٍ خرجت من فمها. «تكرار الحديث في الأمر لن يفيد. اترك الموضوع لي، وسوف أتدبَّر أمري».

خلع كوستاس نظَّارته، وتنفَّس على زجاجها، ثم أخذ ينظِّفها بقميصه كما كان يفعل دائمًا حين لا يجد ما يقوله ويحتاج إلى وقتٍ للتفكير.

شعرتْ آدا بعاطفةٍ جيَّاشةٍ مباغتةٍ وهي تشاهده. كم هو سهل أن تخدع أبويْك، أو على الأقلِّ تستطيع أن تبقيهما خلف جدارٍ من المراوغة! إن ركَّزت في الأمر وحرصتَ على أن لا تترك أيَّ خيوط، فيمكنك أن تنجح فترةً من الوقت. يودُّ الأهل أن تسير الأمور بسلاسة، لا سيَّما المنشغلون منهم مثل أبيها، ولذلك يميلون إلى تصديق أنَّ النظام الذي يتَّبعونه ناجحٌ، فيفترضون أنَّ الأمور طبيعيَّةٌ حتى حين تنهال عليهم الإشارات إلى أنَّ الوضع خلاف ذلك.

وما إنْ خطرت لها تلك الفكرة حتى وجد الإحساسُ بالذنب طريقه المحتوم إليها. لم تكن تنوي إخباره عن مقطع الفيديو، فقد كان الأمر مُحرجًا، ولم يكن بإمكان أبيها أن يفعل شيئًا. مع ذلك، لعلَّه من الأفضل أن يعرف مشاعرها.

«بابا، كنتُ أريد أن أتحدَّث معك عن موضوع... أريد أن أغيّر مدرستي».

«ماذا؟ لا يا آدا. لا يمكنكِ تغيير مدرستك في وسط اختبار الشهادة العامَّة. المدرسة جيِّدة، وكنَّا أنا وأمّك سعيدَيْن لأنَّك قُبلتِ فيها».

عضَّت آدا على باطن خدِّها، وقد أزعجها كيف أزاح مخاوفها جانبًا.

«إن كنتِ قلقةً بخصوص درجاتك، ما رأيكِ أن ندرس معًا في العطلة؟ يسعدني أن أساعدك».

«لا أحتاج إلى مساعدتك». أشاحت ببصرها، وقد انزعجت من نبرة صوتها، وتحفّز غضبها قريبًا من السطح.

فقال وقد شَحَبتْ بشرتُه على ضوء الشموع كما لو أنَّه مقدودٌ من شمع: «اسمعي أديتسا. أعرف أنَّ السنة الماضية كانت صعبةً جدًّا بالنسبة إليكِ. أعرف أنَّكِ تشتاقين إلى أمّك».

«كفى، أرجوك».

أثار الحزنُ في تعابير أبيها ألمًا نابضًا في صدرها. لقد رأت العجزَ في عينَيْه، لكنَّها لم تحرّك ساكنًا كي تخرجه ممَّا هو فيه. لزمت الصمت، وهي تحاول أن تستوعب كيف يحدث هذا بينهما، هذا الانزلاق من المحبَّة والعاطفة إلى الألم والخصام.

«بابا؟»

«نعم حبيبتي».

«لماذا تعبر الفراشات القناة وتأتي إلى هنا؟ ألا تحبّ المناخات الحارَّة؟»

ربَّما استغرب سؤالها، لكنَّه لم يظهر لها ذلك. «نعم، لقد حيَّر هذا العلماء فترةً طويلة. قال البعض إنَّه خطأ، لكنَّ الفراشات لا تملك أن تفعل شيئًا حيال ذلك، فهي مجبولةٌ عليه. بل إنَّهم أطلقوا على ذلك انتحارًا وراثيًّا».

طافت الكلمة في الفراغ بينهما. وتظاهر كلٌّ منهما بأنَّه لم يلاحظ.

قال كوستاس بصوتٍ يعلو ويهبط، كالماء الذي يترسَّب: «كانت أمّك تحبّ الفراشات. لستُ خبيرًا في الفراشات، ولكن من المعقول أنَّها تخطِّط تحرُّكاتها لفترةٍ أبعد من دورة حياتها، أي ليس في جيلٍ واحدٍ بل عبر عدَّة أجيال».

«يعجبني هذا التفسير. إنَّه يفسِّر ما حدث لنا أيضًا. لقد انتقلتَ أنت وماما إلى هذه البلاد، لكنَّنا ما نزال نهاجر».

اكفهرَّ وجهه. «لماذا تقولين ذلك؟ لن تذهبي إلى أيِّ مكان. وُلدتِ ونشأتِ هنا. هذا مكانك. أنتِ بريطانيَّة.. بخلفيَّةٍ ثقافيَّةٍ مختلطة، وفي هذا ثراءٌ عظيم».

طقَّت بلسانها. «نعم، أكيد، أنا أتقلَّب في الثراء!»

سألها كوستاس وقد شعر بإهانة: «لماذا السخرية؟ لطالما عاملناكِ على أنَّكِ كائنٌ مستقلّ، ولستِ امتدادًا منَّا. سوف تصنعين مستقبلكِ كما تشائين وأنا أدعمكِ في كلِّ خطوة. لماذا هذا الهوس بالماضي؟»

«هوس؟ أنا مثقلةٌ بهذا الماضي».

فقاطعها: «لا، غير صحيح. لستِ مثقلةً بأيِّ شيء. أنتِ حرَّة».

«كلامٌ فارغ».

حبس كوستاس أنفاسه، وقد انصدم من كلامها الجارح.

«تصدِّقُ بكلِّ سهولةٍ أنَّ الفراشات ترث الهجرة من أسلافها، ولكنْ حين يتعلَّق الأمر بأسرتك ترى أنَّ هذا غير ممكن».

فقال كوستاس بغصَّةٍ في حلقه: «كلّ ما أريده هو أن تكوني سعيدة».

وحلَّ الصمتُ بينهما مرَّةً أخرى، عائدًا إلى تلك المساحة المؤلمة التي يعيش فيها كلٌّ منهما، ولكنْ على حِدَة.

التينة

سمعتُ ذات مرَّةٍ يورغوس يحكي قصَّةً ليوسف. كان ذلك في وقتٍ متأخِّرٍ من الليل، وقد غادر الزبائن والموظَّفون بعد أن نظَّفوا الطاولات وغسلوا الأطباق وكنسوا المطبخ. خيَّمَ الصمتُ على المكان الذي كان قبل لحظاتٍ يعجّ بالضحك والموسيقى والصخب. جلس يوسف على الأرض، ظهره إلى النافذة، ينشر طيفَه على زجاجها الداكن. أمَّا يورغوس فكان مستلقيًا، يضع رأسه على حُجر يوسف، محدِّقًا في السقف وبين شفتَيْه وُريقةٌ من حصى البان. هذا عيد ميلاده.

كانا قد قطعا كعكةً في ذلك المساء، كعكةً أعدَّها الطبَّاخ بالكرز والشوكولاتة، لكنَّه في ما عدا ذلك كان كأيِّ مساءٍ آخر. لم يأخذ أيٌّ من الرجلَيْن إجازةً قطّ. كانا يعملان دائمًا، ثم يقتسمان الأرباح بعد تسديد الإيجار وبقيَّة المصروفات.

قال يوسف وهو يُخرج من جيبه علبةً صغيرة: «أحضرتُ لك شيئًا».

كان يطيب لي أن أرى التغيّر في حال يوسف حين يكون لوحده مع يورغوس. الحقيقةُ أنَّه كان نادرًا ما يتلعثم حين يتحدَّث إلينا نحن النباتات، لكنَّ تلعثمه يقلّ كثيرًا حين يكون مع يورغوس. وكأنَّ تأتأته التي عذَّبته طيلة حياته تتبخَّر تمامًا حين يكون مع حبيبه. رفع يورغوس نفسه على مرفقَيْه، بابتسامةٍ لطَّفت ملامحه المنحوتة. «قلنا لن نتبادل الهدايا هذا العام». لكنَّ وجهه توهَّج وهو يأخذ العلبة، كأنَّما هو طفلٌ صغيرٌ في انتظار حلوى، فمزَّق منديل التغليف.

«يا إلٰهي».

كانت ساعة جيبٍ تتدلَّى من سلسلةٍ بين أصابعه، ذهبيَّةً تلمع.

«ما أجملها، كريسومو [يا ذَهبي]، شكرًا. لماذا فعلت ذلك؟ لا بدَّ من أنَّها كلَّفتك ثروة».

تبسَّم يوسف. «افتحها. في داخلها ق ــــ ق ــــ قصيدة».

ففي غطاء الساعة نُقش بيتُ شعر، تلتمع فيه الحروف مثل يراعاتٍ مضيئةٍ في الليل. قرأ يورغوس. الكلمات بصوتٍ عال:

مقدوركَ أن تصل

فلا تتعجَّل الرحلة أبدًا

«أوه، من شعر كفافيس[10]!». كان هذا شاعرَه المفضَّل. ثم قلب الساعة ووجد على ظهرها حرفان: ي و ي.

«أعجبتك؟»

فقال يورغوس بصوتٍ أثقلتْه العاطفة: «أعجبتني؟ وقعتُ في غرامها! أحبّك».

لكنَّ ابتسامة يوسف توارت إلى شيءٍ آخر وهو يمرِّر أصابعه في شعر يورغوس. ضمَّه إليه وقبَّله بلطف، فيما الحزنُ يشتدّ في عينَيْه. كنتُ أعرف ما يحزنه؛ فقبل يومٍ واحدٍ، وجد رسالةً ملصقةً على الباب بقطعة علك. كانت رسالةً غليظةً جبانة، مكتوبةً بإنجليزيَّةٍ مكسَّرة، وباستخدام حروفٍ مقصوصةٍ من الجرائد، دون توقيع، ملطَّخةً بالتراب وشيءٍ أحمر يوحي بالدم، ولعلَّه كان دمًا بالفعل. قرأ الرسالة عدَّة مرَّات، بكلماتها القبيحة التي تطعنه كالسكاكين: «اللوطيَّان»، «الشاذَّان»، «الفاسقان». كانت تلك الكلمات تقطع وريدًا قريبًا من القلب، وتجرح. لم يكن جرحًا جديدًا، لكنَّ الجرح القديم لم يُتح له أن يلتئم قطّ. فمنذ صباه، كان الآخرون يسخرون منه لأنَّه ليس رجلاً، ليس رجوليًّا بما يكفي. جاءت السخرية أوَّلاً من عائلته، ثم من زملائه ومعلِّميه في المدرسة، بل حتى من الغرباء. كانت سخرياتٍ تنطلق في نوباتٍ مفاجئةٍ من الغضب والازدراء، لم يفهم منشأها قطّ. لم يكن شيئًا جديدًا إذن، لكنَّ الأمر هذه المرَّة جاء بتهديد. لم يذكر شيئًا من ذلك ليورغوس، خشية أن يثير قلقه.

ظلاَّ يتحدَّثان تلك الليلة ساعات، فحرماني النوم. حفحفتُ أغصاني، أحاول أن أذكِّرهما بوجود تينةٍ تحتاج إلى شيءٍ من النوم والراحة، لكنَّهما لم يلاحظاني لفرط استغراقهما في الحديث. شرب يورغوس قليلاً، وأتبع ذلك بنبيذ الخرُّوب الذي تصنعه �انايوتا. وعلى الرَّغم من أنَّ يوسف

لم يشرب، إلاَّ أنَّه لم يكن أقلّ ثمالةً من صاحبه، يضحك على كلِّ نكتةٍ سخيفة. كانا يغنّيان معًا، ما أبشع صوتَيْهما. حتى تشيكو يغنِّي أفضل منهما!

اقترب الفجر، وكنتُ مُنهكة، أوشكتُ على النوم فسمعتُ يورغوس يتمتم كأنَّما يُحدِّث نفسه: «بخصوص قصيدة كفافيس... هل تعتقد أنَّنا يمكن أن نغادر نيقوسيا ذات يوم؟ لا تفهمني خطأً، أنا أعشق هذه الجزيرة، لكنَّني أحيانًا أتمنَّى لو نعيش في مكانٍ فيه ثلج!»

ثم تحدَّثا عن السفر، ووضعا قائمةً بكلِّ المدن التي يريدان رؤيتها.

وقال يوسف في عاطفةٍ متدفِّقةٍ تشبه اليأس: «على من ن ـــــ ن ـــــ نضحك؟ تعرفُ كما أعرف أنَّنا لن نرحل. يمكن للطيور أن ترحل، أمَّا نحن فلا». وأومأ ناحية تشيكو النائم في قفصه تحت قماشةٍ سوداء.

صمتَ يورغوس لحظةً، ثم قال: «هل تعرف أنَّ القدماء لم يفهموا اختفاء كثيرٍ من الطيور في الشتاء؟»

ثم حكى ليوسف أنَّ الإغريق كانوا حائرين فيما يحدث للطيور حين يبرد الجوّ وتهبّ الرياح الباردة من الجبال. هكذا فتَّشوا في السماء الفارغة، علَّهم يجدون خيطًا يتبعونه فيعرفون المكان الذي تختبئ فيه الطيور، البومات السود والبجعات الرماديَّة والزرازير والسنونوات والسمامات. وبما أنَّ الفلاسفة القدماء لم يكونوا يعرفون عن أنماط الهجرات، فقد خرجوا بتفسيرٍ مختلف، إذْ زعموا أنَّ الطيور في كلِّ شتاءٍ تتحوَّل إلى أسماك.

كانت الأسماك سعيدةً في بيئتها الجديدة، فالطعام وفيرٌ والحياة أقلّ إرهاقًا. لكنَّها لم تستطع أن تنسى من أين جاءت، وكيف كانت تُحلِّق فوق الأرض بخفَّةٍ وحرِّيَّة. لا شيء يمكن أن يعوِّض ذلك الشعور. لذلك حين يشتدّ الحنين، تتحوَّل الأسماك مرَّةً أخرى إلى طيورٍ في حلول الربيع، فتملأ السماء من جديد، البومات السود والبجعات الرماديَّة والزرازير والسنونوات والسمامات.

يظلّ كلّ شيءٍ على ما يُرام فترةً من الزمن، وتبقى الطيور سعيدةً بالعودة إلى سمائها، إلى أن يتجمَّع الصقيع على أغصان الشجر، فتُضطرُّ إلى العودة إلى الماء مرَّةً أخرى، تشعر بالأمان، لكنَّها منقوصة. وهكذا يستمرّ الحال، في دورةٍ من الأسماك والطيور. هي دورةُ الانتماء والاغتراب.

كان هذا سؤالاً أزليًّا: الرحيلُ أم البقاء؟ في تلك الليلة المصيريَّة، قرَّر يوسف ويورغوس أن يبقيا.

القمر
قبرص، أيَّار / مايو 1974 م

وصل كوستاس متأخِّرًا. في المرَّة التالية التي التقيا فيها في التينة السعيدة، لم يستطع أن يخرج من بيته قبل أن يساعد أمّه في تقطيع الخشب وتخزين الألواح في أكوامٍ عند الموقد. فلمَّا انتهى، هُرع راكضًا من بيته إلى الحانة.

ولحسن الحظّ لم تغادر ديفني. كانت هناك في الغرفة الصغيرة خلف الطاولة، تنتظر.

قال كوستاس وهو يدخل مسرعًا: «آسفٌ جدًّا حبيبتي».

لكنَّ شيئًا في تعابير وجهها استوقفه. ثمَّة تخشُّبٌ في نظرتها. انسلَّ إلى الكرسيّ جانبها وهو يلتقط أنفاسه. تلامستْ ركبتاهما تحت الطاولة، فتراجعت، تقريبًا دون إدراك.

قالت دون أن تنظر إليه: «أهلاً».

كان يعرف أنَّه لا بدَّ من أن يسألها عمَّا يُكدِّرها هكذا، لكنَّ فكرةً غريبةً استحوذتْ عليه، فهو إن لم يضغط عليها لتحويل ما يؤلمها إلى كلمات، فربَّما يستطيع أن يزيح ذلك الألم، موقَّتًا على الأقلّ.

كَسَرت ديفني الصمت: «أبي في المستشفى».

«لماذا؟ ماذا حدث؟» أمسك بيدها، فأحسَّ بها رخوةً، من دون حياة..

هزَّت رأسها وعيناها تغرورقان بالدموع: «وخالي. هل تذكره؟ ذلك الذي رآني ذات ليلةٍ وسألني أين كنت ذاهبة؟»

«نعم، أذكره طبعًا. ماذا حدث؟»

«مات».

تجمَّد كوستاس في مكانه.

«بالأمس، أوقف مسلَّحون من إيوكا ـــــ ب الحافلة التي كان بها أبي وخالي، وسألوا الركَّاب عن أسمائهم... ثم عزلوا الرجال ذوي الأسماء التركيَّة والمسلمة. كان لدى خالي مسدَّس، فطلبوا منه أن يسلِّمه لهم، لكنَّه رفض. وبين أخذٍ وردٍّ وصراخ، حدث الأمر بسرعة. حاول أبي أن يتدخَّل، وألقى بنفسه في المعمعة فأُصيب بطلقة. إنَّه في المستشفى الآن. يقول الأطبَّاء إنَّه قد يظلّ مشلولاً من نصفه السفليّ. وخالي...». وبدأتْ ديفني تبكي. «كان في السادسة والعشرين لا أكثر، لم تمضِ على خطبته فترةٌ طويلة. قبل أيَّام كنَّا نمزح معًا».

أخذ كوستاس نَفَسًا سريعًا، وتلعثم، لا يجد ما يقوله. «خالص عزائي». حاول أن يحضنها، لكنَّه لم يكن واثقًا من أنَّها قد تريد ذلك، فأوقف نفسه، منتظرًا، يستوعب هذا الصدع الجديد الذي انفتح بينهما. «تعازيَّ الحارَّة يا ديفني».

أشاحت بوجهها. «لو عرفتْ أسرتي... لو علموا أنَّني أواعد فتًى يونانيًّا، فلن يسامحوني أبدًا. هذا أسوأ شيءٍ في نظرهم».

شحَب وجهُه، فقد كان هذا ما يخشاه دائمًا: مقدِّمة النهاية. شعر بامتلاء صدره، فخشي أن ينفجر. تطلَّب الأمر جهدًا جهيدًا من كلِّ عضلةٍ من جسمه كي يبقى ثابتًا. لم يخطر في باله شيءٌ آنذاك إلاَّ وسادة الدبابيس التي تستخدمها أمّه حين تخيط. هكذا كان قلبه الآن، تنغرز فيه عشرات الإبر. فسألها بصوتٍ لا يزيد عن همسةٍ متحشرجة: «تقصدين أنَّنا لا بدَّ من أن نفترق؟ لا أحتمل أن أراكِ تتألَّمين. مستعدٌّ لفعل أيِّ شيءٍ لمنع ذلك. حتى وإن كان معنى هذا أن لا أراكِ. أرجوكِ أخبريني، هل يفيد لو ابتعدتُ عنكِ؟»

رفعت رأسها ونظرتْ إلى عينَيْه للمرَّة الأولى منذ أن وصل. «لا أريد أن أخسرك».

«ولا أنا أريد أن أخسرك».

رفعتْ كأسها إلى شفتَيْها في شرود. كان الكأس فارغًا. فنهض كوستاس. «سأحضر لكِ بعض الماء».

سحب الستارة. كانت الحانة تعجُّ بالناس في تلك الليلة، وثمَّة ضبابٌ معلَّقٌ في الهواء من دخان التبغ. كان هناك مجموعةٌ من الأميركان يجلسون قرب الباب، رؤوسهم مائلةٌ بشغفٍ على صحون المزَّة التي وضعها النادل أمامهم.

رأى كوستاس يوسف واقفًا في زاوية، يرتدي قميصًا أزرق، فيما تشيكو خلفه على الرفِّ ينظِّف ريشه.

التقت أعينهما فابتسم له يوسف في هدوءٍ وطمأنينة. حاول كوستاس أن يردّ عليه الابتسامة، لكنَّ سلوكه الودود تخضَّب الآن بالخجل بعد أن عرف سرَّهما. مع ذلك، استطاع أن يرسم ابتسامةً كسيحةً، وقلبه متألِّمٌ بكلِّ ما قالته له ديفني قبل لحظة.

سأله يوسف في وسط الضجيج: «هل كلّ شيءٍ على ما يُرام؟»

أشار كوستاس إلى الدورق الفارغ في يده. «أحتاج إلى ماءٍ فقط».

فأشار يوسف إلى أقرب نادل، وكان رجلاً يونانيًّا طويلاً نحيفًا، أصبح أبًا قبل فترةٍ وجيزة.

نظر كوستاس حوله في شرودٍ وهو ينتظر الماء، عقله غائمٌ بكلِّ ما أفضت به ديفني إليه. أحاطت به أصوات الحانة، مثل يدٍ حول قبضة سكِّين. لاحظ امرأةً بدينةً شقراء خلف إحدى الطاولات الأماميَّة تُخرج مرآةً من حقيبتها لتهذيب حمرة شفاهها. سيظلّ هذا اللون معه سنواتٍ طويلة. لونٌ أحمرُ فاقع، كأنَّه لطخة دم.

سيجد كوستاس نفسه يعود إلى تلك اللحظة، حتى بعد سنواتٍ في لندن، وعلى الرَّغم من أنَّ الأشياء حدثت بسرعةٍ بالغة، إلاَّ أنَّها تمرُّ دومًا في ذاكرته ببطءٍ شديد، ببطءٍ لا يُطاق. ضوءٌ بارقٌ لم يرَ أو يتخيَّل مثله من قبل. صفيرٌ رهيبٌ يملأ أذنَيْه، من بعده على الفور تحطُّمٌ صاخب، كما لو أنَّ ألف حجرٍ مسنَّنٍ تطحن بعضها بعضًا. ثم... مقاعد مكسورة، وصحونٌ مهشَّمة، وأجسادٌ مقطَّعة، وقطعٌ صغيرةٌ جدًّا من الزجاج تهطل على كلِّ أحدٍ وكلّ شيء، يذكُر كوستاس أنَّها كانت مدوَّرة، كقطرات المطر.

مادت الأرضُ تحت قدمَيْه. سقطَ إلى الوراء، مدفوعًا بقوَّةٍ أقوى منه، وقد خمدت الصدمةُ فجأةً على نحوٍ غريب. بعد ذلك، صمت. صمتٌ محض، بدا أقوى من الانفجار الذي دكَّ المكان قبل قليل. كان رأسه سيصطدم بدَرَجةٍ حجريَّةٍ لولا أنَّ جسدًا كان تحته، جسد نادلٍ يُحضر له دورق ماء. كانت قنبلة. قنبلةً مصنوعةً منزليًّا أُلقي بها من درَّاجةٍ ناريَّةٍ عابرةٍ في الحديقة، فحطَّمت الجدار الأماميّ كلّه. مات خمسة أشخاص في التينة السعيدة ذلك المساء. ثلاثةٌ منهم أميركان كانوا في زيارةٍ أولى إلى قبرص، وجنديٌّ كَنَديٌّ كان على وشك العودة إلى بلاده بعد تأدية واجبه في قوَّات حفظ السلام، والنادل اليونانيّ الشابّ الذي أصبح أبًا من وقتٍ قريب.

*

نهض كوستاس مترنِّحًا، وذراعه اليسرى تتخبَّط. فلمَّا استدار اتَّسعت عيناه فزعًا، إذْ رأى الستارة في الغرفة الخلفيَّة مفتوحة، تندفع منها ديفني بوجهٍ يغطِّيه الرماد. ركضتْ نحوه.

«كوستاس!»

كان يريد أن يقول شيئًا، لكنَّه لم يستطع إيجاد أيّ كلمةٍ مهدِّئة. وأراد أن يقبِّلها أيضًا. سيبدو المشهد غريبًا في وسط تلك المجزرة، لكنَّه قد يكون الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله. من دون أن يتكلَّم، احتضنها، ودماءُ الآخرين تُبلِّل ثيابه.

تُرى من كان المستهدف من هذا التفجير؟ السيَّاح الأميركان أم الجنود البريطانيُّون؟ أم إنَّها الحانة نفسها وصاحباها؟ بطبيعة الحال، قد يكون تفجيرًا عشوائيًّا، كغيره من التفجيرات التي انتشرت في تلك الفترة! لا سبيل إلى التحقُّق.

كانت هناك رائحةٌ لاذعة في كلِّ مكان، من الدخان والطوب المحروق والحطام. تلقَّى مدخل الحانة الضربة الأقوى، فانخلع الباب الخشبيّ، وتساقطت البلاطات والصور المبروزة من الجدران، وتحطَّمت الكراسي إلى أشلاء، فيما تبعثرت كِسَرٌ من البورسلين هنا وهناك. وفي إحدى الزوايا، انبثقت نيرانٌ صغيرةٌ من تحت طاولةٍ مقلوبة. تحرَّك كوستاس وديفني بسرعةٍ في اتِّجاهَيْن متعاكسَيْن، يتكسَّر الزجاج تحت أقدامهما، في محاولةٍ لمساعدة المصابين.

فلمَّا وصلتْ الشرطة، وقبل وصول الإسعاف بوقتٍ طويل، طلب يوسف ويورغوس منهما أن يخرجا فورًا من الرواق الخلفيّ.

في الخارج، وجدا البدر المكتمل، وكان هذا هو الشيء الوحيد الساكن ممَّا شاهداه في ذلك اليوم. كان البدر ساطعًا بجمالٍ رائق، كجوهرةٍ باردةٍ على مخملٍ داكن، غير آبهٍ أبدًا بالألم البشريّ من تحته.

*

في تلك الليلة، لم يكن أيٌّ منهما يريد العودة إلى البيت، فظلاًّ معًا فترةً أطول من المعتاد. تجوَّلا في المرتفعات خلف الحانة، وجلسا عند بئرٍ قديمة، متخفِّيَيْن بين أشجار العلِّيق وأدغال الخلنج. طلاًّ من الحافَّة الحجريَّة، يتحسَّسان طحالبها الحريريَّة، فنظرا في أعماق الهوَّة بحثًا عن الماء الذي لا يمكن رؤيته. ما مِن عملةٍ معدنيَّة يلقيانها، ولا أماني يتمنَّيانها.

قال كوستاس: «سأوصلك إلى البيت. لجزءٍ من الطريق على الأقلِّ».

فقالت وهي تحكّ ظاهر رقبتها في المكان الذي جرحتْها فيه قطعة زجاجٍ لم تتنبَّه إليها: «أُمِّي ومريم ستبقيان الليلة مع أبي في المستشفى».

أخرج منديلاً ومسح الدموع والسخام من خدَّيْها. أمسكتْ يده، وأراحت رأسها على راحته. شعر بدفء فمها، وضرْب رموشها على جلده. ثمَّة صمتٌ في الأجواء، فبدا العالم بعيدًا جدًّا.

طلبتْ منه أن يطارحها الغرام، فلمَّا لم يُجب، مالت إلى الخلف وتفرَّست في وجهه، بتحديقةٍ ثابتة، لا أثر فيها لخجل.

تورَّد وجهه قليلاً تحت نور القمر. ستكون تجربتهما الأولى. «متأكِّدة؟»

فأومأتْ برقَّة.

قبَّلها، وقال: «ولكنْ لا بدَّ من أن أحذِّرك. توجد قرَّاصات لاسعة في هذا المكان».

«لاحظت».

خلع قميصه ولفَّه على يده اليمنى، ثم أخذ ينقِّب في العشب، ويُخرج أكبر قدرٍ من القرَّاصات، ثم يضعها جانبًا في أكوامٍ كما رأى أمّه تفعل عدَّة مرَّات لكي تصنع الحساء. وحين رفع رأسه وجدها تُحدِّق فيه بابتسامةٍ حزينة.

«لِمَ تنظرين إليَّ هكذا؟»

«لأنَّني أحبُّك. أنتَ روحٌ رقيقةٌ يا كوستاس».

ليس لك أن تعشق في وسط حربٍ أهليَّة، حين تكون محاطًا بمجزرةٍ وكراهيةٍ من كِلَا الجانبَيْن. إنَّما تهرب، بأقصى ما يمكن لرئتَيْك أن تحملا من مخاوف، سعيًا إلى مجرَّد العيش، ولا شيء آخر. الأجنحةُ المستعارة تأخذك للسماء وتحلِّق بك بعيدًا. وإنْ كنتَ لا تستطيع الرحيل، تبحث عن ملجأ، وتجد مكانًا آمنًا تنسحب فيه إلى نفسك.. فكلُّ شيءٍ قد فشل، كلّ المفاوضات والحلول السياسيَّة. عندها تعرف أنَّه لا يوجد إلاَّ العيْن بالعيْن، والألم بالألم، وليس ثمَّة مكانٌ آمنٌ خارج طائفتك.

الحبُّ هو التأكيد الجريء على الأمل. وليس لكَ أن تعتنق الأمل حين يسيطر الموتُ والدمار. ليس لكِ أن ترتدي أبهى ثيابكِ وتضعين زهرةً في شعرك حين تكونين محاطةً بالحطام. لا يسعكِ أن تمنحي قلبكِ في الوقت الذي يجدر بالقلوب أن تبقى مغلقة، لا سيَّما في وجه الذين ليسوا من دينك، وليسوا من لغتك، وليسوا من دمك.

لا يسعكَ أن تعشق في قبرص في صيف 1974 م. ليس هنا، وليس الآن. وعلى الرَّغم من ذلك كلِّه، كانا هناك معًا.

التينة

حين انفجرت القنبلةُ، طار الشرارُ إلى أحد أغصاني، وما هي إلاَّ ثوانٍ حتى كنتُ أشتعل. مرَّت فترةٌ، ولم يلاحظ أحد. كانوا جميعًا في صدمة، يذرعون المكان على نحوٍ مسعور، يحاولون أن يُسعفوا المصابين، يُزيلون الحطام، ولا يقوون على النظر إلى الجثث. غبارٌ ودخان في كلِّ مكان، والرماد يتطاير في الهواء مثل سربٍ من العثّ يدور حول شمعة. سمعتُ امرأةً تبكي، بصوتٍ بالكاد يُسمع، يكاد يكون همسًا، كأنَّما من خشيةٍ أن تصدر صوتًا. سمعتُها، وظللتُ أحترق. في الأماكن المعرَّضة للحرائق، تصطنع الأشجارُ لنفسها مجموعةً من الطرق كي تحمي أنفسها من الدمار. تلفّ الشجرةُ نفسها بلحاءٍ سميكٍ رقائقيّ، أو تحفظ براعمها الخاملة تحت الأرض. بل يمكنكم أن تجدوا أشجار صنوبرٍ بأقماعٍ صلبةٍ تستعدُّ لإطلاق بذورها مع أوَّل وخزةٍ من الحرارة العالية. ثمَّة أنواعٌ أخرى من الأشجار تُسقط أغصانها السفليَّة دفعةً واحدة، كي لا تصعد النارُ إلى الأعلى. نفعل ذلك كلَّه وأكثر، كي نعيش. أمَّا أنا فكنتُ شجرة تينٍ تعيش في داخل حانةٍ مَرِحة، ولم يكن لديَّ مبرِّرٌ لاتِّخاذ أيّ احترازاتٍ كهذه. كان لحائي رقيقًا، وأغصاني وفيرةً هشَّة، ولم يكن عندي ما أحتمي به.

كان يوسف هو الذي رآني أوَّلاً. جرى في اتِّجاهي، ذلك الرجل الطيِّب معقود اللسان، وكان يخبط بذراعَيْه هنا وهناك، وهو ينشج.

ردَّد بالتركيَّة مرَّةً بعد مرَّة وعيْناه مخضَّبتان بالحزن: «أه كانيم، ني أولدو سانا؟ يا قلبي، ما الذي حدث لكِ؟» كنتُ أريد أن أُخبره بأنَّه لم يتأتئ. في الواقع، لم يكن يتأتئ قطّ حين يتحدَّث إليَّ.

شاهدتُ يوسف يُحضر خِرقة، ثم مجموعةً من الخِرق. ربَّت بها على أغصاني وهو يتقافز كالمجنون. ثم أحضر دلاء الماء من المطبخ، وانضمَّ إليه يورغوس فتمكَّنا من إطفاء الحريق.

احترق جزءٌ من جذعي، وتفحَّمت عدَّة أطرافٍ منِّي تمامًا، لكنَّني كنتُ حيَّة. وسأصبح على ما يرام. كان في وسعي أن أنجو من ذلك المصاب سليمةً، بعكس البشر الذين كانوا هناك في تلك الليلة.

الرسالة

قبرص، حزيران/يونيو 1974 م

بعد بضعة أسابيع من انفجار القنبلة في التينة السعيدة، كتبت �انايوتا رسالةً إلى أخيها في لندن.

عزيزي خريستوس

شكرًا جزيلاً على الهدايا الجميلة التي أرسلتَها لنا الشهر الماضي، وقد وصلتْ كلّها بالسلامة. غير أنَّ أكبر هديَّةٍ لروحي هي أن تكون بخير وفي أفضل حالٍ في إنجلترا. أسألُ الربّ أن يوفّقك دومًا أنت وأسرتك، وأن يُحيطك بعنايته وحفظه كالدرع الحديديّ.

لقد فكَّرتُ طويلاً قبل أن أكتب هذه الرسالة. وأشعر أنَّني لم أعد قادرةً على كتمان الخوف في قلبي. إنَّني قلقة، بل خائفةٌ جدًّا على كوستاس. تعلمُ يا أخي أنَّني كنتُ صغيرةً جدًّا حين ابتلاني الربّ فأصبحتُ أرملةً مع ثلاثة أولادٍ أُربّيهم وحدي. ثلاثة أطفالٍ كانوا في أمسّ الحاجةِ إلى أبٍ يُعلِّمهم ويُرشدهم. حاولتُ أن أكون لهم الأمّ والأب، وتعرفُ كيف كان الأمر صعبًا عليَّ، لكنَّني لم أشتكِ قطّ. وقد وصل حالي إلى ما وصل إليه، ولا أدري ما إذا كنت ستعرفني إنْ رأيتني في المرَّة القادمة. فقد كبرتُ بسرعةٍ، وشعري لم يعد لامعًا ولا أسود. بل إنِّي حين أُمشّطه في الليل يتساقط في كُتل. يداي مثل أوراق الصنفرة من فرط خشونتهما، وكثيرًا ما أتحدَّث إلى نفسي، مثل إليفثيريا[11] المجنونة التي كانت تثرثر مع الأرواح. هل تذكرها؟

لقد فقدتُ ولدَيْن في سنةٍ واحدة يا خريستوس. صحيحٌ أنَّني لا أعرف أين أندرياس الآن، وما إذا كان أسيرًا أم طليقًا، حيًّا أم ميِّتًا، لكنَّ هذا يساوي في تعذيبه رؤية حبيبي ميكاليس حين أحضروا جثَّته إلى البيت. لقد رحلا يا أخي، وفراشُ كلٍّ منهما باردٌ، فارغ. لا أحتمل فقدان طفلٍ ثالث. سأُجنّ.

أسأل نفسي كلَّ ليلة: هل من الصواب أن أُبقي كوستاس معي في قبرص؟ وإنْ كان صوابًا حتى الآن، فإلى متى أستطيع أن أحميه؟ لقد كبُر وعمَّا قريب يصبح رجلاً. في بعض الأحيان، يخرج ويقضي الساعات خارج البيت. فكيف أعرف على وجه اليقين أنَّه بخيرٍ وأمان؟

لم تعد الجزيرةُ مكانًا مناسبًا للشباب. الدماء في الشوارع كلَّ يوم. ولا يوجد وقتٌ حتى لغسل دماء الأمس. وولدي هذا حسَّاسٌ جدًّا. يعثر على فرخٍ في عشٍّ قتلتْه قطَّة، فيتوقَّف عن الكلام أيَّامًا. لو كان يستطيع لكفَّ عن أكل اللحم تمامًا. حين كان في الحادية عشرة، بكى على عصافير محفوظة. قد تقولُ إنَّ الزمن قد شدَّ من بأسه، ولكنْ لا، أبدًا. في يوم موجة الحرارة، رأى مجموعة خفافيش ميِّتة في الحديقة، فتحطَّم. لا أبالغ يا خريستوس. لقد حطَّم المنظرُ روحَه.

أخشى أنَّه ليس مستعدًّا للتعامل مع مشاقِّ الحياة، لا سيَّما مشاقَّ جزيرتنا. فلم أر في حياتي شخصًا يحسّ بآلام الحيوانات كما يحسّ بها. واهتمامه بالأشجار والنباتات أكثر بكثيرٍ من أهل بلاده. هذه ليست نعمةً على الإطلاق، ولا بدَّ من أنَّك تتَّفق معي. لا يمكن أن تكون إلاَّ لعنة.

وهناك ما هو أكثر من ذلك، أكثر بكثير. أعرف أنَّه يقابل فتاة. كان يتسلَّل في أوقاتٍ غريبة، ثم يعود بنظرةٍ شاردة، ووجنتَيْن متورِّدتَيْن. أصدقك القول إنَّني لم أمانع في أوَّل الأمر. تظاهرتُ بأنِّي لم ألاحظ شيئًا، علَّ في هذا فائدةً له. قلتُ في نفسي إنَّ الحبَّ سيُبعده عن الشوارع والسياسة. لقد جاءني ما يكفي من ال�اليكاريا. شباب شجعان، لكنَّهم متهوِّرون. هكذا إذن سمحتُ بالأمر، وتظاهرت بالجهل، فتركته يقابل الفتاة. إلى أن عرفتُ من هي الفتاة، عرفتها من إحدى الجارات هذا الأسبوع. وأنا الآن مرعوبة.

كوستاس يحبُّ تركيَّةً! يقابلها سرًّا منذ فترة. لا أعرف إلى أيِّ حدٍّ وصلت العلاقة بينهما، ولا أستطيع أن أسأل. لا يمكن لمسيحيّ أن يتزوَّج مسلمةً. لا تهنأ عيْنُ الربّ بهذا. وإنْ عرف أهل الفتاة في يومٍ ما، فما الذي سيفعلونه بولدي؟ وإنْ عرف شخصٌ من جماعتنا، فما الذي سيحدث؟ ألا يكفي ما نحن فيه؟ من السذاجة أن أتجاهل الأمر. فأنتَ تعرف كما أعرف أنَّ هنالك أشخاصًا من كِلَا الجماعتَيْن على استعداد لمعاقبتهما على هذا الفعل. وأخفُّ عقوبةٍ في هذه الظروف ستكون الأقاويل وتشويه السمعة. سوف نحمل العار إلى الأبد. لكنَّ هذا ليس أكثر ما يُخيفني. فماذا لو فُرض عليهما عقابٌ أشدّ؟ لا أريد حتى أن أُفكِّر فيه. لماذا يفعل كوستاس هذا بي، وبأخيه الأكبر عليه رحمة الربّ؟

لم أعد أهنأ بنوم. ولا أظنُّ كوستاس ينام أيضًا. أسمعه يذرع غرفته كلَّ ليلة. لا يمكن أن يستمرّ الأمر هكذا. الخوفُ من حدوث أمرٍ فظيعٍ له يحطِّم روحي. إنَّي أختنق.

لقد قرَّرتُ، بعد طول تفكير، أن أبعث كوستاس خارج البلاد، إليكَ في لندن. وأنت بالتأكيد تُدرك نتيجة ذلك على راحة قلبي. بالتأكيد تفهم.

أطلب منك، بل أتوسَّل إليك، أن تأخذه تحت جناحك. إنَّه يتيم يا خريستوس، يحتاج إلى يدٍ أبويَّةٍ على كتفيْه. يحتاج إلى عون خاله ونصحه. أريده أن يبقى بعيدًا عن قبرص، بعيدًا عن هذه الفتاة إلى أن يعود إلى رشده، ويُدرك حماقته وتهوُّره.

إن وافقتَ، سأُفكِّر في عذرٍ مقبولٍ وأقول له إنَّه سيذهب أسبوعًا واحدًا فقط، أو شيئًا كهذا. لكنَّني أريد منك أن تُبقيه عندك فترةً أطول، إلى نهاية الصيف على أقلِّ تقدير. ما يزال صغيرًا، وسوف ينساها بسرعة. لعلَّه يساعدك في المحلّ ويتعلَّم شيئًا في التجارة. سيكون هذا بالتأكيد أفضل له من مشاهدة الطيور أو قضاء النهار تحت أشجار الخرُّوب في أحلام يقظة.

أرجوك، خذ كوستاس الصغير إلى بيتك وأسرتك. هلاَّ فعلتَ ذلك من أجل أختك؟ هل سترعى ابني الوحيد الذي بقي لي؟ أيًّا ما كان ردُّك، فليحفظك يسوع المسيح برحمته ويحفَّك الربّ بمحبَّته ويحميك الروح القدس بصحبته في كلِّ وقتٍ وحين.

أختك المحبَّة، بانايوتا

الفُليفِلات

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

في صباح اليوم التالي، كانت مريم جالسةً في طرف طاولة المطبخ، وأمامها صحنٌ من الرزِّ المطبوخ بالطماطم والبهارات، مع كومةٍ من الفليفلات الخضر، مغسولةٍ محفورةٍ منزوعة الأقماع. فلمَّا رأت آدا ارتسمتْ على وجهها ابتسامة، ما لبثت أن غابت بمجرَّد أن لاحظت ذلك التعبير في وجهها.

«أنتِ بخير؟»

فردَّت آدا دون أن ترفع عينَيْها: «بخير».

«كان لدينا جَدْيٌ في قبرص. كائنٌ جميل. كنَّا أنا وأمُّك نلعب معه دائمًا، ونسمِّيه كربوز، لأنَّه كان يحبّ البطيخ. ذات صباح، أخذ بابا كربوز إلى البيطريّ، ووضعه في ظهر شاحنةٍ مكتومٍ مغبرّ. كان بابا مشغولاً بأشياءَ أخرى، فترك كربوز مربوطًا في الشاحنة طوال النهار. وحين عاد الجَدْي إلى البيت كان في شدَّة الضيق، بنظرةٍ لامعةٍ في عينَيْه». ثم مالت مريم وضيَّقت عينَيْها: «تعابير وجهكِ الآن تُذكِّرني بكربوز بعد رحلة الشاحنة».

نَخَرتْ آدا وقالت: «أنا بخير».

«هذا بالضبط ما كان يقوله كربوز».

قلَّبتْ آدا عينَيْها وهي تتنفَّس ببطء. كان يمكن أن تستاء من تطفُّل خالتها، لكنَّ الغريب أنَّ هذا لم يحدث. بل إنَّها شعرت برغبةٍ في أن تفتح قلبها لها. ربَّما يمكنها أن تصارح هذه المرأة التي قضت فترةً هنا. لم يكن هناك من خطرٍ في مصارحتها ببعض الأشياء، كما أنَّها كانت في حاجةٍ إلى الحديث مع أحد، وسماع صوتٍ مختلفٍ بدلاً من تلك الأصوات التي تعتملُ في عقلها.

«لا أحبُّ مدرستي، ولا أريد العودة إليها».

«أوه، وهل أخبرتِ والدك؟»

«حاولتُ أن أُخبره، لكنْ دون فائدة».

فرفعت مريم حاجبَيْها.

«لا تنصدمي هكذا. ليست نهاية العالم. لن أترك دراستي كي أنضمَّ إلى جماعةٍ سرِّيَّة. الأمر وما فيه أنَّني لا أحبُّ هذه المدرسة».

«اسمعي، كانيم. أعرف أنَّ ما سأقوله قد يُغضبك، ولكنْ تذكَّري أنَّ النصيحة الحسنة تُزعج دائمًا، أمَّا السيِّئة فلا تزعج أبدًا. فإنْ أثار ما أقوله استياءك، اعتبريها نصيحةً حسنة».

ضيَّقتْ آدا عينَيْها.

«ممتاز. من الواضح أنَّكِ بدأتِ تنزعجين. ما أريد قوله هو أنَّكِ ما تزالين صغيرة، والصغار لا صبر لديهم. لا يطيقون انتظار أن تنتهي الدراسة، وتبدأ الحياة. لكنْ سأُخبركِ سرًّا: الحياة قد بدأت بالفعل! هذه هي الحياة. المللُ، والإحباطُ، ومحاولةُ التخلُّص من أشياء، والسعي إلى أشياء أفضل. ذهابكِ إلى مدرسةٍ أخرى لن يغيِّر شيئًا. لذلك من الأفضل أن تبقي فيها. ما الأمر؟ هل يضايقك الأطفال الآخرون؟»

أخذتْ آدا تنقر على الطاولة كي تُبقي أصابعها مشغولة. «الحقيقة أنِّي... فعلتُ شيئًا فظيعًا أمام الفصل بأكمله. ولا أريد أن أعود لأنِّي مُحرجةٌ جدًّا».

قطَّبت مريم جبينها. «ماذا فعلتِ؟»

«صرختُ... إلى أن غاب صوتي».

«أوه، يا حبيبتي، لا ينبغي لكِ أبدًا أن ترفعي صوتكِ على معلِّمتك».

«لا، لا، لم أصرخ على المعلِّمة. الصرخةُ كانت كأنَّها على كلِّ أحد... كلّ شيء».

«هل كنتِ غاضبة؟»

أنزلتْ آدا كتفَيْها قليلاً. «هذه هي المسألة. لا أظنُّه كان غضبًا. لعلّي لستُ على ما يرام. كانت أمّي تعاني من مشكلاتٍ عقليَّة. ربَّما لديَّ ما كان عند أُمّي. وراثةٌ، ربَّما».

توقَّفت مريم عن التنفُّس لحظات، ولم يبدُ أنَّ آدا لاحظت ذلك.

«يقول أبي إنَّ للأشجار قدرةً على التذكُّر... ويقول إنَّ الأشجار الصغيرة تملك أحيانًا ما يُشبه «الذاكرة المحفوظة»، كأنْ تعرف ما مرَّ بأسلافها من مصائب. يقول إنَّ هذا أمرٌ جيِّد؛ لأنَّ الشتلات تُكيِّف نفسها على نحوٍ أفضل».

قالت مريم وهي تُقلِّب الفكرة في رأسها: «لا أعرف الكثير عن الأشجار، لكنَّ البنات في سنِّك لا ينبغي أن يقلقن من أمورٍ كهذه. الحزنُ ينخر الروح، كالدود في الخشب».

«تقصدين الأرضة؟»

لكنَّ مريم تابعت حديثها: «دعينا نقل إنَّ التاريخ قبيح. ماذا تريدين منه؟ ليس مشكلتك. جيلي أنا أفسد الأمور، وجيلك محظوظ. لا تستيقظين ذات يومٍ فتجدين حدودًا أمام بيتك، أو تقلقين من أن يُصاب أبوكِ بطلقةٍ في الشارع بسبب عِرقه أو دينه. ليتني كنتُ في عمرك».

ظلَّت آدا تنظر في يدَيْها.

«اسمعي. كلُّنا فعلنا أشياء سخيفة في صغرنا، ثم اعتقدنا أنَّ أثرها لن يزول أبدًا. لعلَّكِ تشعرين بالوحدة الآن. تظنِّين أنَّ زملاءك ضحكوا عليكِ، وربَّما ضحكوا فعلاً، لكنَّ هذه طبيعة البشر. إذا احترقتْ لحيتك، يُشعل الآخرون غلايينهم منها. قصدي أنَّكِ ستخرجين من هذه التجربة أقوى ممَّا كنتِ. ذات يومٍ ستتذكَّرين ما حدث وتقولين لم يكن الأمر يستحقّ حتى القلق».

تفكَّرتْ آدا في كلامها، على الرَّغم من أنَّها لم تصدِّق منه حرفًا. ربَّما يصدق هذا الكلام في الماضي، أمَّا الآن في هذا العالم الجديد فالأخطاء السخيفة (إن كانت فعلاً كذلك) بمجرَّد نشرها على الإنترنت تبقى للأبد.

«افهميني، لقد صرختُ كالمجنونة، كالممسوسة. المعلِّمة خافت منِّي. رأيتُ ذلك في عينَيْها».

فقالت مريم ببطء: «هل قلتِ... ممسوسة؟»

«نعم. كان الأمرُ فادحًا جدًّا، حتى إنَّ المدير استدعاني، وظلَّ يسألني أسئلةً عن وضع أسرتي. هل السبب هو أنَّني لم أتقبَّل وفاة أُمِّي بعد؟ أم إنَّه أبي؟ هل هناك مشكلة أودّ أن أخبره عنها؟ هل أواجه مشكلات في البيت؟ يا إلٰهي، سألني أسئلةً شخصيَّةً كثيرة، حتى أردتُ أن أقفز عليه وأقول له اخرس».

قطَّبت مريم جبينَها في تفكيرٍ، وهي تعبث بإسورتها. فلمَّا أعادت نظرتها إلى آدا، ظهرت لمعةٌ في عينَيْها، وتوهُّجٌ ورديٌّ في خدَّيْها. ثم قالت بحماس: «فهمتُ الآن. أعتقد أنِّي عرفت المشكلة».

التينة

مريم إنسانةٌ غريبة، مليئةٌ بالتناقضات. تطلب العون من الأشجار طوال الوقت، لكنَّها لا تُدرك ذلك على ما يبدو! فحين تكون خائفةً أو وحيدة، أو تريد أن تطرد أرواحًا شرّيرة، تدقّ على الخشب، وهذه عادةٌ قديمة تعود إلى الزمن الذي كنَّا نُعدُّ فيه كائناتٍ مباركة. وحين تكون لديها أمنيةٌ لا تجرؤ على قولها علانيةً، تعلِّق الخِرق والشرائط على أغصاننا. وحين تبحث عن شيءٍ (كنزٍ مدفونٍ أو غَرَضٍ تافهٍ أضاعتْه) تطوف وهي تمسك بغصنٍ متفرّعٍ تُسمّيه عصا العِرافة. لستُ ضدَّ هذه الخرافات، بل إنَّ بعضها قد يكون مفيدًا لنا نحن النباتات. فالمسامير الصدئة التي تضعها في أصص الأزهار لطرد الجنّ تجعل التربة قلويَّة. ورمادُ الخشب الذي تُشعله لإبطال سحرٍ يحتوي على البوتاسيوم الذي قد يكون مغذِّيًا لنا. وأمَّا قشرُ البيض الذي تبعثره هنا وهناك على أمل أن يجلب الخير، فهو سمادٌ مغذٍّ. لكنَّني أتساءل كيف تمضي في هذه الطقوس والعادات القديمة دون أن تُدرك أنَّها تنبع من تقديرٍ كبيرٍ لنا نحن الأشجار.

ثمَّة سنديانةٌ عُمرها سبعمئة عامٍ في وادي ماراثاسا في جبال ترودوس. إنْ سألتم اليونانيّين عنها سيخبرونكم كيف اختبأ تحتها مجموعة فلاَّحين خوفًا على حياتهم لأنَّهم كانوا هاربين من الأتراك العثمانيّين في القرن السادس عشر، إلى أن نجوا.

وثمَّة شجرة فيكس كاريكا في آيوس جورجيوس آلامانوس إنْ سألتم الأتراك عنها سيقولون لكم إنَّها ظهرت من جسد إنسان، بعد أن كبُرت تينةٌ كانت في معدته إلى شجرة (وكانت آخر ما تناوله يوم موته). كان هذا الشخص قد سيق إلى كهفٍ مع اثنَيْن آخرَيْن وقُتلوا جميعًا بالديناميت.

أنا أُجيد الإنصات، وأرى من المدهش أنَّ الأشجار بمجرَّد حضورها تصبح منقذًا للمضطهدين ورمزًا لمعاناة الناس في الطرفَيْن المتقابلَيْن.

فعلى مرِّ التاريخ كنَّا ملاذًا لكثيرين جدًّا. لم نكن ملجأً للبشر فحسب، بل للآلهة أيضًا. فلا بدَّ من وجود سببٍ وراء تحويل غايا (إلٰهة الأرض) ابنَها إلى شجرة تينٍ كي تنقذه من صواعق جُوبِتَر. وفي عدَّة أرجاءٍ من العالم، كانت المرأة التي يُعتقد أنَّها مُصابة بلعنةٍ تُزوَّج من شجرة فيكس كاريكا، وبعد ذلك يمكنها أن تُقدِّم نذور الزواج للرجل الذي تحبُّه. صحيحٌ أنَّ هذه العادات غريبة، لكنَّني أفهم من أين تنبع. فالخرافاتُ ظِلالٌ لمخاوفَ غير معروفة.

ولذلك، حين جاءت مريم إلى الحديقة وفاجأتني بحضورها، وأخذت تذرع المكان هنا وهناك غير عابئةٍ بالبرد والعاصفة، حدستُ بأنَّها كانت ترتِّب خطَّةً لمساعدة آدا. وعرفتُ أنَّها ستلجأ مرَّةً أخرى إلى مخزونها الذي لا ينتهي من الخرافات والمعتقدات.

تعريف الحبّ

قبرص، تمّوز/يوليو 1974 م

لا ضوء في الفِناء إلاَّ نورًا خفيفًا من القمر الذاهب، أمَّا الريح الدافئة التي كانت تُصرُّ في قمم الأشجار طوال النهار فقد أنهكت نفسها أخيرًا وسكنت، فصار الليلُ لطيفًا باردًا. تُعطِّر الهواءَ نفحةٌ من الياسمين تدور حول السور المشغول بالحديد، مثل خيطٍ ذهبيٍّ في قماشٍ بسيط، وتمتزج مع روائح المعدن المحترق والبارود.

جلستْ ديفني وحيدةً في الزاوية البعيدة من فناء منزلها، ما تزال مستيقظةً في وقتٍ متأخِّرٍ من الليل. انكفأت على نفسها عند الجدار، حتى لا يراها والداها إنْ نظرا من النافذة. ضمَّت ركبتَيْها إلى صدرها، وأسندت رأسها على راحة يدها. وفي اليد الأخرى رسالةٌ قرأتْها عدَّة مرَّات، على الرَّغم من أنَّ الكلمات ما تزال تسبح أمام عينَيْها بكلِّ إلحاح.

وقعتْ نظرتُها على نبتة الطماطم التي زرعتْها أختها في أصيصٍ فخَّاريٍّ كبير. كانت هذه النبتة صديقتها طوال السنة الماضية؛ فكلَّما تسلَّلت ليلاً للقاء كوستاس، كانت تنزل من شجرة الفرصاد أمام شرفتها، ثم تعود منها لاحقًا، فترفعُ نفسها بحذرٍ باستخدام هذا الأصيص.

لم تكن قد قابلتْ كوستاس منذ ليلة الانفجار في التينة السعيدة، إذْ كان الخروج والتجوال من شبه المستحيل. يومًا إثر يوم، كانت الأوضاع تزداد سوءًا ورُعبًا، والإشاعات التي تقول بأنَّ الحكومة العسكريَّة في اليونان تُخطِّط لإسقاط رئيس قبرص (المطران ماكاريوس) أصبحت حقيقة. ففي اليوم السابق، نفَّذ الحرس الوطنيّ القبرصيّ و«إيوكا ـــــ ب» انقلابًا للإطاحة بالمطران المنتخب ديموقراطيًّا. أقدمت قوَّاتٌ مسلَّحةٌ مواليةٌ لحكومة اليونان على تفجير القصر الرئاسيّ في نيقوسيا وإحراقه، ما أفضى إلى نشوب معارك في الشوارع بين أنصار المطران وأنصار الحكومة العسكريَّة في أثينا. بعد ذلك، بثَّت إذاعة الدولة خبر وفاة ماكاريوس، فلمَّا بدأ الناس ينعونه، أذاع

المطران كلمةً من محطَّةٍ إذاعيَّة متنقِّلةٍ، قال فيها: «أيُّها القبارصة اليونانيُّون! تعرفون صوتي. أنا ماكاريوس. أنا الذي اخترتموني كي أصبح قائدكم. لم أمت. أنا على قيد الحياة». نجا المطرانُ بأعجوبة، ولم يعرف أحدٌ مكانه.

وفي خضمِّ هذه الفوضى، اشتعلت أعمال العنف بين الجماعتَيْن. فمنع والدا ديفني ابنتهما من الخروج من البيت، حتى لإحضار المؤن الأساسيَّة. لم تكن الشوارع آمنة، ولَزِم الأمر أن يبقى الأتراك مع الأتراك، واليونانيُّون مع اليونانيِّين. هكذا قضت ديفني وهي حبيسةٌ في البيت ساعاتٍ تُفكِّر، وتقلق، تحاول أن تجد سبيلاً للحديث مع كوستاس.

في ذلك اليوم، خرجتْ أمَّها أخيرًا لحضور اجتماعٍ في الحيِّ، ونام والدها في غرفته كعادته بعد أن يتناول دواءه، فتسلَّلت ديفني من البيت على الرَّغم من اعتراضات شقيقتها. ركضتْ طوال المسافة من بيتها إلى التينة السعيدة، بحثًا عن يوسف ويورغوس. ولحسن الحظّ، وجدتهما هناك.

عمل الرجلان جاهديْن منذ ليلة التفجير لتجديد الحانة وإصلاح معظم ما يمكن إصلاحه. أعادا بناء الجدار الأماميّ والباب، وعلى الرَّغم من أنَّ الحانة كانت جاهزةً لاستقبال روَّادها مرَّةً أخرى، إلاَّ أنَّهما اضطُرَّا إلى إغلاقها بسبب الاضطرابات القائمة في الجزيرة. وجدتْهما ديفني يراكمان المقاعد والطاولات أمام الحانة، ويغلِّفان أدوات المطبخ قبل تخزينها في الصناديق. فلمَّا وقعت أعينهما عليها فاضت بدفءٍ، سرعان ما انقلب إلى قلق.

سألَها يوسف: «ديفني! ماذا ت ـــــ تفعلين هنا؟»

«جيِّد أنَّكما هنا، خشيتُ أن لا أجدكما».

فقال يورغوس: «ها نحن نُغلق الآن. لقد استقال الموظَّفون. لا يريدون أن يعملوا. ولا ينبغي لكِ الخروج في هذه الظروف. خطر عليكِ. ألم تسمعي بأنَّ الأسر البريطانيَّة تعود إلى بلادها؟ انطلقت طائرةٌ خاصَّة اليوم تحمل زوجات العسكريِّين وأطفالهم. وهناك طائرةٌ أخرى غدًا».

كانت ديفني قد سمعت عن الإنجليزيَّات اللائي ركبن الطائرة بقبَّعاتٍ وفساتين متناسقة، وقد حزمنَ حقائبهنَّ إلى آخرها. كانت علائم الراحة تعلو وجوههنَّ، لكنَّ كثيراتٍ كنَّ يبكين أيضًا، إذْ يغادرن الجزيرة التي أحببنها.

قال يورغوس: «حين يفرُّ الغربيُّون هكذا، فهذا يعني أنَّنا نحن الباقين هنا في ورطةٍ كبيرة».

«الجميع في جماعتنا قلقون للغاية. يتوقَّعون أن تحدث مجزرة».

فقال يوسف: «ل ـــ لا ينبغي أن نفقد الأمل. سيمضي كلّ هذا».

وأضاف يورغوس: «لكنَّنا سعدنا برؤيتك. لدينا شيءٌ لك. رسالة من كوستاس».

«أوه، ممتاز. إذن رأيتماه. كيف حاله؟ بخير، صحيح؟ الحمد الله». ثم التقطت المظروف من يده، وألصقته بصدرها. ثم فتحت حقيبتها. «لديَّ شيءٌ له أيضًا. تفضَّل».

لا يوسف ولا يورغوس مدَّ يده لأخذ الرسالة.

فأحسَّت ديفني بتلوِّي أمعائها، وحاولت أن تتجاهله. «لم يعد لديَّ وقت. هلاَّ أوصلتما الرسالة إلى كوستاس؟»

ردَّ يورغوس: «لا نستطيع».

«ما المشكلة؟ لن تتعرَّضا للخطر إن مشيتما إلى بيته. رجاءً، الأمر مهمٌّ جدًّا. هناك أمرٌ طارئ أريد أن أُخبره به».

نقل يوسف ثقله من إحدى قدمَيْه إلى الأخرى. «إذن فأنتِ ل ـــ ل ـــ لا تعرفين؟»

«لا أعرف ماذا؟»

ردَّ يورغوس: «لقد ذهب. كوستاس سافر إلى إنجلترا. والأرجحُ أنَّ أمّه أجبرتْه على ذلك. لم يكن لديه خيار. حاول الوصول إليكِ، وجاء إلى هنا عدَّة مرَّاتٍ بحثًا عنكِ، وفي آخر مرَّةٍ، ترك لنا الرسالة. لكنَّنا اعتقدنا أنَّه استطاع الوصول إليكِ في نهاية المطاف. حَسِبنا أنَّه أخبرك».

لاحظتْ ديفني جيشًا من النمل عند حذائها، يسحب خنفساء ميِّتة. راقبتْها بضع ثوانٍ، في عجزٍ تامٍّ عن استيعاب إحساسها. لم يكن ما استحوذ عليها ألمًا، فهذا سيأتي لاحقًا. لم يكن صدمةً أيضًا، على الرَّغم من أنَّها ستتنزل عليها عمَّا قريب. لقد شعرتْ كما لو أنَّ قوَّة جذبٍ لا تُقاوم قد قبضتْ عليها، وحبستْها في تلك البقعة وتلك اللحظة، إلى الأبد.

رفعتْ ذقنها، بعينَيْن زائغتَيْن، وإيماءةٍ قصيرة. ثم ابتعدتْ دون أن تقول حرفًا. من خلفها كان يوسف يناديها، لكنَّها لم تردّ.

في البعيد، كان الدخان يمورُ على أسقف البيوت، فقد كانت أجزاءٌ من المدينة تحترق. أينما ولَّت وجهها رأت رجالاً، يحملون البنادق، يراكمون أكياس الرمل، رجالاً بوجوهٍ متجهِّمةٍ وأحذيةٍ يغطِّيها التراب. مدنيِّين، جنودًا، أفراد ميليشيات. تُرى أين ذهبت نساء الجزيرة؟

اتَّجهتْ نحو الشوارع الخلفيَّة، مبتعدةً عن الاضطرابات، تعبر من بين الحدائق والبساتين. ظلَّت تمشي دون هدف، وظلُّها يمشي إلى جانبها. انحسر ضوء النهار، وتخلَّى العالم عن ألوانه. فلمَّا وصلت إلى بيتها، بعد ساعات، كانت الأسلاك الشائكة قد خدشت كاحلَيْها وذراعَيْها، مثل نقشٍ بلغةٍ لم تتعلَّم الحديث بها قطّ.

ومنذ ذلك الحين ظلَّت صامتة، منطويةً على نفسها، تزمُّ شفتَيها في تركيز. لقد بذلت جهدها في أن تتصرَّف على طبيعتها مع مريم، خشية أن تكيل عليها الأسئلة. لقد اكتشفتْ ديفني أنَّ تأجيل الألم ليس صعبًا. شأنُه شأن تأجيل الرسالة التي لم تقرأها إلاَّ لاحقًا في ذلك المساء.

عزيزتي ديفني

لا أصدِّق أنَّني لم أتمكَّن من رؤيتك قبل سفري إلى إنجلترا. كنتُ قد بدأتُ في كتابة الرسالة، وتوقَّفت، وبدأتُ ثانيةً، عدَّةَ مرَّات. أردتُ أن أُخبرك بنفسي، لكنَّني لم أستطع أن أصل إليكِ.

أُمِّي خائفةٌ للغاية. ولا سبيل إلى النقاش معها.

تخشى أن تحدث لي مصيبة. لقد بكتْ وبكتْ وتوسَّلت إليَّ أن أذهب إلى لندن. لم أستطع أن أقول لها «لا». لكنَّني لن أوافقها على ذلك مرَّةً أخرى أبدًا. تعرفين أنَّها مريضة، وصحَّتها تتدهور. فمنذ أن مات أبي، ظلَّت تعمل دون كللٍ كي ترعانا. لقد حطَّمها موتُ ميكاليس، وبعد رحيل أندرياس لم يبق لها سواي. لم أحتمل أن أراها هكذا. لم أستطع أن أخذلها.

أعدكِ أن تكون فترةً قصيرة. سأسكن مع خالي في لندن، ولن يمضي عليَّ يومٌ هناك دون أن أفكِّر فيكِ، ولا يدقّ قلبي دقَّةً واحدة لا أشتاقُ فيها إليكِ. سأعود بعد أسبوعين، على الأكثر. وسوف أحضر لكِ هدايا من إنجلترا!

للأسف، لم أجد حتى فرصةً لأُخبرك بمشاعري عن تلك الليلة.. حين تركنا الحانة. القمرُ، ورائحةُ شعرك، ويدُك في يدي، بعد كلّ ذلك الفزع حين أدركنا أنَّ أحدنا لا يمكن أن يستغني عن الآخر.

أتعرفين ما خطر في بالي منذ ذلك الوقت؟ خطر لي أنَّكِ أنتِ بَلدي. هل ما أقوله غريب؟ من دونكِ لا وطن عندي في هذا العالم. من دونك أكون شجرةً صريعة، مقطوعة الجذور، تسقطُ بدَفعةِ إصبعٍ لا أكثر.

سأعودُ قريبًا، ولن أسمح بتكرار هذا الأمر. لعلَّنا في المرَّة القادمة، ذات يوم، نذهب إلى إنجلترا معًا، من يدري؟ أرجو أن تفكِّري فيَّ كلَّ يوم، وسوف أعود في طرفةِ عين.

أحبَّك

كوستاس

أمسكتْ ديفني بالرسالة بقوَّةٍ، حتى تكرمشت أطرافُها. وقعتْ نظرتُها على نبتة الطماطم مرَّةً أخرى وعيْناها تمتلئان بالدموع. قال لها كوستاس ذات مرَّة إنَّ أهل بيرو (التي يُعتقد أنَّها منشأ الطماطم) كانوا في الأزمان القديمة يسمُّونها «شيءٌ مدوَّرٌ ذو سُرَّة». أعجبها هذا الوصف. فقد خطر لها أنَّ كلَّ شيءٍ في الحياة ينبغي أن يُستحضر بتفاصيله، لا أن يُمنح اسمًا تجريديًّا، في مزيجٍ عشوائيٍّ من الحروف. فالطائرُ ينبغي أن يكون «شيءٌ ريشيٌّ يغرِّد»، والسيَّارة «شيءٌ معدنيٌّ ذو عجلات وزامور»، والجزيرة «شيءٌ وحيدٌ يُحيط به الماء من كلِّ جهة». وماذا عن الحبّ؟ قبل اليوم كانت ستُجيب عن هذا السؤال بطريقةٍ مختلفة، لكنَّها اليوم واثقةٌ من أنَّ الحبّ ينبغي أن يكون «شيء خدَّاع يكسر القلب في نهاية المطاف».

لقد ذهب كوستاس دون أن تجد فرصةً كي تخبره. لم تشعر قطَّ بخوفٍ من الغد كما تشعر الآن. لقد أصبحت وحيدة.

الأجنبيّ

لندن، تمُّوز ــ آب/يوليو ــ أغسطس 1974 م

حين وصل كوستاس كازنتزاكِس إلى لندن، استقبله في المطار خالُه وزوجتُه الإنجليزيَّة. كان الزوجان يعيشان في بيتٍ مبنيٍّ بالطوب والخشب، مع حديقةٍ صغيرةٍ مربَّعة أمام البيت. وكان لديهما كلبٌ من سلالة كولي تمتزج فيه ألوان الأسود والأبيض والبنِّيّ، واسمه زيوس. كان يحبّ أكل الجزر المسلوق والس�اغيتي النيئة من علبتها مباشرة. سوف يحتاج كوستاس إلى فترةٍ من الوقت كي يعتاد الطعام في تلك البلاد، لكنَّ تغيُّر الطقس هو الذي فاجأه. فلم يكن مستعدًّا لهذه السماء الجديدة ذات الإضاءة الخافتة معظم الوقت، إلى أن تُشرق من وقتٍ لآخر بلمبةٍ طنَّانةٍ ضعيفة.

كان خاله الذي استقرَّ نهائيًّا في إنجلترا رجلاً بشوشًا، ينشر الضحك أينما حلّ. وقد عامل كوستاس بطيبةٍ مشفوعةٍ باعتقادٍ قويٍّ مفاده أنَّ الشابَّ لا ينبغي أن يظلَّ خاملاً أو ساكنًا. ولذلك أخذ ابن أخته مباشرةً للعمل في المحلّ. تعلَّم كوستاس هناك كيف يعزِّز البضاعة في الأرفف، وكيف يجرد المخزون، ويُحاسب الزبائن، ويسجِّل المصروفات والمبيعات. كان عملاً مُجهدًا، لكنَّه لم يأنف منه. كان قد اعتاد كثرة المشاغل، وهذا العمل ساعده في شغل وقته، ما جعل من الممكن احتمال الأيَّام بعيدًا عن ديفني.

بعد أسبوعٍ من وصول كوستاس، سمع الأخبار الصاعقة. قوَّةٌ عسكريَّة مدفوعة من الحكومة العسكريَّة في اليونان أطاحت بالمطران ماكاريوس، واندلع إطلاق النيران بين أنصار ماكاريوس وأنصار الرئيس نيكوس سامبسون الذي عيَّنه قادة الانقلاب. أخذ كوستاس وخاله يتفرَّسان في الصحف، فصُدما حين علما بأمر «الجثث الملقاة في الشوارع والمقابر الجماعيَّة». لم يكن كوستاس ينام إلاَّ قليلاً، وكلَّما غفت عيناه، عاجلتْه الكوابيس.

بعد ذلك، وقع ما لم يكن في الحسبان. فبعد خمسة أيَّام من الإطاحة بالمطران ماكاريوس، أُنزلت قوَّاتٌ تركيَّةٌ مسلَّحةٌ في كيرينيا (ثلاثمئة دبَّابة وأربعون ألف جنديّ) تشقُّ طريقها إلى داخل الجزيرة. هكذا اضطُرَّ القرويُّون اليونانيُّون إلى الفرار جنوبًا، تاركين كلّ شيءٍ وراءهم بحثًا عن الأمان. وفي دوَّامة الفوضى والحرب، انهار النظام العسكريّ في أثينا. فقد جاءت الأخبار عن وقوع صداماتٍ بين السفن الحربيَّة التركيَّة واليونانيَّة قرب بافوس. غير أنَّ المعارك الأكثر دمويَّة كانت في العاصمة نيقوسيا وما حولها.

اجتاح الخوفُ كوستاس، فظلَّ يلاحق كلّ معلومةٍ عن بلاده، لا يبتعد عن المذياع أبدًا كي يعرف آخر الأخبار. غير أنَّ الكلام كان غائمًا مستترًا. تتحدَّث المصادر اليونانيَّة عن «الغزو»، فيما تُسمِّيه المصادر التركيَّة «عمليَّة السلام»، وتصفه الأمم المتَّحدة بـ «التدخُّل». كانت هناك مفاهيم غريبةٌ تتقافز إلى عقله من الأخبار، إذْ تتحدَّث عن «أسرى حرب»، و«فصلٍ عرقيٍّ»، و«تهجيرٍ للسكَّان». لم يصدِّق أنَّهم يتحدَّثون عن مكانٍ يعرفه كما يعرف وجهه في المرآة. هذا بلدٌ لم يعد يعرفه.

أرسلت له أمّه رسالةً محمومة، تقول له فيها أنْ لا يعود. عبرت �انايوتا من الاختناقات المروريَّة، واستطاعت أن تخرج من نيقوسيا في الدقيقة الأخيرة، مفزوعةً تحاول النجاة بحياتها. هكذا كان الخوف والصدمة بين المدنيِّين اليونانيِّين، فقد سمعوا حكاياتٍ وروايات مرعبةً عن الجيش القادم، حتى إنَّ صبيَّةً صغيرةً في الحيِّ ماتت بالسكتة القلبيَّة. لجأتْ �انايوتا إلى بعض أقاربها في الجنوب، دون أن تستطيع أخذ أيّ شيءٍ من أغراضها معها. هكذا لم يعد لديهم بيت، ولم تعد لديهم حديقةٌ بها خمس أشجار خرُّوب. لقد سُلبت كلّ ما بنتْه ورعتْه بحبٍّ منذ أن تُوفِّي زوجها وتركها مع ثلاثة أطفال.

ألغى الخالُ تذكرة الرجوع على الرَّغم من اعتراضات كوستاس؛ إذْ لم يكن من الممكن أن يعود إلى جزيرةٍ تحترق. هكذا وجد كوستاس نفسه عالقًا في حالةٍ لم تكنْ له أيّ سيطرةٍ عليها، فجرَّب كلّ طريقةٍ خطرتْ له للوصول إلى ديفني، بالبرقيَّات والاتِّصالات والرسائل. في بادئ الأمر، استطاع التحدُّث إلى يوسف ويورغوس، لكنَّ الغريب أنَّه لم يستطع الوصول إليهما بعد ذلك.

وبعد مضيِّ ستَّة أسابيع دون ردٍّ من ديفني، تمكَّن كوستاس من الوصول إلى مريم عبر صديقٍ يعمل في مكتب البريد استدعاها إلى هاتفٍ في وقتٍ متَّفقٍ عليه. كان صوتها خفيضًا متكدِّرًا،

وقد أكَّدت له أنَّ عنوان بريدهم لم يتغيَّر، وأنَّ منزلهم ما يزال سليمًا. كانت ديفني إذن تستلم رسائله.

«لماذا لا تردَّ على رسائلي إذن؟»

«المعذرة. لا أظنُّها تريد التواصل معك».

«لا أصدِّق هذا. ولن أصدِّق حتى أسمعه منها».

سكتةٌ قصيرة. «سأُخبرها يا كوستاس».

وبعد أسبوعٍ، وصلت بطاقةٌ بريديَّة بخطِّ ديفني، تطلب فيها منه التوقُّف عن محاولة التواصل معها.

*

كان زبائن البقالة الصغيرة من شتَّى الأنواع: عمَّال مصانع، وسائقي سيَّارات الأجرة، وحرَّاس أمن، علاوة على معلِّمٍ في منتصف العمر كان يدرِّس في مدرسةٍ قريبة. كان قد لاحظ سابقًا اهتمام كوستاس بالبيئة والحفاظ عليها، فلمَّا رآه مكتئبًا وحيدًا بدأ يعيره كتبه. كان كوستاس يجلس في المساء بعد أن أنهكه طول العمل وانقطاع الأخبار من ديفني. يظلّ في السرير يقرأ إلى أن لا يقوى على فتح عينَيْه. أمَّا في النهار، فحين لا يكون هناك زبائن يجلس خلف طاولة المحاسبة يطالع مجلاَّت الطبيعة التي تُباع في المحلّ. لم يكن يجد السلوى إلا حين يقرأ عن الأشجار أو يفكِّر فيها.

وجد في إحدى المجلاَّت مقالاً عن خفافيش الفاكهة، يتحدَّث عن موت الكثير منها موتًا جماعيًّا وأسباب ذلك. وتنبَّأ الكاتب بأنَّ العالم سوف يشهد خلال عقودٍ قليلةٍ مستوياتٍ خطيرةً من الاحترار، وسوف يتبع ذلك موتٌ جماعيٌّ لبعض الأنواع، قد يبدو في الظاهر عشوائيًّا، لكنَّه ليس كذلك. وقد أشار المقال إلى الدور الإيجابيّ الذي يمكن أن تؤدِّيه الغابات لإبطاء التغيُّر الإيكولوجيّ الكارثيّ. وهنا تغيَّر شيءٌ في داخل كوستاس. فحتى ذلك الوقت لم يكن يعرف أنَّ بإمكان المرء أن يُكرِّس حياته لدراسة النباتات. شعر بأنَّه يمكنه فعل ذلك، وإن كان هذا يؤدِّي إلى العزلة، فأمرها هيِّنٌ أيضًا.

ظلَّ يُرسل الرسائل إلى ديفني. في البدء، كان يكتفي بالحديث عن قبرص ويطمئنُّ على أحوالها، يحاول أن يمرِّر كلمات التشجيع والدعم، إشارةً على الحبّ. ثم بدأ شيئًا فشيئًا يحكي لها عن

لندن أيضًا، عن المزيج العِرقيّ في الحيِّ، والمباني العامَّة المسودَّة بالسخام، والكتابات على الجدران، والبيوت الصغيرة المرتَّبة ذات الشرفات والأسوار النباتيَّة المهذَّبة، والحانات المليئة بالدخان، ووجبات الإفطار المقليَّة الدهنيَّة، ورجال الشرطة غير المسلَّحين في الشوارع، ومحالّ الحلاقة التي يملكها القبارصة اليونانيُّون...

لم يعد ينتظر منها جوابًا، لكنَّه ظلَّ يكتب على أيِّ حال. هكذا استمرَّ في إرسال أحرفه جنوبًا، كأنَّما يُطلق آلاف الفراشات المهاجرة وهو يعلم أنَّها لن تعود أبدًا.

التينة

الآن وقد وصلتم إلى هذا الحدِ في قصَّتنا، ينبغي أن أُخبركم بشيءٍ آخر. أنا شجرةٌ مكتئبة.

لا أملكُ إلاَّ أن أُقارن نفسي بالأشجار الأخرى في حديقتنا، الزعرورة، والسنديانة الإنجليزيَّة، والغبيراء البيضاء، وبرقوق السياج، وكلّها أشجارٌ محلِّيَّةٌ من بريطانيا. لا أدري ما إذا كان سبب ميلي إلى الكآبة أكثر منها هو أنَّني نبتةٌ مهاجرة، أحمل معي طيف أرضٍ أخرى مثل كلّ المهاجرين، أم لأنَّني نشأتُ بين البشر في حانةٍ صاخبة؟

كم كان روَّاد التينة السعيدة يستمتعون في الجدال! ثمَّة موضوعان لا يشبع منهما البشر أبدًا، لا سيَّما إنْ كانوا قد تجرَّعوا شيئًا منهما: الحبّ والسياسة. لذلك سمعتُ كثيرًا من القصص والفضائح في هذين الموضوعَيْن. ليلةً بعد أخرى، وعلى طاولةٍ بعد طاولة، كان روَّاد الحانة من كلِّ أصقاع الأرض ينغمسون في جدالاتٍ حاميةٍ من حولي، ترتفع أصواتهم شيئًا يسيرًا مع كلِّ كأس، ويثقُل الهواءُ بينهم. كنتُ أستمع إليهم في فضول، لكنَّني أكوِّن آرائي الخاصَّة.

لذلك فإنَّ ما أقوله لكم، أقوله من مِطياف فِهمي، دون شكّ. لا يوجد ساردٌ موضوعيٌّ بالكامل، لكنَّني كنت أحاول دائمًا أن أستوعب القصَّة من زوايا مختلفة، ومنظوراتٍ متغيِّرة، وروِاياتٍ متضاربة. الحقيقةُ جُذمور، والجذمور نبتةٌ تحت الأرض لها فروعٌ جانبيَّة. لا يمكنك الوصول إليها إلاَّ بعد أن تحفر عميقًا، وبمجرَّد استخراجها ينبغي عليك أن تعاملها باحترام.

*

في أوائل السبعينيَّات، أُصيبت أشجار التين في قبرص بفيروسٍ كان يقتلها ببطء. في بادئ الأمر، لم تكن الأعراض ظاهرةً. فلا تشقُّق في السيقان، ولا تقرُّحات، ولا تبقُّع في الأوراق. غير أنَّ الثمار كانت تسقط قبل أوانها، وكان مذاقها حامضًا، وتنزُّ مادَّةً لزجة كالصديد.

آنذاك، لاحظتُ شيئًا لم أنسه قطّ؛ وهو أنَّ الأشجار النائية أو الوحيدة لم تتأثَّر كثيرًا بالڤيروس مثل تلك التي كانت تعيش متقاربة. لذلك أنظر اليوم إلى التعصُّب (أيًّا كان نوعه) على أنَّه مرضٌ ڤيروسيّ. يزحف إليك، يدقّ مثل ساعة بندولٍ لا تهدأ، يفتك بك على نحوٍ أسرع حين تكون جزءًا من وحدةٍ متجانسةٍ محصورة. وهكذا، بِتُّ أُذكِّر نفسي دائمًا أنَّه من الأفضل ترك مسافةٍ عن جميع المعتقدات واليقينيَّات.

بنهاية ذلك الصيف الطويل، قضى أربعة آلاف وأربعمئة شخصٍ نحبهم، وفُقد الآلاف. نزح ما يقرب من مئة وستِّين ألف يونانيٍّ من الشمال إلى الجنوب، وما يقرب من خمسين ألف تركيٍّ من الجنوب إلى الشمال. أصبح الناسُ لاجئين في بلادهم، فقدوا أحبَّاءهم، وهجروا بيوتهم وقراهم وبلداتهم، وافترق الجيران والأصدقاء، بل إنَّ بعضهم غدر ببعض. لا بدَّ أنَّ هذا كلّه قد كُتب في كتب التاريخ، لكنَّ كلّ طرفٍ سيحكي روايته. والروايات المتعارضة التي لا تلتقي أبدًا تشبه الخطَّيْن المتوازيَيْن، لا يتقاطعان.

غير أنَّ البشر لم يكونوا وحدهم من عانى في هذه الجزيرة التي اجتاحها العنف العرقيّ والفظائع الوحشيَّة. فقد واجهت الأشجار والحيوانات أيضًا مصاعب وآلام، بعد اختفاء مواطن عيشها. ما حدث لنا لم يكن يعني شيئًا لأيِّ أحد.

لكنَّه يهمّني، وما دمتُ أقصّ هذه القصَّة فسوف أذكر فيها مخلوقات نظامي الحيويّ، أي الطيور والخفافيش والفراشات والنحل والنمل والبعوض. فقد تعلَّمتُ أنَّه لا فائز في الحرب والتقسيم، لا البشر ولا غيرهم.

الجزء الرابع

الفروع

أمثال

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

رأتْ مريمُ كوستاس يذرع البيت وهو يحمل أوراقه، فسألتْه: «على ماذا تعمل هذه الأيَّام؟»

اقتحمتْ آدا الغرفة. «سيقدِّم بحثًا. لقد دُعي بابا إلى البرازيل.. قمَّة الأرض. ويُريدني أن أسافر معه».

«سأتحدَّث عن بحثنا للمرَّة الأولى. ولا أدري أيُّ الأمريْن يُثير توتُّري أكثر، رأي المجتمع العلميّ أم رأي ابنتي!».

تبسَّمت آدا. «في العام الماضي، كان في أستراليا يدرس أشجار الأوكالبتوس. يبحثون في الطريقة التي تستجيب بها الأشجار للحرارة، من موجات الحرارة والحرائق. يحاولون أن يعرفوا لماذا تتفوَّق بعض الأنواع على الأخرى في تحمُّل الحرارة».

لكنَّ آدا لم تقل شيئًا عن قطع والدها لرحلته، وعودته إلى لندن في أوَّل رحلةٍ حين تلقَّى الخبر بأنَّ أمَّها كانت في غيبوبة.

فقالت مريم: «رائع أنَّكما ستسافران معًا. هيَّا اذهب إذن واكتب. أنجز عملك يا كوستاس، ولا تشغل بالك بنا».

استأذن كوستاس منهما مبتسمًا وغادر.

استمعتا إلى خطواته في الممرِّ، وما إن سمعتاه يغلق بابه حتى التفتت آدا لخالتها. «وأنا أيضًا سأذهب إلى غرفتي».

«انتظري. أريد أن أُخبرك بشيءٍ مهمّ. أعتقد أنَّني عرفتُ سبب صرختك ذلك اليوم».

«صحيح؟»

«نعم. كنتُ أُفكِّر في الأمر. قلتِ إنَّك تعانين من مشكلة.. وإنَّ أمّك كانت مثلك. مشكلات في الصحَّة العقليَّة على حدِّ قولك. أحزنني أن أسمع هذا منكِ لأنَّني أعرف أنَّه غير صحيح. لا تعانين من أيِّ شيء. أنتِ شابَّةٌ ذكيَّة».

«كيف تفسِّرين ما حدث إذن؟»

نظرتْ مريم إلى الممرِّ وأخفضتْ صوتها إلى حدِّ الهمس. «الجانّ».

«ألماذا؟»

«في قبرص، كانت ماما دائمًا تقول إنْ رأيتِ عاصفةً رمليَّةً قادمة، فاحتمي منها، فهذا وقت تزاوج الجانّ».

«لا أفهم شيئًا ممَّا تقولين».

«اصبري. سأشرح لك. الجانّ فاسقون معربدون. ذكورهم وإناثهم. فالجنِّيَّة قد يكون لها أربعون زوجًا. تعرفين معنى هذا؟»

«همم، حياةً جنسيَّةً خصبة؟»

«هذا يعني حفلات زفافٍ كثيرةً جدًّا! لكنَّ السؤال المهمّ هو متى يحتفلون، أليس كذلك؟ لا بدَّ من أن ينتظروا قدوم العاصفة. عاصفةً رمليَّة أو شتويَّة. لا بدَّ من أنَّ هناك حشودًا من الجانّ في شوارع لندن الآن».

«لا تخوّفيني».

«لا شيء يُخيف. ما أقصده هو أنَّ الجانّ ينتظرون هذه اللحظة. إنَّهم هناك الآن يرقصون ويشربون ويحتفلون. وآخر ما يريدونه هو أن يجدوا البشر تحت أقدامهم. وإنْ شئنا الدقَّة فإنَّ الجانّ يكونون تحت أقدامنا. على أيِّ حال، لو أنَّكِ دستِ على جنِّيٍّ بالخطأ، فقد يفعلون بكِ أشياءَ غريبة. هكذا يُصاب الناس بنوبات، ويتحدَّثون بكلامٍ غير مفهوم، ويصرخون دون سبب».

«هل تقصدين أنَّني قد أكون ممسوسة؟ لأنَّني حين قلتُ ذلك كنتُ أقصد مجازًا. لا تأخذي كلامي بالحرف. كنتُ أمزح».

فقالت مريم ببطءٍ وكأنَّها تزن كلّ كلمة: «أنا لا أمزح في موضوع الجانّ أبدًا. هُم مذكورون في القرآن، ونحن في ثقافتنا نؤمن بوجود هذه الأشياء الغيبيَّة».

«طيِّب. لا تنسَي أنَّ أبي عالم، وأمِّي باحثةٌ وفنَّانة. نحن في هذا البيت لا نؤمن بهذه الأشياء. ولعلَّكِ لاحظتِ أنَّنا غير متديِّنين».

قالت مريم وقد بدا الانزعاج في صوتها: «أعرف. لكنْ ما أقوله من الموروث القديم. جزءٌ من ثقافتنا. من ثقافتك. في حمضك النوويّ».

تمتمتْ آدا: «عظيم».

«لا تقلقي. خلق الله أغصانًا خفيضةً للطيور التي لا تُجيد الطيران».

«بمعنى؟»

«بمعنى أنَّه يوجد علاج. لقد سألت، وأجريتُ اتِّصالاتي، ووجدتُ معالجًا رائعًا. لن نخسر شيئًا إن زرناه».

«طارد أرواح؟ واو.. يوجد طاردو أرواح في لندن؟ أنتِ تمزحين، صحّ؟»

«لا أمزح. سنذهب ونرى، بما أنَّ الجوّ يتحسَّن. سيكون توقيتًا ممتازًا. أنتظر منهم تأكيد الموعد. إن لم يعجبنا الأمر خرجنا. لن نبحث عن عجلٍ تحت ثور».

سحبتْ آدا نَفَسًا، ثم أطلقته ببطء.

«اسمعي. لا تتحسَّسي من الأمر، فهذا قد يحدث لأيِّ شخص. أنا نفسي زرتُ معالجًا في صغري».

«متى؟»

«حين تزوَّجت».

«هذا لأنَّ زوجك كان رجلاً سيِّئًا. يبدو لي من كلامكِ أنَّه ابن حرام».

«ابن حرام». كرَّرتها مريم وهي تتذوَّق الكلمة بطرف لسانها. «أنا لا أشتم أبدًا».

«جرِّبي. ستشعرين براحة».

«معكِ حقّ، كان سيِّئًا. ولكنْ لم أخسر شيئًا من زيارة طارد الجانّ. في الحقيقة، ربَّما ساعدني هذا الأمر. اسمعي سيجيريمين كوسيسي [يا قطعة من كبدي]...». دارت عيْناها في المكان كأنَّما تبحث عن شيءٍ تذكَّرت لتوِّها أنَّها أضاعته. «ما اسم الشيء الذي... حين تشعرين بتحسُّنٍ لأنَّكِ تعتقدين بنفع العلاج؟»

«تأثير الدواء الوهميّ؟»

«هو هذا! إن اعتقدتِ بأنَّ المعالج قد ينفعك، فسوف ينفعك. المهمّ أن نتَّخذ الخطوة. سفينة الجبن لا تُبحر بالكلام».

«هل هذه أمثالٌ حقيقيَّةٌ أم من تأليفك؟»

فقالت مريم وهي تشبك ذراعَيْها: «كلّها حقيقيَّة. ما رأيكِ إذن؟ هل نزور سيِّد الجانّ؟»

أمسكتْ آدا بشحمة أذنها وهي تُفكِّر: «سيِّد الجانّ! ربَّما أوافق على هذا الكلام الفارغ بشرطٍ واحد. قلتِ إنَّ ماما وبابا كانا حبيبَيْن منذ الطفولة. وقلتِ إنَّهما افترقا وانتهى كلّ شيءٍ بينهما، ثم التقيا مرَّةً أخرى بعد سنوات».

«صحيح».

«أريد أن أعرف ما حدث. كيف عادا لبعضهما بعضًا مرَّةً أخرى؟»

تنهَّدت مريم. «آه، لأنَّه عاد. ذات صباحٍ، استيقظنا وسمعنا أنَّ كوستاس كازنتزاكِس عاد إلى نيقوسيا. كنتُ أعتقد أنَّ ديفني تجاوزت تلك المرحلة من حياتها. أَوَلا يكفي ما عانته. لم تعد تتحدَّث عنه أصلاً. وأصبحت امرأةً ناضجة. ولكنْ على رأي المثل، الدبُّ يعرف سبع أغنيات، كلّها عن العسل».

«بمعنى؟»

«بمعنى أنَّها لم تنسه قطّ. كان لديَّ هذا الحدس، وحاولتُ أن أُبعدها عنه (فلا ينبغي وضع النار مع البارود)، لكنَّني لم أُفلح. وقد تبيَّن صدق حدسي، لأنَّهما حين تقابلا مرَّةً أخرى بدا وكأنَّ كلّ تلك السنوات لم تمضِ. كما لو أنَّهما عادا طفلَيْن مرَّةً أخرى. قلت لديفني لماذا تعطينه فرصةً أخرى؟ ألا تعرفين أنَّ الجنائنيّ الذي يحبّ الورود تطعنه ألف شوكة؟ لكنَّها مرَّةً أخرى لم تسمع كلامي».

ألف شوكة
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

وصل كوستاس كازنتزاكس إلى قبرص بالعبَّارة، لأنَّه لم يرد أن يسافر جوًّا. وعلى الرَّغم من أنَّ رحلة الساعات الثمانية لم تكن صعبة، إلاَّ أنَّه شعر بالحيْرة والاضطراب. قال في نفسه ربَّما هو دوار البحر. ولكنْ ربَّما لم يكن الأمر كذلك. ربَّما كان جسمه يتفاعل مع ما يحدث بطرقٍ لم يستوعبها عقلُه بعد. ها هو يعود إلى مسقط رأسه لأوَّل مرَّةٍ منذ أكثر من خمس وعشرين سنة.

كان يرتدي بنطالاً مضلَّعًا بنِّيّ اللون، وقميصًا من الكتَّان ومعطفًا رياضيًّا بلونٍ أزرق داكن. شعرُه الداكن المموَّج أشعث من أثر الريح، وعيْناه تجوبان الميناء باهتمام. تبع الركَّاب، وعبر رصيف السفينة ومشى في المنحدر. قبضتْ أصابعه على الدرابزين بقوَّةٍ، حتى ابيضَّت مفاصل أصابعه. ومع كلّ ثانيةٍ تمرّ يزداد ارتباكه. ضيَّق عينَيْه وهو ينظر في اللافتات من حوله تحت شمس الظهيرة القاسية، لم يستطع أن يفهم الحروف التركيَّة. حاول أن ينجو من الزحام، ولكنْ دون جدوى. فأينما ولَّى وجهه وجد أُسَرًا مع أطفالها، يدفعون عربات الأطفال أو يحملون الرضَّع، متراصِّين على الرَّغم من الحرارة. تبعهم، مدفوعًا بالتيَّار، كما لو أنَّ ما تحته هواءً وليس أرضًا صلبة.

مرَّ تفتيش الجوازات بسلاسةٍ، أسرع ممَّا توقَّع. حيَّاه الضابط التركيّ بإيماءةٍ قصيرة، متفرِّسًا في ملامحه بعنايةٍ ولكنْ دون فظاظة. واستغرب أنَّ الضابط لم يسأله أيّ أسئلةٍ شخصيَّة، إذْ إنَّه فكَّر في عدَّة سيناريوهات محتملةٍ للطريقة التي سوف يستقبلونه بها. كان جزءٌ منه يخشى أنَّهم لن يسمحوا له بالدخول إلى الجانب التركيّ من الجزيرة، وإنْ كان بجواز سفرٍ بريطانيّ.

لم يكن هناك أحدٌ في استقباله، وفي واقع الأمر لم يكن لينتظر شيئًا كهذا. جرَّ حقيبته المملوءة بالمعدَّات أكثر من الملابس، وزجَّ بنفسه في شوارع البلدة المفعمة بالحياة. لم يرق له منظر السائق الأوَّل في موقف سيَّارات الأجرة، فظلَّ في مكانه يتظاهر بالنظر في البضائع على طاولة بائع.

يسمُّونها باليونانيَّة كومبولوي، وبالتركيَّة تِسبيه. مرجانٌ أحمر، وزمرُّدٌ أخضر، وعقيقٌ أسود. لم يستطع أن يمنع نفسه من شراء مسبحةٍ من العقيق، لا لشيءٍ إلاَّ ليجد شيئًا يشغل نفسه به.

أمَّا السائق التالي فبدا رجلاً طيِّبًا. تفاوض معه كوستاس خشية أن يغشّه. لم يقل للرجل إنَّه يتحدَّث شيئًا من التركيَّة. فقد كانت الكلمات التي تعلَّمها في صباه مثل ألعابٍ مقطَّعةٍ أكلتْها العثَّة. أراد أن ينفض عنها الغبار أوَّلاً ويتأكَّد من صحَّتها قبل أن يستخدمها مرَّةً أخرى.

بعد نصف ساعةٍ من الصمت في الطريق اقتربا من نيقوسيا، عابرين من البيوت المبنيَّة حديثًا على جانبَي الطريق. كان هناك تشييدٌ في كلِّ مكان. نظر كوستاس في المساحة المشرقة بضوء الشمس. أشجارٌ من الصنوبر والسرو والزيتون والخرُّوب، متداخلةٌ مع قطعٍ من الأرض الجرداء التي أحرقتها الشمس وسلبتْ ألوانها. بساتينُ الحمضيَّات قُطعت، وخُصِّصت تلك الأراضي للفِلل الجديدة والشقق. كم أحزنه أنَّ هذا الجزء من الجزيرة لم يعد تلك الجنَّة الوارفة التي كان يتذكَّرها. كانت قبرص تُعرف في التاريخ القديم بأنَّها «الجزيرة الخضراء»، إذ تُشتهر بغاباتها الكثيفة. كان غياب الأشجار توبيخًا قاسيًا على الأخطاء المريعة التي اقتُرفت.

شغَّل السائق المذياع دون أن يستأذن، فتناهت موسيقى البوب التركيَّة. أطلق كوستاس زفرة. كان يعرف ذلك اللحن المبهج كما يعرف الندوب في جسمه، على الرَّغم من أنَّه لا يعرف شيئًا من كلمات الأغنية. مع ذلك، لم يكن من الصعب تخمين موضوعها؛ ففي هذا الجزء من العالم، كلّ الأغاني تدور حول الحبّ والأسى العاطفيّ.

نظر إليه السائق من المرآة وسأله بالإنجليزيَّة: «أوَّلُ زيارةٍ لك؟»

تردَّد كوستاس ثانيةً لا أكثر. «نعم، ولا».

«نعم؟ لا؟»

انبجستْ دفعةٌ من دفءٍ في صدره. لم يعد أحدٌ من جيرانه اليونانيّين يسكن هنا، والبيوت التي يعرفها قد آلت إلى غرباء. «كنتُ... وُلدت وعشتُ في هذا الجانب من الجزيرة».

«أنت يونانيّ؟»

«نعم، يونانيّ».

أمال السائق رأسه. وللحظةٍ، خطر لكوستاس أنّه سمع التماعةً تشعُّ في عينَيْه. أراد أن يبدِّد أيّ توتُّرٍ محتمل، فمال إلى الأمام كي يغيِّر الموضوع. «هل بدأ موسم السياحة؟»

فارتسمت على وجه السائق ابتسامةٌ، بطيئةٌ، وحذرة، مثل قبضة يدٍ تنفتح. «نعم، لكنَّك لستَ سائحًا يا أخي. أنتَ من هنا».

طافت بينهما تلك الكلمة البسيطة، أخي. لم تكن مُتوقَّعةً، لكنَّها مُطمْئنة. لم يقل كوستاس شيئًا آخر، ولا قال السائق. كأنَّما سمع كلٌّ منهما ما يحتاج إلى معرفته.

*

كان فندق أفروديت بنايةً من طابقَيْن مصبوغةً بالأبيض، تلفّها نبتة الجهنَّميَّة الأرجوانيَّة. خلف طاولة الاستقبال امرأةٌ عريضة المنكبَيْن بوجهٍ متورِّد، ترتدي حجابًا مرتخيًا. إلى يسارها رجلٌ يشرب الشاي جالسًا على كرسيٍّ من الخيزران، لا بدَّ من أن يكون زوجها. من خلفه، كان الجدار مليئًا بأشياءَ كثيرة: أعلامٍ تركيَّةٍ بأحجامٍ مختلفة، وأدعيةٍ بخطٍّ عربيٍّ، وخرزات العيْن، وحامل نباتات، وبطاقاتٍ بريديَّةٍ من شتَّى أنحاء العالم أرسلها نزلاءٌ سعداء. بنظرةٍ واحدةٍ إلى الزوجَيْن استتشفَّ كوستاس أنَّ الزوجة هي التي تُدير كلّ شيء، على الرَّغم من أنَّ الفندق قد يكون ملكًا للزوج.

كان يعرف أنَّهما في انتظار وصوله. «مساء الخير».

قالت المرأة بابتسامةٍ ترصِّع خدَّيْها المدوَّرَيْن: «السيِّد كازنتزاكس، صحيح؟ أهلاً وسهلاً! كيف كانت رحلتك؟»

«لا بأس بها».

«اخترتَ وقتًا رائعًا لزيارة قبرص. ما غرض زيارتك؟»

كان يتوقَّع هذا السؤال، لكنَّه صمت. ثم قال بحسم: «عمل».

«نعم، صحيح أنت عالم». أطالت المدَّ في الكلمة الأخيرة، بإنجليزيَّةٍ ثقيلة اللكنة. «قلتَ في الهاتف إنَّك باحثٌ في الأشجار. هل تعلم أنَّ جميع غرفنا مسمَّاةٌ بأسماء أشجار؟»

ناولتْه مفتاح الغرفة في مظروف. تردَّد كوستاس لحظاتٍ في النظر إلى الاسم المكتوب على المظروف، خشية أن يكون التينة السعيدة. انتصب شعر قفاه بينما تمرَّ عيناه على الكلمات. كان اسم الغرفة «السنديانة الذهبيَّة».

فقال بابتسامة: «جيِّد». كان يجاهد في إبعاد ذكرياته.

في الأعلى، وجد الغرفة واسعةً يملأها الضوء. ألقى بنفسه على السرير، فأدرك كم كان منهكًا. كانت الأغطية الناعمة تناديه، مثل حمَّامٍ معطَّرٍ ساخن، لكنَّه لم يسمح لنفسه بأن يسترخي. استحمَّ سريعًا، وارتدى بنطالاً من الجينز وقميصًا قصير الكمَّيْن. مشى نحو الشرفة وفتح البابَيْن المزدوجَيْن. نظر إلى الأعلى، فرأى نسرًا (الحيوان الذي صاحب زيوس) يحلِّق في السماء الصافية ويميل غربًا، يطارد فريسته التالية. ما إنْ خطا إلى الخارج حتى التقط رائحةً منسيَّةً من الماضي. الياسمين، والصنوبر، والأحجار التي كوتْها الشمس. رائحةٌ ظنَّ أنَّه دفنها في مكانٍ ما في متاهات ذاكرته. لا يوجد مكانٌ أغرب من العقل البشريّ؛ إذْ يُصبح وطنًا ومنفى. كيف يمكن له أن يتمسَّك بشيءٍ عابرٍ غير محسوسٍ كالرائحة، بينما يستطيع أن يمسح أجزاءً ملموسةً من الماضي، قطعةً قطعة؟

كان لا بدَّ من أن يجدها، في ذلك النهار نفسه. لو جاء الغد فقد يجبُن، ويؤجِّل الأمر يومًا آخر، أو اثنيْن، ثم يحرص على أن يكون مشغولاً جدًّا، حتى ينقضي أسبوعٌ كاملٌ في غمضة عيْن، وعندها يحين وقت العودة. أمَّا الآن، فور وصوله، وهو ما يزال يركب موجة الشوق التي حملها معه طول المسافة من إنجلترا، فكان واثقًا من قدرته على لقاء ديفني.

كان طوال السنوات يستقي أخبارها. عرف أنَّها أصبحت عالمة آثارٍ معروفة. وعرف أنَّها لم تتزوَّج. رأى صورًا لها في الصحف التي تُباع في محالّ القبارصة الأتراك في لندن، إذْ كانت تلقي أبحاثها في المؤتمرات والندوات. لكنَّ ذلك كلّه لم يكشف أيَّ شيءٍ عن تفاصيل حياتها الحاليَّة. مرَّ وقتٌ طويل جدًّا منذ آخر لقاءٍ بينهما. لا يمكن أن تملأ فراغًا كبيرًا بتلك المعلومات القليلة التافهة، لكنَّها كانت كلّ ما لديه.

لم يكن يعرف رقم هاتفها، ولم يرغب في الاتِّصال بالجامعة التي تعمل فيها. تفرَّق الأصدقاء المشتركون بينهما في أرجاء الأرض، لكنَّه قبل أن يغادر لندن استطاع أن يجد طريقةً للوصول إليها، فكانت بدايةً جيِّدة.

كان لديه صديقٌ يُدعى ديڤِد، اشترك معه سابقًا في مشروعاتٍ كثيرةٍ ضمن البرنامج البيئيّ للأمم المتَّحدة. صحيحٌ أنَّهما افترقا، لكنَّهما ظلاًّ يتواصلان. كان ديڤِد رجلاً مرحًا بلحيةٍ رمليَّة اللون مميَّزة، يهوى الكحول ويتحدَّث ستّ لغات، وهو في قبرص منذ عشرة شهور. حين قرَّر كوستاس السفر إلى قبرص تواصل مع ديڤِد، رجاةَ أن يكون الجسر الذي يوصله إلى ديفني. كان يعرف أنَّ الجسور لا تظهر في حياتنا إلاَّ حين نكون جاهزين لعبورها.

بقايا الحبّ
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

وصل كوستاس إلى المكتبة التي سيلتقي ديڤِد فيها، وتأكَّد من الوقت في ساعته. لديه بضع دقائق للاطِّلاع على الكتب، إذْ كان بعضها باللغة الإنجليزيَّة. وجد في المكتبة رفوفًا عليها طوابع تعود إلى سنوات صباه، بل قبل ذلك. من بين آلاف الطوابع، رأى طابعًا صدر عام 1975 م، رُسمت عليه قبرص مقسَّمةً إلى لونَيْن متقابلَيْن تفصل بينهما سلسلةٌ معدنيَّة. قدرٌ كبيرٌ من الرمزيَّة مضغوطٌ في أربعة سنتيمترات مربَّعة.

دخل محلَّ التذكارات المجاور فاشترى صَدَفةً متحجِّرة، منطويةً على أسرارها. أخذ يتجوَّل في المكان قليلاً وهو يحسّ بثقل الصَدَفة على راحته. لمح طائرًا على شجرة حوْر، كانت دُرَّسةً برأسٍ أسود ولطخاتٍ من الأصفر على صدرها. طائرًا جاثمًا. كان هذا الكائن الصغير يهاجر كلّ سنةٍ من مراعي إيران وأودية أوروبا إلى سواحل الهند، ويكمل رحلته شرقًا، يجتاز مسافاتٍ لا تخطر على بال كثيرٍ من البشر. تقافزت الدُرَّسة فوق الغصن، ثم توقَّفت. وفي لحظةٍ عابرةٍ، التقتْ أعينهما في ذلك الهدوء. تساءل كوستاس، تُرى ما الذي رآه الطير فيه؟ عدوًّا أم صديقًا، أم شيئًا آخر؟ فقد كان ما رآه مزيجًا مدهشًا من الضعف، والصلابة.

صوتُ خطواتٍ قادمةٍ أخرجتْه من حلم يقظته، وأفزعت الدُرَّسة فطارت بعيدًا. استدار كوستاس فرأى شخصًا طويلاً ضخمًا يُسرع نحوه.

قال ديڤِد بلكنةٍ بريطانيَّةٍ واضحة: «كوستاس كازنتزاكس! بالتأكيد سأعرف هذه التسريحة البشعة من على بعد ميل».

تقدَّم كوستاس نحوه، حاميًا عينَيْه من الشمس. «أهلاً ديڤِد. أشكرك على لقائي».

ابتسم ديڤِد وهو يصافحه: «أعترف أنَّني فوجئتُ حين اتَّصلتَ بي وقلت إنَّك قادم. أذكرُ أنَّك لم تكن تريد العودة إلى قبرص، لكنَّك جئت! ما سبب زيارتك إذن، العمل أم الحنين؟»

«الاثنان. لديَّ عملٌ ميدانيّ... وأردتُ كذلك أن أرى بلدتي القديمة وبعض الأصدقاء القدامى...».

«نعم، نعم أخبرتَني. وكما قلتُ لك في الهاتف، أعرف ديفني جيِّدًا. تعال، سآخذك إليها. المكان لا يبعد أكثر من خمس دقائق. إنَّها هنا مع فريقها منذ الصباح الباكر. سأشرح لك في الطريق».

شعر كوستاس بربكةٍ باردةٍ في صدره حين ذُكر اسمها. بدآ يمشيان، يتخيَّران طريقهما في المسار المحفَّر من أثر العجلات، والريح الساخنة تكوي وجهَيْهما فيما هما ينطلقان باتِّجاه شمال ـــ الشرق.

«قل لي، ما الذي يفعلونه بالضبط... هي وفريقها؟»

«يعملون مع لجنة المفقودين. الموضوع صعبٌ معقَّد. بعد فترةٍ يتغلغل إلى عقلك. لأوَّل مرَّةٍ يعمل الأتراك واليونانيُّون معًا. ظهرت الفكرة في أوائل الثمانينيَّات، لكنَّ المشروع ظلَّ متوقِّفًا فترةً طويلة لأنَّ الطرفَيْن اختلفا على الأعداد».

«أعداد؟»

فأجاب ديڤِد وهو يلهث قليلاً: «أعداد الذين اختفوا في الحرب. في نهاية الأمر، توصَّلوا إلى قائمةٍ من ألفَي ضحيَّةٍ وضحيَّتيْن. العدد الفعليُّ كان أكبر بكثيرٍ طبعًا، ولكنْ لا أحد يريد الاعتراف بذلك. هي بدايةٌ على أيِّ حال. والأمم المتَّحدة شريكةٌ في المشروع، وهذا سببُ وجودي، لكنَّ القبارصة هم الذين ينفِّذون العمل الحقيقيّ. سأبقى هنا حتى نهاية الشهر، ثم أسافر إلى جنيف. وهم يستمرُّون في التنقيب، صديقتك ديفني وزملاؤها».

«وأعضاء الفريق، هل هم علماء آثار غالبًا؟»

«قليلٌ منهم. فالأعضاء من كلِّ التخصُّصات. علماء أنثروبولوجيا، ومؤرِّخون، وعلماء وراثة، واختصاصيُّون جنائيُّون، وغير ذلك. الأمم المتَّحدة هي التي شكَّلت الفِرق وأقرَّتها. نعمل في مواقع مختلفة، ونعتمد على بلاغاتٍ من مجهولين لديهم أسبابٌ مختلفةٌ للتبليغ. ثم نبدأ التنقيب. قد يخطر في بالك أنَّها جزيرةٌ صغيرة، لكنَّك حين تبحث عن شخصٍ مفقود، فأصغر مكانٍ يُعتبر كبيرًا جدًّا».

«وماذا عن الأهالي، هل يدعمون المشروع؟»

«ردود الفعل متباينةٌ حتى الآن. لدينا الكثير من المتطوِّعين الشباب من كِلَا الطرفَيْن، متحمِّسون للمساعدة، ما يمنحنا الأمل للمستقبل. الشباب عقلاء، يريدون السلم. وكبار السنّ يريدون ما يشبه الخاتمة لما حدث. أمَّا الذين في المنتصف، فهم الذين يسبِّبون المشكلات».

«تقصد جيلَنا».

«بالضبط. هناك أقلِّيَّةٌ صغيرةٌ لكنَّ صوتها عالٍ، منزعجةٌ من عملنا، إمَّا لأنَّها تخشى إحياء النعرات القديمة، أو لأنَّها ما تزال تحمل تلك النعرات. بل إنَّ بعض أعضاء اللجنة تلقُّوا تهديدات».

وصل الاثنان إلى أرضٍ مقطوعة الشجر في الغابة. وهناك سمع كوستاس أصواتًا خفيضةً من بعيد، أصوات كشط، ومجرفاتٍ ومعازقَ تضرب الأرض.

فقال ديڤِد وهو يلوِّح بيده: «ها هي العصابة».

رأى كوستاس مجموعةً من حوالى اثني عشر شخصًا، رجالاً ونساء، يعملون تحت الشمس، يعتمرون عصابات الرأس وقبَّعات قشّ. كان معظمهم يُغطِّي وجهه بكمامةٍ قماشيَّة. وثمَّة أقمشةٌ مشمَّعةٌ سوداء كبيرة منشورةٌ على الأرض، ومعلَّقةٌ بين الأشجار، كالأراجيح.

مرَّ بعينَيْه على المجموعة، ونبضُ قلبه يتسارع، لكنَّه لم يجد ديفني بينهم. كان قد تخيَّل هذه اللحظة مرَّاتٍ عديدة، وفكَّر في كلِّ الطرق التي قد تُفسد هذا اللقاء، حتى إنَّه شعر بأنَّه شبه مشلول. تُرى كيف سيكون ردّ فعلها حين تراه؟ هل ستستدير وتغادر؟

صاح ديڤِد: «تعالوا. تعالوا أُعرِّفكم بصديقي كوستاس».

توقَّف أعضاء الفريق واحدًا بعد الآخر، ومشوا باتِّجاه كوستاس وديڤِد، بخطواتٍ هادئةٍ غير متعجِّلة. رحَّبوا به وهم ينزعون قفَّازاتهم وكماماتهم، ويضعون دفاترهم وأدواتهم جانبًا.

حيَّاهم كوستاس واحدًا واحدًا، على الرَّغم من أنَّه لم يستطع منع نفسه من استراق النظرات حوله ليعرف أين ديفني. ثم لمحها، تجلس على طرف شجرةٍ تتدلَّى ساقاها منه، ومن المستحيل قراءة وجهها وهي تراقبه بهدوءٍ من فوق. لاحظ كوستاس شبكة عنكبوتٍ بين الأغصان على جانبها، فامتزجت ديفني وتلك الخيوط الفضِيَّة في عقله لحظةً عابرة، هشَّةً مثل بقايا الرابط بينهما.

قال ديڤِد حين لاحظ نظرة كوستاس: «تفعل هذا طوال الوقت. تحبّ ديفني الجلوس هناك كالطائر. يبدو أنَّ تركيزها يقوى حين تكون فوق شجرة. فهناك تكتب تقاريرنا». ورفع صوته: «تعالي، انزلي!»

هبطتْ ديفني وهي تبتسم، ثم مشت نحوهما. سقط شعرها الأسود المتموِّج على كتفَيْها، وكانت ترتدي بنطالاً خاكيًّا وقميصًا أبيض مفتوحًا من الأعلى، وحذاءً طويلاً. لم تبدُ متفاجئة؛ بل بدا أنَّها كانت تنتظر قدومه.

«أهلاً كوستاس». كانت مصافحتها قصيرةً، لا تفشي شيئًا. «أخبرني ديڤِد أنَّك قادم. قال لديَّ صديقٌ يسأل عنكِ. وتبيَّن أنَّه أنت».

بُوغت كوستاس بتلك المسافة في صوتها. لم تكن نبرةً باردةً ولا رسميَّة، لكنَّها محسوبة، حذرة. لقد حفرت السنوات خطوطًا دقيقةً في وجهها، ونحفتْ وجنتاها قليلاً، لكنَّ التغيّر الأكبر كان في عينَيْها. ثمَّة لمعةٌ استقرَّت على عينَيْها الكبيرتَيْن المدوَّرتَيْن البنِّيَّتَيْن. فانقبض قلبُه حين رأى أنَّها ما تزال جميلةً إلى هذا الحدّ.

«ديفني...».

أحسَّ باسمها غريبًا على لسانه. انتحى جانبًا خطوة، خشية أن تسمع قرع قلبه، فاستقرَّت نظرتُه على أقرب قماشٍ مشمَّع. وما إنْ أدرك ما عليها من قطعٍ مغبرَّةٍ صهباء حتى ضاقت أنفاسه. عظمُ فخذٍ منفلق، وآخرُ متشقِّق... كانت بقايا بشريَّة.

قالت ديفني وقد لاحظت وجهه: «تلقَّينا بلاغًا. أخبرنا فلاَّحٌ عن هذا المكان، وقد بلغ مراحلَ متأخِّرة من ألزهايمر. لديه من الأبناء ستَّة، ومن الأحفاد سبعة عشر، لكنَّه نسي حياته. استيقظ ذات صباحٍ وبدأ يقول أشياء غريبة... «توجد تلَّة، شجرة تربنتين بها صخرةٌ في قاعها». رسَمها على ورقةٍ ووصف المكان. تواصلتْ معنا أسرته، فجئنا وحفرنا، ووجدنا البقايا في المكان الذي وصفه».

لم يتخيَّل كوستاس قطّ أنَّهما في هذا اللقاء سيتحدَّثان عن هذه الأشياء. سألها: «وكيف عرف الفلاَّح؟»

«تقصد ربَّما يكون القاتل؟» هزَّت ديفني رأسها، فتأرجح قرطاها. «مَن يدري؟ قد يكون قاتلاً، أو شاهدًا بريئًا. ليس هذا من اختصاصنا. اللجنةُ لا تهتمّ بهذا النوع من البحث. فلو أنَّنا أجرينا تحقيقًا في الأمر، أو أبلغنا الشرطة بهذه المعلومات فلن يتحدَّث إلينا أحدٌ في هذه الجزيرة بعد اليوم. مهمَّتنا هي إيجاد المفقودين كي يتمكَّن أهلهم من دفن رفاتهم».

أومأ كوستاس وهو يتفكَّر في كلامها. «هل تعتقدين أنَّه قد تكون هناك قبورٌ أخرى في هذا المكان؟»

«يُحتمل. قد تبحث أسابيع دون توقُّف، ولا تجد شيئًا. الأمر محبط. بعض الذين يتَّصلون بنا يخطئون في تذكُّر التفاصيل، وآخرون يتعمَّدون تضليلنا. قد تبحث عن الضحايا، فتجد عظامًا من القرون الوسطى، أو العصر الروماني، أو الهيلينيستي، أو تجد متحجِّراتٍ من عصر ما قبل التاريخ. هل تدري أنَّ أفراس نهرٍ قزمة كانت تعيش في قبرص؟ أفيالاً قزمة! وحين تظنّ أنَّك لن تصل إلى أيِّ نتيجةٍ، تجد فجأةً قبورًا جماعيَّة».

نظر كوستاس حوله، يتشرَّب كلَّ ما يحيط به، من عشبٍ مصطبغٍ بالذهب تحت الشمس، وأشجار الصنوبر المقبَّبة. مدَّ ناظرَيْه بعيدًا قدر ما يستطيع، كما لو أنَّه يحاول أن يتذكَّر ما كان قد انفصل عنه.

سألها بحذر: «والمفقودون الذين وجدتموهم هنا، يونانيُّون أم أتراك؟»

فقالت وقد احتدَّ صوتها قليلاً: «من أهل قبرص. من أهل الجزيرة، مثلنا».

سمع ديڤِد ما دار بينهما، فتدخَّل: «هذه هي المسألة يا صديقي. لا يمكنك أن تعرف إلى أن تُرسَل العظامُ إلى المختبر ونحصل على التقرير. حين تمسك جمجمةً بين يديْك، هل تستطيع أن تعرف ما إذا كانت مسيحيَّةً أم مسلمة؟ لأيِّ سببٍ سُفكت كلُّ تلك الدماء؟ حروبٌ غبيَّة، غبيَّة».

قالت ديفني وصوتُها يخفت: «مع ذلك، ليس لدينا كثيرٌ من الوقت. الجيل الكبير يموت، يدفن أسراره معه. لو لم ننقِّب الآن فلن يبقى أحدٌ بعد عشر سنوات أو نحو ذلك كي يدلّنا على أماكن المفقودين. نحن في سباقٍ حقيقيٍّ مع الزمن».

تناهى أزيز السيكادات من شجيراتٍ بعيدة. كان كوستاس يعرف أنَّ هناك أنواعًا من السيكادات تئزُّ بتردُّداتٍ عاليةٍ جدًّا، ولعلَّها كانت تفعل ذلك الآن. الطبيعة تتكلَّم دائمًا، تقول أشياءَ، لكنَّ آذان البشر لا تستطيع سماعها.

قال ديڤِد: «إذن فأنتما صديقان قديمان، هاه؟ هل كنتما في المدرسة نفسها أم ماذا؟»

فقالت ديفني وهي ترفع رأسها: «شيءٌ كهذا. نشأنا في الحيِّ نفسه، ولم نلتقِ منذ سنوات».

«يسعدني أنَّني استطعت لمَّ الشمل بينكما. لا بدَّ من أن نخرج جميعًا الليلة لتناول العشاء. هذا أمرٌ يستحقّ الاحتفال».

امتلأ الهواء برائحةٍ لذيذةٍ قويَّة. كان أحدهم يصنع قهوة. هكذا انتشر أعضاء الفريق، في استراحةٍ بين الأشجار، يتحدَّثون في تمتماتٍ خفيضة.

جلس كوستاس على صخرة، وأخرج علبة تبغٍ فضِّيَّةً وبدأ يلفّ سيجارة. فلمَّا انتهى، مدَّها إلى ديفني، فأخذتْها منه بابتسامةٍ، دون كلمة. مجَّتْ منها نَفَسًا، وأعادتْها إليه. هكذا راحا يدخِّنان معًا، يمرِّران عقب السيجارة بينهما. وراح كوستاس ينظر بعيدًا.

«كافي؟»

كانت امرأةً طويلةً رشيقةً تقدِّم القهوة في أكوابٍ ورقيَّة.

شكرها كوستاس، وتناول منها كوبًا.

خطا نحو شجرة التربنتين الوحيدة، وجلس تحت ظلِّها. كانت أمّه تصنع الخبز من ثمارها، وتستخدم نسغها مادَّةً حافظةً في خمر الخرُّوب. اجتاحه حسٌّ عميقٌ بالحزن. لقد فعل كلّ ما في وسعه لرعايتها حين سافرت إليه مع أندرياس إلى إنجلترا بعد تقسيم الجزيرة، لكنَّ الأوان كان قد فات. انتشر السرطان في جسدها، من تعرُّضها غير المباشر للأسبستوس. وهكذا دُفنت �انايوتا في مقبرةٍ في لندن، بعيدةً عن كلِّ ما عرفتْه في حياتها وأحبَّته. وقف ساكنًا، يتشرَّب روائح التبغ والقهوة، فيما تتسارع الذكريات إليه.

من فوقه كانت الشمس قويَّةً، مشعَّة. في تلك الحرارة، خطر لكوستاس أنَّه يسمع الأغصان من حولهما تتكسَّر، مثل يدَيْن مصابتَيْن بالتهاب المفاصل. نظر إلى ديفني، التي كانت قد عادت لعملها، وضاقت تعابير وجهها في تركيز، تسجِّل في دفترها كلَّ ما استخرجوه في ذلك اليوم.

بقايا بشريَّة. ما معنى هذا؟ هل كانت بضع عظامٍ صلبةٍ مع أنسجةٍ ناعمة؟ ملابس وأدواتٍ أخرى؟ أشياءً صلبةً مضغوطةً بما يكفي لإدخالها في تابوت؟ أم أنَّها الأشياء غير الملموسة؟ (الكلمات التي نُطلقها في الأثير، والأحلام التي نحتفظ بها لأنفسنا، ودقَّات القلب التي نتخطَّاها حين يلتقي العاشق بالمعشوق، والفراغات التي نحاول أن نملأها ولا نستطيع التعبير عنها أبدًا) ما يبقى من حياةٍ كاملة بعد أن ينتهي كلّ الكلام والفعل؟ كائنًا بشريًّا؟... وهل يمكن فعلاً نبش هذا من الأرض؟

*

كانت الشمس تأفلُ حين نحَّى أعضاء الفريق أدواتهم، وغرقت السحب في كهرمانٍ مشعّ. وضعوا كلّ كسرة عظمٍ في أكياس بلاستيكيَّة، أغلقوها بحرصٍ ورقَّموها، ثم وضعوها في صناديق مصنَّفة. كتبوا تاريخ التنقيب ومكانه على كلِّ صندوق، إلى جانب أسماء المجموعة التي أجرت العمل. دوَّنوا كلّ معلومةٍ في السجلاَّت، ثم بدأوا يشقُّون طريقهم بضجرٍ وهم ينزلون من التلَّة، في مجموعاتٍ صغيرة. مشى كوستاس مع ديفني، وصمتٌ رهيبٌ يتَّسع بينهما.

قال كوستاس بعد وهلة: «الأهالي... كيف يكون ردُّ فعلهم حين تقولون لهم إنَّكم وجدتم موتاهم بعد هذه السنوات؟»

«الامتنان غالبًا. أذكر عجوزًا يونانيَّة، كانت خيَّاطةً ماهرةً في شبابها كما يبدو. حين أخبرناها أنَّنا وجدنا عظام زوجها بكت كثيرًا. لكنَّها حين جاءت إلى المختبر في اليوم التالي كانت ترتدي فستانًا ورديًّا مكشكشًا، مع حذاءٍ فضِّيٍّ وحقيبةٍ فضِّيَّة، وأحمر شفاهٍ فاقع. لن أنسى منظرها أبدًا. تلك المرأة التي لم تكن تلبس شيئًا غير الأسود عقودًا مديدة، جاءت لتأخذ رفات زوجها في فستانٍ ورديّ. قالت إنَّها ستستطيع التحدُّث إليه أخيرًا. قالت إنَّها شعرتْ بأنَّها في سنِّ الثامنة عشرة مرَّةً أخرى، تلتقي حبيبها. هل تُصدِّق؟ لم نعطها سوى بضعة عظام، لكنَّها سعدتْ بها كما لو أنَّنا أعطيناها الدنيا بما فيها».

أخرجتْ ديفني سيجارةً وأشعلتْها، وهي تحمي الشعلة بين راحتَيْها. فلمَّا زفرَتْ سحابةَ دخانٍ سألتْه: «تريد واحدة؟»

هزَّ كوستاس رأسه.

«وذات مرَّةٍ، حدثتْ مصادفةٌ تكسر القلب. كنَّا ننقِّب في شارع كار�اس. كانت المساحة واسعةً جدًّا، واضطُررنا إلى استئجار عامل بلدوزر. بدأ الرجل ينقِّب إلى أن وجد جثَّة. وحين عاد إلى بيته حكى لجدَّته عن الجثَّة ووصَفَ ملابسها، فقالت الجدَّة: «هذا حبيبي علي»، وبدأتْ تبكي. تبيَّن أنَّ علي زوربا كان يقود قافلة جِمالٍ في الخمسينيَّات. كان عائدًا من فاماغوستا، فقُتل ودُفن في الطريق. ظلَّ الناس يعبرون من الطريق طوال تلك السنوات دون أن يعرفوا».

عندها استدار ديڤِد (إذ كان يمشي أمامهما) وقال: «كوستاس! لا تنسَ العشاء الليلة. سنذهب إلى حانة. أفضل حانة في البلدة!»

فجفل كوستاس حين سمع ذلك، وانقبض جسده كلّه.

لاحظتْ ديفني، فقالت: «ليست الحانة التي في بالك. تلك راحت منذ زمن. لم يبق من التينة السعيدة إلاَّ حطام».

قال كوستاس بحزنٍ جاثمٍ على قلبه: «أودّ أن أزورها. أريد أن أرى شجرة التين».

«لم يبق شيءٌ تراه. لكنَّ الشجرة لا بدَّ أن تكون باقيةً هناك. لم أذهب منذ زمن».

«حاولتُ أن أتَّصل بهما من إنجلترا مرَّاتٍ كثيرة. استطعتُ الوصول إلى أقارب يورغوس، وأبلغوني بوفاته. لم يعطوني أيّ تفاصيل، إذْ يبدو أنَّهم انزعجوا من كثرة أسئلتي. أمَّا يوسف فلم أستطع أن أتوصَّل إليه، أو إلى أقاربه. قال لي أحدهم إنَّه غادر قبرص وذهب إلى أميركا، لكنَّني لستُ متأكِّدًا من صحَّة ذلك».

أغمضت ديفني عينَيْها ثم فتحتهما: «أوَلا تعرف؟ اختفى يوسف ويورغوس في صيف 1974 م، بعد أسابيع قليلةٍ من رحيلك. إنَّهما من بين آلاف المفقودين الذين ننقِّب عنهم».

تباطأ كوستاس في مشيته، وهو يشعر بشيءٍ ثقيلٍ في حلقه. «لم.. لم أكن أعرف».

«طبيعيّ. لقد بقيتَ بعيدًا فترةً طويلة». لم تكن في صوتها أيّ عاطفة. لا أثر من غضبٍ أو مرارةٍ أو حسرة. كان صوتًا كالفولاذ، مسطَّحًا، ومنيعًا.

حاول كوستاس أن يقول شيئًا، واليأس يحرقُ قلبَه، لكنَّ الكلام بدا عقيمًا. لم تمنحه فرصةً على أيِّ حال. غذَّت خطاها، وجَرَت لتلحق بديڤِد.

تخلَّف كوستاس، وهو يراهما يمشيان معًا، تشبك ذراعها في ذراعه. فلمَّا وصلا إلى زاويةٍ تحت عمود إنارة، استدار ديڤِد ملوِّحًا وصاح: «سنلتقي في حانة الخيَّام الطوَّاف. اسأل عنها وسوف تجدها. لا تتأخَّر يا كوستاس. يعلم الربّ أنَّنا جميعًا في حاجةٍ إلى شرابٍ بعد هذا اليوم!».

التينة

الأشجارُ خازنة الذاكرة. فهناك تحت جذورنا أو في دواخل جذوعنا تتشابك أوتار التاريخ، وحطام الحروب التي لم ينتصر فيها أحد، ورفات المفقودين.

الماءُ الذي تمتصُّه أغصاننا دمُ الأرض، ودموع الضحايا، وحبر الحقائق التي سوف تُقال. للبشر وَلَعٌ بالحذف قدر ولعهم بالتوثيق، لا سيَّما المنتصرين، القابضين على القلم الذي يدوِّن حوليَّات التاريخ. نحن النباتات من يجمع المسكوت عنه، والمرغوب عنه. فالشجرةُ تلفّ نفسها حول بقايا الماضي، مثل قطَّةٍ تتكوَّر على وسادتها الأثيرة.

حين هام لورنس دوريل في حبِّ قبرص، قرَّر أن يزرع أشجار السرو خلف بيته ودقَّ الأرض بمجرفته، وجد هياكل عظميَّةً في حديقته. لم يكن يعرف حقًّا أنَّ هذا لم يكن شيئًا غير معتاد على الإطلاق. ففي كلِّ أرجاء العالم، أينما تنشب أو نشبت حربٌ أهليَّةٌ أو صراعٌ عِرقيٌّ، ستجدون الأجوبة عندنا نحن الأشجار، لأنَّنا نحن الذين نجلس بصمتٍ في اتِّصالٍ مع البقايا البشريَّة.

فراشاتٌ وعظام
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

كانت حانةُ الخيَّام الطوَّاف حانةً بسيطةً، ذات طاولاتٍ بأشكالٍ مربَّعةٍ على سطحها، ولوحاتٍ زيتيَّةٍ بسيطة، وتشكيلةٍ واسعةٍ من الأسماك المنثورة على الثلج. وصل كوستاس في حوالى السابعة والنصف، وهو ينظر في ساعته، لا يدري ما إذا حضر مبكِّرًا أم متأخِّرًا، إذْ لم يخبره أحد بوقت اللقاء.

وبمجرَّد دخوله، رحَّبتْ به امرأةٌ رشيقةٌ بمكياجٍ ثقيلٍ في السبعينيَّات من عمرها، وشعرُها البلاتينيّ ـــــ الأشقرُ مكوَّمٌ في لفَّةٍ متشابكة.

قالت وهي تمدّ ذراعَيْها كأنَّما ستحضنه: «لا بدَّ أنَّك كوستاس. اسمي مرجان. أنا من بيروت، لكنَّني أُقيم هنا منذ فترةٍ طويلة. أعتبرُ نفسي قبرصيَّة. مرحبًا بك عزيزي».

«شكرًا لكِ». أومأ لها كوستاس، وقد فوجئ قليلاً بذلك الترحيب الغامر من شخصٍ غريب.

«أوه، لقد أصبحتَ إنجليزيًّا أكثر من اللازم، أليس كذلك؟ ينبغي لك أن تقضي وقتًا أطول في بلاد المتوسّط. عُد إلى جذورك. يقول ديڤد إنَّك غادرت الجزيرة في صباك».

فلمَّا رأتْه متفاجئًا، قهقهت. «زبائني يقولون لي أشياء كثيرة. تعال، دعني آخذك إلى أصدقائك». وقادتْه مرجان إلى طاولةٍ في الخلف، عند النافذة. كان المكان ضاجًّا، والزبائن صاخبين، فقفَّ شعرُ رقبة كوستاس مع كلِّ خطوةٍ يخطوها إلى داخل الحانة. لم يستطع أن يقاوم، تذكَّر التينة السعيدة، فالتشابهات كانت أوضح من قدرته على التجاهل. لم يدخل مكانًا كهذا منذ ذلك الوقت، فشعر الآن كما لو أنَّه يخونها.

حين أشاح ببصره عن محتويات المكان استطاع أن يرى الطاولة التي سينضمّ إليها. كان عليها ثلاثة أشخاص. ديفني ترتدي فستانًا أزرق مخضرّ، وبحرُ شعرها الداكن يتساقط على كتفَيْها في موجاتٍ ثائرة. لقد غيَّرت قرطَيْها إلى شكل قطرةٍ من اللؤلؤ، فكان الضوءُ ينعكس عليهما، يتراقصُ في تلك المسافة الهادئة بين أذنَيْها وذقنها. فلمَّا وصل كوستاس إلى الطاولة أدرك متأخِّرًا أنَّه كان يحدِّق في ديفني، ولا أحد غيرها.

صاح ديڤد: «ها قد وصل. شكرًا على توصيله بأمان». ثم تناول يد مرجان، وطبع قبلةً عليها.

«من دواعي سروري، عزيزي. اعتنِ به جيِّدًا». ثم غمزتْ له وانسحبت بعيدًا.

سحب كوستاس الكرسيّ الفارغ بجوار ديڤد وجلس قبالة امرأةٍ لها جبهةٌ عريضة وعينان رماديَّتان مبطَّنتان، من خلف نظَّارةٍ سميكة الإطار. قدَّمت نفسها باسم ماريَّا فيرناندا.

قال ديڤد وهو يرفع كأسًا من الراكي، ويبدو أنَّه قد تناول بضع كؤوسٍ منه: «كنَّا ندردشُ عن نبش الأرض، كما تفعل أنت». كان الآخرون يشربون النبيذ، فصبَّ كوستاس لنفسه كأسًا. بدا له المذاق مثل لحاء شجرٍ، وبرقوق، وترابٍ داكن.

قالت ديفني: «ماريَّا فيرناندا من إسبانيا. ولها دورٌ كبيرٌ في توثيق الفظائع التي وقعت أثناء الحرب الأهليَّة».

فقالت ماريَّا فيرناندا: «أشكركِ، لكنَّنا لسنا أوَّل من فعل ذلك. كان قد حدث تطوُّرٌ كبيرٌ في العمل الميدانيّ الجنائيّ في غواتيمالا في التسعينيَّات، بفضل جهودٍ دؤوبة من نشطاء حقوق الإنسان. فقد استطاعوا اكتشاف عددٍ كبيرٍ من القبور الجماعيَّة التي دُفن فيها معارضون سياسيُّون وسكَّان المايا الأصليُّون. وكذلك في الأرجنتين. للأسف، لم يكن نبش القبور معتمدًا في حلِّ النزاعات حتى أواخر الثمانينيَّات. خسارة!»

استدار ديڤد إلى كوستاس: «كانت محاكمات نورمبرغ علامةً مهمَّة. ففيها أدرك الناس حقيقة أعمال العنف العشوائيَّة. حين يغدر الجار بالجار، ويخون الصديق صديقه. هذا نوعٌ مختلفٌ من

الشرّ، نوعٌ لم تتصدَّ له البشريَّة بعد. الموضوع صعبٌ في العالم كلّه، أقصد الأفعال الوحشيَّة التي تقع خارج ساحات المعركة».

فقالت ماريًّا فيرناندا: «لا شكّ أنَّه عملٌ مُجهد، لكنَّني أذكِّر نفسي دائمًا بأنَّنا على الأقلّ لا نبحث في المحيط».

نظرتْ ديفني إلى كوستاس وقالت: «تقصد تشيلي. فقد اختفى الآلاف في فترة بينوشيه. رحلات سرِّيَّة فوق المحيط الهادئ والبحيرات مملوءةٌ بالسجناء، بعد تعذيبهم وتخديرهم، وبعضهم كان ما يزال حيًّا. قُيِّد السجناء بقطعٍ من السكك الحديديّة وألقي بهم من طائراتٍ مروحيَّةٍ في الماء. بطبيعة الحال، ظلَّ المسؤولون ينكرون هذا، ثم اكتُشف تقريرٌ عسكريٌّ جاء فيه أنَّهم «أخفوا» الجثث في المحيط. أخفوا! أولاد الحرام!»

فسأل كوستاس: «وكيف اكتشف الناس الحقيقة؟»

ردَّت ماريًّا فيرناندا: «بمحض الصدفة. أو بأمر الربّ، إن كنتَ تؤمن بهذه الأشياء. فقد ألقى الموج بجثَّة ضحيَّةٍ من الضحايا إلى الشاطئ. لن أنسى اسمها ما حييت. مارتا أوغارتي. كانت معلِّمة. تعرَّضت للضرب، والتعذيب، والاغتصاب، وقُيِّدت هي أيضًا بقطعة معدنٍ وأُلقي بها من طائرة، لكنَّ السلك انفكَّ بطريقةٍ ما، فطفتْ جثَّتها. توجد صورةٌ التُقطت لها بعد إخراجها من البحر. كانت عيناها مفتوحتَيْن، تنظران إلى روحك مباشرةً. وهكذا عرف الناس أنَّ هناك كثيرين غيرها مدفونون تحت الماء».

أمسك كوستاس كأس النبيذ بين راحتَيْه، يشعر بثقله المدوَّر. نظر من السائل القرمزيّ، لا إلى رفاقه في الطاولة، بل إلى جزءٍ من قلبه كان قد أبقاه مغلقًا فترةً طويلة. وجد فيه أحزانًا قديمة، بعضها أحزانه، وبعضها أحزان الأرض التي وُلد فيها، لكنَّها غدت شيئًا واحدًا لا يفترق، بعضه فوق بعض، مضغوطًا، كالتشكُّلات الصخريَّة.

ثم رفع رأسه وسأل ماريًّا فيرناندا: «وأين عملتِ أيضًا؟»

«أوه، في شتَّى أنحاء العالم. يوغسلافيا، وكمبوديا، ورواندا... في العام الماضي، شاركت في أعمال نبشٍ جنائيَّةٍ في العراق».

«وكيف التقيتما أنتِ وديفني؟»

فأجابتْه ديفني: «كنتُ أعرف عن ماريًّا فيرناندا، فأرسلتُ لها رسالة. ردَّت عليَّ بلطفٍ شديد ودعتني لزيارتها في إسبانيا. وفي الصيف الماضي، حصلتُ على منحةٍ وزُرتها. كانت هي وفريقها يُجرون ثلاثة أعمال نبشٍ في إكستريمادورا، وأستورياس، وبورغوس. وفي كلِّ مرَّةٍ، كانت العائلات الإسبانيَّة تُقدِّم لموتاها جنازةً مهيبة. كان المشهد مؤثِّرًا جدًّا. وبعد أن عدتُ إلى قبرص للانضمام إلى لجنة المفقودين، أرسلنا دعوةً لماريًّا فيرناندا كي تشرف على طرق البحث لدينا، وها هي هنا».

ألقتْ ماريًّا فيرناندا زيتونةً في فمها، وراحت تمضغها ببطء. «كانت ديفني مدهشة! كانت تأتي معي للحديث إلى الأهالي، وكانت تبكي معهم. موقفٌ مؤثِّر. يُخيَّل إليكَ أنَّك لا تتحدَّث لغتهم، ثم تُدرك أنَّ الحزن نفسه لغة. فنحن البشر نفهم بعضنا بعضًا عبر ماضينا الحزين».

سحبَ كوستاس نَفَسًا بطيئًا عميقًا، وبدتْ له الغرفة كأنَّما تحتضنه، أو لعلَّه كان كلامها. فسألها: «تلك الأشياء التي ترينها في النهار، هل تظهر في أحلامك؟ اعذريني على هذا السؤال».

فقالت ماريًّا فيرناندا وهي تخلع نظَّارتها وتفرك عينَيْها: «لا عليك. كانت تراودني أحلامٌ مزعجة، لكنَّها توقَّفت. أو لعلِّي لا أتذكَّر».

قال ديڤِد: «إنجورياروم ريميدوم است أوبليڤيو. النسيانُ علاجُ الجراح».

فاعترضتْ ديفني: «لكنَّنا لكي نشفى لا بدَّ من أن نتذكَّر». ثم استدارت إلى ماريًّا فيرناندا وقالت بنبرةٍ رقيقة: «أخبريهم عن بورغوس».

«كانت بورغوس القلب النابض لنظام فرانكو. لم تكن هناك ساحات معارك، وهذا يعني أنَّ جميع الجثث التي وجدناها في القبور الجماعيَّة كانت جثث مدنيِّين. غالبًا لم يكن الأهالي يرغبون في الحديث عن الماضي. كانوا يريدون أن يدفنوا أحبَّاءهم كما يليق بهم وحسب.. مسألة كرامة».

رشفتْ ماريًّا فيرناندا قليلاً من الماء، وتابعت: «ذات يومٍ، ركبتُ مع سائق أجرةٍ إلى موقع تنقيب، وكنتُ متأخِّرة. بدا لي السائق رجلاً لطيفًا، ودودًا، ظريفًا. بعد فترةٍ، مررنا من مكانٍ يُسمَّى أراندا دي دويرو. بلدةٌ فاتنة. نظر إليَّ السائق في المرآة وقال: «هذه أراندا الحمراء. مليئةٌ

بالمحرِّضين على الشغب. وقد أعدم رجالنا كثيرًا من الناس هنا، صغارًا وكبارًا. كان أمرًا لا بدَّ منه». فجأةً أدركتُ أنَّ هذا الرجل الذي كنتُ أتحدَّث معه عن الجوِّ ومواضيع أخرى، هذا الأب لثلاثة أطفال، الذي يضع صور أسرته باعتزازٍ على تابلوه السيَّارة، كان واحدًا من الذين دعموا القتل الجماعيّ للمدنيِّين».

فسألها ديڤِد: «وماذا فعلتِ؟»

«لم يكن بإمكاني فعل شيء. كنتُ لوحدي في الطريق معه. لكنَّني لم أتحدَّث معه طوال المسافة المتبقِّية. ولا كلمة. وبمجرَّد أن وصلنا أعطيته النقود وخرجتُ دون حتى أن أنظر إليه. وقد فهم السبب بالتأكيد».

أشعل ديڤِد غليونه ونفث، وهو يومئ نحو ديفني عبر الدخان: «ماذا تفعلين لو كنتِ مكانها؟»

نظر الجميع إلى ديفني. التمعتْ عيْناها في ضوء الشمعة كالبرونز الصقيل. وقالت: «سامحوني إنْ شعرتم بشيءٍ من ادِّعاء المثاليَّة في كلامي، لكنِّي لا أقصد ذلك. أعتقد أنَّني كنتُ سآمر ذلك الرجل ابن الحرام أن يوقف السيَّارة ويدعني أخرج. قد أُضطرّ إلى تسوُّل توصيلةٍ بعد ذلك، لا يهمّ».

تفحَّص كوستاس وجهها وهو يعرف أنَّها صادقة. في تلك اللحظة العابرة، وكالمسافر الذي يظهر له في الليل طيفٌ من بعيدٍ حين يلتمع البرق، تبدَّت له لمحةٌ من الفتاة التي كان يعرفها ذات يوم. غضبها في وجه الظلم، والتزامها بالحقِّ، وشغفها بالحياة.

نفخ ديڤِد في غليونه، وقال: «ولكنْ ليس المطلوب من الجميع أن يكونوا مقاتلين يا عزيزتي. وإلاَّ لن يكون لدينا شعراء وفنَّانون وعلماء...».

قالت ديفني وهي تشرب من نبيذها: «أختلف معك. هناك لحظات في الحياة ينبغي لكلِّ واحدٍ فيها أن يصبح مقاتلاً بشكلٍ أو بآخر. إنْ كنتَ شاعرًا، تقاتل بكلامك، وإنْ كنتَ فنَّانًا، تقاتل بلوحاتك... لا يمكنك أن تقول «المعذرة، أنا شاعرٌ فقط، اذهبوا لغيري». لا يمكنك أن تقول هذا في وقت الظلم والقهر والألم». أفرغتْ كأسها، وصبَّت لها المزيد. «ماذا عنك يا كوستاس؟ ماذا كنت ستفعل؟»

سحَب نَفَسًا، وهو يستشعر ثقل نظرتها. «لا أدري. لا أعتقد أنَّني يمكن أن أعرف إلاَّ إذا كنت في ذلك الموقف».

اختلجتْ نصفُ ابتسامةٍ على وجه ديفني، وقالت: «طوال حياتك كنتَ إنسانًا متعقِّلاً، منطقيًّا. ولديك عينٌ فاحصةٌ لعجائب الطبيعة، وأخطاء الجنس البشريّ».

ثمَّة حِدَّةٌ في نبرتها، يستحيل أن لا يلاحظها أحد. توتَّر المزاجُ حول الطاولة.

فقال ديڤِد بتلويحةٍ هازئة: «لا لا، لا ينبغي أن نبدأ في محاكمة بعضنا بعضًا. أنا نفسي لو كنت في ذلك الموقف لأكملتُ المشوار وظللتُ أثرثر مع السائق».

لكنَّ ديفني لم تكن تنصت. كانت تنظر إلى كوستاس، وحدَه. أدرك كوستاس أنَّ غضبتها المفاجئة كان وراءها كلّ الكلام المعلَّق بينهما، يدور داخل روحها مثل رقائق متقلِّبة في كرة ثلج.

وقعتْ عيْناه على يدَيْها اللتين تغيَّرتا بمرور السنوات. كانت فيما مضى تحبّ أن تطلي أظافرها باللون الورديّ اللؤلؤيّ. أمَّا الآن فكان ثمَّة إهمالٌ في أظافرها القصيرة غير المتساوية، وجلدها المتقشِّر. فلمَّا رفع عينَيْه مرَّةً أخرى وجدها تتفحَّصه.

كان صدره يعلو ويهبط بأنفاسٍ سريعة، فمال إلى الأمام وقال: «هناك سؤالٌ آخر يمكننا التفكُّر فيه أيضًا، وقد يكون أصعب من الأوَّل. ما الذي كان سيفعله كلّ واحدٍ منَّا، لو أنَّنا كنَّا شبابًا صغارًا في بورغوس فترة الثلاثينيَّات، وسط حربٍ أهليَّة؟ من السهل أن ندَّعي بأثرٍ رجعيّ أنَّنا كنَّا سنُحسن التصرُّف، لكنَّ الحقيقة هي أنَّنا لا نعرف أين سنصبح حين تستعرُ النيران».

عندها وصل النادل حاملاً أطباقهم الرئيسة، فكسرَ الصمت الذي حلَّ على الطاولة. أسياخ لحمٍ مشويٍّ بجبن الفيتا والنعناع، وطاجن سمكٍ في النبيذ الأبيض، وروبيان محمَّرٍ بالثوم والزبدة، ودجاج بالبهارات، ويخنة الجوت.

قال ديڤِد وهو يربِّت على بطنه: «كلَّما جئتُ إلى قبرص ازداد وزني خمسة كيلوغرامات. على الأقلِّ يمكن لليونانيِّين والأتراك أن يتَّفقوا على هذا».

تبسَّم كوستاس، على الرَّغم من أنَّه في ذلك الوقت خطر له أنَّهم كانوا يشربون بسرعةٍ شديدة، لا سيَّما ديفني.

فأشارت ديفني بكأسها نحوه، كأنَّما تقرأ أفكاره، وقالت: «طيِّب، إذن. لنُغيِّر الموضوع. كئيبٌ جدًّا. أخبرنا يا كوستاس، ما الذي أعادك؟ هل هي أشجارك الحبيبة أم الطحالب أم نبات الأُشنة؟»

فخطر له حينها أنَّها كانت تنقِّب عن وظيفته وأعماله مثلما كان هو يجمع المعلومات عنها طوال السنين. كانت تعرف كُتبه.

فردَّ بحذر: «جزءٌ منها للعمل. أنا أبحث عمَّا إذا كان في إمكان أشجار التين أن تقلِّل من فقدان التنوُّع الحيويّ في منطقة البحر الأبيض المتوسِّط».

رفعت ماريًّا فيرناندا حاجبَيْها: «أشجار التين؟»

«نعم، فهي في رأيي أكثر النباتات دعمًا للنظام البيئيّ. لا توفِّر التينات غذاءً للإنسان فقط، بل كذلك للحيوانات والحشرات في مساحةٍ جغرافيَّة كبيرة. تعاني قبرص من مشكلةٍ خطيرةٍ تتمثَّل في إزالة الغابات. علاوةً على ذلك، ففي أوائل القرن العشرين، جرى تجفيف المستنقعات للقضاء على الملاريا، وزُرعت أعدادٌ كبيرةٌ من أشجار الأوكالبتوس ونبتات أستراليَّة أخرى. المشكلةُ هي أنَّ هذه نباتات عدوانيَّة دخيلة تسبِّب ضررًا هائلاً للنظام البيئيّ. كنتُ أتمنَّى لو أنَّ السلطات أولت اهتمامًا أكبر بأشجار التين المحلِّيَّة... على أيِّ حال، لا أريد أن أضجركم بتفاصيل بحثي». كان كوستاس كعادته يخشى من أن يعتبر الناس ما يفعله شيئًا مملاً.

فقال ديڤِد: «على العكس تمامًا. أكمل يا كوستاس. معلومةٌ واحدة عن شجرة تينٍ أفضل دائمًا من نبش قبرٍ جماعيٍّ».

سألتْه ديفني وهي تزيد رباطًا جلديًّا حول معصمها، فكشفت عن وشمٍ صغيرٍ في ذراعها: «الفراشات تتغذَّى على التين، أليس كذلك؟»

فقالت ماريًّا فيرناندا في حماس: «أوه، ما أجمله!»

قال كوستاس وهو يحاول أن لا يبدو متفاجئًا: «هذه فراشة السيِّدة الملوَّنة». لم تكن ديفني تحمل أيّ وشمٍ، في أيّ مكانٍ في جسدها حين عرفها. «تأتي كلّ عامٍ من (إسرائيل) وتستريح في قبرص. ثم يرحل بعضها إلى تركيا، والآخر إلى اليونان. وبعضها يسافر من شمال إفريقيا إلى وسط أوروبا. لكنَّ شيئًا غريبًا يحدث هذا العام. فتلك التي سافرت من شمال إفريقيا غيَّرت مسارها، ولا أحد يعرف السبب. كلّ ما أعرفه هو أنَّها تتَّجه إلى قبرص، وسوف تنضمّ إلى بقيَّة الفراشات التي اعتادت القدوم إلى هنا. إنْ صحَّت افتراضاتنا، فسوف نرى هجرةً ضخمةً من الفراشات في الأيَّام القليلة القادمة. أتوقَّع أن تملأ السماء على طول الساحل، في الجانبَيْن التركيّ واليونانيّ. ملايين الفراشات».

فقالت ماريًّا فيرناندا: «رائع. أرجو أن تصل قبل سفري».

*

انتهوا من أطباق الحلو، وجاءت القهوة، لكنَّ ديفني كانت قد طلبت زجاجةً جديدةً ولم يبدُ أنَّها تريد أن تخفِّف. قال لها كوستاس وثمَّة عرق ينبض في جبينه: «حين رأيتكِ آخر مرَّة، لم تكوني تشربين أو تدخِّنين».

نظرت إليه، بابتسامةٍ ضئيلةٍ تتشكَّل على أطراف شفتَيْها، وبصَر زائغ: «تغيَّرت أشياء كثيرة منذ أن رحلتَ».

أشار ديڤِد إلى النادل كي يحضر له كأسًا آخر من الراكي وقال: «وأنا معكِ أيضًا يا ديفني».

فقالت ماريًّا فيرناندا لكوستاس: «لكنَّك لا تشرب كثيرًا كما يبدو. ولا تدخِّن. لديَّ إحساسٌ بأنَّك لا تكذب... ألا توجد في حياتك أيّ أخطاء؟»

أصدرت ديفني صوتًا قد يُفهم منه الإنكار أو التأكيد. واصطبغتْ وجنتاها بحمرةٍ حين لاحظت أنَّ الآخرين ينظرون إليها.

فقالت بنصف هزَّةٍ من كتفَيْها: «الحقيقة أنَّه أخطأ مرَّة. تركني».

فارتسمت علامة ارتباكٍ على وجه ماريًّا فيرناندا. «أوه، أنا آسفة. لم أعرف أنَّكما كنتما في علاقة».

رفع ديڤِد يديْه، وقال: «وأنا كذلك لم أكن أعرف».

قال كوستاس وقد أدرك متأخِّرًا أنَّه رفع صوته: «لم أتركْكِ. لم تردِّي على رسائلي أصلاً. وطلبتِ منِّي ألاَّ أتواصل معك».

فلوَّحت ديفني بيدها وقد ازدادت حمرة خدَّيْها: «لا عليك. كنت أمزح فقط. ما فات مات».

مرَّت بضع ثوانٍ لم ينبس فيها أحدٌ ببنت شفة.

فقال ديڤِد وهو يرفع كأسه: «في صحَّة الشباب إذن!»، ورفع البقيَّة كؤوسهم. ثم أنزلت ديفني كأسها وقالت: «أخبرنا يا كوستاس، هل لديها عظام؟»

«عفوًا؟»

«الفراشات أقصد».

ازدرد كوستاس لعابه. كان حلقه جافًّا. حدَّق في الشمعة التي احترقت إلى آخرها. «الهيكل العظميّ للفراشة ليس داخل جسدها. فليس لها هيكلٌ صلبٌ تحتَه أنسجة ناعمة مثلنا. في الواقع، يمكن القول إنَّ جلدها بأكمله عبارةٌ عن هيكلٍ عظميٍّ خفيّ».

«تُرى كيف يكون ذلك الشعور؟ أقصد أن تحمل عظامك في الخارج. تخيَّل أن تكون قبرص فراشةً ضخمة! حينها لن نُضطرّ إلى حفر الأرض لإيجاد المفقودين. سنعرف أنَّها تغطِّينا».

لن ينسى كوستاس تلك الصورة، مهما انقضت السنوات. الجزيرة الفراشة. جميلة، تخطف الأنظار، موشَّاة بألوان رائعة، تحاول أن تطير في الهواء وترفرف في البحر الأبيض المتوسِّط، فلا تستطيع إلى ذلك سبيلاً، من ثقل جناحَيْها المغلَّفيْن بعظامٍ مكسورة.

*

غادر الأربعةُ الحانة أخيرًا، طلبًا للهواء النظيف، فراحوا يمشون على طول الشوارع الملتوية، يستنشقون شذى الياسمين والأرز. كان البدرُ مكتملاً إلاَّ من بضعة أيَّام، متَّشحًا بريش السحاب. فلمَّا مرُّوا بالبيوت الحجريَّة ذات النوافذ المشبَّكة انعكست صورهم مثل قطع أطيافٍ تحت أضواء الشوارع الخفيفة.

في تلك الليلة، رأى كوستاس حلمًا مزعجًا بعد أن عاد إلى غرفته في الفندق. كان في بلدةٍ غير محدَّدة، قد تكون في إسبانيا أو تشيلي أو قبرص. تراءت له شجرة تينٍ من خلف الكثبان، وخلفها شارعٌ فارغٌ ملوَّثٌ بشيءٍ يشبه الحطام. اقترب أكثر كي يتأكَّد، وعندها اكتشف أنَّها كانت سمكة تموت. في غمرة اهتياجه، وجد دلو ماء، فصار يروح ويغدو، يحاول أن يجمع أكبر قدرٍ من الأسماك، لكنَّها ظلَّت تتسرَّب من بين أصابعه، تهزّ أذيالها، وهي تلهث.

ومن بعيد، رأى مجموعة أشخاصٍ يحدِّقون فيه. كانوا كلُّهم يرتدون أقنعةً على شكل فراشات. لم تكن ديفني من بينهم، لكنَّ كوستاس استيقظ في منتصف الليل، وقلبه يدقّ بسرعة، إذْ كان واثقًا من أنَّها كانت في الحلم في مكانٍ ما، خلف واحدٍ من تلك الأقنعة، تراقبه.

العقل المضطرب

قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

في الصباح الباكر، وجد كوستاس الفريق منغمسًا في عمله في الموقع. فقد تلقَّت اللجنة بلاغًا آخر في الليلة الماضية، وبمجرَّد انتهائهم من هذا الموقع سوف يبدأون الحفر عند مجرى نهرٍ جافٍّ يبعد حوالى 72 كيلومترًا عن نيقوسيا. وقد شعر كوستاس من كلامهم أنَّهم يفضِّلون البحث في المناطق النائية والريفيَّة؛ ففي الحواضر عادةً ما يجتمع المارَّة للفُرجة، يسألون ويطرحون تعليقاتٍ متطفِّلة، بل مستفزَّة أحيانًا. وحين يجد الفريقُ شيئًا لا يتمالك الآخرون أنفسهم، فذات مرَّةٍ، أُغمي على امرأةٍ هناك واضطُرُّوا إلى إسعافها. لهذا يفضِّل أعضاء لجنة المفقودين أن يعملوا بعيدًا عن الناس، في وسط الطبيعة، لا تشهد عليهم سوى الأشجار.

حين توقَّفوا عن العمل لشرب القهوة، جلس كوستاس وديفني عند شجيرات دفلى برِّيَّة، يستمعان إلى السيكادات وهي تئزّ تحت الحرارة الشديدة. أخرجتْ ديفني كيس تبغٍ وبدأتْ تلفّ سيجارةً لنفسها. لاحظ كوستاس أنَّها تحمل علبة سجائر ديڤد الفضِّيَّة، فانقبض صدرُه إذْ خطر له أنَّها ربَّما قضت الليلة معه. كان قد لاحظ عدَّة مرَّاتٍ في عشاء الليلة الماضية نظرة ديڤد إليها. حاول أن يهدِّئ عقله المضطرب. فبأيِّ حقٍّ يتساءل عن حياتها العاطفيَّة وقد أصبحا محض غريبَيْن، لا عن بعضهما بعضًا فحسب، بل عمَّا كانا عليه في السابق؟

أمالت رأسها ناحيته، قريبًا جدًّا حتى رأى الشذرات الزُرق في عينَيْها الداكنتَيْن، كالكوبالت الأزرق. «أقلع ديڤد عن التدخين اليوم».

«صحيح؟»

«نعم. ولكي يؤكِّد ذلك أعطاني علبته. لكنِّي متأكِّدة من أنَّه سيطلبها مرَّةً أخرى في نهاية اليوم. إنَّه يقلع عن التدخين مرَّتيْن في الأسبوع».

لم يملك إلاَّ أن يبتسم. ارتشف من قهوته، وسألها: «إلى متى تنوون الاستمرار في هذا العمل؟»

«قدر ما يتطلَّب الأمر».

«بمعنى؟ إلى أن تجدوا آخر ضحيَّة؟»

«سيكون ذلك رائعًا، أليس كذلك؟ لا، لستُ ساذجةً إلى هذا الحدّ. أعرف أنَّ كثيرين، من كِلَا الجانبَيْن، لن يُعثر عليهم أبدًا».

نظرتْ بعيدًا وتابعت: «لكنَّ الأمر قد لا يكون مستحيلاً. فكِّر في الأمر. حين كنَّا صغارًا، لو أنَّ أحدًا قال لنا إنَّ الجزيرة سوف تُقسَّم عرقيًّا، وإنَّنا سنُضطرّ ذات يومٍ إلى البحث عن قبورٍ مجهولة، لما صدَّقناه. والآن لا نصدِّق أنَّ الجزيرة يمكن توحيدها مرَّةً أخرى. تتغيَّر المستحيلات جيلاً بعد جيل».

أنصت إليها وهو يفتِّت كتلة ترابٍ بين أصابعه. «لاحظتُ أنَّ النساء أكثر من الرجال في هذا العمل».

«نعم، هناك الكثيرات. يونانيَّات وتركيَّات. بعضهنَّ في التنقيب، وبعضهنَّ في المختبر. وهناك أيضًا عالمات نفسٍ يتحدَّثن مع الأهالي. معظم المتطوِّعين من النساء».

«ما السبب في رأيك؟»

«أليس واضحًا؟ ما نفعله هنا لا علاقة له بالسياسة أو السلطة. نحن نعمل في مجال الحزن، والذاكرة. والنساء أفضل من الرجال في الأمرَيْن».

«الرجال يتذكَّرون أيضًا. ويحزنون».

تفرَّست وجهه بعد أن وصل إليها الإيحاء في صوته. «فعلاً؟ لعلَّك محقٌّ، ولكن في المتوسِّط العام، يتزوَّج الرجل الذي يفقد زوجته أسرع بكثيرٍ من المرأة لو فقدت زوجها. النساء تحزنُ وتتفجَّع، أمَّا الرجال فيَستبدلون».

وضعتْ ديفني خصلة شعرٍ منفلتة وراء أذنها. فشعر برغبةٍ قويَّةٍ في لمسها آنذاك، حتى إنَّه اضطُرَّ إلى شبك ذراعَيْه، خشية أن تتصرَّفا من تلقاء مشيئتهما. تذكَّر لقاءاتهما سرًّا، يُحيط بهما الليل الشاسع، وأشجار الزيتون التي تلوح رماديَّةً تحت بصيص القمر. وتذكَّر الآن أنَّها ذات مساءٍ طلبتْ منه ماءً، فتركها وحدها دقيقةً، ليلة انفجار التينة السعيدة. خطر له الآن أنَّ حياةَ كلٍّ منهما قد تغيَّرت للأبد منذ تلك الليلة.

ثم نظر إلى السيجارة في يدها، وقال: «ولكنْ لماذا تدخِّن، أشكِم؟ أَوَلا تعرف أنَّها مجرَّد نفثاتٍ قليلة تختفي بمجرَّد أن تنفخ؟»

ضيَّقت ديفني عينَيْها. «ماذا؟»

«لا تذكرين، صحّ؟ هذا ما قلتِه لي حين رأيتِني ذات مرَّةٍ أدخِّن».

لكنَّ التعبير الذي ظهر على وجهها أوحى له أنَّها تذكر، فاستعانت بضحكةٍ كي تتهرَّب من السؤال المباغت.

سألها كوستاس: «لماذا لم تجيبي على رسائلي؟»

سكتة. «لم يكن ثمَّة شيءٌ أقوله».

ازدرد كوستاس كتلةً في حلقه، وقال: «تواصل معي مؤخَّرًا شخصٌ من الماضي. طبيب...». تفحَّص وجهها، لكنَّه لم يستطع أن يقرأ ما فيه. «توصَّل الدكتور نورمان إلى عنواني بعد أن رأى اسمي في صحيفة. كنتُ قد أصدرتُ كتابًا جديدًا، وأجرت الصحيفةُ لقاءً معي، فعرف عنواني. التقينا وتحدَّثنا، وذكر شيئًا عابرًا أدركتُ منه أنَّ هنالك أشياء حدثت في صيف 1974 م لا أعرف عنها شيئًا. كان عليَّ أن أعود إلى قبرص... كي أراكِ».

فقالت وقد ارتفع أحد حاجبَيْها قليلاً: «الدكتور نورمان؟ ماذا قال لك؟»

«لم يقل الكثير، لكنِّي ربطتُ بين المعلومة والأخرى. أخبرني أنَّكِ أعطيته رسالةً، وطلبتِ منه أن يسلِّمني إيَّاها إن حدث مكروه. واحتفظ بتلك الرسالة في جيْبه، لكنَّها ضاعت للأسف. لم يقرأ الرسالة ولم يعرف ما بها لأنَّها كانت رسالةً خاصَّة. ولا أدري إنْ كنتُ أصدِّقه. أحاولُ الآن أن أفهم

السبب الذي يدفع شابَّةً إلى زيارة طبيب أمراضٍ نسائيَّة في صيف 1974 م، حين كانت الجزيرة تشتعل والجنود في كلِّ مكان... إلاَّ إذا حدث شيءٌ غير متوقَّع... طارئ... حملٌ غير مرغوب. إجهاض». نظر إليها بحزن، وتابع: «أريدكِ أن تعرفي أنَّني منذ اكتشفتُ الأمر وأنا في أسوأ حال. أشعر بالذنب الشديد. أنا آسف جدًّا. كان ينبغي أن أكون معك. لم أعرف شيئًا طوال تلك السنوات».

في تلك اللحظة، ناداها شخصٌ من زملائها. كانوا على وشك أن يستأنفوا العمل.

مجَّت ديفني نَفَسًا أخيرًا من سيجارتها، ثم ألقتها وسحقتها بكعب حذائها. «لنعد إلى العمل. كما قلتُ بالأمس، كنَّا صغارًا. يرتكب المرء أخطاءً في تلك السنّ. أخطاءً فظيعة».

سَرَت فيه رجفة. نهض، وتقدَّم خطوةً ناحيتها، لكنَّه لم يستطع أن يتكلَّم.

قالت: «اسمع. لا أريد الحديث في هذا الأمر. ولا بدَّ من أن تفهم، حين تحدث مصيبةٌ لبلدٍ.. أو جزيرة.. ينفتح صدعٌ بين مَن يرحلون ومَن يبقون. لا أقول إنَّ الأمر سهلٌ على من يرحلون.. لديهم ما لديهم من مصاعب بالتأكيد، لكنَّهم لا يعرفون شيئًا عمَّا مرَّ به من اختاروا البقاء».

«الذين بقوا تعاملوا مع جراحهم، وندوبهم، وهذا مؤلمٌ بالتأكيد. أمَّا نحن... الهاربين إن شئتِ... فلا فرصة لدينا أبدًا كي نتعافى، وتبقى الجراح مفتوحةً أبدًا».

أمالت رأسها متفكِّرة، ثم قالت بسرعة: «المعذرة... عليَّ العودة للعمل الآن».

راقبها كوستاس وهي تمشي نحو زملائها، وخَشي أن تكون هذه هي النهاية. نهاية ما بينهما. من الواضح أنَّها لا تريد الحديث عن الماضي. تريد أن تكون العلاقة بينهما ودِّيَّة، مع حفظ المسافة. خطر له أنَّه سيُضطرّ إلى العودة إلى عمله، ثم إلى إنجلترا، رجوعًا إلى حياته القديمة بكلِّ ما فيها من تكرارٍ وإيقاعٍ يخنقه شيئًا فشيئًا، ولكن ليس بما يكفي من السرعة. كان هذا المصير ممكنًا، لولا أنَّ ديفني عادت إليه في نهاية اليوم، بعد ساعاتٍ من الحفر والتنظيف، بخصلات شعرٍ منفلتة من عصابتها وجبهةٍ مغبرَّة، وقالت له في هدوءٍ تامّ: «ما رأيك أن أعزمك على العشاء الليلة؟ أنا وأنت فقط. إلاَّ إذا كانت لديك ارتباطاتٌ أخرى».

كانت تعرف، طبعًا، أنَّه لم تكن لديه ارتباطاتٌ أخرى.

نُزهة
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

كانت الشمس في طريقها للغروب حين التقيا ثانيةً ذلك المساء. كانت قد غيَّرت ملابسها إلى فستانٍ أبيض طويلٍ بأزهارٍ زُرق صغيرة مخيطةٍ عند الصدر. ربَّت الضوءُ المتقهقر على وجهها، تاركًا درجاتٍ لونيَّةً رقيقةً على خدَّيْها كضرباتِ فُرشاة، والتماعاتٍ نحاسيَّةً على شعرها الكستنائيّ. في يدها سلَّةٌ تحملها.

قالت ديفني: «سنمشي قليلاً، هل تمانع؟»

«أحبّ المشي».

مرَّا بمحالّ تذكاراتٍ وبيوتٍ تتسلَّق الورودُ على واجهاتها. أمَّا الجدران المبيَّضة التي كانت تحمل ذات يومٍ ملصقات الشعارات السياسيَّة فقد توهَّجت الآن برَّاقةً نظيفةً، في الجانبَيْن. كلٌّ شيءٍ بدا ساكنًا، هادئًا. للجُزُر طريقةٌ في خداع الناس كي يصدِّقوا أنَّ سكينتها دائمةٌ إلى الأبد.

تجاوزا الأرصفة المزدحمة، وسرعان ما اتَّخذا سبيلهما عبر ضواحي المدينة، بأعينٍ مثبَّتةٍ على المسار المطعَّم بالصنوبر من أمامهما، كما لو أنَّهما يمشيان نحو ريحٍ قويَّةٍ عطشى. على أنَّ نسمةً خفيفةً لا أكثر كانت تهبّ في هذا المساء، والهواء مليءٌ بالوعد. وعلى الرَّغم من أنَّ عقله كان يتسارع، ولسانه يعاني بحثًا عن الكلمات التي يريد قولها، إلاَّ أنَّ شيئًا من الارتياح سرى في جسده. أبصر مجموعاتٍ من نبات الثوم الأبيض، والخردل البرِّيّ، ونبات الشوك الذهبيّ، ونبات القبَّار، تندفع فسائلها من الأرض الجافَّة. ركَّز على الأشجار كعادته حين يشعر بالاضطراب. زيتون، ونارنج، وريحان، ورمَّان... وتلك هناك، شجرة خرُّوب. تردَّد صوت أمّه في أذنَيْه: «ومن يحتاجُ إلى الشوكولاتة في حضرة الخرُّوب، آغوري مو [يا ولدي]؟»

لاحظ أنَّ ديفني لم تكن تُسرع في المشي فحسب، بل كانت تستمتع به. النساء اللائي واعدَهنَّ في الماضي كنَّ في الأغلب يستنكفن من الرحلات الطويلة. أهل مدينةٍ، مشغولون، في عجلةٍ من أمرهم طوال الوقت. حتى أولئك اللائي ادَّعَيْن أنَّهنَّ يحببن التمشية سرعان ما استبدَّ بهنَّ الضجر. كان كوستاس مرَّةً بعد أخرى يجد نفسه منزعجًا من رفيقاته، لعدم ارتدائهنَّ ملابس تناسب التمشية، فإمَّا يرتدين ملابس رقيقة، أو حذاءً غير ملائم.

أمَّا الآن وهو يحاول اللحاق بديفني، فقد فوجئ برؤيتها تسرع أمامه في نعلَيْها المسطَّحَيْن. شقَّت طريقها على حقولٍ محفَّرةٍ وشوارع ترابيَّة، فيما تمسح كُتلٌ من الخلنج الأرجوانيّ والقنديل الأصفر طرف تنُّورتها، وتعلق به. تبعها كوستاس، وقد ضبط إيقاعه مع كلِّ إشارةٍ صغيرةٍ منها، مع رنَّة ضحكتها، وعمق صمتها، يتساءل في نفسه ما إذا كان هناك شيءٌ في قلبها ما يزال يحبُّه.

خَشخشت حجلةٌ بين الشجيرات، وطاف حَوامُ نحلٍ في التيَّارات الدافئة في الأعلى، يبحث عن ثديِّيَّات صغيرةٍ على الأرض. آلاف الأعيْن تنظر من بين الأوراق، أعينٌ مصنوعةٌ من مراصد ضوءٍ صغيرةٍ جدًّا، تستطيع التمييز بين أطوال الموجات المختلفة، والحقائق المتضاربة، تُذكِّر كوستاس بأنَّ العالم الذي يراه البشر مجرَّد عالمٍ واحدٍ بين عوالم عديدةٍ متوافرة.

فلمَّا وصلا إلى قمَّة التلِّ، توقَّفا كي يستمتعا بالمنظر. بيوتٌ حجريَّةٌ قديمةٌ تومض في البعيد، وأسقفٌ حُمرٌ من الطين النضيج، وسماءٌ سخيَّةٌ لا نهاية لها. لو كان لهذا العالم مركزٌ، فلا بدَّ من أن يكون هنا. خطر لكوستاس أنَّ هذا بالتأكيد ما رآه الرحَّالة والحجَّاج وغيرهم ممَّن وفدوا على هذه الأرض وبقوا فيها.

فتحتْ ديفني سلَّتها التي رفضتْ أن يحملها عنها. في داخلها زجاجةُ نبيذ، وكأسان، وطاسة من التينات، وشطائر صغيرة صنعتْها في البيت.

ثم قالت وهي تبسط لحافًا على الأرض: «أرجو أن تروقك هذه النزهة البسيطة».

جلس إلى جانبها، مبتسمًا. لقد تأثَّر بذلك العناء الذي تجشَّمته لإعداد كلّ ذلك. كانا يأكلان ببطءٍ، يتذوَّقان كلّ لقمة، كأوَّل مرَّةٍ التقيا فيها في التينة السعيدة، فأخذ كوستاس يحكي لديفني عن حياته في إنجلترا. ثم انعقد شيءٌ في حلقه حين تحدَّث عن وفاة �انايوتا، وعلاقته المتوتِّرة بأخيه الأصغر الذي ظلَّ يبتعد عنه أكثر فأكثر بمرور السنوات، وعجزه عن العودة إلى قبرص طوال تلك

السنين كما لو أنَّه مرعوبٌ ممَّا قد يراه هنا، أو خاضعٌ لعَمَلٍ من أعمال السحر. لم يذكر لها أنَّه كان كثير الشعور بالوحدة على الرَّغم من رضاه عن مسار عمله، لكنَّه شعر بأنَّها تعرف ذلك أصلاً.

قالت ديفني بعد أن استمعتْ إليه بصمتٍ وتفكُّر: «معك حقّ. حدث حملٌ، لكنَّني منعتُ نفسي من التفكير فيه منذ وقتٍ طويل، فأصبحتُ لا أعرف ما إن كنتُ أريد أن أعاود التفكير فيه. أفضِّلُ أن أترك هذا الأمر ورائي».

حاول ألاَّ يسأل أو يقول شيئًا. حاول أن يكتفي بالإنصات والتفهُّم، وأن يكون إلى جانبها.

عضَّت ديفني على شفتها السفلى، فسحبت طبقةً رقيقةً من جلدها. «سألتَني أيضًا إلى متى أنوي الاستمرار في العمل مع اللجنة. أرجو أن أستمرّ إلى أن أجد يوسف ويورغوس؛ فقد خاطرا بحياتهما من أجلي. ولا أظنُّك تعرف ذلك».

فقال كوستاس وقد انسحبت أطراف فمه للأسفل: «لا».

«إنَّ جهلي بمصيرهما يدفعني للجنون. أتَّصل بالمختبر كلّ بضعة أيَّامٍ لأعرف ما إذا وجدوا شيئًا. هناك عالمةٌ اسمها إليني، طيِّبة جدًّا، لكنَّها ربَّما ضجرت وتعبت من اتِّصالاتي».

ضحكتْ، وفي صوتها شيءٌ يتقصَّف. ثمَّة حدَّةٌ وصلابةٌ ذكَّرتْ كوستاس بالألواح المتصدِّعة، كالبلاطات المكسورة.

قالت ديفني: «ربَّما لا ينبغي لي أن أقول هذا، فهو أمرٌ مُحرج، لكنَّ أختي المعتوهة تريدني أن أزور عرَّافًا. لقد حجزت مريم موعدًا بالفعل مع عرَّافةٍ حمقاء. ويبدو أنَّ هذه المرأة تساعد العائلات المفجوعة في إيجاد مفقوديهم. هل تصدِّق؟ لقد أصبحت وظيفةً في قبرص».

«هل تريدين الذهاب؟»

قالت وهي تنحني قليلاً وتفكِّك التراب وتقتلع نبتة حمَّاض: «لا أظنّ». كان جذر النبتة الطويل يخرج من بين أصابعها. أمَّا الفجوة العميقة الضيِّقة في الأرض فتشبه حفرةً خلَّفتْها رصاصة. دفعتْ إصبعها في الحفرة وابتلعت ريقها بقوَّة، حتى إنَّ نفَسَها توقَّف في حلقها. «إلاَّ إذا جئتَ معي».

فمال عليها كوستاس ومسَّد شعرها بنعومةٍ بالغة: «سآتي معك».

ذات مرَّةٍ، صدَّق كوستاس بأنَّهما يستطيعان تجاوز الظروف، وإرسال جذورهما للأعلى نحو السماء، طليقَيْن لا تقيِّدهما الجاذبيَّة، كالأشجار التي نراها في الحلم. كم تمنَّى أن يُعيدهما معًا إلى ذلك الوقت المفعم بالأمل.

قال: «سآتي معكِ إلى أيِّ مكان». بدا صوتُه مختلفًا، أكثر اكتمالاً، كما لو أنَّه خرج من مكانٍ عميقٍ في داخله. خطر له أنَّ شكوكيَّتها المعتادة قد لا تسمح لها بتصديقه، وهي أيضًا لم تبدُ راغبةً في الشكِّ فيه، فانسحبتْ إلى تلك المساحة الحدِّيَّة بين التصديق والشكّ، كما فعلت في ليلةٍ أخرى، في حياةٍ تبدو الآن حياةً أخرى.

اقتربتْ ديفني أكثر، فدفنتْ رأسها في عنقه. لم تقبِّله، ولم توحي له بأنَّها تريد أن يقبِّلها، لكنَّها تمسَّكت فيه بقوَّةٍ، في احتضانٍ قويٍّ حقيقيٍّ، وكان هذا كلّ ما يريده. اكتفى بالإحساس بها إلى جانبها، والإحساس بنبض قلبها على جلده. لمستْ ديفني الندبةَ على جبينه، ندبةً قديمةً جدًّا كان قد نسيها منذ زمن، علامةً من يوم موجة الحرارة حين تعثَّر ووقع على صندوقٍ خشبيٍّ، في استماتةٍ لإنقاذ الخفافيش.

قالت: «اشتقتُ إليك».

في تلك اللحظة، أدرك كوستاس أنَّ الجزيرة سحبتْه إلى فلكها بقوَّةٍ لا يستطيع مقاومتها، فلن يعود إلى إنجلترا قريبًا، لن يعود من دون أن تكون معه.

البَخُور الرَقميّ

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

كان ذلك في اليوم الذي يسبق أعياد الميلاد، ومريم تجلس على الأريكة، صامتةً منكفئة على غير عادتها، وظهرها للغصون المزيَّنة (حزمةٍ من الغصينات التي جمعها كوستاس من الحديقة وصبغها بالرشّ وزيَّنها بالألعاب فأصبحت بديلاً لشجرة العيد). ظلَّتْ مريم تنظر في شاشة هاتفها بتعابير مجروحةٍ، تعابير شخصٍ مظلوم.

سألتْها آدا وهي تمرّ من أمامها: «أمَّا زلتِ تنتظرين موعدًا مع طارد الجانّ؟»

فرفعت مريم رأسها قليلاً. «لا، موضوع الموعد انتهى. وهم في انتظارنا يوم الجمعة».

«أها، شكرًا على عدم إخباري». ألقتْ آدا نظرةً على خالتها، لكنَّ مريم لم تلاحظ لفرط ما كان بالها مشغولاً.

«هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟»

«امممم.. فقدتُ شيئًا، ولا أستطيع إيجاده الآن. كم أكره التكنولوجيا».

ألقتْ آدا بنفسها على طرف الأريكة، وهي تمسك بروايةٍ في يدها، روايةٍ كانت قد سمعتْ عنها كثيرًا، لكنَّها لم تبدأ في قراءتها إلاَّ البارحة. رفعت الكتاب عاليًا بحيث يخفي معظم وجهها، وعينا سِلڤيا �لاس تنظران إلى الخالة مريم مباشرةً من الغلاف.

مرَّت دقيقةٌ، وتنهَّدت مريم.

«هل تحتاجين إلى مساعدة؟»

فردَّت مريم باقتضاب: «لا، شكرًا».

دفنتْ آدا رأسها في كتابها، ولم تنبس أيٌّ منهما بكلمة.

ثم فركت مريم جبينها، وقالت: «أوه، لماذا أحاول أصلاً؟ لقد اختفى! طيِّب، ساعديني من فضلك، ولكن دون استنكار».

«ولماذا أستنكر؟»

«أطمئن فقط». ثم وضعتْ مريم هاتفها بينهما، وتابعت: «حذفتُ تطبيقًا بالخطأ على ما أظنّ. أحاول استعادته لكنِّي لا أريد أن أدفع المبلغ مرَّةً أخرى. ماذا أفعل؟»

«دعيني أرَ. ما اسم التطبيق؟»

«لا أعرف. لونه أزرق».

«وكيف لي أن أعرفه! طيِّب، لأيِّ غرضٍ هذا التطبيق؟»

رتَّبتْ مريم تنُّورتها، وقالت: «آه، أستخدمهُ لصدِّ العين».

فارتفع حاجبا آدا: «حقًّا؟ أيوجد تطبيقٌ لذلك؟»

«كنتُ أعرفُ أنَّكِ ستستنكرين».

«أحاول أن أستوعب الأمر فقط».

«الجميع مشغولٌ في هذا العصر الحديث. قد تكونين في عجلةٍ من أمرك، ولا وقت لديك لإشعال البخُور، أو ليس معك ملحٌ ترشِّينه. أو قد تكونين مع شخصٍ لا تودِّين أن تبصقي أمامه. التطبيق يفعل هذه الأشياء بدلاً عنكِ».

«تقصدين أنَّه يحرق بخُورًا رقميًّا، وينثر ملحًا رقميًّا، ويبصق في الهواء رقميًّا؟»

«نعم، نوعًا ما».

هزَّت آدا رأسها. «وكم دفعتِ لعمليَّة النصب هذه؟»

«إنَّه اشتراك، أجدِّده كلّ شهر. ولن أُخبركِ بالمبلغ لأنَّك ستقولين إنَّه كثيرٌ مهما كان الرقم».

«طبعًا. أوَلا تَرَيْن أنَّهم يخدعونك؟ أنتِ ومئات أو ربَّما الآلاف من البسطاء».

أجرت آدا بحثًا سريعًا فظهرتْ عشرات التطبيقات المشابهة، بعضها للحماية، وبعضها لجلب الحظِّ، وبعضها لقراءة الفنجان أو أوراق الشاي أو بقايا النبيذ. ثم وجدتْ آدا التطبيق المحذوف وحمَّلتْه مرَّةً أخرى دون أن تدفع شيئًا.

قالت مريم وقد انقشع العبوس من ملامحها: «أوه، شكرًا. إذا ما أراد الله أن يُسعد شخصًا مسكينًا، جعله يفقد حماره، ثم ساعده في إيجاده مرَّةً أخرى».

مرَّرتْ آدا يدها على غلاف الكتاب، فيما تتحسَّس برؤوس أصابعها كعبه. «حدِّثيني عن جدَّتي. هل كانت مثلك؟ هل كانت تتوجَّس دائمًا من حدوث مكروه؟»

فقالت مريم وعيناها تشعَّان بالذكريات، ثم تغيمان مرَّةً أخرى: «كانت أمِّي تقول لو جُنَّ العالم كلّه، سيظلّ القبارصة عقلاء. وذلك لأنَّنا غسلنا أطفال بعضنا بعضًا، وقطفنا ثمار بعضنا بعضًا. الحروبُ تنشأ بين الغرباء الذين لا يعرف أحدهم اسم الآخر. لا يمكن أن يحدث شيءٌ هنا. جدَّتك لم تكن خوَّافةً مثلي. لم تتوقَّع شيئًا ممَّا حدث».

تفحَّصت آدا خالتها، ولاحظت أنَّ كتفَيْها هبطا قليلاً. «أتعرفين؟ لديَّ واجبٌ في مادَّة التاريخ، وربَّما تستطيعين مساعدتي فيه».

وضعتْ مريم يدها على صدرها في امتنانٍ كمن تلقَّى مجاملةً غير متوقَّعة: «حقًّا؟ ولكن هل سأعرف الإجابة؟»

«ليس اختبارًا. هو أقرب إلى المقابلة. سأسألكِ بضعة أسئلةٍ عن موطنك وكيف كان حين كنتِ صغيرة. أسئلة من هذا النوع».

فقالت مريم بحذر: «آه، طيِّب. ولكنْ ألا تعتقدين أنَّه من الأفضل أن تسألي والدك؟»

«أبي لا يحدِّثني كثيرًا عن قبرص. أمَّا أنتِ فتستطيعين».

قالت آدا تلك الجملة واسترختْ في جلستها، وأمسكت بكتابها مرَّةً أخرى. ثم قالت من وراء صفحات الجرس الزجاجيّ بصوتٍ خشنٍ متقهقر: «وإلاَّ، لن أذهب إلى طارد الجانّ معك».

العرّافة

قبرص، أوائل الألفيّة الثانية

بعد يومَيْن، التقى كوستاس ديفني ومريم أمام «الخان الكبير» في الوقت الذي تردَّدت فيه أصوات أذان المغرب من المساجد القريبة في نيقوسيا. فوجئ كوستاس برؤية هذا الخان التاريخيّ (الذي بناه العثمانيُّون خانًا للقوافل، ثم حوَّله البريطانيُّون إلى سجن) وقد تحوَّل إلى مركزٍ للفنون والحِرَف والتسوُّق. تناولوا كأس شاي الزيزفون في أحد المقاهي داخل الساحة القديمة.

تنهَّدت مريم وهي ترمق كوستاس بنظرةٍ جانبيَّة. لزمت الصمت على غير عادتها منذ لقائهم، لكنَّها لم تستطع أن تسيطر على نفسها. «تخيَّل كم فوجئتُ حين أخبرتني ديفني بعودتك. لم أصدِّق أذنيَّ! قلتُ لها ابتعدي عنه. والآن أقولها لك مرَّةً أخرى في وجهك. ابتعد عنها. يعلم الله أنَّك تُثير أعصابي يا كوستاس كانزنتزاكس. لقد تركتَها وهي حبلى».

قاطعتْها ديفني بعينَيْن تتلألآن: «كفى يا أبْلَه [أختي الكبيرة]. اتَّفقنا أن لا تفتحي هذا الموضوع».

رفعتْ مريم يدَيْها في الهواء: «طيِّب طيِّب. اعذرني على هذا السؤال الوقح يا كوستاس، ولكنْ متى ستعود إلى إنجلترا؟ أرجو أن يكون قريبًا».

«أبْلَه، اتِّفقنا أن تكوني لطيفةً معه. أنا دعوته للذهاب معنا».

دفعتْ مريم بمكعَّب سكَّرٍ بين أسنانها، وظلَّت تمصُّه بتركيزٍ قبل أن تقول: «أنا لطيفةٌ فعلاً، وهذه مشكلتي. كنتُ أنا من يتستَّر عليكما دائمًا».

أومأ كوستاس. «وسأبقى مدينًا لكِ على ذلك. آسفٌ لأنَّني أُثير أعصابك. أعرف أنَّكِ ساعدتِنا كثيرًا في الماضي».

«نعم، وهذه هي النتيجة!»

«أبْلَه، لآخر مرَّة، من فضلك!»

لوَّحتْ مريم بكفَّيْها، ولم يكن من السهل معرفة ما إذا كان معنى ذلك أنَّها ستستجيب للطلب أم تشجبه. بعدها انتصبتْ في جلستها، وقالت: «بالنسبة إلى لقاء اليوم. لنتَّفق على القواعد أوَّلاً. العرَّافة التي سنزورها (واسمها مدام مارغوشا) شخصيَّةٌ مهمَّة. لقد صنعتْ لنفسها اسمًا بارزًا بين العرَّافين. لا تُسيئا إليها. هذه المرأة قويَّةٌ حقًّا، ولها اتِّصالات كثيرة في كلِّ مكان. وأقصد الاتِّصالات بالعالم الآخر».

وضعتْ ديفني مرفقَيْها على الطاولة ومالت إلى الأمام: «وكيف عرفتِ ذلك؟ من أين لكِ ذلك؟»

غير أنَّ مريم تابعت دون اكتراث: «هي روسيَّة، وُلدت في موسكو. أتعلمان سبب قدومها إلى قبرص؟ رأت في المنام ذات يومٍ جزيرةً مليئةً بقبورٍ مجهولة، واستيقظت وهي تبكي. قالت لنفسها لا بدَّ من أن أساعد هؤلاء الناس في إيجاد أحبابهم. ولهذا السبب جاءت. والأهالي يذهبون إليها لتساعدهم».

فتمتمتْ ديفني: «يا لشهامتها. وكم تطلب مقابل أعمال الشهامة هذه؟»

«أعرف أنَّكِ لا تؤمنين بهذه الأشياء، ولا كوستاس أيضًا، ولكنْ تذكَّري أنَّكِ تفعلين ذلك من أجل صديقَيْكِ. تريدين أن تعرفي ما حلَّ بيوسف ويورغوس، أليس كذلك؟ وأنا أفعل هذا من أجلك. لذلك لا بدَّ من أن تعداني بأن تعاملاها باحترام».

قال كوستاس بلطف: «أعدك».

أمَّا ديفني ففتحتْ يدَيْها بابتسامة: «سأبذل جهدي يا أختي، لكنِّي لا أعدكِ بشيء».

*

كانت العرَّافة تسكن بيتًا من طابقَيْن، بنوافذ من حديدٍ مشبَّك، في مكانٍ غير بعيدٍ عن الخطِّ الأخضر، على شارعٍ كان يُعرف في أيَّام الحكم البريطانيّ باسم «شارع شكسبير». أمَّا بعد التقسيم

فقد غيَّرت السلطات التركيَّة اسمه إلى «شارع محمَّد عاكف» تيمُّنًا بالشاعر التركيّ المعروف. غير أنَّ معظم الناس اليوم يشيرون إلى الشارع باسم «ديريبويو كاديسي»، أي الشارع الذي عند النهر.

أوَّل ما لفت انتباههم حين دخلوا البيت رائحته. لم تكن رائحةً سيِّئة، لكنَّها لاذعةٌ نافذة. كان مزيجًا من خشب الصندل وبخُّور المرّ، مع سمكٍ مقليّ وبطاطس مطبوخة في الفرن من وقت الغداء، بالإضافة إلى وردٍ وياسمين مرشوشٍ بسخاءٍ من شخصٍ يحبّ الإكثار من العطر. حيَّاهم مساعد العرَّافة (وهو مراهقٌ طويل القامة) باقتضابٍ وقادهم عبر السلالم إلى غرفةٍ شحيحة الأثاث، أرضيَّتها الخشبيَّة مرقَّشةٌ بآخر أشعَّةٍ من الشمس التي تدخل من نوافذ زجاجيَّةٍ كبيرةٍ مزخرفة.

قال الولدُ بإنجليزيَّةٍ ثقيلة اللكنة: «سأعود بعد لحظات. اجلسوا من فضلكم». ثم عاد بعد لحظات وأخبرهم أنَّ مدام مارغوشا في انتظارهم.

قالت مريم بتوتُّر: «لعلّه من الأفضل أن أدخل بمفردي».

فرفعتْ ديفني حاجبَيْها: «اثبتي على رأي. جرجرتِني إلى هنا، والآن تريدين الدخول وحدك؟»

فقال كوستاس: «لا بأس، اذهبي. سننتظر هنا».

وما لبثت مريم أن اختفت في الرواق حتى عادت مسرعةً بوجنتَيْن محمرَّتَيْن. «تريد أن تراكما. تخيَّلي أنَّها عرفت فورًا أنَّنا أختان، وعرفت فرق السنّ بيننا. وعرفتْ أيضًا أنَّ كوستاس يونانيّ».

قالت ديفني: «ويدهشك ذلك؟ لا بدَّ من أنَّ مساعدها أخبرها. لقد سمعني أناديك أبْلَه، وسمعني أنادي كوستاس باسمه.. اسمه اليونانيّ!»

«المهمّ، أسرعا. لا أريدها أن تنتظر».

كانت الغرفة في الطرف المقابل من الرواق سخيَّة الإضاءة واسعة، على الرَّغم من أنَّها مملوءةٌ بأدواتٍ يبدو أنَّها تراكمت على مدى حياةٍ جائلةٍ طويلة. ثمَّة مصابيحُ بألوانٍ حريريَّةٍ وشرَّابات، ومقاعد غير متناسقة، ولوحاتٌ رزينةٌ على الجدران، وزرابيّ ومعلَّقات، وخزائن صُفَّت

فيها كتبٌ مجلَّدةٌ ولفائفُ مخطوطة، وتماثيلُ ملائكةٍ وقدِّيسين، ودُمى من البورسلين ذوات أعين مزجَّجة، ومزهريَّات كريستاليَّة، وأعوادُ بخُورٍ فضِّيَّة، ومباخرُ، وأقداحٌ، وأشكالٌ مصغَّرة من الخزف...

في وسط تلك التحف المتنوّعة امرأةٌ شقراء رشيقةٌ ذات فكَّيْن بارزَيْن، بل كلُّ ما فيها كان دقيقًا، بارز العظام. رمشت ببطءٍ بعينَيْها الرماديّتَيْن ـــ الزرقاوَيْن، لونٍ يشبه البحيرة المتجمِّدة، ثم أومأتْ باتِّجاههم. حول عنقها قلادةٌ ورديَّةٌ لؤلؤيَّة، بحجم بيضة طائر السلوى. وكلَّما تحرَّكتْ انعكست الأضواء عليها.

«مرحبًا. تفضَّلوا. سعدتُ برؤيتكم معًا».

جلستْ مريم على مقعدٍ، في حين اختار ديفني وكوستاس كرسيَّيْن من دون أذرع قرب الباب. أمَّا مدام مارغوشا فجلست على مقعدٍ واسعٍ بذراعَيْن خلف طاولةٍ بلون الجوز.

«ما سبب الزيارة إذن.. حبّ أم فَقد؟ في العادة يكون هذا أو ذاك».

تنحنحتْ مريم. «أختي وكوستاس كان لهما صديقان منذ سنوات. يورغوس ويوسف. وقد فُقدا في صيف 1974 م، ولم يُعثر على جثَّتَيْهما حتى الآن. نريد أن نعرف ما حدث لهما. وإنْ كانا ميِّتَيْن، نريد إيجاد قبرَيْهما كي يستطيع أهلهما دفن الرفات. ولهذا نحتاج إلى مساعدتك».

مدَّتْ مدام مارغوشا أصابعها معًا، وهي تحوِّل نظرتها ببطءٍ من مريم إلى ديفني، ثم من ديفني إلى كوستاس. «جئتم إذن بسبب الفقد. لكنَّ شيئًا يوحي إليَّ بأنَّكم جئتم بسبب الحبّ أيضًا».

لَوَت ديفني شفتَيْها، ووضعتْ ساقًا على ساق، ثم أنزلتْها.

فسألتْها العرَّافة: «هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟»

«نعم، لا... أَوَلَيْس الأمر واضحًا؟ أقصد أنَّ كلّ إنسانٍ فقد شيئًا، وكلّ إنسانٍ يسعى إلى الحبِّ».

لجأتْ مريم إلى طرف مقعدها. «آسفة مدام مارغوشا. أرجو ألاَّ تؤاخذي أختي».

فقالت العرَّافة وهي تركِّز على ديفني: «لا بأس. أحبّ المرأة التي تنطق بما يدور في عقلها. طيِّب، ما رأيك؟ لن آخذ منكِ شيئًا إن لم تكوني راضيةً في نهاية الجلسة. ولكنْ إنْ رضيتِ، تدفعين ضعف المبلغ».

حاولتْ مريم أن تتدخَّل: «ولكن ليس بإمكاننا».

قالت ديفني: «اتَّفقنا!»

فقالت مدام مارغوشا وهي تمدّ يدها بأظافرها المقلَّمة على أتمِّ وجه: «اتَّفقنا».

تشابكت اليدان في مصافحةٍ للحظة، في حين ظلَّت عينا كلٍّ منهما تقيِّم الأخرى.

قالت مدام مارغوشا: «بإمكاني أن أرى نارًا في روحك».

فسحبتْ ديفني يدها، وقالت: «أكيد. هل يمكننا أن نركِّز الآن على يوسف ويورغوس؟»

أومأتْ مدام مارغوشا لنفسها، وأخذت تلفّ الخاتم الفضِّيّ في إبهامها. «هناك خمسة عناصر تساعدنا في أعمق أبحاثنا. أربعة زائد واحد: النار، والتراب، والهواء، والماء، والروح. أيُّها تريدون أن أستدعي؟»

تبادل الثلاثةُ نظراتٍ خاليةً من أيِّ تعبير.

فقالت مدام مارغوشا: «سأختار الماء إذن، إلاَّ إن كان لديكم رأيٌ آخر». أغمضتْ عينَيْها، وعادتْ بظهرها إلى المقعد. كانت أجفانها شبه شفيفة، مخرَّمةً بشعيراتٍ دمويَّةٍ زرقاء صغيرة.

مرَّت دقيقةٌ طويلةٌ لم يحرِّك فيها أحدٌ ساكنًا أو يقل شيئًا. ثم قالت العرَّافة بهدوءٍ في ذلك الصمت المربك: «معظم المفقودين في قبرص مخبوئين في قاع نهرٍ أو تلَّةٍ مطلَّةٍ على البحر، أو داخل بئرٍ أحيانًا... لو استطعنا إقناع الماء بالتحدُّث إلينا، سنجد الخيوط التي نحتاج إليها».

حبستْ مريم نفَسَها، وهي تقترب أكثر من طرف المقعد.

فقالت مدام مارغوشا: «إنِّي أرى شجرة. شجرةُ ماذا يا تُرى، زيتون؟»

مال كوستاس نحو ديفني. لم يكن في حاجةٍ إلى النظر إليها كي يستشعر ما تفكِّر فيه؛ أي أنَّ العرَّافة اختارت شجرة الزيتون تحديدًا لكثرة انتشارها في قبرص.

«لا، ليست زيتونة. لعلَّها تينة... شجرة تين، لكنَّها في الداخل، لا الخارج. غريب! شجرةُ تين داخل غرفة! المكان صاخبٌ جدًّا هنا. موسيقى، وضحك، وأصواتٌ تعلو على أصوات... ما هذا المكان؟ مطعم؟ يوجد طعامٌ، طعامٌ كثير. ها هما صديقاكما! أراهما الآن، قريبَيْن، هل يتراقصان؟ أعتقد أنَّهما يتبادلان القبل».

أحسَّ كوستاس برجفةٍ في قفاه.

«نعم، يتبادلان القبل... سأناديهما لأرى إن كانا سيردَّان. يوسف... يورغوس». تباطأت أنفاسُ مدام مارغوشا، بصوتٍ كشطٍ يصدر من حلقها. أين ذهبا؟ لقد اختفيا. سأحاول من جديد. يوسف! يورغوس! أرى الآن طفلاً. ما أجمله من ولدٍ صغير! ما اسمه؟ أوه، فهمت، اسمه يوسف يورغوس. ها هو يجلس على أريكةٍ بها وسائد من كلِّ جهة. يعضّ على عضَّاضة. ما أجمله... أوه، لا! المسكين».

فتحتْ مدام مارغوشا عينَيْها وحدَّقت في ديفني. فيها وحدها. «متأكِّدةٌ من أنَّكِ تريدين أن أستمرّ؟»

*

بعد ربع ساعةٍ، كان الثلاثة في الشارع الذي عند النهر. غذَّت ديفني خطاها أمامهم بشفتَيْن مزمومتَيْن، فيما يتبعها كوستاس بخطواتٍ محسوبةٍ، وخلفهما مريم التي تبدو مصدومة. وقفوا أمام محلّ جواهر مغلق. كانت أضواء النيون التي تمتزج مع الانعكاسات اللامعة من الأساور والقلائد الذهبيَّة تزيد من حدَّة ملامحهم.

فقالت مريم وهي تمسح عينَيْها بظاهر يدها: «لماذا فعلتِ ذلك؟ لم يكن هناك أيّ داعٍ للإساءة إليها. كانت ستخبرنا».

رفعت ديفني الشعر المتساقط على وجهها، وقالت: «كلاَّ. تلك المرأة دجَّالة. كانت تُعيد إلينا المعلومات التي نعطيها إيَّاها. تقول: أرى مطبخًا كبيرًا برَّاقًا، قد يكون بيتًا أو مطعمًا، فتقولين أنتِ

لها: لا بدَّ من أنَّها حانة، فتقول هي: نعم، نعم إنَّها حانة. وانطلى عليكِ ذلك؟»

نظرت مريم بعيدًا. «أتعرفين أكثر ما يؤلمني؟ الطريقة التي تعاملينني بها وكأنَّه ليس لي عقل. أنتِ ذكيَّة، وأنا لست ذكيَّة. أنا محافظةٌ، تقليديَّة. مريم ربَّة البيت! أنتِ تحقِّرين من شأني ومن شأن أسرتك. من شأن جذورك! بابا يهيم بكِ، لكنَّكِ لا تأبهين به».

فوضعتْ ديفني يدها على ذراع أختها، وقالت: «هذا غير صحيح. اسمعي».

لكنَّ مريم تراجعت، وصدرُها يجيش. «لا أريد أن أسمع شيئًا الآن. أريد أن أكون بمفردي، من فضلك». وأسرعتْ بعيدًا، تنعكسُ أضواءُ الشارع على شعرها الكستنائيّ الطويل.

نظرت ديفني إلى كوستاس فوجدت وجهه نصف مخبوءٍ في ظلٍّ، مستغرقًا في التفكير. ألقتْ بيدَيْها في الهواء وقالت: «أشعر بالذنب الشديد. لماذا أنا هكذا دائمًا؟ لقد أفسدتُ الأمر، أليس كذلك؟ مريم محقَّة. فبعد أن سافرتَ، ازدادت الأحوال سوءًا في بيتنا. كنت أشعر بالتعاسة طوال الوقت، ففرَّغتُ همِّي في والديّ. كنَّا نتشاجر دائمًا، وكنتُ أقول إنَّهما من طرازٍ عتيق، وتفكيرٍ ضيِّق».

نقل كوستاس ثقله من قدمٍ إلى أخرى. فقالت ديفني حين أدركت أنَّه لن يقول شيئًا: «هيَّا نشرب كأسًا. دعنا نشرب حدّ الثمالة. لديَّ المبلغ الكبير الذي لم ندفعه للعرَّافة».

تفحَّص كوستاس وجهها بتركيزٍ خالص. «ألا ترَيْن أنَّ من واجبكِ إخباري؟»

«ماذا؟»

«تلك المرأة تحدَّثت عن ولدٍ صغير. يوسف يورغوس. لا أتخيَّل طفلاً على هذه الجزيرة يُمكن أن يُعمَّد باسمٍ يونانيّ وتركيّ. مستحيل، إلاَّ إذا كنتِ أنتِ والدة الطفل...».

أشاحت ببصرها، ثانيةً واحدةً فقط.

«حين علمتُ بأمر الحمل، افترضتُ حدوث إجهاض. لكنَّني الآن أُدرك أنَّني ربَّما أخطأت. هل حدث إجهاض أم لا؟ تكلَّمي يا ديفني».

قالت وهي تفتح حقيبتها بحثًا عن سيجارةٍ، لكنَّها لم تشعلها: «لماذا تسألني هذه الأسئلة؟ لا تقل لي إنَّك تُصدِّق الكلام الفارغ الذي قالته العرَّافة. أنت عالم! كيف يمكنك أن تأخذ هذا الكلام

بجدِّيَّة؟»

«لا تهمّني العرَّافة. يهمّني ما حدث لطفلنا».

جفلتْ ديفني حين قال ذلك، كما لو أنَّها لمست حديدًا ساخنًا.

«لم يكن من حقِّكِ أن تخفي الحمل عنِّي».

احتدَّت تحديقة ديفني، وقالت: «لم يكن من حقِّي؟ فعلاً؟ كنتُ في الثامنة عشرة، وحيدةً، مرعوبةً حدّ الموت. لم أجد مكانًا ألجأ إليه. لو عرف أبواي، فلا أدري ما كان سيحدث. كنتُ أشعر بالخزي. أنت لا تعرف شعور من تعرف أنَّها حبلى ثم لا تستطيع حتى أن تخرج لطلب المساعدة. كان الجنود في كلِّ مكان، في مدينةٍ مقسَّمة، في أسوأ أوقاتها، والمذياع يهدر طوال الوقت «ابقوا في منازلكم». إجراءات طوارئ جديدةٌ كلّ ساعة، ولا أحد يعرف ما يخبِّئه الغد، والناس يهاجمون بعضهم بعضًا، ويموتون. هل تعرف شعور من تحاول أن تخفي حملها حين يبدو العالم وكأنَّه ينهار، ولا أحد لديها كي تتحدَّث إليه؟ أين كنت أنت؟ إن لم تكن موجودًا ساعتها، فلا حقَّ لديك في محاكمتي الآن».

«أنا لا أحاكمك».

لكنَّها كانت قد ابتعدت.

وقف كوستاس في ضوء النيون الحادّ من المحلّ، ساكنًا، يستحوذ عليه حسٌّ عميقٌ بالعجز حتى إنَّه للحظةٍ لم يستطع التنفُّس. في شرودٍ سقطتْ نظرته على النافذة التي كان يقف عندها، ينقِّل عينَيْه بين الذهب والفضَّة المصفوفة بترتيبٍ على الأرفف الزجاجيَّة. خواتم وأساور وقلائد مشتراة لعرسٍ أو عيد ميلاد أو ذكرى سنويَّة، لكلّ ما فاتهم طوال السنوات الماضية.

لم تكن تريد التحدُّث إليه، لكنَّه كان في حاجةٍ إلى معرفة الحقيقة. غدًا صباحًا، سيبدأ يومه بالاتِّصال بالدكتور نورمان لسؤاله عمَّا حدث في صيف 1974 م، حين كان على بعد مئات الأميال.

ليس جِنّيّك

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

انقضت العاصفةُ، فاتَّشحت السماءُ بلونٍ رماديٍّ شاحب، على الرَّغم من أنَّها ما تزال ملطَّخةً في أطرافها، مثل صورةٍ غير مرغوبٍ فيها ملقاةٍ في حريق. خرجتْ آدا وخالتها بعد الظهيرة، بحجَّة التسوُّق، غير أنَّهما كانتا تقصدان طارد الجانّ.

تمتمتْ آدا وهي تمشي نحو محطَّة المترو: «لا أصدِّق أنَّني وافقتُ على هذا».

فقالت مريم وكعبُها يدقّ الأرض: «نحن محظوظتان جدًّا لأنَّه وافق على لقائنا».

«تتحدَّثين وكأنَّ لديه قائمة انتظارٍ طويلة».

«في الحقيقة كانت هناك قائمة انتظار، والموعد الأقرب كان بعد شهريْن ونصف الشهر! اضطُررت إلى استخدام كلّ أسلحتي على الهاتف».

نزلتا في محطَّة «ألدغيت الشرقيَّة»، فتوقَّفتا قليلاً في أحد المقاهي لتناول مشروب. طلبت آدا «شاي لاتيه»، وطلبت مريم «موكا الشوكولاتة البيضاء بالكريمة».

«لا تنسَي، ولا كلمة لأبيكِ. لن يغفر لي هذا أبدًا. وعد؟»

«لا تقلقي، لن أخبره أبدًا. سيصاب بخيبة أملٍ فيَّ لو علم أنِّي أُضيِّع طاقتي في الخزعبلات. يربطُ الآن بيننا هذا السرُّ والعار».

فلمَّا وصلتا إلى العنوان كانت الساعة حوالى الثالثة عصرًا، دون أيّ احتمالٍ للشمس في تلك السماء الكئيبة.

كان الشارع المكتظّ مصفوفًا بأشجار الدلب عديمة الأوراق. ثمَّة شققٌ حديثة، ومطاعم كاري، ومطاعم بيتزا، ومطاعم الأكل الحلال، وأكشاك بيع الباشمينا والساري، ومحالُّ انتقلت ملكيَّتها عبر موجاتٍ متتابعةٍ من المهاجرين، من الفرنسيِّين البروتستانت، ويهود شرق أوروبا، والبنغلاديشيِّين والباكستانيِّين. في محالِّ الكباب تدور أسياخ اللحم ببطءٍ في النوافذ، كأنَّما في غفوة، مثل آخر الضيوف في حفلةٍ طالت كثيرًا. تفحَّصتْ مريم ما حولها في ذهول، في حَيْرةٍ وسعادةٍ بهذه اللندن التي لم تكن تعرف أنَّها موجودة.

سارتا في الاتِّجاه المعاكس للازدحام، فوصلتا إلى بيتٍ شبه معزولٍ من الطوب الأحمر. لم يكن به جرس، بل مجرَّد مقرعةٍ نحاسيَّةٍ على شكل عقربٍ بذيلٍ بارز. فضربتاها بقوَّة.

قالت آدا وهي تنظر في المقرعة المزخرفة بشيءٍ من النفور: «يبدو أنَّه يحبّ الاستعراض».

فهمست مريم: «اششش، احذري في كلامك. لا مزاح عند الرجال المباركين».

انفتح الباب قبل أن تردّ آدا، وحيَّتهم فتاةٌ كانت ترتدي حجابًا أخضر فاتحًا، وفستانًا بلونٍ شبيهٍ يصل إلى كاحلَيْها.

قالت مريم: «السلام عليكم».

فردَّت الفتاة بإيماءةٍ مقتضبة: «وعليكم السلام. تفضَّلا. كنَّا ننتظر قدومكما قبل هذا الوقت».

قالت مريم: «تأخيراتٌ شديدة في المترو»، ولم تشر بالطبع إلى المحالّ التي أصرَّت على زيارتها في الطريق.

كانت هناك أحذيةٌ بمقاساتٍ متنوِّعةٍ مصفوفةٌ عند المدخل، وكلّها باتِّجاه الباب الأماميّ. تناهت من الأعلى أصوات أطفالٍ يتشاجرون، وخبْطُ كرة. طفلٌ رضيعٌ يبكي في مكانٍ في الممرّ. رائحةٌ خفيفةٌ عالقةٌ في الهواء، رائحةُ طبخٍ، قديمةٌ وجديدة.

توقَّفت مريم قليلاً، واكفهرَّ وجهها.

فنظرتْ آدا إلى خالتها في فضول. «ماذا حدث؟»

«لا شيء. تذكَّرتُ أنّي اصطحبتُ أمّكِ إلى عرَّافةٍ شهيرةٍ في قبرص قبل زمن. وأبوكِ أيضًا جاء معنا».

«مستحيل! حقًّا؟ أبي وافق على هذا؟»

لم يكن هناك وقتٌ للدردشة. سيقتا إلى غرفةٍ في الخلف. في داخلها صفوفٌ من المقاعد البلاستيكيَّة، وأدعيةٌ مبروزةٌ بالعربيَّة معلَّقةٌ على الجدران. هناك أسرةٌ من أربعة أشخاصٍ يتداولون في أمرٍ ما، يتحدَّثون فيما بينهم في وشْوَشاتٍ. وعند الباب عجوزٌ تحيك شيئًا يبدو أنَّه سُترة، لكنَّها لفرط صغرها يبدو أنَّها سترة دُمية. جلست مريم وآدا بجانبها.

فقالت المرأة بابتسامةٍ عارفة: «أوَّل مرَّة، صحّ؟ هل الزيارة من أجل الصغيرة؟»

هزَّت مريم رأسها موافقة. وسألتْها: «وأنتِ؟»

«أوه، نحن نتردَّد إلى هذا المكان منذ سنوات. جرَّبنا كلّ شيء. الأطبَّاء، والحبوب، والعلاجات. لم ينفع شيء. ثم اقترح علينا أشخاصٌ أن نأتي إلى هنا، جزاهم الله خيرًا».

«تقصدين أنَّ العلاج نفعكم؟»

«نعم، ولكن لا بدَّ من الصبر. لا تقلقي، أنتِ في أيدٍ أمينة. هنا يُعالَج كلّ المجانين».

شقَّ الهواء صوتُ صرخةٍ من الغرفة المجاورة.

فقالت المرأة وهي تسحب خيطًا: «لا تقلقي. هذا ابني. يصرخ أيضًا في نومه ليلاً».

قالت آدا: «ربَّما العلاج غير نافعٍ إذن».

عبست مريم قليلاً. لكنَّ المرأة لم تبدُ منزعجة. «المشكلة هي أنَّه كان هناك أكثر من جِنّيٍ واحد. أخرج الشيخُ عشرةً منها بارك الله فيه، ولكنْ بقي واحد. بعدها يرتاح ابني».

فقالت آدا: «واو.. عشرة جانّ، وبقي واحد. كان بإمكانه تشكيل فريق كرة قدم».

ازداد عبوس مريم، ولكنْ مرَّةً أخرى لم تنزعج المرأة. وهنا خطر لآدا أنَّها في عين هذه الغريبة كانت واحدةً من المجانين، ولذلك يمكنها أن تقول أشياء مجنونة وتفعل أشياء أكثر جنونًا،

وسيُغفر لها. يا لها من حرِّيَّة! قد يكون الجنون الحرِّيَّة الحقيقيَّة الوحيدة في هذا العالم المحكوم بالقواعد والأنظمة التي لا منطق لها، والتي عادةً ما تحابي القلَّة على حساب الكثيرين.

بعد برهةٍ، طُلب إليهما الدخول لمقابلة طارد الجانّ.

*

كانت الغرفة قليلة الأثاث إلاَّ من أريكةٍ حمراء عند الجدار، وسجَّادةٍ معلَّقةٍ بلون اليشم والأزرق. ثمَّة وسائد مطرَّزة مبعثرة هنا وهناك، وطاولةٌ دائريَّةٌ خفيضة في المنتصف، إلى جانبها سلَّةٌ مملوءةٌ بزجاجاتٍ وجِرار.

على الجدار المقابل مدفأةٌ تبدو وكأنَّها أُضيفت لاحقًا، مكسَّرة البلاطات، وإطارُها عبارةٌ عن لوح رخامٍ متصدِّع. وهناك سجَّادةٌ مزخرفة معلَّقةٌ على الجدار عليها صورةٌ منسوجةٌ لسوقٍ يحتوي على أكشاك بها بهارات، وطاووس يتبختر ويستعرض ريشه، ورجالٌ يلبسون أرديةً شرقيَّة جالسين على مقاعدَ خشبيَّة، بعضهم يشرب القهوة، والآخرون يدخِّنون الأرجيلة. تبدو الصورة أقرب إلى خيال شخصٍ عن الشرق الأوسط منها إلى مكانٍ حقيقيّ.

في منتصف هذا المشهد يجلس طارد الجانّ عاقدًا ساقَيْه، عيْناه غائرتان ووجهه مهزولٌ تؤطِّره لحيةٌ قصيرة. لم ينهض لتحيَّتهما، ولم يصافحهما. أشار إليهما بإيماءةٍ منه أن تجلسا على السجَّادة، قبالته.

«من المريضة إذن؟»

تنحنحتْ مريم وقالت: «ابنة أختي، آدا، لديها بعض المشكلات. ذات يومٍ في المدرسة صرختْ أمام الفصل كلّه، ولم تستطع أن تتوقَّف».

هزَّت آدا كتفَيْها، وقالت: «كانت حصَّة التاريخ. والكلّ يشعر بالرغبة في الصراخ في حصَّة مسز وولكوت».

ربَّما فهم طارد الجانّ النكتة، لكنَّه لم يبتسم. فقال بجدِّيَّة: «يبدو أنَّه من عمل الجانّ. فهم مخادعون. يسيطرون على الجسد أوَّلاً. الحلقة الأضعف. وعندها يُقدم الناس على أفعالٍ غير متوقَّعة؛ بعضهم يتحدَّث بلغةٍ غير مفهومة في اجتماعٍ مهمّ، وآخرون يرقصون في وسط شارعٍ

مزدحم، وغيرهم يصرخون مثلك... لكنَّ الأمر يسوء إن ظلُّوا دون علاج. بعدها يحتلّ الجانّ عقولهم، وهنا يبدأ الاكتئاب، والقلق، ونوبات الذعر، ووساوس الانتحار. وبعد ذلك يسعى الجانّ إلى المعقل الأخير، الروح».

ألقتْ آدا نظرةً إلى خالتها، فوجدتْها تنصت باهتمام.

«لكنَّ الله رحيمٌ بعباده، فلكلِّ داءٍ دواء».

عندها، فُتح الباب كأنَّما في توقيتٍ متَّفقٍ عليه، فدخلت الفتاة نفسها تحمل صينيَّةً عليها طاسة ماءٍ فضِّيَّة، وإبريقٌ من الحبر الأسود، وقطعة ورقٍ مصفرَّة الأطراف، وقليلٌ من الملح، ووُريقة من حصى البان، وريشة. وضعت الصينيَّة أمام الرجل، وتراجعت إلى زاويةٍ دون أن تنظر إلى أحد. تساءلت آدا ما إذا كانت هذه مساعدته، مثل مساعد الساحر، ولكنْ دون بريقٍ أو تصفيق.

قال الرجل وهو يتفحَّص آدا: «ينبغي لكِ أن تركِّزي. أريد منكِ أن تنظري إلى الماء في الطاسة، وحين تسمعيني أردِّد الأذكار لا تتحرَّكي، ولا ترمشي. إنْ حالفنا الحظّ فسوف ترين وجه الجنِّيّ الذي يؤذيكِ. حاولي أن تعرفي اسمه. هذا مهمّ؛ فبمجرَّد أن نعرف المسؤول عن ذلك، يمكننا الوصول إلى أصل المشكلة».

ضاقت عينا آدا. كان جزءٌ منها يريد أن ينهض ويهرب، وجزءٌ آخر يدفعه الفضول للانتظار ومعرفة ما سيحدث.

في أثناء ذلك، غمس الرجل الريشةَ في الحبر، وكتب دعاءً سبع مرَّات. ثم طوى الورقة وألقى بها في الطاسة، فرشّ عليها الملح وحصى البان. بعدها أخرج مسبحةَ عنبرٍ من جيبه، وبدأ يُحرِّك الخرزات وهو يتلو الأذكار، وصوته يعلو ويهبط مع كلِّ نَفَس.

حدَّقتْ آدا في الماء الذي تعكَّر بدوائر الحبر، وبذلتْ جهدًا للإبقاء على تحديقتها، في انتظار إشارةٍ، لانكشاف السرّ. لم يحدث شيء. صوت الأطفال وهم يلعبون في الأعلى، وصوت الخرزات في المسبحة، والتمتمات المهموسة بالعربيَّة. بدا لها أنَّه لا فائدة من الجلوس في مكانها رجاة أن تحدث معجزة، بل بدا الأمر برمَّته عبثًا. أغلقتْ فمها، لكنَّها تأخَّرت كثيرًا، فانفلتتْ من حلقها قهقهةٌ عالية.

توقَّف الرجل. «لا فائدة. لا يمكنها التركيز. الجانّ يمنعها».

فاقتربتْ مريم من آدا. «هل رأيتِ شيئًا؟»

همست لها آدا: «رأيت صندوق الكنز. وأعرف مكان الذهب. هيَّا لنذهب!»

فعلَّق طارد الجانّ: «الجانّ أذكياء. يلعبون بعقلها، يعرفون أنَّهم لا يستطيعون السيطرة على البشر إلاَّ حين نخاف منهم. ولهذا يختبئون».

عندها خطر لآدا أبوها الذي كان دائمًا يردِّد أنَّ المعرفة ترياق الخوف. لعلَّه في هذه النقطة يمكن أن يتَّفق العالِم وطارد الجانّ!

«علينا أن نُجرِّب طريقةً أخرى». وأشار إلى الفتاة في الزاوية. «جميلة، تعالي».

طلب من جميلة وآدا أن تجلسا على مخدَّتيْن متقابلتَيْن، ووضع على رأسيْهما شالاً ينسدل إلى الأكتاف. وعند كلّ جانبٍ أحرق قطع خشبٍ مغموسةٍ في زيتٍ معطَّر، تفوح منها رائحة العود والمسك.

أخذتْ آدا تتفحَّص الفتاة من تحت الشال، وكأنَّها انعكاسٌ لها في مرآةٍ مشوَّهة. رأتْ شيئًا منها في جميلة، رأتْ أثرًا من غرابتها. واستطاعت هناك أن ترى الشبه بين الفتاة وطارد الجانّ. كان أباها. كيف لم تتفطَّن إلى ذلك؟ ربَّما في عالمٍ آخر كان يمكن أن تولد هي لذلك الرجل وتُولد جميلة لكوستاس. لو حدث ذلك، فهل ستكون شخصًا مختلفًا تمامًا، أم ستكون نفسها؟

أتُرى كانت جميلة أيضًا تعاني من نوبات الحزن، والشعور بفقدان القيمة؟ هل كان جيلٌ يبدأ حتمًا من حيث استسلم الجيل السابق، مستوعبًا كلّ إحباطاته وأحلامه غير المتحقِّقة؟ وهل اللحظة الحاليَّة مجرَّد استمرارٍ للماضي، وكلُّ كلمةٍ خاتمةٌ لما قيل سابقًا أو لم يُقَل؟ الغريبُ أنَّ الفكرة كانت مريحةً ومزعجةً في الوقت نفسه، إذ ترفعُ عن المرء أحمالَه التي تثقله. ربَّما لهذا السبب يرغب الناس في الإيمان بالقدر.

قال الرجل بصوتٍ آمر أكثر: «حسنٌ. أتحدَّث إليك أيُّها المخلوق من نارٍ بلا دخان. اترك آدا وشأنها! فإنْ أردت ضحيَّةً خُذ جميلة بدلاً منها».

فقالت آدا: «ماذا؟»، وسحبت الشال من على رأسها بحركةٍ سريعة. «ماذا تفعلون؟»

قال الرجل: «اهدأي يا طفلتي. ضعي الشال مرَّةً أخرى. افعلي ما أطلبه منكِ فحسب».

«ولكنْ لماذا قلتَ خُذ جميلة؟»

«لأنَّنا نريد من الجنِّيّ أن يتلبَّس جميلة. فهي تعرف كيف تتعامل معهم».

«مستحيل أن أوافق على هذا. ما ذنبها هي كي تتعامل مع مشكلتي؟»

«لا تقلقي. سبق وأن جرَّبت جميلةُ هذا من قبل. تدرَّبت جيِّدًا».

نهضتْ آدا على قدميْها. «لا، شكرًا. سأترك جِنِّيي في مكانه».

فقال الرجل: «ليس جنِّيّيك».

«لا يهمّ. لن أدعك تنقل مخلوقي الشرِّير إلى ابنتك لمجرَّد أنَّنا ندفع لك. سأخرج من هنا».

فلمَّا وقفت آدا وأبعدتْ دخان البخور بيدَيْها، خطر لها أنَّها رأت على وجه الفتاة لمحةً من ابتسامة.

قال الرجل: «هذا الجنِّيّ يتحدَّث. لا تلقي له بالاً».

فتنهَّدت مريم. «لا أظنّ. يبدو لي هذا كلام آدا».

*

ومع ذلك، كان عليهما أن تدفعا المبلغ كاملاً، سواء أطُرد الجنِّيّ أم لم يُطرد.

في الخارج، كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا، من ذلك النوع اللطيف الذي يكاد لا يبلِّل الناس، على الرَّغم من أنَّه يبلِّلهم. التمعتْ بِركٌ من الماء على الأرصفة، وانعكستْ أضواء السيَّارات العابرة من الإسفلت، فغدت الألوان أبهى، والعالمُ أكثرَ سيولة. وثمَّة رائحةٌ عفنة علقت في الهواء، رائحةُ الأوراق المتساقطة.

قالت مريم: «هل تشعرين بالبرد؟»

«لا. آسفة لأنّي أحرجتك».

«هي غلطتي، كان ينبغي أن أعرف. لم يسرِ الأمر على ما يرام أيضًا حين اصطحبتُ والدَيْك إلى العرّافة». سحبتْ مريم ياقة معطفها، ثم رقَّ وجهُها. «أتعلمين، خطر لي للحظةٍ في تلك الغرفة أنّي رأيتُ أمّك فيكِ. كنتِ مثلها تمامًا». كان هناك قدْرٌ من اللطف في صوتها لدرجة أنَّ آدا شعرت بانقباضٍ في قلبها. لم يقل لها أحدٌ ذلك من قبل. ولأوّل مرَّةٍ، خطر لها أنَّ أباها ربَّما يرى الشيء نفسه كلّ يوم. لعلَّه يُبصر في حركاتها وكلامها وغضباتها وشغفها انعكاساتٍ لأمِّها الراحلة. إن صحَّ ذلك، فلا بدَّ من أنَّه يُدفِّئ قلبَه ويحطِّمه في الوقت نفسه.

«خالتي مريم، لا أظنّ أنَّ هناك جنّيًّا يتلبَّسني».

«لعلَّكِ محقَّة كانيم. ربَّما يكون... لقد عانيتِ كثيرًا في الفترة الماضية. لعلَّنا نمنح الحزنَ أسماءً مختلفةً، لأنَّنا نخاف أن نسمِّيه باسمه».

سالتْ عينا آدا، إذْ شعرتْ بأنَّها أصبحت أقرب إلى هذه المرأة ممَّا كانت تتخيَّل. ومع ذلك، فحين فتحت فمها قالت شيئًا مختلفًا. «أريدكِ أن تعرفي أنَّني لن أغفر لكِ أبدًا تغيُّبكِ عن جنازة أمِّي».

«أتفهَّم ذلك. كان عليَّ أن أحضر. لم أستطع».

سارت آدا جنبًا إلى جنب مع خالتها، والناس يسرعون عن يمينهما وشمالهما. بين الفينة والأخرى تقفان على حجرٍ مخلخلٍ في الرصيف، يرشق الطينَ ويلطِّخ ملابسهما، لكنَّهما لم تلاحظا ذلك.

الروح العتيقة

قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

حين عاد كوستاس إلى فندق أفروديت جافاه النوم، إذْ كان عقله يدور ويدور حول كلّ ما قالتْه ديفني.. وما لم تقلْه. قرب بزوغ الفجر، ارتدى ملابسه، ونزل إلى بهو الفندق راجيًا أن يجد كوب شاي. لم يكن هناك أحدٌ في الاستقبال، خلا قطَّةٍ منطويةٍ في سلَّتها، تُطارد في أحلامها الأرانب البرِّيَّة. فتح باب الفندق، وخرج، فأراحتْه رائحةُ التراب بعد عطانة غرفته.

رأى أشجار الأكاسيا في التلال المتموِّجة بعيدًا، برائحتها الحُلوة ونموِّها السريع. الأكاسيا نوعٌ أستراليٌّ غريبٌ وسريع الانتشار. ظلَّت هذه الأشجار تُزرع على نطاقٍ واسعٍ في الجزيرة، عن حُسن نيَّةٍ دون شكّ، ولكنْ دون فهمٍ كافٍ للنظام البيئيّ في قبرص ومنظومتها الجوفيَّة المعقَّدة التي كانت تمرّ بحالةٍ من التغيُّر والتدمير. أدرك كوستاس أنَّ أساس المشكلة لا يقتصر على موظَّفي الدولة الذين لم يكن لديهم علمٌ كافٍ؛ فأشجار الأكاسيا كانت المفضَّلة عند صائدي الطيور، أولئك الذين ظلُّوا يزرعونها بغرض الصيد غير المشروع.

كان هناك ضبابٌ بطيءٌ يرتفع من الأرض، رقيقًا شاحبًا مثل آمالٍ لا أساس لها. شعر كوستاس بصداعٍ وشيك، فغذَّ خطاه عسى أن يساعده الهواء النقيّ. لكنَّه ما إنْ اقترب من الأشجار حتى رأى أمامه شبكاتٍ ملفوفةً بإتقانٍ، معلَّقةً في الهواء، وثمَّة طيورٌ مغرِّدةٌ عالقةٌ فيها مثل راياتٍ مروِّعة.

وبدأ يجري. «أوه، لا. يا إلٰهي!»

كانت الشبكة مثقلةً بطيور العلِّيق الأميركيّ، والدّخلة، والشرشور، والعزيزاء، والذعرة، والقبَّرة الشجاعة، والطيور الغرِّيدة التي تصدحُ أوَّلاً في جوقة الفجر. لقد وقعت كلّها في الفخاخ في جنح الليل. مدَّ كوستاس جسمه وجرَّ الشبكة بقوَّةٍ، لكنَّها لم تنفلت، فقد كانت موثَّقةً من جوانبها

الأربعة. لم يستطع سوى أن يمزّق زاويةً واحدة. وأخذ يتفحَّص الأشجار القريبة باهتياجٍ شديد. فأينما ولَّى وجهَه رأى الجير الدبق منتشرًا على الأغصان العالية والخفيضة. كان كوستاس محاطًا بطيورٍ مغرّدةٍ ميّتة، عالقةٍ دون حراك بأجنحتها المنشورة، وأعينها الملتمعة كما لو أنَّها مغلَّفةٌ بالزجاج.

مشى قرابة عشر أقدام، فوجد طائر أبو الحنَّاء ملصقًا على نحوٍ مقلوبٍ في غصن صغير، بصدره الأصهب الناعم ومنقاره المفتوح قليلاً. كان مشلولاً، على الرَّغم من أنَّه ما يزال يتنفَّس. حاول كوستاس أن يحرِّر الطائر بلطفٍ، لكنَّ اللصق كان قويًّا جدًّا. تلوَّت أحشاؤه وهو يشعر بالعجز، غير قادرٍ على فعل شيءٍ، وغير راغبٍ في ترك الطائر. لكنَّه بعد ثوانٍ قليلة أدرك أنَّ قلب الطائر توقَّف، فسَرَتْ فيه راحةٌ مغموسةٌ بالذنب.

في لندن، كان يدهشه دائمًا أن يرى طائر أبو الحنَّاء وهو يجاهد كي يُسمعَ صوتُه فوق صخب المدينة، يشقّ طريقه عبر جلجلة الزحام والقطارات ومعدَّات البناء. جَهدٌ مستمرٌّ، وراحةٌ قليلة. تنخدع طيورٌ كثيرةٌ بالأضواء البرَّاقة في ساعات الظلام، فتفترض أنَّ من واجبها الاستمرار في التغريد. يبدأ واحدٌ منها، فتتبعه الأخرى، تدافع عن حِماها. كان ذلك يكلِّفها طاقةً هائلة، وهي لا تعرف متى ينتهي النهار أو يبدأ الليل. هكذا استوعب كوستاس الحياة المرهقة التي تعيشها الطيور في المدينة، ولذلك بدا له الأمرُ أكثر قسوةً أن تلاقي حتفها هنا، على جزيرةٍ وادعة.

كان يعرف طبعًا أنَّ هذا يحدث في كلِّ مكانٍ في الجزيرة. يعرف طبق أمبيلو �وليا الذي يُعدّ كافيار قبرص. طيورٌ مغرِّدة مشويَّةٌ أو مقليَّةٌ أو مخلَّلةٌ أو مغليَّة. تُعدُّ طبقًا شهيًّا، محبوبًا في جنوب البلاد وشمالها، وفي منطقة الأمم المتَّحدة، والمنطقة العسكريَّة البريطانيَّة. تعتبره الأجيال القديمة من القبارصة عادةً غير ضارَّة، أمَّا الشباب فيرونه وسيلةً لإثبات شجاعتهم. تذكَّر كوستاس يدَيْ أُمِّه، ووجه أُمِّه، وهي ترتِّب الطيور على المنضدة قبل أن تخلِّلها في الجِرار. لا تفعلي ذلك يا ماما. لا أريد أن آكلها بعد اليوم.

بيد أنَّ ما كان يراه الآن أكبرُ من مجرَّد عاداتٍ محلِّيَّة. ففي السنوات التي غاب فيها، نشأتْ سوقٌ سوداء؛ إذْ غدا تهريب الطيور الميّتة تجارةً رابحةً لعصاباتٍ دوليَّة ومتعاونين معها. فالطيور التي تُصطاد في قبرص تُهرَّبُ وتُباع بأسعارٍ عاليةٍ في دولٍ أخرى مثل إيطاليا ورومانيا ومالطا وإسبانيا وفرنسا وروسيا، بل في آسيا أيضًا. بعض المطاعم تعرضها في قائمة الطعام، في حين تقدِّمها مطاعم أخرى خِلسةً، بأسعارٍ خاصَّة. والزبائن يقدِّرون هذه الميزة؛ فمن دواعي التفاخر أن

يتحدَّث المرءُ عن عدد الطيور التي أكلها في جلسةٍ واحدة. لذلك استمرَّ ذبح الطيور واصطيادها دون حسيبٍ أو رقيب، إذ يُذبح أكثر من مليوني طائرٍ مغرّدٍ في قبرص كلّ عام.

والأمرُ لا يقتصر على الطيور الجاثمة وحدها؛ فقد كانت هناك طيورٌ أخرى تعلق في الشباك. البومةُ، والعندليب، بل حتى الباشق. بعد شروق الشمس، يأتي الصيَّادون على مهلٍ، يتفقَّدون شباكهم، يمرُّون على الطيور واحدًا بعد الآخر، يقتلونها بغرز عود أسنانٍ في الحلق. يأخذون الطيور التي تُباع ويضعونها في الحاويات، أمَّا التي لا تُباع فيلقون بها.

لم يكن الصيَّادون في حاجةٍ إلى إطلاق النار على الطيور، بل كانوا يخدعونها بتغريدها. يخبِّئون السمَّاعات خلف شجيراتٍ في الحقول المفتوحة، ويشغِّلون أصوات طيورٍ لإغواء فريستهم. تأتي الطيور إذن، باحثةً عن طيرٍ من نوعها، فتحلِّق إلى الفخاخ مباشرةً، إلى أن يطويها الليل. وبين حِلكة الليل وبزوغ النهار، تكسر كثيرٌ من الطيور المغرِّدة أجنحتها وهي تستميتُ في محاولةٍ للهروب.

*

فلمَّا عاد كوستاس إلى الفندق أجرى المكالمة الهاتفيَّة التي كان يخطِّط لها منذ اليوم السابق. لم يردّ عليه أحد، فترك رسالةً في جهاز الردّ.

«صباح الخير دكتور نورمان. أنا كوستاس... أنا في قبرص. قرَّرتُ أن آتي بعد حديثنا. أشكرك جدًّا على زيارتك. ليتني عرفتُ ما أعرفه الآن قبل زمن. لكنَّ هناك أشياءَ لم أستوعبها بعد. لقد التقيت ديفني و...، دكتور نورمان، هل أستطيع التحدُّث إليك من فضلك؟ الأمر مهمّ. أرجو أن تتَّصل بي».

وأغلق السمَّاعة بعد أن ترك رقم هاتفه. بعدها استحمَّ، وأحسَّ بالماء البارد كالبلسم على جسمه. تناول إفطارًا سريعًا متأخِّرًا، ثم مشى إلى أقرب مركز شرطة.

«أودُّ الإبلاغ عن واقعة».

في بادئ الأمر ظنُّوا أنَّه يقصد جريمةً أو سرقة، فتعاملوا معه بجدِّيَّة. وحين أخبرهم باسمه وأدركوا أنَّه يونانيّ، تشكَّكوا في نواياه. لكنَّهم حين علموا أنَّ شكواه تتعلَّق بمقتل طيورٍ مغرِّدة،

أخذوا الموضوع على محمل التسلية. وعدوه بأنَّهم سوف ينظرون في «الأمر» ويعاودون الاتِّصال به، لكنَّ كوستاس كان يعرف أنَّهم لن يردُّوا عليه في أيِّ وقتٍ قريب.

وفي وقتٍ لاحقٍ من عصر ذلك اليوم، زار قاعدة السيادة البريطانيَّة. وجد موظَّفًا يعاني من رَمشٍ قهريّ، ودودًا أكثر من رجال الشرطة، لكنَّه يساويهم في قلَّة النفع.

«فوضى شديدة للأسف، وتحصل تحت أنظار الجميع. المفروض أنَّ الأمر غير قانونيّ، لكنَّ الصيَّادين لا يتوقَّفون. فهي صناعةٌ ضخمة. في الشهر الماضي أمسكوا بمهرّبٍ في المطار، ووجدوا 3529 طيرًا في حقائبه. قُبض على ذلك الشخص، صحيح، لكنَّ أغلبهم لن يُقبض عليهم أبدًا».

فسأله كوستاس: «لن تفعلوا شيئًا إذن؟»

«المسألة فيها حساسيَّات. لا بدَّ أنَّك تفهم حساسيَّة وجودنا هنا. لا يمكننا أن نُثير استياء الأهالي. سأكون صريحًا معك. الناس هنا لا يرتاحون للمرء حين يسألهم عن الطيور المغرِّدة».

نهض كوستاس، فقد سمع ما يكفي.

«اسمع. إنْ أتلفتَ شبكةً واحدة، فسوف يضعون شبكةً أخرى في مكانٍ آخر. وعليَّ أن أُحذِّرك، فبعض هذه العصابات خطيرة. نحن نتحدَّث عن أموالٍ طائلة».

*

حين عاد كوستاس إلى الفندق سأل المرأة عند الاستقبال ما إنْ كانت هناك أيّ رسائل له، رجاةَ أن تكون ديفني قد أرسلت شيئًا. لا شيء. مكث في غرفته طوال المساء، غالبًا في الشرفة يحاول أن يقرأ، لكنَّه لم يستطع التركيز. أخذ ينظر إلى الجزيرة، وهو يعلم أنَّها هناك في مكانٍ ما، انسلَّت منه لبضعة أيَّامٍ ربَّما، أو ربَّما للأبد! وحين أرخى الليل سدوله تذكَّر الشِبَاك المنصوبة، خفيةً عن العين، رقيقةً مثل حرير الذرة، قاتلة.

حين انتصف الليل، خرج ثانيةً، يحمل سكِّينًا وحزمة أوراق. اختبأ في الظِلال، وأتلف كلّ فخٍ عثر عليه، حريصًا على تمزيق خيوطه. ثم غطَّى الجير الدبق المراق على الأغصان بأوراق، ولمَّا نفدت أوراقه استخدم أوراق الشجر. تحرَّك في سرعةٍ، والعرق يسقط في أنهارٍ صغيرةٍ في ظهره.

وحين لم يجد فخاخًا أخرى وعجز عن المشي أكثر، عاد إلى الفندق، فارتمى في سريره ونام نومًا عميقًا، بلا أحلام.

في الليلة التالية، خرج مرَّةً أخرى، لكنَّهم أمسكوا به هذه المرَّة. كان الصيَّادون مختبئين خلف الشجيرات، يريدون أن يعرفوا الشخص الذي كان يدمِّر فخاخهم.

كانوا سبعة، أحدهم صغير جدًّا يكاد يكون تلميذًا في المدرسة. لم يشعروا بالحاجة إلى إخفاء وجوههم، فرأى كوستاس القسوةَ في أعينهم قبل أن يبدأوا في ضربه وركله.

في اليوم التالي، كان مستلقيًا في سريره يحدِّق في شقٍّ في السقف، ولعلَّه ما كان ليردَّ على الهاتف لولا أنَّه كان ينتظر اتِّصالاً من الدكتور نورمان. تحرَّك بصعوبةٍ، والتقط السمَّاعة. كانت موظَّفة الاستقبال.

«مرحبًا سيِّد كازنتزاكس. لديك زائر. هناك من يريد أن يقابلك. تقول إنَّ اسمها ديفني».

حاول كوستاس أن يعتدل في جلسته، لكنَّ خنجرًا من الألم كان يطعن قفصه الصدريّ، فندَّت عنه آهة.

«هل أنتَ بخير؟»

فردَّ بصوتٍ متحشرج: «نعم. من فضلك اطلبي منها أن تصعد إلى غرفتي».

«أعتذر منك، لا نسمح بوجود رجلٍ وامرأةٍ في الغرف إلاَّ للمتزوِّجين. لا بدَّ أن تلتقيها هنا في الأسفل».

«ولكن... طيِّب. أخبريها أنِّي سآتي خلال دقائق».

جرَّ كوستاس نفسه خطوةً خطوة، وهو يسحب أنفاسًا سريعة، إذْ كانت كلّ حركةٍ صغيرة تسبِّب له سورةً من الألم في جنبه.

فلمَّا دخل البهو شهقتْ موظَّفة الاستقبال مصدومة. كان كوستاس قد عاد في الليلة الماضية في وقتٍ متأخِّر، واستطاع أن يجرّ نفسه إلى غرفته دون أن يلاحظ أحدٌ حالته التي يُرثى لها.

«سيِّد كازنتزاكس! ما الذي حدث لك؟ يا إلٰهي، من فعل هذا بك؟» ثم أخذتْ تحرِّك يدَيْها في اهتياج: «هل نتَّصل بطبيب؟ هل وضعتَ ثلجًا عليها؟ لا بدَّ أن تضع ثلجًا».

فقال كوستاس وهو يحاول النظر إلى ديفني من فوق رأس المرأة: «أنا بخير. الإصابة ليست سيِّئة كما تبدو».

فلمَّا أدركت المرأةُ أنَّها تُعيق رؤيته، تنحَّتْ جانبًا. مشى كوستاس إلى ديفني التي كانت تتفحَّصه بتعبيرٍ من الحزن الخالص. لم تبدُ متفاجئةً، فتساءل في نفسه ما إذا كانت تتوقَّع أن يحدث له ذلك، أن يقع في مشكلةٍ ما. تقدَّمتْ نحوه، ولمست شفته المشقوقة المنتفخة، ومسَّدت بلطفٍ على الكدمة القويَّة تحت عيْنه اليسرى، بلون البرقوقة حين تُترك في الشمس.

قالت بابتسامةٍ صغيرةٍ تهتزّ في أطراف فمها: «هذا اللون يلائم عينَيْك».

ضحك، فتألَّم من حرقة الجرح على شفته.

فقالت ديفني: «أوه يا عزيزي»، ثم قبَّلته.

خطرت له في تلك اللحظة أفكارٌ كثيرة، يتبعها حسٌّ من الجمود والخفَّة على نحوٍ خالصٍ تمامًا، حتى إنَّه ترك نفسه ينقاد لها. ما يزال دفء بشرتها، ورائحة شعرها، ذات ألفةٍ يبدو معها كما لو أنَّهما لم يفترقا قطّ، وكأنَّ الزمن لم يكن سوى هبَّة ريح.

*

لاحقًا، حين حلَّ الليلُ، استطاعتْ ديفني أن تتسلَّل إلى غرفته بعد أن اختفت المرأةُ التي كانت في مكتب الاستقبال، ربَّما صدفةً، وربَّما طيبةً منها، أو عطفًا عليهما!

في أوَّل لمسةٍ بعد سنواتٍ من الفراق، كان الجنسُ بينهما مثل ستارةٍ من ضبابٍ ينقشع كي يكشف عمَّا تحته من شوقٍ عارٍ. هكذا هدأ العقلُ أخيرًا، بمخاوفه ونَدمه وأحزانه التي لا تنتهي، فأصبح مجرَّد همسة. الجسدُ هو الذي تذكَّر ما نسياه منذ زمن، ذلك النبض القويّ الذي تخيَّلا أنَّه لا يوجد إلاَّ في الشباب، شبابهما. للجسد طاقةٌ على التذكُّر، موشومةٌ على الجلد، طبقةً فوق طبقة.

فجسدُ الحبيب السابق مثل الخارطة، يجرّك إلى أعماقه، ويُعيدك إلى جزءٍ منك كنتَ تحسبُ أنَّك تخلَّيتَ عنه في وقتٍ ما، في مكانٍ ما. وهو مرآةٌ أيضًا، تُبدي لك كلّ ما تغيَّر فيك، على الرَّغم من أنَّها مرآةٌ مكسورة متشظِّية. وكأيِّ مرآةٍ أخرى، تحلمُ أن تعود كاملةً مرَّةً أخرى.

فلمَّا دفنتْ وجهها في صدره وهما مستلقيان على السرير حدَّثها عن طائر أبو الحِنَّاء وجناحيْه المكسورَيْن. قال لها إنَّ خمسة مليارات طائرٍ تسافر إلى إفريقيا وشمال المتوسِّط لقضاء الشتاء، يُذبح منها مليار طائرٍ كلّ عام. لذلك، فإنَّ كلّ طائرٍ رأتْه في السماء إنَّما هو ناجٍ من المذبحة، مثلها تمامًا.

ثم حكى لها عن المهرِّب الذي وجدوا 3529 طائرًا في حقائبه. أرادها أن تتخيَّل الطائر رقم 3530. ربَّما قُبَّرةً أوراسيَّة، تحلِّق ليلاً، تتبع صويحباتها، لكنَّها تباطأتْ عنها في آخر ثانية، فلم تصل إليها خيوط الشبكة. ما الذي أنقذها إذن ولم ينقذ الأخريات؟ قسوةُ الحياة ليست في المظالم والإصابات والفظائع وحدها، بل في عشوائيَّتها كذلك.

قال كوستاس: «البشر وحدهم من يفعلون ذلك. الحيوانات لا تفعل ذلك. ولا النباتات. نعم، تُلقي الأشجار بظلِّها على أشجارٍ أخرى أحيانًا، وتتنافس على المكان والماء والمغذِّيات، وتتقاتل من أجل البقاء... نعم، تأكل الحشرات بعضها بعضًا. لكنَّ القتل الجماعيّ من أجل المنفعة الشخصيَّة سِمةٌ لا يعرفها إلاَّ البشر».

وبعد أن أنصتتْ إلى كلِّ كلمةٍ باهتمام، استندتْ على مرفقَيْها وتفحَّصت وجهه، وشعرها يتساقط على كتفَيْها العاريَيْن.

«كوستاس... لطالما رأيتُ فيك إنسانًا غريبًا. أعتقد أنَّ الحيثيِّين أحضروك إلى هذه الجزيرة قرب أواخر العصر البرونزيّ، ونَسُوا أن يُعيدوك. حين وجدتُك كنتَ قد بلغتَ من العمر آلاف السنين. أنتَ مليءٌ بالمتناقضات يا حبيبي، مثل أيِّ شخصٍ عاش تلك المدَّة. ففي لحظةٍ تكون لطيفًا، صبورًا، وهادئًا لدرجةٍ تدفعني إلى البكاء. وفي اللحظة الأخرى تخاطر بحياتك، وتُعرِّض نفسك لضرب عصابات المافيا. وحين تطارحني الغرام تغنِّي عن الطيور المغرِّدة. أيُّها الروح العتيقة».

لم يقل شيئًا. لم يستطع. كانت تضغط على قفصه الصدريّ، فيؤلمه ذلك، لكنَّه لم يكن يريدها أن تتحرَّك، ولو قيد أنملة، فظلَّ ساكنًا يحتضنها بقوَّة، وهو يحاول التغلُّب على سورة الألم.

«لا أدري ما إذا كنتَ بطلاً مجهولاً، أم مهبولاً عظيمًا».

«مهبولٌ مجهولٌ، أكيد».

قبَّلته وهي تبتسم، تمرِّرُ إصبعها في دوائر على صدره، وترسم عوَّاماتٍ صغيرةً كي يتمسَّك بها وهو يطفو ويسبح في حنانِ اللحظة. في هذه المرَّة، حين طارحها الغرام، لم يزح أيٌّ منهما عينَيْه عن عينَي الآخر، بحركاتٍ بطيئةٍ متأنّيةٍ، تتصاعد في موجاتٍ مطَّردة.

نادى باسمها مرَّةً تلو الأخرى. ومع كلِّ نَفَسٍ، كانت عضلاته وعظامه وجسمُه بأكمله يتألَّم وينبض مثل جرحٍ نابض، لكنَّه مع ذلك كان يشعر بأنَّه أكثر حيويَّةً من أيِّ وقتٍ مضى، منذ زمنٍ طويل.

الجزء الخامس

النظام البيئيّ

التينة

جاءت الفراشاتُ في اليوم التالي. وصلتْ إلى قبرص بأعدادٍ لا نظير لها، فانصبَّت على حياتنا، تتدفَّق وتدور في حركةٍ من اجتياح، كنهرٍ هوائيٍّ عظيمٍ مخضَّبٍ بالذهبيِّ البرَّاق. هكذا، رقَّطت السماء كلّها بنقاطها الصُفر والسُود وألوانها الرمليَّة البرتقاليَّة، واستقرَّت على الصخور المحمَّلة بالطحالب وأزهار الأوركيد المعروفة لدى أهل البلاد باسم «دموع العذراء المقدَّسة». رفرفرت الفراشات على النوافذ المشبَّكة ودوَّارات الريح، ثم عبرت الخطّ الأخضر بلوحته القديمة الصدئة التي كُتب عليها «ممنوع الدخول». حطَّت الفراشاتُ إذن على جزيرةٍ مقسَّمة، ترفرف على أعمق عداواتنا، كما لو أنَّ تلك العداوات أزهارٌ ترتشفُ الرحيقَ منها.

ومن بين كلّ فراشات السيِّدة الملوَّنة التي جاءت لترتاح على أغصاني، بشخصيَّاتها المختلفة، ظلَّت واحدةٌ منها مستقرَّةً في ذاكرتي. كانت هذه الفراشة تحديدًا قد ارتحلت من شمال إفريقيا، مثل كثيراتٍ غيرها. وحين روتْ لي عن رحلاتها، أنصتُّ إليها باحترام، إذْ كنتُ أعرف صلابة هذه الفراشات المهاجرة، حتى إنَّها توجد في كلِّ مكانٍ في الأرض تقريبًا. يمكن لهذه الفراشات أن تطير لأكثر من أربعة آلاف كيلومتر، ولا أفهم أبدًا كيف يعتبرها البشر كائناتٍ هشَّة. قد تكون متفائلة، نعم، لكنَّها ليست هشَّةً على الإطلاق!

كانت جزيرتنا بالنسبة إلى هذه الفراشة مكانًا مثاليًّا للراحة واستعادة الطاقة، بأشجارها المزهرة وحقولها الغنَّاء. وحين تغادر قبرص سوف تطير إلى أوروبا ولن تعود منها أبدًا، على الرَّغم من أنَّ ذرِّيَّتها سوف تعود ذات يوم. فأطفالها سترحل في اتِّجاهٍ عكسيٍّ، وأطفال هذه ستأخذ المسار نفسه.. وهكذا تستمرّ الهجرة جيلاً بعد جيل، إذْ ليس المهمّ الوجهة النهائيَّة، بل استمرار حركتها، وبحثها، وتغيّرها، وصيرورتها.

عبرت الفراشة فوق بساتين اللوز بأوراقها البيضاء التي تُنتج اللوز الحُلو، والورديَّة التي تُنتج اللوز المرّ، ورفرفت في حقول البرسيم الحجازيّ، تقتفي وعدَ نبتة البوديليا المغرية. وأخيرًا، وجدت لها موقعًا يبدو مضيئًا، حَفيًّا.

كانت مقبرةً عسكريَّةً، مُحكمة الترتيب، بمساراتٍ من الحصى تسير بطول شواهد القبور، ساكنةً جدًّا ومكتملةً في عزلتها، حتى لَيبدو أنَّه لا يوجد شيءٌ خارجها. كان هذا هو المثوى الأخير للجنود البريطانيِّين الذين قضوا نحبهم أثناء الصراع في قبرص، باستثناء الجنود الهندوس الذين أُحرقت جثامين معظمهم.

يُشرف على جنوب المقبرة الحرسُ الوطنيّ القبرصيّ اليونانيّ؛ أمَّا الشمال والغرب فكانا تحت حراسة الجيش التركيّ. وكلا الجانبان خاضعٌ لرقابة جنودٍ في مخفر الأمم المتَّحدة. هكذا كان كلّ شخصٍ يراقب الآخر، ولعلَّ الموتى كانوا يراقبونهم أجمعين. شواهدُ القبور باليةٌ فاسدة، في حاجةٍ إلى ترميم. حين أُحضر مجموعةٌ من البنَّائين القبارصة اليونانيّين لإصلاحها، اعترض الجيش التركيّ على وجودهم، وحين استدُعي عمَّالٌ قبارصةٌ أتراك، اعترض الجانب اليونانيّ. وفي نهاية المطاف، تُركت القبور كي تتفتَّت شيئًا فشيئًا.

أخذت الفراشةُ تقفزُ من شاهد قبرٍ إلى آخر والشمسُ تمسِّد جناحَيْها، تنظر إلى الأسماء المنقوشة. لاحظت أنَّ أعمارهم كانت صغيرة، أولئك الجنود الذين قدموا من أقصى الأرض كي يموتوا هنا. الفوج الأوَّل من «غوردون هايلاندرز». الفوج الأوَّل من «كتيبة نورفوك الملكيَّة».

ثم وصلت إلى قبرٍ أكبر. النقيب جوزف لين، الذي قتله مسلَّحان من إيوكا عام 1956 م. يقول النقشُ إنَّه قبَّل زوجته وطفله ذا الثلاثة أشهر وودَّعهما، وما كاد يقضي لحظاتٍ في عمله حتى تلقَّى رصاصةً في ظهره.

كان هناك عددٌ من الأشجار التي تنمو في ذلك المكان. أشجار صنوبر وأرْز وسَرو. وقد نشرت شجرة أوكالبتوس أوراقها الزرقاء الرماديَّة في زاويةٍ بعيدة. كانوا يسمُّونها «المُثكِلة». فرغم جمال الأوكالبتوس، إلاَّ أنَّ من عادتها أن تُسقط أغصانًا كاملة، فتصيب أو تقتل من بلغت به الحماقة أن يُخيِّم تحتها. ولأنَّ الفراشة كانت تعرف ذلك، فقد طارت في الاتِّجاه المعاكس، إلى أن اكتشفت شيئًا غير متوقَّع. رُضَّع، في صفٍّ وراء صفّ. لقد مات ما يقرب من ثلاثمئة رضيعٍ بريطانيٍّ على

هذه الجزيرة، اختُطفوا من أحضان آبائهم وأمَّهاتهم بسبب آفةٍ غريبةٍ لم يستطع أحدٌ أن يفكّ لغزها حتى يومنا هذا.

فوجئتُ حين أخبرتْني الفراشة. فلا يتوقَّع أحدٌ أن يجد رُضَّعًا في مقبرةٍ عسكريَّة. تساءلتُ في نفسي عن عدد الأُسر التي عادت إلى هنا كي تزور هذه القبور. فحين يلتقي أهل الجزيرة سائحًا، يفترضون أنَّه بالتأكيد جاء من أجل البحر والشمس، ولا يمرّ في خيالهم أبدًا أنَّ الناس قد يسافرون بعيدًا عن أوطانهم في بعض الأحيان، لا لشيءٍ إلاَّ لكي يبكوا على موتاهم.

وفي هذا المكان تحديدًا من المقبرة، صادفت الفراشةُ مجموعةً من الجنائنيِّين. حطَّت بحذرٍ على نبات الغرنوقيّ كي تراقبهم باهتمام. كانوا يزرعون الأزهار على القبور (زعفران ونرجس وأقحوان) ثم يوزِّعون الماء القليل بحذر. بعد فترةٍ، توقَّفوا للاستراحة، وبسطوا سجَّادةً تحت شجرة صنوبر، فأحسنوا صنعًا بالابتعاد عن الأوكالبتوس. تربَّعوا على الأرض، يتحدَّثون في همسٍ، احترامًا للموتى. أخرج أحدهم بطِّيخةً من حقيبته وقطَّعها إلى شرائح سميكة بسكِّينه. فلمَّا شمَّت الفراشةُ رائحةَ البطِّيخ تشجَّعت، فاقتربتْ منهم وحطَّت على قبرٍ قريب. كانت تنظر حولها في انتظار فرصةٍ لتذوُّق العصير الحُلو، فلاحظتْ ما نُقش على شاهد القبر.

طفلنا الحبيب
في ذكرى يوسف يورغوس روبنسن
يناير 1975 م نيقوسيا ــ يوليو 1976م نيقوسيا

فلمَّا روتْ لي الفراشةُ هذا، طلبتُ منها أن تُعيد كلّ كلمةٍ مرَّةً أخرى. هل يُمكن أن تكون قد أخطأتْ في تذكُّر الأشياء بسبب شوقها إلى البطِّيخ؟ لكنَّني كنتُ أعرف أنَّ للفراشات دقَّةً في الملاحظة. أعطيتها أنضج تيناتي كي تغفر لي فظاظتي. كانت التينة ناضجةً عصيريَّة، فالفراشات لا يمكنها أن «تأكل» إلاَّ السوائل.

ذاك هو اليوم الذي امتلأتْ به سماوات قبرص بآلافٍ من حرشفيَّات الأجنحة. واحدةٌ منها حطَّت على غصني قليلاً. وهناك عرفتُ حقيقةً ألقتْ بظلالها على حياتي إلى الأبد. عندها بدأتُ أُرتِّب العناصر المفقودة من القصَّة، إذْ أدركتُ من يكون ذلك الرضيع، ولماذا مُنح اسم يوسف

ويورغوس. فعلى عكس كتب التاريخ، لا تأتينا القصص في الحياة الواقعيَّة كاملةً بل متفرِّقة، في أجزاءٍ مقطَّعة، وأصداء غير مكتملة. جملةٌ كاملةٌ هنا، وعبارةٌ هناك، وخيطٌ مخبوءٌ بينهما. الأمر لا يشبه ما يحدث في الكتب، ففي الحياة علينا أن ننسج قصصنا من خيوطٍ دقيقةٍ كالخيوط الرفيعة في أجنحة الفراشات.

ألغاز
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

نهض كوستاس في الصباح التالي على رنين الهاتف. أقلق الصوتُ نوم ديفني إلى جانبه، وقد اضطرب منخاراها كأنَّما اشتمَّت رائحةً في نومها. مدَّ يده في حذرٍ فوق جسمها، والتقط السمَّاعة.

قال هامسًا: «ألو؟»

«ألو. أنا الدكتور نورمان».

سحب كوستاس جسده فورًا إلى الأعلى، وقد استفاق تمامًا. نهض عن فراشه، ومشى باتِّجاه الشرفة، وهو يجرّ سلك الهاتف إلى أقصى حدٍّ ممكن. جلس على الأرض، وقد حشر السمَّاعة بين خدِّه وكتفه.

قال الدكتور نورمان: «أنا آسف، لم أكن موجودًا حين اتَّصلت. كنَّا في منزلنا في الريف.. لم أسمع رسالتك إلاَّ اليوم».

«شكرًا دكتور. حين تحدَّثنا في لندن لم أكن أعرف بعض الأشياء، فلم أستطع أن أطرح عليك الأسئلة الصحيحة. أمَّا الآن...».

سكت كوستاس حين لاحظ أنَّ ديفني انقلبت إلى جانبها في الفراش، وقد انسلَّ ضوءُ الشمس عبر الستارة كي يربِّت على ظهرها العاري. سَحَب نَفَسًا سريعًا قبل أن يُكمل. «أخبرتَني حين التقينا أنَّك حاولت مساعدة ديفني، لكنَّك لم توضِّح. أفترضُ أنَّك كنتَ تقصد إجراء عمليَّة إجهاض. صحيح؟»

امتدَّ الصمتُ برهةً قبل أن يتحدَّث الدكتور نورمان. «للأسف لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال. فأنا مُلزمٌ بالحفاظ على خصوصيَّة مرضاي. لا أعرف ما قالتْه لك ديفني، لكنَّني لستُ في حلٍّ لكي أبوح بمعلوماتٍ خاصَّةٍ عن مرضاي، مهما انقضت السنوات».

«ولكن يا دكتور ـــــ».

«أنا آسفٌ جدًّا. لا أستطيع مساعدتك في هذا الأمر. وإنْ أردتَ نصيحةً من رجلٍ عجوز، سأقول لك أعرض عن هذا الأمر. فقد مضى عليه زمنٌ طويل».

بعد دقيقةٍ أو نحو ذلك من تكلُّف الحديث، أغلق كوستاس الخطّ، وظلَّ ساكنًا، يحدِّق في فضَّة الأفقِ عبر سياج الشرفة.

«مع من كنتَ تتحدَّث؟»

جَفل كوستاس واستدار بسرعة. كانت قد نهضت عن السرير حافيةً، تغطِّي نصف جسدها باللحاف. وبمجرَّد أن رأى وجهها، أدرك أنَّها سمعت كلّ شيء.

«الدكتور نورمان. رفض أن يُخبرني».

جلست على المقعد الوحيد في الشرفة، غير عابئةٍ باحتمال أن يلمحها صاحبا الفندق من الفناء. «لديكَ سيجارة؟»

هزَّ رأسه.

قالت ديفني بنبرةٍ فارغة: «أعرف أنَّك لا تدخِّن، لكنِّي كنت أرجو أن تكون لديك علبةٌ مخبَّئةٌ في قاع حقيبتك. الناس في بعض الأحيان يفعلون أشياء على غير طبيعتهم».

أمسك بيدها، ومرَّر إبهامه على خطوط يدها وكأنَّه يبحث عن الدفء الذي وجده هناك في الليلة الماضية: «أرجوكِ يا ديفني. كفِّي عن الألغاز. أريد أن أعرف ما حدث بعد أن غادرتُ قبرص. ما الذي حدث لطفلنا؟»

ورأى في عينَيْها عاطفةً تغشى الأخرى.

قالت بصوتٍ مسطَّحٍ كالجدار: «مات. أنا آسفة. ظننتُ أنَّه سيكون في مأمنٍ مع تلك الأسرة».

«أيّ أسرة؟»

«زوجان إنجليزيَّان، أمينان من خيرة الناس. كانا يريدان طفلاً بأيِّ طريقة. وبدا أنَّ هذا أفضل ما يمكن فعله. وعداني أن يرعياه خير رعاية، وقد فعلا. كان طفلاً سعيدًا. سمحا لي بزيارته، بحجَّة أنَّني جليسةٌ للطفل. لم يزعجني ذلك، ما دمتُ أراه وأقضي وقتًا معه».

بدأت الدموع تنهال على وجنتَيْها، على الرَّغم من أنَّ وجهها كان ساكنًا، وكأنَّما لم تكن تُدرك أنَّها تبكي.

وضع كوستاس رأسه في حجرها، فدفن وجهه في رائحتها. مسَّدت شعره بأصابعها. هنا تقلَّصت المسافةُ بينهما، وامتدَّ بساطٌ من الحنان فوق المكان الذي سكنَه الألم.

«هلاَّ أخبرتِني.. بكلِّ شيء؟»

هذه المرَّة، أخبرتْه.

*

صيفُ 1974 م. الشوارع مغبرَّة وَعِرة، والشمس حارقة، بذلك النوع من الحرارة الذي يندسّ في مساماتك ثم لا يخرج.

كانت قد جرَّبت كلّ شيء. حَمَلت كلّ قطعةٍ من الأثاث الثقيل ممَّا وجدتْه في بيتها، وقفزتْ من الأسوار العالية، واستحمَّت بماءٍ شديد السخونة، وشربت كأسًا بعد كأسٍ من الدردار، حتى احترق حلقها من شدَّة المرارة. كانت حين تفشل طريقةٌ تشرع في تجربة الأخرى. وقرب نهاية الأسبوع، بلغ بها السخطُ أن أخذت إبرة حياكةٍ، وغرزتها داخلها. لم تكن تتوقَّع ألمًا شديدًا كذاك الذي جعلها تتلوَّى بعد أن خرَّت ركبتاها. بعد ذلك، جلست على أرضيَّة الحمَّام، ترتجف، وتبكي، حتى تحزَّز صوتُها مثل منشارٍ يقطِّع وجودَها نفسَه. كانت قد سمعت بقابلاتٍ في جماعتهم يُجهضن النساء، ولكنْ كيف لها أن تلجأ إليهنَّ دون أن يعلم أبواها؟ وما الذي سيحدث لو علما؟ كان حَمْلُها في حدِّ ذاته عارًا، فكيف إذا كان المسؤولُ عنه رجلاً يونانيًّا؟

فلمَّا خرجتْ مترنِّحةً من الحمَّام وجدتْ أختها ملتصقةً بالمذياع. حدجتْها مريم بنظرةٍ جانبيَّة. «هل أنتِ بخير؟ تبدين محطَّمة».

فقالت ديفني بوجهٍ محمرّ: «بطني. لا بدَّ أنِّي أكلتُ شيئًا فاسدًا».

لكنَّ مريم لم تنتبه. «هل سمعتِ الأخبار؟ وصل الجيشُ التركيّ! لقد نزلوا في كيرينيا، وهم قادمون».

«ماذا؟»

«اليونانيُّون أرسلوا زورقَيْ طُربيدات كي يوقفوا الجيش، لكنَّ القوَّات الجوِّيَّة التركيَّة قصفتْهما. لقد بدأت الحرب!»

لم يكن في مقدور ديفني أن تستوعب الأخبار في تلك اللحظة، فكان عقلها يدور في إنكار. لكنَّها فهمت أنَّ الشوارع سوف تمتلئ عمَّا قريبٍ بالجنود والميليشيات والعربات المصفَّحة. أدركت إذنْ أنَّ هذه فرصتها الوحيدة للإجهاض إن استطاعت أن تجد طريقة. ففي غضون أيَّامٍ ستُغلق الشوارع، وقد يُفرض حظر تجوالٍ إلى أجلٍ غير معلوم. لم يكن هناك وقتٌ للتفكير، أو التردُّد. أخذت كلّ المبالغ التي وجدتْها في معطف أبيها، وأفرغت جرَّة العملات المعدنيَّة التي كانت في المطبخ، ثم غادرت المنزل دون أن تعرف إلى أين ينبغي أن تذهب. كان هناك أطبَّاء أتراك في منطقتهم، لكنَّها كانت تخشى أن يُبلغ أحدٌ أهلها. ولمَّا كانت هناك حواجز جديدة نُصبت بين الأحياء السكنيَّة، فقد كان من شبه المستحيل أن تلجأ إلى طبيبٍ يونانيٍّ. كان أملها الوحيد هو اللجوء إلى طبيبٍ بريطانيّ، غير أنَّ جميع الأطبَّاء الأجانب كانوا يغادرون الجزيرة.

قال لها الدكتور نورمان: «لا أستطيع أن أعالجك».

فحصها وطرح عليها بعض الأسئلة. كان طيِّبًا ودودًا، وبدا أنَّه يتفهَّم المأزق الذي وقعت فيه، لكنَّه لم يوافق على مساعدتها.

قالت له ديفني وهي تفتح حقيبتها: «سأدفع لك. أرجوك، هذا كلّ ما عندي. وإن كان غير كافٍ، فسوف أعمل وأسدِّد لك. أعدك».

سَحَب نَفَسًا طويلاً خشنًا. «ضعي المال في حقيبتك. المسألة ليست مسألة مال. لقد أوقفنا خدماتنا الطِبِّيَّة، ولسنا مخوَّلين بالعمل. ممرِّضتاي عادتا إلى إنجلترا، وأنا سأغادر صباح الغد».

امتلأتْ عيناها بالدموع وقالت: «أرجوك. لا يوجد مكانٌ آخر ألجأ إليه. لو علم أهلي فلن يسامحوني أبدًا».

فقال لها مرَّةً أخرى بصوتٍ أغلظ: «آسف، لا أستطيع أن أعالجك».

«دكتور ــــ». همَّتْ بأنْ تشرح له، لكنَّها توقَّفت، بعد أن أحسَّت بانقباضٍ في صدرها. أومأتْ له باقتضاب، وحملت حقيبتها، واستدارت تجرّ خطواتها إلى الباب، فأصبحت الغرفةُ فجأةً أصغر من أن تحتويها.

أخذ ينظر إليها بضع ثوانٍ، والضغطُ يتزايد وراء عينَيْه، نابضًا.

تنهَّد الدكتور نورمان وقال: «لحظة. هناك طائرة أخرى بعد يومَيْن. يمكنني أن أسافر عليها».

«توقّفتْ، وانطبع على وجهها شيءٌ يشبه الارتياح. مدَّت يدَيْها إلى يدَيْه، وهي تبكي، إذْ انفجر أخيرًا كلّ التوتُّر الذي كان يعتمل في داخلها.

«اهدأي يا ابنتي».

طلب منها الجلوس وأعطاها كأسًا من الماء. كانت هناك ساعةٌ في الممرِّ تدقّ بانتظام، وكلّ دقَّةٍ منها تعادل نبضة القلب.

«لديَّ أختٌ مرَّت بمأزقٍ شبيهٍ حين كانت في مثل سنِّك تقريبًا». تغضَّن جبينُه وهو يستعيد الذكرى. «كانت تحبّ شابًّا حدَّ الجنون، وتريد الزواج منه. لكنَّها اكتشفت أنَّ الرجل كان متزوِّجًا ولديه خمسة أطفال! فلمَّا علم بحملها، قطع كلّ صلةٍ بها. كان ذلك في الأسبوع الذي يسبق الانتخابات العامَّة عام 1950 م، في فصل الشتاء. لم تقل لي أختي شيئًا، إلاَّ بعد فترة. ذهبت بمفردها لعيادةٍ بيتيَّةٍ بدائيَّة، فعالجوها كيفما اتَّفق. والنتيجةُ أنَّها عانت من مضاعفاتٍ خطيرة، حَرَمتها من

الإنجاب. أريد أن أساعدك لأنَّني أخشى إنْ رفضتُ ذلك، فسوف ينتهي بكِ الأمرُ في عيادةٍ سرِّيَّةٍ عند واحدٍ من أولئك التعِسين».

أحسَّت ديفني بدُوارٍ وهي تستمع إلى كلامه.

ثم قال الدكتور نورمان بصوتٍ ما يزال لطيفًا على الرَّغم من احتداده قليلاً: «ولكن توجد مشكلة. لقد أُمرنا بإغلاق جميع مراكزنا، وسوف أُسلِّم المفاتيح هذا المساء. لا يمكنني إجراء العمليَّة هنا».

أومأتْ له ببطء. «أعرف مكانًا».

في عصر اليوم التالي، تحوَّلت الغرفة الخلفيَّة في حانة التينة السعيدة إلى عيادةٍ مؤقَّتة. أخرج يورغوس ويوسف المقاعد، ووضعا ثلاث طاولاتٍ جنبًا إلى جنب، ثم غطَّياها بملاءاتٍ مغسولة، في محاولةٍ لجعل المكان نظيفًا ومريحًا قدر الإمكان. كان قد مرَّ أسبوعٌ كاملٌ على إغلاق الحانة. وعلى الرَّغم ممَّا يُقال عن النزاعات العسكريَّة وسقوط المدنيِّين، ونزوح الأهالي من جانبٍ إلى آخر، والإشاعات المنتشرة عن التقسيم الدائم، إلاَّ أنَّ هذَين الشريكَيْن القديمَيْن لَزما مكانهما، إذْ لم يقوَ أيٌّ منهما على مغادرة نيقوسيا. إلى أين يمكن أن يذهبا وهما لا يريدان أن يفترقا؟ إلى شمال الجزيرة أم جنوبها؟ وكلَّما ازدادت الفوضى من حولهما غرقا أكثر فأكثر في حالةٍ من الخَدَر. فلمَّا أخبرتهما ديفني بمصيبتها، لم يتردَّدا لحظةً في مساعدتها.

وقف الدكتور نورمان في منتصف الغرفة، وجهَّز الكلوروفورم الذي سوف يستخدمه للتخدير. لم يكن ينوي إعطاء ديفني الجرعة المعتادة، فقد كانت شديدة الشحوب والاضطراب، فخشيَ ألاَّ يحتمل جسدها الضئيل تلك الجرعة. وحين بدأ يعقِّم أدواته، شرعتْ في البكاء.

«تشجَّعي يا ابنتي. سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. سوف أُخدِّرك، ولن تشعري بشيء. ولكن فكِّري مرَّةً أخرى.. أرجوكِ. هل تريدين حقًّا فعل هذا؟ ألا يمكن أن تتحدَّثي مع أهلك؟ لعلَّهم يتفهَّمون».

هزَّت رأسها وأدمعها تنهمر على خدَّيْها.

كان يوسف إلى جانبها يُمسِّد شعرها. «يا عزيزتي ديفني، لا ت ـــــ ت ـــــ تبكي. لستِ مضطرّ ـــــ ر ـــــ رَّةً لفعل هذا. اسمعي، يمكننا أن ن ـــــ ن ـــــ نربِّي الطفل. وستكونين أنتِ أمّه دائمًا. لن يعرف أحدٌ شيئًا. سيكون س ـــــ س ـــــ سرًّا. سنتولّى الأمر أنا ويورغوس. سنجد ط ـــــ طريقة. ما رأيك؟»

غير أنَّ طيبته هذه زادت من حدَّةِ بكائها.

هرع يورغوس إلى المطبخ وعاد بكأسٍ من عصير الخرُّوب، لكنَّ ديفني رفضت أن تشربه. كان منظره يذكِّرها بكوستاس.

أغلقوا النوافذ، ثم فتحوها ثانية، فقد كانت الحرارةُ خانقةً على الرَّغم من وجود المراوح. تهادت من الخارج رائحةُ الأترجيَّة، تلك التي تُزرع لطرد البعوض. في أثناء ذلك، كان تشيكو (الذي وُضع في قفصه كي لا يُزعج أحدًا) ينعق بكلماتٍ تعلَّمها في أوقاتٍ أفضل من هذه.

«مرحبًا. قبلة، قبلة! أو لالآ».

وعندها سمعوا صوت محرِّك. كانت هناك سيَّارةٌ تقترب، بعجلاتها التي تطحن الحصى. ثم جاءت سيَّارةٌ أخرى. لم يكن روَّاد الحانة يقتربون إلى هذا الحدِّ، فالحانة مبنيَّةٌ وسط بساتين زيتون، لذلك كانوا يفضِّلون أن يتركوا سيَّاراتهم بعيدًا ويصعدوا التلَّة.

قال يورغوس: «سأذهب لأتأكَّد. لعلَّه واحدٌ من أصدقاء الحانة يرجو أن يتسلَّل خلسة. سأطلب منهم العودة في وقتٍ لاحق».

فقال يوسف وهو يلحق به: «انتظرني».

لكنَّهم لم يكونوا زبائن دائمين مشتاقين إلى تناول مشروبٍ في حانتهم المفضَّلة. كانت مجموعةٌ من الغرباء. شبابٌ قذرون متجهِّمون، يقودون سيَّاراتهم هنا وهناك، ينفِّسون عن غضبهم، ويختلقون المشكلات من أجل العراك، تفوحُ من أفواههم رائحة الكحول. تركوا سيَّاراتهم، كلُّهم ما عدا واحدًا. في أيديهم عصيٌّ ومضارب كانوا يمسكون بها على نحوٍ غريب، كأنَّما نسوا لماذا يحملونها معهم.

قال يورغوس: «الحانة مغلقة». كانت في صوته نبرة حذرٍ وهو يحاول أن يستشفّ نواياهم. «هل تبحثون عن شيء؟»

لم ينبس أيٌّ منهم بكلمة. غير أنَّ ملامحهم احتدَّت وهم ينظرون إلى الحانة، بغضبٍ يفترشُ رعونتهم. وعندها، لاحظ يوسف شيئًا لم يلاحظه من قبل. كان واحدٌ منهم يحمل علبة طلاءٍ بها فرشاة.

لم يستطع يوسف أن يُبعد عينَيْه عن الطلاء. كانورديًّا فاتحًا، بلون العلك الذي وجده ذات مرَّةٍ على الباب مع الرسالة المسيئة. كان لونَ التوت الذي ينمو في الشجيرات الخضراء، يتشبَّث بعض الوقت في جانب المنحدرات، ويُمسك بالفراغ على نحوٍ خطير.

التينة

ثمَّة حيوانات في نظامي البيئيّ أحببتُها جدًّا، وأخرى نفرتُ منها، غير أنِّي لم أندم قطّ على لقاء حيوانٍ واحد؛ فقد كنتُ أحاول أن أفهم وأحترم كلّ شكلٍ من أشكال الحياة. باستثناء حيوانٍ واحد. هي فقط. كم تمنَّيتُ لو أنِّي لم أعرفها قطّ، أو أن أجد طريقةً لمحوها من ذكرياتي على الأقلّ. وعلى الرَّغم من أنَّها ماتت منذ وقتٍ طويل، إلاَّ أنَّني ما أزال أسمع صوتها العالي أحيانًا، ذلك الاهتزاز الغريب في الهواء كما لو أنَّها تقترب بسرعة، تطنّ في الظلام.

البعوض عدوّ البشر؛ إذْ قتل نصف من مشى على هذه الأرض. ولكم كان يُدهشني ارتعابُ الناس من النمور والتماسيح وأسماك القرش (ناهيكم عن مصَّاصي الدماء والزومبي)، ونسيانهم أنَّ عدوّهم الأشدّ فتكًا ليس سوى تلك البعوضة الضئيلة.

كانت قبرص جنَّةً للبعوض، بمستنقعاتها وأراضيها السبخة وأنهارها، فكانت تنتشر ذات يومٍ في كلِّ مكان، في فاماغوستا ولارنكا وليماسول. وثمَّة لوحٌ طينيٌّ أثريٌّ وُجد هنا كُتب عليه: «لقد أصبح البعوض البابليّ الشيطان في أرضي الآن. ذبح كلّ أبناء بلدي». إن شئنا الدقَّة، كان ينبغي أن يُقال «ذبحت»، فأنثى البعوض هي التي تتسبَّب في المذبحة، لكنَّها على أيِّ حالٍ ليست المرَّة الأولى التي تُشطب فيها النساء من التاريخ.

البعوض موجودٌ منذ القِدم، لكنَّ وجوده ليس أقدم من وجودنا نحن الأشجار. ويمكنكم أن تروا في أجزاء كثيرةٍ من العالم بعوضًا من فترة ما قبل التاريخ عالقًا في صمغنا أو نسغنا المتحجِّر، ينام بسلامٍ في أرحامه الكهرمانيَّة. ومن اللافت أنَّها ما تزال تحمل دم حيواناتٍ من قبل التاريخ، كالزواحف والماموثات والنمور ذات الأسنان المسنَّنة والخراتيت ذات الصوف.

ولا بدَّ من أن نذكر الملاريا، ذلك المرض الذي قضى على أعدادٍ كبيرةٍ من الجنود والمدنيِّين على حدٍّ سواء، إلى أن اكتشف رونلد روس شيئًا غاب عن الأطبَّاء منذ أيَّام أبقراط. كان روس هذا طبيبًا أسكتلنديًّا نحيل الفكَّيْن مدبَّب الشارب، واستطاع أن يشقّ بطن بعوضةِ أنوفليس في معملٍ متواضعٍ في الهند، فوجد الدليل الذي كان يبحث عنه. إذْ لم تكن الملاريا تنتقل من غاز المستنقعات، بل من أحد الطفيليَّات. وهكذا تسلَّح روس بهذه المعلومة وراح يستأصل شأفة هذا المرض في الإمبراطوريَّة البريطانيَّة. ولقد كان يومًا فارقًا حين عرج روس على قبرص في عام 1913 م.

مع ذلك، فلم تُحسم المعركة مع البعوض إلاَّ بعد نهاية الحرب العالميَّة الثانية، حين أطلق الطبيب التركيّ محمَّد عزيز حملةً قويَّةً لمكافحتها. كان محمَّد قد أُصيب بحمَّى الماء الأسود في صباه، وشهد بنفسه قوَّتها الفتَّاكة. لذلك، كرَّس نفسه لهذه القضيَّة، مدعومًا من «صندوق التنمية للمستعمرات». واللافتُ من وجهة نظري، أنَّ محمَّد عزيز لم يأبه بالتقسيمات العرقيَّة أو الدينيَّة التي كانت تشقّ صفّ الجزيرة، بل وجَّه تركيزه لإنقاذ الناس فقط. فبدأ برشِّ المبيدات في مكان تكاثر البعوض في شبه جزيرة كارباس، ثم رشَّها مرَّةً أخرى للقضاء على أيِّ يرقاتٍ يُحتمل وجودها. استغرقت هذه المهمَّة أربع سنواتٍ من العمل الشاقّ، لكنَّه انتصر في نهاية المطاف.

ومنذ ذلك الوقت، أصبحت قبرص خاليةً من الملاريا، غير أنَّ هذا لا يعني أنَّ البعوض قُضي عليه تمامًا، فقد ظلَّ يتكاثر في قنوات المجاري. وبما أنَّ البعوض يحبّ المكوث عند أشجار التين وتذوُّق الثمار الناضجة والفاسدة، فقد تعرَّفتُ إلى بعضٍ منها على مدى السنوات.

في الحانةِ، كان البعوض يجوب المكان كلّ ليلة، يتحرَّش بالزبائن. يئزُّ من جانبهم بسرعة، يصعد وينزل على فريسته، في لحظةٍ ما بين نبضة قلبٍ وأخرى. كان يوسف ويورغوس يضعون أوعيةً من الحبق وحصى البان والليمونيَّة على كلِّ طاولة، وإنْ لم يكفِ ذلك أحرقوا قهوةً مطحونة. غير أنَّ البعوض كان يعود للانقضاض ثانيةً، مع استمرار الأمسية وتعرُّق الزبائن من الكحول والحرارة، والحمض اللبَنَيّ المتفصِّد منهم. ولم تكن محاولة ضربها تنفع قطّ، فَيَد الإنسان لا تجاري سرعة أجنحة البعوض. على أنَّه لم يكن يخاطر بحياته، إذْ يتذكَّر رائحة الشخص الذي حاول أن يقتله، فيتجنَّبه بعض الوقت، إلى أن تنسى الفريسةُ وجودَ البعوض. البعوض صَبورٌ، يتحيَّن اللحظة المناسبة كي يذوق الدم.

كما أنَّه يعضّ الحيوانات أيضًا، الأبقار والخرفان والماعز والخيول... والببغاوات. كان تشيكو المسكين يشتكي طول الوقت من عضَّات البعوض بدءًا من منقاره وحتى قدميْه. والحقَّ أقولُ، إنَّ وجود البعوض لم يزعجني في ذلك الوقت. كنتُ أتقبَّله كما هو، دون كثيرٍ من التفكير، إلى أن التقيتُ البعوضة في آب/أغسطس عام 1976 م. كان قد مرَّ عامان على إغلاق الحانة، ولم يعد تشيكو موجودًا. لم يكن هناك سواي في الحانة، وكنتُ ما أزال أنتظر عودة يورغوس ويوسف. كنتُ أنتظر بكلِّ وفاء. ففي ذلك الصيف، أخرجتُ أفضل حصادٍ لي. هذه ميزةُ الأشجار؛ ففي مقدورنا أن ننمو وسط الحطام، ننشر جذورنا تحت أنقاض الأمس. ظلَّت تيناتي المتفجِّرة بنكهتها على الأغصان لم يقطفها أحد، وعلى الأرض لم يلتقطها أحد، فاجتذبت الحيوانات والحشرات من كلِّ نوع.

ظهرت البعوضةُ فجأةً في منتصف الليل، فوجدتْني وحيدةً، حزينةً، أحنّ إلى الماضي. حطَّت على غصنٍ من أغصاني، ونظرتْ حولها بتوتُّرٍ حين رصدت رائحة الليمونيَّة في المكان. ومن فورها، طارت بعيدًا عن الرائحة وحطَّت على غصنٍ آخر في الجانب المقابل.

أخبرتني عن أطفالها. أيًّا ما كان رأينا عن إناث البعوض، لا يمكن إنكار أنَّها أمَّهات صالحات. يمكن لأنثى البعوض أن تشرب من الدم ثلاثة أضعاف وزنها، كي تستخدمه مكمِّلاً غذائيًّا لها قبل وضع بيوضها. لكنَّها قالت لي إنَّها لم تستطع توفير ما يكفي من غذاءٍ لبيوضها مؤخَّرًا بسبب إصابتها بطفيليٍّ غريب. كانت تستميتُ في تغذية بيوضها، فينتهي بها المطاف إلى تغذية ذلك العدوّ داخلها.

وهنا، عرفتُ عن زيادة الإصابة بالملاريا في منطقة البحر الأبيض المتوسِّط، بسبب التغيُّر المناخيّ وانتقال الناس من دولةٍ إلى أخرى. ولقد اكتسب البعوض مقاومةً لمبيد الدي دي تي، كما اكتسبت الطفيليَّات مقاومةً للكلوركين. لم يفاجئني ذلك؛ فالبشر يفقدون تركيزهم بسهولة، ينغمسون في صراعاتهم وينحرفون عن المسار، فتجد الأمراض والأوبئة فرصتها للانتشار. لكنَّ الذي صدَمني ما قالته البعوضة بعد ذلك. حكت لي عن طفلٍ عضَّتْه عدَّة مرَّات، واسمه يوسف يورغوس روبنسن. وسَرَت رعدةٌ من طرف أغصاني إلى الجذور.

قضى مئات الأطفال البريطانيِّين نحبهم في قبرص في الستِّينيَّات، والسبب غير معلومٍ حتى الآن. فلمَّا أسلم ابنُ ديفني، (الذي تبنَّاه زوجان إنجليزيَّان) روحه بعد أزمةٍ تنفُّسيَّةٍ حادَّةٍ نتجت عن

طفيليٍّ ينتقل عبر الحشرات، كان لا بدَّ من دفنه في المكان نفسه مع الأطفال الآخرين الذين ماتوا على أرض الجزيرة قبل عشر سنواتٍ تقريبًا.

غمرتْني موجةٌ من الحزن حين عرفتُ ذلك. حاولتُ ألاَّ أكره البعوضة، وذكَّرتُ نفسي بأنَّها هي أيضًا كانت ضحيَّة الطفيليّ، وأنَّ ما نُسمِّيه مُجرمًا قد يكون مجرَّد اسمٍ آخر لضحيَّةٍ غير معترفٍ بها. لكنِّي لم أستطع أن أنظر إلى الأمر هكذا. فشلتُ في تجاوز المرارة والغضب اللذين تصاعدا في داخلي. وإلى اليوم، كلَّما سمعتُ ذلك الطنين في الهواء، تخشَّب جذعي وتوتَّرت أطرافي، وارتعشت أوراقي.

جنودٌ وأطفال
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

هناك في شرفة الفندق، نهض كوستاس ووضع ذراعيْه حول ديفني حين توقَّفت عن الكلام، فأحسَّ بالألم يتدفَّق إليه. ظلاَّ يُحدِّقان فترةً في الجزيرة الممدودة أمامهما. ثمَّة باشقٌ يصيح في الأعلى، يركب تيَّارات الهواء على بُعد أميالٍ من الأرض.

«هل أنزل لأحضر لك سجائر؟»

«لا يا حبيبي. أريد أن أنتهي. أريد أن أُخبرك بكلِّ شيءٍ، مرَّةً واحدةً فقط، ولا أعود للحديث عن ذلك اليوم مرَّةً أخرى».

عاد إلى أرضيَّة الشرفة ووضع رأسه على حجرها مجدَّدًا. وتابعت ديفني تمسيد شعره، وأصابعها ترسم الدوائر على رقبته.

«بقيتُ داخل الحانة مع الدكتور نورمان. في بادئ الأمر، لم نهتمّ بما كان يحدث في الخارج، وافترضنا أنَّ الموضوع سينتهي في لحظات، أيًّا ما كان. ثم سمعنا شجارًا، أصواتًا غاضبة، وصراخًا، وسِبابًا. بعد ذلك، أصبح الوضع مخيفًا جدًّا. طلب منِّي الدكتور نورمان أن أختبئ تحت طاولةٍ، واختبأ هو تحت أخرى. انتظرنا هناك، نحرص على ألاَّ نُصدر أيّ صوت. لا تعتقد أنِّي لم أجلد نفسي طوال هذي السنين على جُبني. كان عليَّ أن أخرج لمساعدة يوسف ويورغوس».

همَّ كوستاس بقول شيءٍ، لكنَّها أسكتته بإيماءةٍ حادَّة. ثم تابعت كلامها بهزَّةٍ ضَجِرةٍ من رأسها، وهي تُسرع في حديثها هذه المرَّة.

«حين ارتفعت الأصوات أُصيب تشيكو بذعر. اهتاج الطائرُ المسكين، فصار يصرخ من قمَّة رأسه، ويخبط نفسه في القفص. كان الأمر مروِّعًا، واضطُررتُ إلى ترك مخبئي وإحضاره.

كان تشيكو قد أصدر أصواتًا عالية، ولا بدَّ من أنَّ الرجال سمعوه. حاولوا أن يدخلوا ليتأكَّدوا، لكنَّ يوسف ويورغوس وقفا في طريقهم. سمعنا مشادَّةً، ثم إطلاق نار. غير أنَّنا بقينا ننتظر في هدوء، أنا والطبيب. لا أدري كم من الوقت مضى، إلى أن تخدَّرت ساقاي. وحين خرجنا كان الظلام قد حلَّ، والهدوء الغريب يعمّ المكان. أدركتُ في أعماق نفسي أنَّ شيئًا فظيعًا قد حدث، ولم أفعل شيئًا لكي أمنعه».

«ما الذي حدث برأيك؟»

«أعتقد أنَّ أولئك البلطجيَّة كانوا يراقبون الحانة منذ فترة. كانوا يعرفون أنَّ يوسف ويورغوس حبيبان مثليَّان، فأرادوا أن يلقِّنوهما درسًا. لعلَّهما اعتقدا أنَّ الحانة كانت مغلقة، وأرادوا أن يهشِّموا النوافذ ويكسِّروا بعض الأشياء ويكتبوا بعض العبارات القبيحة على الجدران ثم يغادرون. ولأنَّ الفوضى كانت تعمّ الجزيرة، فلم يكونوا يخشون أن يهتمّ أحدٌ بالتحقيق في حادثةٍ تافهةٍ كهذه. لكنَّ الأمور لم تسر وفق ظنونهم. فلم يتوقَّعوا أن يجدوا يوسف ويورغوس، ولم يتوقَّعوا أن يتصدَّيا لهم.

لم يكن يوسف أو يورغوس ليقاتلا بتلك الطريقة، فقد كانا غايةً في اللطف. أظنّ أنَّهما شعرا بالمسؤوليَّة عن حمايتي. لا بدَّ من أنَّهما خشيا من احتمال أن يقتحم الرجال الحانة ويجدوني مع الطبيب. كيف سيشرحان ما كان على وشك الحدوث؟ وما الذي سيفعله أولئك الرجال بنا لو عرفوا؟ لهذا السبب، حاول يوسف أن يحجب المدخل، في حين دخل يورغوس لإحضار مسدَّسه. ثم خرجت الأمور عن السيطرة».

«ولم تجدوهما حين خرجتما؟»

«لا. لم يكن هناك أحد. بحثنا في كلِّ مكان. كان الطبيب يصرّ على أن نغادر المكان، فمن الخطر أن نكون في الشارع في ذلك الوقت المتأخِّر، لكنِّي لم أهتمّ. بقيتُ هناك، يتملَّكني الخدر. كنتُ أحسّ بأسناني تصطكّ على الرَّغم من أنَّني لم أكن أشعر بالبرد. استحوذتْ عليَّ فكرةٌ مجنونةٌ، أنَّ التينة شهدت على كلِّ شيء. تمنَّيْتُ لو وجدتُ طريقةً لجعلها تتحدَّث إليّ. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي خطر لي، وظننتُ أنِّي أقترب من الجنون. عدتُ في اليوم التالي، واليوم الذي يليه... وكلّ يومٍ في ذلك الشهر. كنتُ أمشي إلى الحانة وأنتظر عودة يورغوس ويوسف.

وكنتُ دائمًا أُحضر بعض الطعام لتشيكو، أتذكر ذلك البسكويت الذي يحبّه؟ لم يكن تشيكو على ما يرام. فكَّرتُ في أخذه معي إلى البيت، لكنِّي لم أستطع التحدُّث مع أهلي عن مشكلتي أصلاً. لم أعرف كيف سيكون ردّ فعلهم. ذات صباحٍ، ذهبتُ إلى الحانة فلم أجد تشيكو. نحن لا نفكِّر أبدًا في تأثُّر الحيوانات بحروبنا وصراعاتنا، لكنَّها تعاني مثلنا تمامًا».

نظر كوستاس إلى عينَيْها تغوران، وفكَّها يتصلَّب، ووجنتاها تتجوَّفان. كان يُدرك من الخطِّ المزموم حول شفتَيْها أنَّها طافت بعقلها إلى مكانٍ آخر، في كهفٍ مظلمٍ ضيِّقٍ يسجنها، ويصدّه عنها.

سألها كوستاس بصوتٍ مكتوم: «أولئك الرجال... هل كانوا يونانيِّين أم أتراك؟»

كرَّرتْ عليه تلك الكلمات التي قالتها له في أوَّل لقاءٍ لهما بعد تلك السنوات الطويلة: «من أهل الجزيرة يا كوستاس، مثلنا».

«ولَم ترَي يوسف أو يورغوس مرَّةً أخرى؟»

«لم أرهما بعد ذلك. قرَّرتُ الاحتفاظ بالجنين مهما كانت العواقب. كانت أختي تعرف بأمرنا، فأخبرتُها أنِّي حبلى. قالت مريم إنَّه من المستحيل أن نخبر أبوَيْنا بالحقيقة الكاملة. كان علينا أن نخفي اسمك. وهكذا فكَّرنا في خطَّة. عملتْ مريم على إبلاغ أهلي بالأمر بألطف طريقةٍ ممكنة. تحطَّم أبي، إذْ اعتبر أنِّي لوَّثتُ شرفه. ولم أر مثله أحدًا يحمل عارَه هكذا، كما لو أنَّ العار غدا جزءًا لا ينفصل عن جلده. كان قد أُصيب بشللٍ نصفيّ... وفقد وظيفته وأصدقاءه، وكان يعاني جسديًّا وعقليًّا وماليًّا، لكنَّ الشرف كان أهمّ شيءٍ في نظره، وحين خاب ظنُّه في ابنته، تحطَّم. لم يكن ينظر إلى وجهي، ولا يتحدَّث إليَّ. أمَّا أمِّي... فلا أدري ما إذا كان ردّ فعلها أفضل أم أسوأ! كانت تستشيط غضبًا، تصرخ طوال الوقت. لكنِّي أعتقد أنَّ صمت أبي كان أقسى عليَّ في نهاية المطاف.

وثمَّة شيءٌ آخر يمكنك أن تكرهني بسببه. فقد قرَّرت مريم إخبارهما بأنَّ والد الطفل هو يوسف، وأنَّنا كنَّا ننوي الزواج، لكنَّه اختفى في ظروفٍ غامضة. ذهبتْ أمِّي إلى الحانة بحثًا عنه، لكنَّها لم تجده بطبيعة الحال. بل إنَّها اتَّصلت بأهل يوسف تسألهم عن مكانه، وتتَّهمهم بأشياءَ لم يكونوا يعرفون شيئًا عنها. لزمتُ الصمت طوال الوقت، وكنتُ أمقتُ نفسي لأنَّني شوَّهتُ سمعة رجلٍ طيِّب، وأنا لا أعرف حتى ما إذا كان حيًّا أم ميِّتًا».

«حبيبتي، ديفني...».

أومأتْ له بيدها، كي لا يقول شيئًا. وبهدوءٍ، نهضت، ودخلت الغرفة، وبدأتْ ترتدي ملابسها.

«هل ستغادرين؟»

فقالت دون أن تنظر إليه: «سأمشي قليلاً. لماذا لا تأتي معي؟ أودّ أن آخذك إلى مقبرةٍ عسكريَّة».

«لماذا؟ ماذا يوجد فيها؟»

قالت في هدوء: «جنود. وأطفال».

التينة

بعد اختفاء يوسف ويورغوس وإغلاق التينة السعيدة، وقع تشيكو في حالة اكتئابٍ شديدة. فبدأ يقطف ريشه ويعضّ جلده، حتى انتشرت خارطةٌ حمراء داميةٌ من الألم على جلده المكشوف. يحدث هذا للببغاوات كما يحدث للبشر، إذ تستسلم للاكتئاب، وتفقد كلّ شكلٍ من أشكال الأمل والسعادة، فكلّ يومٍ يمرّ عليها يزيدها تعذيبًا.

لم يكن تشيكو يأكل جيّدًا، على الرَّغم من وجود الكثير من الطعام. كان بإمكانه أن يعيش بسهولةٍ على مخزون الفواكه والمكسَّرات، والحشرات والحلزونات التي تغزو أكياس المؤن، فضلاً عن البسكويت الذي أحضرتْه ديفني. لقد عشتُ تلك السنوات الطويلة مع تشيكو في الحانة نفسها، ببَّغاء غريبٌ وتينة، لكنَّ علاقتنا لم تكن قويَّة. للببَّغاء شخصيَّةٌ لا تتقارب مع شخصيَّتي كثيرًا، لكنَّ أبعد الكائنات بعضها عن بعض تصبح أصدقاء في أوقات اليأس والأزمات. وهذا شيءٌ من الأشياء التي تعلَّمتها.

كان تشيكو ببَّغاءً أمازونيًّا أصفر الرأس، من نوعٍ مهدَّدٍ بالانقراض، يعود أصله إلى المكسيك. لذلك كان وجوده غريبًا في قبرص. لا يوجد هذا النوع في منطقتنا، ولا من بين آلاف الطيور الجاثمة التي تعبر سماءنا كلّ عام. كان وجود تشيكو إذن حالةً شاذَّةً تقبَّلْتُها، ولم أتساءل قطّ من أين جاء يوسف به.

حين سألتُ تشيكو عن ماضيه قال لي إنَّه كان يعيش في قصرٍ في هوليوود. لم أصدِّقه طبعًا، فقد بدا لي كلامه محض هراء. لا بدَّ من أنَّه لاحظ تشكُّكي، لأنَّه انزعج. فذكر لي اسم ممثِّلةٍ أميركيَّةٍ مشهورةٍ بقوامها المثير وأدوارها العديدة في الأفلام الكلاسيكيَّة. قال إنَّها كانت تعشق الطيور الغريبة، وكانت تحتفظ بمجموعةٍ منها في حديقتها. وأخبرني أنَّه كلَّما تعلَّم كلمةً جديدة كافأته بهديَّة، وصفَّقت وهي تقول: «كم أنت ذكيٌّ يا حبيبي!»

قال تشيكو إنَّها في أثناء علاقةٍ ملتهبةٍ مع زعيم مافيا، سافرت في يختٍ خاصٍ إلى المتوسِّط، وأصبحت مغرمةً بقبرص. كانت تحبّ «ڤاروشا» تحديدًا، التي تُعرف بأنَّها «الريڤييرا الفرنسيَّة في شرق المتوسِّط»، واشترت لها ڤيلاً رائعةً هناك. كان هناك مشاهير كثيرون غيرها اكتشفوا هذا المكان البديع. ففي أيِّ يومٍ عاديٍّ، يمكنكم أن تروا إليزابيث تيلر في أحد الفنادق الفخمة، أو صوفيا لورين وهي تخرج من سيَّارتها بتنُّورتها التي صعدت إلى فوق ركبتَيْها، أو بريجيت باردو تتنزَّه على الشاطئ وهي تُحدِّق في أعماق البحر كأنَّما تنتظر شخصًا يخرج منها.

قرَّرت الممثِّلة أن تقضي فترةً أطول هنا، فقد راقها جوّ المكان ورونقه، عدا مشكلةٍ واحدة؛ إذ إنَّها اشتاقت إلى ببَّغاواتها! لذلك رتَّبت أمر إحضارها، فأُرسلت عشرةُ طيورٍ موضوعة في حاوياتٍ متخمةٍ نتنة، محمولةٍ من طائرةٍ إلى أخرى، من لوس أنجلس إلى قبرص. وهكذا، انتهى الأمر بتشيكو ورفاقه في جزيرتنا.

لم تكن رحلةً سهلةً على تلك الطيور، فقد أرهقها السفرُ عبر المحيطات والقارَّات بسبب حساسيَّتها للضوء. توقَّفتْ عن شرب الماء وقلَّ أكلُها، في اشتياقٍ إلى أقفاصها النحاسيَّة المزخرفة. مات واحدٌ منها، أمَّا الطيور الأخرى فقد تكيَّفت سريعًا مع بيتها الجديد في ڤاروشا، في الحيِّ الجنوبيّ من فاماغوستا. كانت هناك المحالّ الفخمة، والكازينوهات البرَّاقة، والماركات الحصريَّة، وأحدث المنتجات من كلّ شيء... كانت السيَّارات المكشوفة الملوَّنة تتهادى في الشوارع الرئيسة بموسيقاها الصاخبة، فيما تتمايل اليخوت الفارهة والسفن السياحيَّة في المرفأ. كان البحر يلتمع تحت القمر، في ذلك الألق المنسكب من المراقص، ينقِّش الماء الداكن مثل أعلام الكرنڤالات.

كان السيّاح يسافرون إلى ڤاروشا من كلِّ أنحاء العالم، للاحتفال بشهر العسل أو التخرُّج أو ذكرى الزفاف. كانوا يدَّخرون الأموال كي يستطيعوا أن يقضوا بضعة أيَّامٍ في هذا المنتجع الشهير. يرتشفون الشراب، ويتناولون الطعام في البوفيهات البديعة. يركبون الأمواج، يسبحون ويتشمَّسون على الشواطئ الرمليَّة، رجاةَ أن تتسمَّر أجسادهم وهم يرمقون الأفق يمتدّ بزرقته الصافية أمام أعينهم. كانوا يعرفون من تقارير الأخبار أنَّ هناك صراعًا بين اليونانيِّين والأتراك يعتمل في هوامش هذه الجنَّة التي يمرحون فيها. غير أنَّ شبح الحرب الأهليَّة لم يكن ظاهرًا لأهل المنتجع، فالحياة هنا تبدو منعشةً، فَتيّةً إلى الأبد.

قال تشيكو إنَّ هناك تسعة طيورٍ تعيش في المكان نفسه، ثمانية أزواجٍ وهو تاسعهم. كان الوحيد بينهم من دون شريكة، فشعر بالألم والإقصاء. الببَّغاوات بطبعها لا تعدّد في الزواج؛ فتظلّ وفيَّةً محبَّةً في اقترانٍ أبديّ. وحين يفقس البيض يتقاسم الذكورُ والإناثُ العمل في تربية الصغار. كلّها أرباب بيوت. غير أنَّ ذلك كلّه لم يكن في مصلحة تشيكو، فظلَّ وحيدًا. وما زاد الطين بلَّةً أنَّ الممثلة دخلت علاقةً عاطفيَّةً جديدة وفيلمًا جديدًا، فكانت مشغولةً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. كانت تقضي أيَّامًا وأسابيع بعيدًا عن البيت، تفوِّض مدبِّرة المنزل برعاية الطيور بعد أن تُعطيها قوائم طويلةً مفصَّلةً من التعليمات تُعلِّقها على باب الثلاَّجة. ماذا تطعمها، ومتى تعطيها قطراتها، ومتى تفحص ريشها للتأكُّد من خلوِّها من الطفيليَّات. غير أنَّ القوائم كانت تبقى في مكانها، غير مقروءة.

لم تكن مدبِّرة المنزل تحبّ الببَّغاوات، بل تراها مزعجةً صاخبةً ومدلَّلة. كانت تعتبرها حِملاً عليها، ولم تكن تكتم ذلك. لم تنزعج الطيور من هذا، فقد كانت مشغولةً بأُسَرها، لكنَّ تشيكو انزعج وهو وحيدٌ ضعيف. وذات صباحٍ، طار من نافذةٍ مفتوحة، تاركًا خلفه أقرباءه والممثِّلة والطعام اللذيذ. طار دون توقُّفٍ، وهو لا يدري إلى أين يذهب، حتى وصل إلى نيقوسيا. وهناك شاء القدر وحده أن يراه يوسف على جدارٍ ينعق في تعاسةٍ، فأخذه معه.

لذلك كان تشيكو يخشى من رحيل يوسف أيضًا. قال إنَّ البشر كلّهم سواء، أنانيُّون حتى النخاع ولا يمكن الوثوق بهم.

اعترضتُ على ذلك بكلِّ قوَّة، وحاولتُ أن أشرح له أنَّ يوسف ويورغوس لا يمكن أن يختفيا هكذا، ولا بدَّ من أنَّ شيئًا حدث ومنعهما من العودة. لكنِّي أنا نفسي كنتُ أعاني من غصَّةِ ألم.

لم يعرف أيٌّ منَّا آنذاك أنَّ ڤاروشا سيُقضى عليها في غضون أسابيع. ففي صيف 1974 م، اضطُرَّ سكَّان البلدة كلّهم (أكثر من 39 ألف شخص) إلى الهرب بعد دخول الجيش التركيّ، تاركين كلّ متعلِّقاتهم. ولا بدَّ من أنَّ مدبِّرة المنزل كانت من بينهم. أتخيَّلها تحزم حقيبتها، وتهرع من الباب للهروب مع الآخرين. أتُراها تذكَّرت أن تأخذ الببَّغاوات معها؟ أو أطلقتْها من أقفاصها على الأقلّ؟ لعلَّه من الإنصاف القول إنَّها ربَّما توقَّعت أن تعود خلال أيَّام. هذا ما كان يظنُّه الجميع.

لكنَّ أحدًا لم يعد. كلّهم غادروا. النساءُ بالأحذية الطويلة، والتنانير القصيرة، وقمصان البيبي دول، والجينز الواسع، والرجالُ بالقمصان المرقَّشة، والأحذية الصيفيَّة، والبناطيل الواسعة في

الأسفل، وسترات التويد. نجومُ السينما، والمنتجون، والمطربون، ولاعبو الكرة، أو ال�ا�ارتزي الذين يلاحقونهم. فنَّانو الدي دجي، وسقاة الحانات، والعاملون على طاولات القمار، والراقصات. والكثير الكثير من الأُسر المحلِّيَّة التي عاشت هنا منذ أجيال، وليس لها وطنٌ آخر. صيَّادو الأسماك الذين كانوا يحضرون صيدهم الطازج إلى المطاعم الفخمة حيث تُباع بعشرة أضعاف سعرها، والخبَّازون الذين يعملون ليلاً لإعداد الخبز المحشوّ بالجبن، والباعة الجائلون الذين يبيعون البالونات وغزل البنات والآيس كريم للأطفال والسيَّاح.

طُوِّقت شواطئ ڤاروشا بالأسلاك الشائكة والحواجز الإسمنتيَّة، واللافتات التي تطلب من الزوَّار الابتعاد. شيئًا فشيئًا، أضحت الفنادقُ مجرَّد شبكاتٍ من كابلات الفولاذ وأبراج الإسمنت. والحانات غدت رطبةً مهجورة، والمراقص خاويةً على عروشها. البيوتُ التي تزيَّنت بأصص الأزهار على نوافذها سارت إلى النسيان. وهذا المنتجع العالميّ الذي كان ذات يومٍ رغيدًا محبوبًا، أضحى بلدة أشباح.

لطالما تساءلتُ عمَّا حدث لتلك الببَّغاوات الأمازونيَّة التي أحضرتْها الممثِّلة الهوليووديَّة إلى قبرص. أرجو أن تكون قد استطاعت الخروج من الڤيلاّ عبر نافذةٍ مفتوحة. يعيش الببَّغاء حياةً طويلة، ومن غير المستبعد أن تكون قد عاشت على الفواكه والحشرات. لعلَّكم إن مررتم بحواجز ڤاروشا اليوم، ترون لمحةً من الأخضر الفاتح بين الحطام والبنايات المهجورة، وتسمعون جناحَيْن يرفرفان مثل شِراعٍ ممزَّقٍ في عاصفة!

*

كان تشيكو يعرف كلماتٍ كثيرة. كان ماهرًا جدًّا، يقلِّد الأصوات الإلكترونيَّة والميكانيكيَّة، وأصوات الحيوانات والبشر. كان يستطيع التعرُّف على عشراتٍ من الأدوات، وسَحق الأصداف، وحلّ الألغاز. وإن أعطيته حصاةً، يستخدمها لكسر المكسَّرات.

كان يستعرض مهاراته لي ونحن ننتظر عودة يوسف ويورغوس في الحانة الفارغة. «تعالَي، عصفورتي، عصفورتي». هكذا كان يصيح من الكرسيّ المغطَّى بالتراب، وراء المنضدة التي كان يوسف يجلس إليها كلّ مساءٍ لتحيَّة الزبائن.

كان يتغنَّى باليونانيَّة ساغا�و [أحبُّك]، إذْ سمع يورغوس يهمسها ليوسف. لكنَّه بعد أن استقرَّت الحقيقة، وأدرك أنَّهما لن يعودا، كان يقطف ريشه من جسده المجروح ويردِّد لنفسه كلمةً تعلَّمها بالتركيَّة: أغلاما. لا تبكِ.

الصَدَفة المتحجِّرة
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

بعد أن زارا المقبرة العسكريَّة، ورأى كوستاس مدفن ابنه لأوَّل مرَّةٍ، أخذا يتمشَّيان في صمتٍ، يده في يدها. عبرا من حقول الأقحوان بأزهارها البرتقاليَّة الشاحبة، تربِّت الريح عليهما، بينما الأشواك والعلِّيق يحكّ كواحلهما العارية.

في العصر، استأجرا سيَّارةً، واتَّجها إلى قلعة القدِّيس هيلاريون. كانت الرحلة مفيدةً لهما، ذلك الصعود الطويل الشاقّ في التلَّة المنحدرة الملتوية، ذلك النشاط الجسديّ المحض. فلمَّا وصلا إلى القمَّة أخذا ينظران في المكان من نافذةٍ قوطيَّةٍ منحوتةٍ في القلعة العتيقة، بأنفاسٍ سريعةٍ، ونبضاتٍ قويَّة.

وبمجرَّد أن أغلقت القلعة أبوابها وغادر السيَّاح والأهالي، ظلَّ كوستاس وديفني في المكان، إذْ لم يكونا جاهزَيْن بعد للعودة والاختلاط بالناس. جلسا على صخرةٍ ارتاح عليها القدِّيس ذات يوم، بعد أن ملَّستْها قرونٌ من عوامل التعرية.

شيئًا فشيئًا، غاص الغروبِ في عتمة الليل، فلمَّا ازداد الظلام حولهما أصبح من المستحيل أن ينزلا في الطريق الذي قدما منه، فقرَّرا أن يبيتا هناك. كانت تلك منطقةً عسكريَّة، ومن الخطر أن يبقى أحدٌ هناك بعد ساعات العمل. وإلى جانب مساحةٍ من نبات الزعفران الذي يتوهَّج باللون الأبيض الورديّ تحت فضَّة القمر، مارسا الحبّ. أن تكون عاريًا هكذا في مكانٍ مفتوح، لا تُظلِّلكَ إلاَّ السماء، فتلك تجربةٌ مخيفة، وأقرب ما استطاعا الوصول إليه من حرِّيَّةٍ منذ زمن.

أخذا يقرضان البندق والفرصاد المجفَّف، فذلك الطعام الوحيد الذي أحضراه. ثم شربا الماء من قارورتَيْن أحضراهما في حقيبة الظهر، وبعده الويسكي. تمهَّل كوستاس في الشراب بعد بضع

رشفات، على عكس ديفني. مرَّةً أخرى، لاحظ أنَّها تشرب كثيرًا، وبسرعةٍ شديدة.

قال وهو يثبِّت عينَيْه عليها كأنَّما يخشى أن تختفي بين غمضة عيْنٍ وانتباهتها: «أريدكِ أن تأتي معي».

هزَّتْ رأسها وهي تومئ في المساحة الفارغة بينهما: «أين؟»

«إلى إنجلترا».

عندها انطلق القمرُ خلف سحابة، كي يمنحه وقتًا بالكاد يكفي لكي يرصد التغيّر في ملامحها. بَغتةٌ لحظيَّة، ثم انسحاب. لاحظ طريقتها في الانغلاق على نفسها.

قال كوستاس: «يمكننا أن نبدأ من جديد، صدِّقيني».

فلمَّا ابتعدت السحابة، وجدها مستغرقةً في أفكارها. كانت تنظر إليه مليًّا، تتفقَّد شفتَيْه. ما يزال الشقُّ يندمل، أمَّا الكدمات تحت عينَيْه فكان لونها يتغيَّر شيئًا فشيئًا.

«مهلاً... هل تطلب يدي؟»

بلع كوستاس ريقه، منزعجًا من نفسه لأنَّه لم يستعدّ كما ينبغي لهذه اللحظة. كان بإمكانه أن يحضر خاتمًا معه. تذكَّر محلّ المجوهرات الذي توقَّفا عنده بعد زيارة العرَّافة. كان الجدير أن يذهب في اليوم التالي، لكنَّه انشغل بملاحقة الطيور المغرِّدة.

قال كوستاس: «لا أُجيد التعبير».

«كنتُ أعرف».

«أحبّك يا ديفني. لطالما أحببتك. أعرف أنَّه ليس في وسعنا إرجاع الزمن، ولا أحاول أن أخفِّف من وطأة ما حدث، ومعاناتك، ومصيبتنا، لكنِّي أريد أن نمنح بعضنا بعضًا فرصةً ثانية». وحين تذكَّر الصَّدَفة المتحجِّرة في جيْب معطفه، أخرجها. «هل يكون أمرًا شديد الغرابة لو أعطيتكِ صَدَفةً بدلاً من خاتم؟»

ضحكتْ.

«تخيَّلي أنَّ هذا الكائن كان حيًّا قبل ملايين السنين. وبمرور السنين، ظلَّ يُضيف تجاويف جديدةً على صدفته. لقد نجتْ الأصداف من ثلاثة انقراضات جماعيّة، على الرَّغم من أنَّها لم تكن سبَّاحةً ماهرةً أصلاً. لكنَّها تمتلك قدرةً مدهشةً على التكيُّف، فتدرَّعتْ بصلابتها».

ناولها الصَّدَفة. «أُريدك أن تأتي معي إلى إنجلترا. هل تقبلين الزواج منِّي؟»

ضمَّت أصابعها على الحجر الأملس وهي تتحسَّس تصميمه الدقيق. «المسكينة مريم، كانت محقَّةً حين قلقتْ من عودتك. إن فعلنا ذلك فربَّما لن تسامحني عائلتي أبدًا. أبي وأمِّي وأبناء عمومتي...».

«دعيني أتحدَّث إليهم».

«فكرةٌ سيِّئة. صحيحٌ أنَّ مريم تعرف عنَّا، لكنَّ أبويّ لا يعرفان شيئًا. سأُخبرهما بكلِّ شيء، فقد سئمتُ إخفاء الحقيقة. وسيعرفان الآن أنَّني كذبتُ عليهما طوال السنوات الماضية حين قلتُ إنَّ يوسف والد الطفل، وأنَّ لديهما الآن سببًا آخر كي يتبرَّآن منِّي... لا أظنُّهما يغفران لي تشويه سمعة رجلٍ تركيٍّ من أجل أن أحمي عشيقي اليونانيّ». ثم مرَّرت يدها على شعرها وقالت دون أن تُحرِّك فكَّيْها: «وعائلتك أيضًا لن تسعد بذلك. لا أخوك الأصغر ولا خالك ولا أبناء خالك...».

تجعَّد حاجبه وهو يقول: «سوف يتفهّمون».

«لا، لن يتفهَّموا. بعد الذي مرَّ به أهلُنا، لن يروا في ذلك إلاَّ خيانة».

«لقد تغيَّرت الأمور الآن».

فقالت وهي ترفع الصَّدَفة عاليًا: «الأحقاد الطائفيَّة لا تموت. إنَّما تضيف طبقاتٍ جديدةً إلى صَدَفتها المتصلِّبة».

تمدَّد الصمتُ العاجز بينهما، وهبَّتْ نسمةٌ عبر الأشجار تكدِّر صفو الشجيرات، فارتعشتْ ديفني رغمًا عنها.

«سنبقى وحيدَيْن من دون عائلةٍ، ووطن».

«الكلُّ وحيد. الفرقُ أنَّنا سندرك ذلك أكثر من غيرنا».

«أنتَ الذي عرَّفتني إلى كفافيس. هل نسيتَ شاعرك؟ تظنُّ أنَّك قادرٌ على ترك وطنك، لأنَّ كثيرين غيرك تركوا أوطانهم. والعالمُ مليءٌ بالمهاجرين والهاربين والمنفيِّين. يدفعك هذا إلى أن تنفلت من قيودك وتسافر إلى أبعد مكانٍ تستطيع الوصول إليه، ثم تكتشف ذات يومٍ حين تنظر إلى الوراء أنَّ وطنك لاحقك طوال تلك المسافة، مثل ظلِّك. ستلاحقنا هذه المدينة، هذه الجزيرة، أينما ذهبنا».

أمسك بيدها، وقبَّل رؤوس أصابعها. كانت تحمل الماضي في مكانٍ قريبٍ من السطح، فيما يندفع الألم تحت جلدها مثل الدم. «سننجح إذا آمنَّا بذلك».

«أنا لا أُجيد الإيمان».

«كنتُ أعرف ذلك».

كان يعرف، حتى في ذلك الوقت، أنَّها كانت عرضةً لنوبات الكآبة. كانت تأتيها في موجاتٍ متتابعة، كالمدِّ والجزر. فحين جاءت الموجةُ الأولى (بالكاد تلمس أصابع قدمَيْها)، كانت مُويجةً خفيفةً جدًّا وشفيفةً، لدرجةٍ يجوز معها الاعتقادُ بأنَّها غير مهمَّة، وأنَّها سوف تختفي سريعًا، دون أثر. ثم جاءت موجةٌ أخرى، وأخرى، وصلت إلى كاحلَيْها، ثم غطَّت ركبتَيْها، وما لبثتْ أن انغمرت كلّها في ألمٍ سائلٍ حتى عنقها، فغرقتْ. هكذا ابتلعها الاكتئاب.

قالت: «هل أنت واثقٌ من أنَّك تريد الزواج منِّي؟ لستُ شخصًا سهلاً كما تعرف، ولديَّ ـــــ».

وضع إصبعه على شفتَيْها، يقاطعها للمرَّة الأولى. «واثقٌ من ذلك أكثر من أيِّ شيءٍ في حياتي. ولكنْ لا بأس إن كنتِ في حاجةٍ إلى وقتٍ أطول للتفكير.. أو إن رفضتِ».

ابتسمتْ، برنَّةِ خجلٍ في صوتها. مالت وأنفاسُها تمسح جلده: «لا أحتاج إلى التفكير يا حبيبي. لطالما حلمتُ بالزواج منك».

لم يبقَ شيءٌ يقولانه، أو هكذا خطر لهما، فلزما الصمت فترةً، يُنصتان لليل، في يقظةٍ لأيِّ صريرٍ أو حفيف.

ثم قال كوستاس: «بقي شيءٌ واحدٌ أريد أن أفعله قبل مغادرة الجزيرة. أريد أن أزور الحانة لأطمئنّ على شجرة التين».

التينة

لو كانت هناك حشرةٌ واحدةٌ لا يمكن تجاهلها حين نقصُّ حكايةً عن جزيرة، فلا بدَّ أن تكون النملة. نحنُ الأشجار ندين لها بالكثير. وكذلك البشر، إن تحرَّينا الصدق، لكنَّهم مع ذلك يعدُّونها تافهةً، لا تأثير لها، كعادتهم في النظر إلى ما تحت أقدامهم. النملُ هو الذي يُغذِّي التربة ويهوِّيها ويُحسِّنها، تلك التربة التي تقاتل عليها اليونانيُّون والأتراك. للنمل نصيبٌ في قبرص.

النمل كادحٌ قويّ الشكيمة، وتستطيع النملة أن تحمل ما يفوق وزنها بعشرين ضعفًا. تعيش النملة حياةً أطول من أيِّ حشرةٍ أخرى تقريبًا، وهي في رأيي الأذكى أيضًا من بين كلّ الحشرات. هل شاهدتم يومًا نملاً يجرُّ أمّ أربعة وأربعين، أو يتجمَّع على عقرب، أو يلتهم بُرصًا؟ العمليَّةُ مدهشة ومخيفة في الوقت نفسه، إذْ تُدار بتزامنٍ متقن. تُرى ما الذي يدور في عقل النملة في تلك اللحظة؟ وكيف يمكن لأحدٍ أن يتحصَّل على ذلك النوع من الثقة الداخليَّة، والإصرار على الوقوف أمام خصمٍ أقوى وأكثر استعدادًا للمعركة؟ تستطيع النملة بذاكرتها الشمِّيَّة أن تلتقط آثار الرائحة، وتتشمَّم النمل الدخيل من مستعمرةٍ أخرى. وحين تبتعد عن بيتها يمكنها أن تتذكَّر طريق العودة إليه. فإنْ واجهت عقباتٍ في الطريق (شقوقًا في الأرض أو غصينات متساقطة)، يمكنها أن تصنع جسورًا بأجسادها، إذْ يتشبَّث بعضها ببعض كالبهلوانات. وكلُّ ما تتعلَّمه النملةُ في حياتها، تنقله إلى الجيل التالي؛ فالمعرفة ليست ملكًا لأحد. بهذه الطريقة، تتذكَّرُ المستعمرةُ ما نسيه أفرادُها منذ زمن.

يعرف النملُ جزيرتَنا أفضل من أيِّ أحد. فهو عالمٌ بصخورها البركانيَّة، وأحجارها الجيريَّة المعاد بَلوَرتها، والعملات المعدنيَّة العتيقة من جزيرة سلاميس، وهو الخبير بالاستفادة من الراتينج الذي يتقطَّر من لحاء الشجر. كما يعرف النمل الأماكن التي دُفن فيها المفقودون.

في ذلك العام الذي عاد فيه كوستاس إلى قبرص، أنشأتْ مستعمرةٌ من النمل بيتًا لها بين جذوري. كنتُ أتوقَّع هذا بعد إصابتي بحشرة المنّ، تلك الحشرة الصغيرة التي تمصّ النسغ من

الأوراق وتنشر الڤيروسات، فتسبِّب إجهادًا كبيرًا للأشجار. لم يكن هذا ليحدث قطّ لو أنَّ يوسف ويورغوس كانا معي. كانا كلّ يومٍ يفحصان أغصاني للتأكُّد من خلوِّها من الآفات، ويرشَّان أوراقي بخلِّ التفَّاح، ويعتنيان بي خير عناية، لكنَّني كنتُ في ذلك الوقت وحيدةً، ضعيفة. وحيث يظهر المنّ لا بدَّ من أن يتبعه النمل، فهو يعشق الفضلات الحُلوة التي يتركها المنّ. لكنَّ هذا لم يكن السبب الوحيد الذي جعل النمل يبني مستعمرةً كاملةً هنا. فالنملُ يحبّ التينات المختمرة، وقد كانت تيناتي كلّها مختمرةً لأنَّ أحدًا لم يحصدها. التينة ليست فاكهةً بالضبط؛ فهي ثمرةٌ تينيَّةٌ ذات بنيةٍ مدهشة تخفي الأزهار والبذور في تجويفها، بفتحةٍ بالكاد تُرى، يمكن للدبابير أن تدخل منها وتضع لقاحها. والنمل أيضًا حين يجد الفرصة يزحف إلى داخل الفتحة ويأكل ما يستطيع.

ولذلك أصبحتُ معتادةً على الاستماع إلى طقطقة آلاف الأرجل الصغيرة التي تروح وتغدو. مستعمرةُ النمل مجتمعٌ طبقيٌّ بامتياز. وهذه المنظومة تعمل بكلِّ سلاسةٍ ما دام أعضاؤها يقبلون هذا التفاوت، ويوافقون على تقسيم العمل. فالنملُ العامل يأتي بالطعام ويحرص على نظافة المكان، ويلبِّي طلبات الملكة التي لا تنتهي. أمَّا النمل المحارب فهو الذي يحمي المستعمرة من المفترسين والأخطار الأخرى، وأمَّا النمل الطائر فهو الذي يساعد في التكاثر، ويموت فور أن يلقِّح النملة الأميرة، وهي التي ستصبح ملكةً ذات يوم. ولا بدَّ من الحفاظ على هذا التقسيم الطبقيّ مهما كان الثمن.

ذات ليلةٍ، وبينما كنتُ أستعدُّ للنوم، سمعتُ صوتًا غريبًا. كانت الملكة تشقّ طريقها على جذعي الطويل المحزَّز، ببضعةِ حرَّاس يرافقونها. ثم بدأتْ تحكي لي قصَّتها وهي ما تزال تلهث من ذلك الصعود الشاقّ. قالت إنَّها جاءت إلى الدنيا عند قبرٍ قديم، في مكانٍ غير بعيد. كانت لها ذكريات سعيدة عن نشأتها في ذلك المكان. وكانت تعرف أنَّها أميرة، وأنَّه حين يأتي الوقتُ المناسب سوف يُطلب منها أن تترك بيتها وتؤسِّس مملكتها الخاصَّة. كانت المستعمرة مزدهرةً وأعداد النمل في تزايد، فظهرت الحاجةُ إلى مساحةٍ أكبر، ما جعل النمل يكبِّر مستعمرته بحفر أنفاقٍ تحت الأرض، تصل الحجيْرات بالأعشاش. غير أنَّ خطأً هندسيًّا مريعًا حدث؛ فقد أكل النمل العامل من الجدار أكثر ممَّا يلزم، إلى أن انهار الجانب الشرقيّ من البئر ذات يوم. وفي غمضة عيْن، غرق المئات من النمل في الماء الذي نضح من البئر. صحيحٌ أنَّ بعض أنواع النمل تستطيع السباحة، لكنَّ هذا النوع تحديدًا ليس منها. تناثر النملُ الناجي في كلِّ اتِّجاه، باحثًا عن أيِّ ملجأ. قالت الملكة إنَّها بعد هذه الكارثة اضطُرَّت إلى ترك بيتها بأسرع ما يمكن، كي تبدأ حياةً جديدة.

في رحلة ما قبل الزفاف، كانت ترفع رأسها وتطير بسرعة، فيما يجاهد النمل الطائر للِّحاق بها. هكذا عبر النمل فوق مساراتٍ رمليَّة، وتدافع فوق آثار إطارات، إلى أن اجتاز حطام الحانة. وما إن رأتْني محمَّلةً بالتينات حتى أدركت أنَّ هذا هو المكان المناسب الذي ستبني فيه مملكتها. هنا تزاوجت، وتخلَّصت من جناحَيْها كما لو أنَّها تنزع فستان زفاف، كي لا يمكنها الطيران مرَّةً أخرى. هكذا حوَّلت نفسها تمامًا إلى آلةٍ لوضع البيوض.

تلوَّت ملامحها من الحزن، ثم قالت إنَّها حين وقعت الجدران وجدت في قاع البئر رجلَيْن ميّتَيْن. لم تعرف من هما إلى أن قابلتْني وعرفتْ عن صاحبَي الحانة.

فلمَّا استوعبتُ الحقيقة المروِّعة من كلامها أسقطتُ أغصاني. وحين رأت حُزني، أكَّدت لي أنَّها ومن معها لم يلمسوا يوسف ويورغوس. لقد تركهما النمل هناك على حالهما. وسوف يجدهما أحدٌ ما عمَّا قريب، فقد أصبحا شبه مكشوفَيْن.

بعد أن رحلتْ الملكةُ وحاشيتها من الخدم الأوفياء، انتابني خمولٌ غريبٌ ازداد سوءًا في الأيَّام التالية. كنتُ أشعر بالتعب الشديد. التينةُ شأنها شأن كلّ شيءٍ حيّ، قد تُعاني من عدَّة أمراضٍ وإصابات، لكنَّني هذه المرَّة لم أمتلك قوَّةً للمقاومة. تلوَّت أطراف أوراقي، وبدأ لحائي يتقشَّر. بعدها، أصبحت تيناتي خُضْرًا لزجةً من الداخل، ثم مفتَّتةً على نحوٍ مخيف.

فلمَّا انحدرتْ مناعتي وتراخت قواي، وقعتُ ضحيَّةً لواحدةٍ من أسوأ أعدائي: الخنفساء المرجانيَّة الكبيرة التي تثقب أشجار التين (فرينيتا سبيناتور). حطَّت عليَّ كالكابوس، ووضعتْ بيوضها قرب قاع جذعي. انتظرتُ في عجزٍ وخوف، وأنا أعرف أنَّ اليرقات ستبدأ عمَّا قريبٍ في حفر جذعي والتغذِّي عليَّ، إذ تحفر الخنادق في أغصاني، وتُدمِّرني من الداخل شيئًا فشيئًا.

في أغلب الحالات، لا يمكن تدارك التلف الذي تُسبِّبه هذه الخنفساء. فلا بدَّ من إتلاف أشجار التين المُصابة.

ببساطةٍ، كنتُ أُحتَضَر.

الجذورُ المحمولة
قبرص، أوائل الألفيَّة الثانية

حين وصلت ديفني وكوستاس إلى التينة السعيدة وجداها غارقةً في الشجيرات النامية، والبلاطات مكسورة، وأنقاض البناء منثورة في كلِّ مكان، كحطامٍ بعد عاصفة. تمهَّلت ديفني خلفه، كي تمنحه الفرصة لكي يتأمَّل المكان بعد تلك السنوات الطويلة.

دفع كوستاس الباب المعلَّق على مفصلاته، فوجد الخشب قد تحلَّل وبهَت. في الداخل، كانت الحشائش قد شقَّت طريقها عبر شقوق الأرض، والبلاطات مبقَّعةً بالأشنة، والجدران ملطَّخةً بالعفن، فأضحت سوداء كالحديد. ثمَّة لوح نافذةٍ زجاجها قد تشظَّى منذ زمن، كانت تصرّ ببطءٍ مع النسمات. ورائحةٌ نتنة في المكان، من أثر التعفُّن والتفسُّخ.

وما إنْ دخل كوستاس حتى عادت إليه الذكريات كلّها. المساءات العابقة بالروائح اللذيذة، روائح الطعام الساخن والمخبوزات الدافئة، وأحاديث الزبائن وضحكاتهم، والموسيقى والتصفيق، وتكسُّر الصحون مع انقضاء الليلة. تذكَّر النهارات التي كان يمشيها وهو يصعد التلَّة، يحمل خمر الخرُّوب وألواح السمسم بالعسل التي كان يورغوس يحبّها جدًّا، وفرحة أُمِّه بالمال الذي يأتي به. أشرقت عيْناه حين تذكَّر تشيكو يصفِّق بجناحَيه، ويورغوس يُلقي النكات لزوجَيْن جديدَيْن، ويوسف يشاهد كلّ هذا بصمته المعتاد ونظرته المنتبهة. كم كانا فخورَيْن بما صنعاه معًا. كانت الحانةُ بيتهما، وملاذهما، وعالمهما كلّه.

قالت ديفني وهي تحيطه بذراعَيْها: «هل أنتَ بخير؟»

ظلاَّ ساكنَيْن دقيقةً، فيما تتباطأ أنفاسه كي تتماشى مع أنفاسها، إلى أن هدأتْ نبضات قلبه.

أمالت ديفني رأسها ونظرت في المكان. «تخيَّل أنَّ التينة شهدت على كلِّ شيء».

خلَّص كوستاس نفسه بلطفٍ من ذراعَيْها، واقترب أكثر من الفيكس كاريكا. تغضَّن حاجبه وقال: «أوه، الشجرة ليست على ما يرام. إنَّها مريضة».

«ماذا؟»

«مُصابة. انظري. لقد انتشر المرض في كلِّ أجزائها»، وأشار إلى الأغصان المغطَّاة بثقوبٍ صغيرة، وكتلة النشارة في قاع الجذع، والأوراق الميّتة المتفتِّتة على الأرض.

«ألا تستطيع علاجها؟»

«سأرى ما يمكن فعله. لنذهب ونحضر بعض الأغراض».

عادا بعد ساعةٍ يحملان عدَّة أكياس. كسَّر كوستاس أجزاءً من الجدار الجنوبيّ من الحانة بمطرقة، وقد كان الجدار متهاويًا عفنًا. كان كوستاس حريصًا على أن تحصل الشجرة على مزيدٍ من الضوء والأوكسجين. بعد ذلك، راح يقطِّع الأغصان المريضة بمنشار تقليم، وحقَنَ الأنفاق التي حفرتْها اليرقات بمبيدٍ حشريّ. وأخيرًا غلَّف الجزء السفليّ من الجذع بشبكٍ سِلكيٍّ وسدَّ الجروح المتقيِّحة بسدَّادات، كي يمنع الحشرات من وضع بيوضها مرَّةً أخرى.

سألتْه ديفني بالإنجليزيَّة: ﴿Is it going to get better?﴾

فردَّ عليها: «She هذه الشجرة أنثى». ثم انتصب ومسح جبينَه بظهر يده، وقال: «لا أدري ما إذا كانت ستتحسَّن. اليرقات منتشرةٌ في كلّ مكان».

«ليت كان بإمكانها أن تأتي معنا إلى إنجلترا. ليت بالإمكان نقل الأشجار».

ضيَّق كوستاس عينَيْه حين خطرت له فكرةٌ جديدة. «يمكننا أن نفعل ذلك».

فنظرت إليه، في غير تصديق.

«يمكن زرع شجرة تينٍ من خلال عُقلةٍ نقطعها منها. إنْ زرعناها فور وصولنا إلى لندن ورعيناها، فقد تعيش».

«هل أنت جادّ؟ أوَيُمكن فعل ذلك؟»

«نعم. ربَّما لن يروقها المناخ الإنجليزيّ، لكنَّها قد تصبح بخير. غدًا صباحًا، أعود وأطمئنّ عليها، وسآخذ قطعةً من غصنٍ سليم. بعدها يمكن أن تسافر معنا».

التينة

في اليوم التالي، بينما كنتُ أنتظر عودة كوستاس بفارغ الصبر، زارتْني نحلةٌ كنتُ أعرفها. والحقُّ إنَّني أكنُّ احترامًا شديدًا للنحل؛ فلا يوجد نوعٌ من الأحياء يجسِّد دورة الحياة كالنحليَّات. ولو أنَّها اختفت من على وجه الأرض ذات يوم، فإنَّ العالم لن يتعافى أبدًا من آثار فقدانها. كانت قبرص جنَّةً للنحل، لكنَّها لم تكن سهلةً عليها. فالنحل الجامعُ وهو يستخدم الشمسَ بوصلةً يزورُ ما يقرب من ثلاثمئة زهرةٍ في الجولة الواحدة، أي أكثر من ألفَي زهرةٍ في اليوم الواحد.

هكذا هي حياةُ النحلة، عملٌ في عمل. قد ترقص قليلاً، غير أنَّ هذا جزءٌ من عملها. فحين تكتشف مصدرًا جيِّدًا للرحيق، ترقص وهي عائدةٌ إلى قفيرها كي تخبر الأخريات عن المكان الذي ينبغي الذهاب إليه. لكنَّها ترقص أحيانًا من شعورها بالامتنان لحياتها، أو لانتشائها بعد ارتشاف كثيرٍ من الرحيق المطعَّم بالكافيين.

للبشر تصوُّراتٌ مبتذلة عن النحل. فإن طلبتم منهم أن يرسموا نحلةً، يخربشون لطخةً مدوَّرةً بدينةً يغطِّيها طلاءٌ مخطَّطٌ بالأصفر والأسود (وفي هذا يتساوى الكبار والصغار). أمَّا الواقعُ، فهو أنَّ النحل شديد التنوُّع. بعضه برتقاليٌّ فاقع، أو بلون التربة المحروق، أو الأرجوانيّ، وبعضها يلمع بلونٍ أخضر أو أزرق معدنيّ، في حين توجد أنواعٌ لها أذيالٌ حُمرٌ فاتحة أو ناصعة البياض تشعّ في الشمس. كيف أصبحت كلّها متطابقةً في عيْن البشر على الرَّغم من تنوُّعها الفاتن؟ من الرائع طبعًا أن يكون للطيور عشرة آلاف نوع، ولكنْ لماذا يغفل البشر عن أنَّ أنواع النحل تأتي في ضعف هذا العدد، وكلّ نوعٍ له شخصيَّته المختلفة؟

حكتْ لي النحلةُ عن حقلٍ من الأزهار الزكيَّة والنبتات الغنَّاء في مكانٍ غير بعيدٍ عن الحانة. كانت كثيرًا ما تطير إليه، حيث تجد هناك الأقحوان والخشخاش وورد الذرة الحلو والمردقوش، والنبات المفضَّل لديها: السدُم بألوانه الورديَّة وبتلاته النجميَّة الصغيرة الطريَّة. وفي طرف الموقع،

مبنى أبيضُ عاديُّ الشكل وُضعت على جداره لافتةٌ كُتب عليها «مُختبر لجنة المفقودين ـــــ منطقةٌ محميَّة تابعة للأمم المتَّحدة».

عبرت النحلةُ من هذا المكان مرَّاتٍ لا حصر لها في طريق ذهابها وعودتها إلى القفير. وفي بعض الأحيان، كانت نفسُها تدفعها إلى الانحراف عن مسارها والدخول إلى المختبر عبر نافذةٍ مفتوحة. كانت تحبّ أن تطنّ هنا وهناك، وتنظر إلى الناس وهم يعملون في الداخل، ثم تعود من حيث أتت. لكنَّها حين دخلت المبنى اليوم دون هدفٍ محدَّد، حدث أمرٌ غير متوقَّع. فقد قرَّر أحد الموظَّفين لسببٍ غير معلوم أن يغلق النوافذ كلّها. وهكذا، وجدت النحلةُ نفسها حبيسة.

حاولتْ ألاَّ تُصاب بالذعر، وفشلت، فأخذت تُلقي بنفسها في ألواح النوافذ، تطنّ صعودًا ونزولاً على الأسطح الزجاجيَّة، عاجزةً عن إيجاد مخرج. كانت تستطيع أن ترى الأزهار في الخارج قريبةً جدًّا وكأنَّها تتذوَّق رحيقها، لكنَّها لا تملك سبيلاً إلى الوصول إليها.

هدَّها الإحباط والإنهاك، فاستقرَّت فوق خزانةٍ تلتقط أنفاسها، وأولت انتباهها إلى الغرفة التي أصبحت زنزانتها. أربعون عالِمًا وعالمة جنائيّين يعملون هنا، من القبارصة الأتراك واليونانيّين، وقد أصبحتْ تعرفهم جميعًا. كان اليونانيُّون يأتون كلَّ يومٍ من الجنوب، ويأتي الأتراك من الشمال، فيلتقون في هذه الأرض المحرَّمة. هنا، يؤتى بجميع البقايا البشريّة التي تُكتشف في عمليَّات النبش على أرض الجزيرة.

ينظِّف العلماء تلك المكتشفات ويفرزونها، فيفصلون العظام عن العظام، من مجموعةٍ من البقايا البشريَّة عن الأخرى. كانوا يعملون فرادى أو في مجموعاتٍ صغيرة، منكبّين على طاولاتٍ ضيّقةٍ صُفَّت عليها الهياكل العظميَّة مثل أحجيات الصورة المقطوعة. أعمدةٌ فقريَّة، وألواحُ أكتاف، ومفاصل أوراك، وفقرات، وأسنانٌ علويَّة، وغير ذلك. كانوا يرتِّبونها، يضعون القطعة إلى جانب القطعة المفقودة، ويربطون الشظايا بالأجزاء الكبيرة. كان عملاً مضنيًا بطيئًا، ولا يحتمل الخطأ. فإعادة ترتيب قدمٍ واحدة فقط (تتألَّف من ستٍّ وعشرين عظمة فرديَّة) قد يستغرق ساعات. كذلك ترتيب يدٍ واحدةٍ تتألَّف من سبعٍ وعشرين عظمةٍ، وألف لمسةٍ وتربيتةٍ مفقودة. شيئًا فشيئًا تتكشَّف هويَّة الضحيَّة كما لو أنَّها تطفو في مياهٍ داكنة. يتبيَّن جنسُها، وطولُها، وعمرها التقريبيّ.

قد تكون بعض البقايا مكسَّرةً بحيث لا يمكن الاستفادة منها، ولا تحتوي على أيّ حمضٍ نوويّ، إذْ دمَّرتْها البكتيريا الضارَّة. في هذه الحالة، تُخزَّن الأجزاء التي لم تُحدَّد هويَّتها، على أمل أن يسمح تطوُّر العلم والتكنولوجيا في المستقبل القريب على كشف أسرارها.

كان العلماء يكتبون تقارير شاملةً عن نتائجهم، بما في ذلك وصفٌ دقيقٌ للملابس والمتعلِّقات الشخصيَّة. كانت أشياءَ قابلةً للتلف، لكنَّها لحسن الحظّ تدوم زمنًا طويلاً. حزامًا جلديًّا بإبزيمٍ معدنيٍّ محفور، أو قلادةً فضِّيَّةً بها صليبٌ أو هلال، أو حذاءً جلديًّا باليًا حتى الكعبيْن، وما إلى ذلك. ذات مرَّةٍ، اكتُشفت محفظة. في المختبر أيضًا بعض العملات المعدنيَّة، ومفتاحٌ لقفلٍ غير معلوم، وصورٌ لإليزابيث تيلر. يبدو أنَّ الضحيَّة كان واحدًا من معجبيها. كانت هذه التقارير الوصفيَّة تُكتب لأرشيف اللجنة، لكنَّها في الوقت نفسه موجَّهةٌ لأقارب الضحايا. فالعائلات تريد أن تعرف تلك التفاصيل. وما يريدون معرفته حقًّا هو ما إذا كان أحبَّاؤهم قد تعذَّبوا وعانوا قبل موتهم أم لا.

شعرت النحلةُ بالإنهاك فنعسَت. كانت معتادةً على النوم في أوضاعٍ غريبة. في بعض الأحيان، تأخذ قيلولةً قصيرةً داخل زهرة. كانت في حاجةٍ إلى ذلك، لأنَّ النحل الجامع المحروم من النوم يواجه صعوبةً في التركيز أو إيجاد طريق العودة. وحتى في القفير نفسه، يأخذ غفوةً في الخلايا الطرفيَّة، في حين يحتلّ النحل العامل (الذي ينظِّف ويُطعم اليرقات) الخلايا الأقرب إلى المركز. لذلك كانت صديقتي بطبيعتها ذات نومٍ خفيف.

استيقظتْ عند الظهيرة. كان الموظَّفون قد خرجوا كلُّهم لتناول الغداء، عدا موظَّفة واحدة، يونانيَّة شابَّة كانت ما تزال تعمل. وقد عرفت النحلة من مراقبتها لهذه المرأة عدَّة مرَّات أنَّها تحبّ البقاء وحيدةً مع العظام، بل تتحدَّث إليها أحيانًا. لكنَّها في ذلك اليوم، وهي بمفردها في المختبر، التقطت الهاتف واتَّصلت برقم. ظلَّت تلقي نظرات قلقة على الطاولات إلى يمينها وشمالها في انتظار الرنين، طاولاتٍ صُفَّت عليها الجماجم والعظام.

قالت العالمة في الهاتف: «ألو. أهلاً ديفني، مرحبًا. أنا إليني. من المختبر نعم. أنا بخير، شكرًا. كيف يجري العمل في الموقع؟»

تحدَّثتا قليلاً، في حديثٍ بشريٍّ مملّ، إلى أن قالت إليني شيئًا أثار انتباه النحلة. «اسمعي، ربَّما وجدنا الشخصيْن اللذَين كنتِ تسألين عنهما. حصلنا على تطابقٍ في الحمض النوويّ لكليْهما».

فطارت النحلةُ تقتربُ كي تسمع.

«أوه، لا». هكذا صاحت إليني وهي تلتقط جريدةً وتلوِّح بها على النحلة. من كان يتوقَّع أنَّها تخاف من النحل، وهي التي تقضي أيَّامها مع الجثامين والهياكل العظمية؟

مرَّةً أخرى إذن، أُسيء فهم صديقتي وخُلط بينها وبين شيءٍ آخر، فتعرَّضتْ لضربةٍ على الرأس. وقعت في كوب قهوةٍ كان لحسن الحظّ فارغًا إلاَّ من بضع قطرات. فلمَّا نهضتْ على قدمَيْها ضعيفةً دائخة، سمعت إليني تتمتم: «أين ذهبت...؟ آسفة ديفني، رأيتُ نحلةً هنا. أنا أخاف منها قليلاً».

فقالت صديقتي لنفسها: «قليلاً؟» لئن كان هذا ما يفعله البشر بقليلٍ من الخوف، فما عساهم يفعلون بكثيرٍ منه! ترنَّحت النحلة في جانب الكوب لتجفيف جناحَيْها.

قالت إليني: «نعم، بالتأكيد. يمكنكِ المجيء. حقًّا؟ ستذهبين إلى إنجلترا غدًا؟ أتفهَّم ذلك. لا بأس، عصر اليوم مناسب. حسنًا، سنتحدَّث لاحقًا حين تصلين».

*

بعد نصف ساعةٍ، ولم يكن العلماء الآخرون قد عادوا بعد، فُتح الباب وهُرعت امرأةٌ إلى الداخل.

«إليني، شكرًا على اتِّصالك».

«أهلاً ديفني».

«هل أنتِ واثقة من النتائج؟»

«نعم. فحصتُ نتائج الحمض النوويّ مرَّتيْن وقارنتها ببيانات عائلتيْهما للتأكُّد. وفي كلا المرَّتيْن، كانت درجة التطابق كافية».

«هل تعرفين أين وُجدا؟»

«في نيقوسيا». توقَّفتْ إليني هنا، متردِّدةً ما إذ كان ينبغي لها قول المعلومة التالية. «داخل بئر».

«بئر؟»

«للأسف نعم».

«كانا في البئر طوال تلك السنين؟»

«نعم. لقد قُيِّد واحدهما إلى الآخر، فلم يكن يمكن لأحدهما أن يطفو على السطح. وقد قيل لنا إنَّ البئر انهارت مؤخَّرًا، وحين بدأ العمَّال في العمل وجدوا البقايا». ثم تابعتْ بنبرةٍ أخفتّ: «البقيَّة في حياتك. الحقيقةُ أنَّنا لم نر شيئًا كهذا من قبل. في الغالب نجد قبرصيًّا يونانيًّا هنا، وقبرصيًّا تركيًّا هناك. كلٌّ يُقتل على حِدَة، ويُدفن على حِدَة. ولكنْ لم يحدث قطّ أن يُقتل يونانيٌّ وتركيٌّ معًا».

وقفت ديفني ساكنةً، ويداها تحومان حول الطاولة قبل أن تتشبَّث بطرفها. «متى تبلغون أهلهما؟»

«كنتُ أنوي أن أبدأ غدًا. عائلةٌ في الشمال، وعائلةٌ في الجنوب».

فقالت ديفني: «إذن سيُفصلان عن بعضهما بعضًا الآن. لا يمكن دفنهما معًا. كم هو محزن! قضينا كلّ هذا الوقت في البحث عنهما، ولعلَّه كان من الأفضل لو لم نعثر عليهما. ليتهما ظلاَّ مفقودَيْن معًا».

وضعتْ إليني يدها بلطفٍ على كتف ديفني. «أوه، قبل أن أنسى...» ومشتْ إلى مكتبها، والتقطت كيسًا بلاستيكيًّا. «وجدوا هذه أيضًا».

ساعة جَيْب.

أخفضتْ ديفني عينَيْها. «هذه ساعة يورغوس. هديَّةُ عيد ميلاده من يوسف. من المفترض أن تكون هناك قصيدةٌ في الداخل... لكفافيس». توقّفت ديفني، ثم قالت: «آسفة إليني... أحتاج إلى هواءٍ نقيّ. هل يمكن أن نفتح النوافذ؟»

اشرأبَّت النحلةُ فورًا. كانت هذه فرصتها. ربَّما فرصتها الوحيدة. فبمجرَّد أن فُتحت نافذةٌ، استجمعتْ صديقتي كلّ قواها وطارت في مسارٍ متعرِّجٍ في طريقها للخروج. طارت بأسرع ما يمكن، ولم تتوقَّف حتى وصلتْ إلى حقول الأزهار.

المعجزات الصغيرة
قبرص/لندن، أوائل الألفيَّة الثانية

حين عاد كوستاس، فحص الفيكس كاريكا بعناية، ثم تناول مقصّ التقليم وأحدث قَطْعًا مستقيمًا، وآخر قطريًّا على ساقٍ سليمة. وعلى الرَّغم من أنَّه كان يعرف أنَّه من الأفضل استخدام عدَّة فروعٍ، في حال لم يعش بعضها، إلاَّ أنَّ الشجرة كانت في وضعٍ سيّءٍ للغاية، فلم يستطع أن يأخذ منها غير فرعٍ واحد، لفَّه بحرصٍ ووضعه في حقيبته.

سيكون الأمر صعبًا، لكنَّه ليس مستحيلاً. المعجزاتُ الصغيرة تحدث. وكما أنَّ الأمل قد ينشأ من أعماق اليأس، أو ينبت السلامُ بين بقايا الحرب، يمكن للشجرة أيضًا أن تنمو من حالة التدهور والمرض. لو اتَّخذت هذه العقلة القبرصيَّة جذرًا لها في إنجلترا، فسوف تكون متطابقةً جينيًّا، لكنَّها لن تكون نفسها تمامًا.

*

فلمَّا وصل كوستاس وديفني إلى لندن غرسا العُقلة في أصيصٍ خزفيٍّ أبيض، وضعاه على طاولةٍ عند النافذة في شقَّة كوستاس الصغيرة، تطلُّ على ساحةٍ هادئةٍ مورقة. في هذه الشقَّة، اكتشفا أنّ ديفني حبلى. كانا جالسَيْن متربِّعَيْن على أرضيَّة الحمَّام، ورأساهما محنيَّان على جهاز كشف الحمل. ثمَّة لمبةٌ تئزُّ وترتعش في الأعلى، استجابةً لتقلُّب القوَّة الكهربائيَّة. لن تنسى ديفني أبدًا الفرحة التي ارتسمت على وجه كوستاس، وعيْناه تشعَّان بشيءٍ أقرب إلى الامتنان. كانت هي الأخرى سعيدة، مع شيءٍ من الخوف والقلق. ولفرط ما كانت فرحته خالصة، شعرتْ ديفني بأنَّها سوف تخونه لو أخبرتْه عن وخزات القلق التي تطعن جلدها وتفتِّت دماغها. في تلك الأيَّام، كانت ترى حلمًا متكرِّرًا، أنَّها تائهةٌ في غابةٍ كثيفةٍ مظلمة، تحمل بين ذراعيْها طفلاً، وهي تصطدم بالأشجار، عاجزةً عن إيجاد طريقٍ للخروج، فيما الغصون تكشط كتفَيْها، وتخدش وجهها.

ذات مرَّةٍ، بعد شهرٍ تقريبًا، سألتْه: «ماذا لو لم تسر الأمور على ما يرام؟»

«لا تفكِّري في هذه الأشياء».

«عمري كبيرٌ على الولادة. أنا وأنت نعرف ذلك. ماذا لو حدثت مضاعفات...».

«سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام».

«لكنِّي لم أعد صغيرة».

«كُفِّي عن قول ذلك».

«ماذا لو تبيَّن أنَّني أمٌّ سيِّئة؟ ماذا لو فشلت؟»

كان يمكنها أن ترى في انقباض فكِّه مدى الصعوبة التي يعانيها في البحث عن كلماتٍ مناسبةٍ لتهدئتها، وإصراره على أن تؤمن بالمستقبل الذي سيبنيانه معًا. وقد حاوَلَت. كانت في بعض الأيَّام مفعمةً بالأمل والثقة، وتنجح في اجتياز أيَّامٍ أخرى على ما يرام، لكنَّها في بعض الأيَّام (لا سيَّما في الليالي)، كانت تسمع من مكانٍ بعيد شيئًا يدقّ مثل البندول، خطوات حسٍّ مألوفٍ من الكآبة تقترب. شعرتْ بالندم على إحساسها هذا، فلامت نفسها وعنَّفتها دون توقُّف. لم لا تستطيع أن تقدِّر هذه الهديَّة التي منحتْها إيَّاها الحياة وتعيش في هذه اللحظة بكلِّ جوارحها؟ ماذا ستجني من هذا التوتُّر؟ كان قلقُها من نجاحها كأمٍّ لطفلٍ غير مولودٍ أشبه بالحنين إلى مكانٍ لم تزره بعد.

في أثناء ذلك، اكتشف كوستاس أنَّ العُقلة أنتجت أوراقًا جديدة. كان في غاية الغبطة، وازداد يقينه بأنَّ أجزاء حياته بل حياتهما بدأت تتكامل، فحياتُه كلّها تتألَّف من قطع أحجيةٍ متقاطعةٍ ائتلفت أخيرًا. بدأت دراساتُه في علم الطبيعة والنبات تجتذب اهتمام الناس، من داخل هذا المجال وخارجه، وصار يتلقَّى دعواتٍ لتقديم المحاضرات والكتابة في المجلاَّت العلميَّة. كما أنَّه بدأ يكتب كتابًا جديدًا.

نظرتْ ديفني إلى قوَّة العُقلة وصلابتها على أنَّها فألٌ حسن. لقد جعلها الحملُ تصدِّق الخرافات، فأخرج منها جانبًا يشبه أختها، لكنَّها لم تعترف بذلك. توقَّفت عن الشراب. وتوقَّفت عن التدخين. وعادت مرَّةً أخرى إلى الرسم. ومنذ تلك اللحظة، اندمج في عقلها مصير الطفل ومصير الشجرة. كانت بطنها تكبُر، والشجرةُ تحتاجُ إلى مساحةٍ أكبر. أعاد كوستاس تأصيص النبتة

باستخدام أصيصٍ أكبر، وبات يفحصها كلَّ يوم. انتقل الزوجان إلى بيتٍ في شمال لندن، وكانت التينة قد اكتسبت ما يكفي من القوَّة لكي تُغرس في الحديقة.

كانا سعيدَيْن في هذا البيت، على الرَّغم من المدخنة، والسقف الذي يسرِّب، والشقوق المنتشرة في الجدران، وسوء الدفَّايات. وُلدت آدا في أوائل كانون الأوَّل / ديسمبر، قبل موعدها بشهريْن. لذلك كانت رئتاها ضعيفتَيْن، فأصبح لزامًا وضعها في الحضَّانة عدَّة أسابيع. الشتلةُ الصغيرة كانت تُعاني أيضًا مع المناخ الجديد، فلفَّها كوستاس بالخيش وغطَّاها بقطع الكرتون ومنحها شيئًا من التهوية. وما إن حلَّ الصيفُ حتى كان كلاهما في أفضل حال: التينة والطفلة.

التينة

آخر حيوانٍ من نظامي البيئيّ أذكر أنَّه زارني قبل رحيلي عن الجزيرة كان فأرًا. ثمَّة حقيقةٌ أساسيَّةٌ لا تُذكر أبدًا في كتب التاريخ، على الرَّغم من أنَّها كونيَّة وتستحقّ الملاحظة. فأينما يخوض البشر حروبهم ويحوِّلون الأراضي الخصبة إلى ساحات معارك تدمِّر مواطن حيوانيَّة بأكملها، تنتقل الحيوانات دائمًا إلى الفراغ الذي يخلِّفه البشر. القوارض مثلاً تستحوذ على المباني التي يدمِّرها البشر (بعد أن كانت مصدر سعادتهم وفخرهم)، وتحوِّلها إلى مملكةٍ لها.

التقيتُ كثيرًا منها على مدى السنوات، إناثًا وذكورًا وصغارًا ورديَّة، إذْ إنَّها مغرمةٌ بالتين. لكنَّ هذا الفأر تحديدًا لم يكن عاديًّا؛ فقد وُلد ونشأ في مكانٍ أيقوني: فندق ليدرا �الاس.

حين شُيِّد الفندق في النصف الثاني من الأربعينيَّات، كُتب في الإعلان عنه: من أفضل فنادق الشرق الأوسط. غير أنَّ المستثمرين لم يرقهم ذلك الشعار. فالشرق الأوسط لم يكن وجهةً جاذبةً للسيَّاح الغربيِّين. فكَّروا في تغييره إلى: من أفضل فنادق أوروبا، لكنَّ هذا لم يكن جاذبًا كذلك، لا سيَّما وأنَّ هاجس الحرب العالميَّة الثانية ما يزال يلوح في أوروبا. إذن يكون: من أفضل فنادق الشرق الأدنى. هذا أفضل، فكلمة «الأدنى» تبدو قريبة، وكلمة «الشرق» تضفي شيئًا من الغرابة. «الشرق الأدنى» كان شرقيًّا بما يكفي. بما يكفي فقط، وليس أكثر ممَّا ينبغي.

صمَّمَ الفندق معماريٌّ يهوديٌّ ألمانيٌّ ناجٍ من المحرقة، وتطلَّب بناؤه 240 ألف جنيهٍ قبرصيّ، وسنتيْن. استُوردت الثريَّات من إيطاليا، والأفاريز من اليونان. كان موقعه مثاليًّا، قريبًا من مركز نيقوسيا القروسطيّ، غير بعيدٍ عن الأسوار الفينيسيَّة المحيطة، على شارعٍ يُسمَّى شارع الملك إدوارد السابع. كان الفندق بمثابة برجٍ عالٍ يشرف على البيوت الصغيرة والشوارع الضيِّقة في البلدة القديمة، ويحتوي على 240 غرفة. بل إنَّ كلّ غرفة كانت تحتوي على دورة مياهٍ خاصَّة، فأصبح الفندق الوحيد الذي يوفِّر هذه الرفاهيَّة آنذاك. في الفندق حاناتٌ وردهاتٌ وملاعبُ تنس، وملاعب

للأطفال، ومطاعم من الدرجة الأولى، وحمَّام سباحةٍ ضخمٌ للغوص فيه تحت أشعَّة الشمس القاسية، وقاعة حفلاتٍ ستصبح عمَّا قريبٍ حديث المدينة. في يوم الافتتاح في تشرين الأوَّل / أكتوبر 1949، كان الجميع حاضرًا. ضبَّاطٌ بريطانيُّون استعماريُّون، ووجهاء قبارصة وأجانب، ومشاريع مشاهير. كان الناس بعد انتهاء الحرب العالميَّة الثانية في حاجةٍ إلى طمأنةٍ بأنَّ الأرض تحت أقدامهم صلبة، والمباني التي شيَّدوها قويَّة، وأنَّ الحطام والفظائع التي وقعت لن تعود مجدَّدًا. كان عام 1949 م عامًا رائعًا للتفاؤل!

في حياتي الطويلة، رأيتُ مرَّةً بعد مرَّةٍ هذا البندول الذي يقود الطبيعة البشريَّة. فكلّ بضعة عقودٍ يتأرجحون إلى منطقةٍ من التفاؤل المنطلق، ويصرُّون على رؤية كلّ شيءٍ من مصفاةٍ ورديَّة، إلى أن تهزّهم الأحداثُ وترجمُهم، فتعيدهم إلى برودهم المعتاد ولامبالاتهم.

ظلَّ الابتهاج المحيط بافتتاح الفندق مستمرًّا ما شاء له أن يستمرّ. فكم من حفلاتٍ مدهشةٍ أقاموها آنذاك! كانت قاعة الحفلات تردِّد صدى طقطقة الكعوب العالية، وفرقعات السدَّادات، وصوت ولاَّعة الرونسون أمام سيجارة امرأة، وصوت الأصابع وهي تفرقع مع الأوركسترا في أغنية ﴿Smooth Sailing﴾ في الساعات المتأخِّرة، قبل أن تُنهي الليلة كعادتها بأغنية «Que Sera Sera». كانت الفضائح تتفجَّر تحت سقفها المزخرف، وتتدفَّق النمائم كالشمبانيا دون توقُّف. كان بالفعل مكانًا بهيجًا. وبمجرَّد أن يخطو الزوَّار من باب الفندق يشعرون بأنَّهم وقعوا في بُعدٍ آخر، إذْ يمكنهم أن يطرحوا القلق جانبًا وينسوا العنف والصراع العرقيّ المشتعل على بُعد خطواتٍ خارج الفندق.

وعلى الرَّغم من أنَّ الجميع في الفندق كانوا يبذلون جهدهم لصدِّ العالم الخارجيّ، إلاَّ أنَّهم لم ينجحوا دائمًا في منعه من الدخول. مثل تلك المرَّة التي وجدوا فيها أوراقًا مكتوبةً بإنجليزيَّةٍ متقنةٍ، منثورةً في الردهة كما لو أنَّ الريح دفعتْها إلى الداخل: لقد أخذنا على عاتقنا النضالَ للتخلُّص من الاستعباد الإنجليزيّ. النصر أو الموت! أو مثل ما حدث في تشرين الثاني / نوڤمبر 1955 م، حين نفَّذت «إيوكا» هجومًا على الفندق لاغتيال الحاكم البريطانيّ السير جون هاردنغ، الذي كان في الفندق يتناول مشروبًا. أطلقوا قنبلتَيْن، انفجرت أولاهما، فأحدثتْ ضررًا بليغًا، أمَّا الثانية، فلم تنفجر لأنَّ من ألقاها نسي أن يسحب صمَّام الأمان. فالتقطها ضابطٌ ووضعها في جيبه، وخرج، في حين عزفت الفرقة الموسيقيَّة أغنية فرانك سيناترا «Learnin' the Blues». لم تتوقَّف الموسيقى قطّ

حتى حين حوصر الفندق بالأكياس الرمليَّة والبراميل، وجاسَ الخوفُ في ممرَّات الفندق خشية وقوع هجمةٍ أخرى.

تردَّدت شخصيَّات إلى هذا الفندق من كلِّ شكلٍ ولون، من سياسيِّين ودبلوماسيِّين وكُتَّابٍ وأعيان وبائعات هوى وبائعي هوى وجواسيس. وزعماء دينيِّين أيضًا. هنا التقى المطران مكاريوس الحاكم البريطانيّ. وهنا عُقدت المحادثات بين الجماعتَيْن في 1968 م، على الرَّغم من أنَّها فشلت فشلاً ذريعًا. ومع تصاعد أعمال العنف، كان المراسلون العالميُّون الذين يغطُّون «أخبار قبرص» يتوافدون بدفاترهم وآلاتهم الكاتبة. ثم جاء الجنود أيضًا، من قوَّات حفظ السلام التابعة للأمم المتَّحدة.

ظلّ الفندق مفتوحًا خلال هذه المناورات كلّها. كان النزلاء يسترخون على المقاعد الطويلة في الصالات، يرشفون مشروباتهم تحت شمس العصر، إلى أن طُلب إليهم مغادرة المكان، فهُرعوا من فورهم في خوفٍ وذعر، والتقطوا ما يستطيعون حمله وخرجوا. أمَّا فواتيرهم فقد أُرسلت إليهم لاحقًا مع الرسالة الآتية:

نرجو أن تكونوا قد وصلتم بالسلامة إلى بلادكم، وأن تكونوا قد قضيتم وقتًا ممتعًا في فندق ليدرا �الاس، إلى أن جاءت تلك اللحظة المؤسفة مع اندلاع الغزو التركيّ في 20 تمُّوز/ يوليو 1974 م، في يومٍ لن ننساه بكلِّ تأكيد... تجدون مع هذه الرسالة فاتورة الفندق، بمبلغٍ قدره... نقدِّر لكم تعاونكم في تسديد المبلغ في أقرب وقتٍ ممكن[12].

لاحقًا، كانت الحُفر والثقوب التي خلَّفتْها قذائف الهاون والرصاص في الجدران تحدِّق في الناظرين مثل مُقَلٍ فارغة. ساد الصمتُ المقلق في الممرَّات، غير أنَّ أصواتًا كثيرةً كانت تدور تحت السطح: فقد حفرت الخنافس أنفاقًا داخل الدرابزينات، وأكل الصدأ الثريَّات النحاسيَّة، أمَّا ألواح الأرضيَّة فكانت تصرُّ ليلاً تحت وطأة عمرها، في صوتٍ يشبه تشقُّق الورنيش. هناك أيضًا طقطقة الصراصير، وهديل الحمام في السقف، وهمسات الفئران.

كانت الفئران تسكن في فجوات الردهة، تعدو في الأرضيَّات العالية، وتتزحلق على الدرابزينات. وحين تدفعها الرغبة، تتسلَّق الثريَّا في قاعة الحفلات، توازن نفسها بأذيالها، وتتأرجح من جانبٍ إلى آخر، ثم تقفز في المساحة الفارغة تحتها. كانت تُجيد القفز من المرتفعات.

لم تشعر بالجوع قطّ، فقد كان هناك الكثير ممَّا تستطيع قضمه في هذا الذي كان فندقًا فخمًا ذات يوم، بأوراق الجدران المقشَّرة، والسجاجيد المتعفِّنة، والملاط الرطب. وكان المعماريّ الذي صمَّم الفندق قد أضاف غرفة قراءةٍ واسعة في الخلف، مُلئت بالكتب والمجلاَّت والموسوعات. في هذه المكتبة، قضى الفأر معظم أيَّامه، يقرض الصفحات، ويترك علامات أسنانه على عشرات المجلَّدات. كان يقرض في الموسوعة البريطانيَّة بمجلَّداتها الأربعة والعشرين، يتذوَّق التغليف الخمريّ بحروفه المذهَّبة على الكعب. وقد التهم الكتب الكلاسيكيَّة أيضًا، كتب سقراط وأفلاطون وهوميروس وأرسطو... وتاريخ هيرودوت، وأنتيجون سوفوقليس، ولسيستراتا أريستوفانيس.

كان الفأر سيبقى هناك إلى نهاية حياته، لولا أن استجدَّ نشاطٌ غير متوقَّعٍ في المكان. فقد بدأ القبارصة الأتراك واليونانيُّون يلتقون في الطابق الأرضيّ من الفندق، تحت رعاية قوَّات الأمم المتَّحدة. كانت الجماعتان تحرزان للمرَّة الأولى تقدُّمًا نحو السلام والمصالحة.

كان أعضاء لجنة المفقودين يجتمعون في غرفٍ مخصَّصة، يستمعون إلى بعضهم بعضًا، يتجادلون حول أعداد من يُدرجون في إحصائيَّات المفقودين في أعمال العنف. فلم يرغب أيٌّ من الطرفين أن يرتفع الرقم، فكيف ستكون صورتهم أمام العالم الذي يتابع ما يحدث؟ لكنَّ السؤال ظلَّ قائمًا: ماذا عن المعارضين اليونانيِّين الذين قتلتهم الجماعات القوميَّة المتطرِّفة؟ هل يُحسبون من المفقودين؟ وبالمثل، هل يُحسب المعارضون الأتراك الذين قتلتهم الجماعات القوميَّة المتطرِّفة؟ هل لدى هذا الطرف أو ذاك استعدادٌ للاعتراف بما فعله بمعارضيه؟

أخبرني الفأر أنَّ ديفني أيضًا شاركتْ في تلك الاجتماعات التي كانت أرضيَّةً مهمَّةً لزرع الثقة بين الجماعتَيْن قبل بدء أعمال التنقيب.

حدَّثني الفأر بكلِّ هذا وهو يلتهم تيناتي، ثم ذهب في حال سبيله. لم أره ثانيةً، لكنَّه قبل أن يذهب، قال لي إنَّ آخر كتابٍ قرضه كان كتابًا من تأليف كاتبٍ يُسمَّى أوفيد. قال إنَّه استمتع بكلماته جدًّا، ومن بين آلاف السطور التي صادفها ظلَّ سطرٌ واحدٌ لم ينسه:

يومًا ما، سوف تستفيد من هذا الألم.

كنتُ أرجو أن يكون محقًّا، وأنَّ هذا الألم كلّه سيكون ذات يومٍ غير بعيدٍ مفيدًا للأجيال القادمة التي تولد على أرض الجزيرة، أحفاد أولئك الذين عاشوا في فترة الأزمة.

وإنْ ذهبتم إلى قبرص اليوم، يمكنكم أن تروا شواهد قبور الأرامل من اليونانيَّات والتركيَّات، وقد نُقش عليها رجاءٌ واحدٌ، وإنْ بأبجديَّةٍ مختلفة:

إن وجدتم زوجي، فادفنوه إلى جواري.

الجزء السادس

كيف تستخرج شجرةً بعد دفنها

المقابلة

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

في ليلة العام الجديد، خطَّطوا لعشاءٍ هادئٍ بسيط، غير أنَّه لا يمكن للعشاء أن يكون بسيطًا حين تطبخه مريم. كانت مصرَّةً على أن ينتهي العام بمذاقٍ حلوٍ في أفواههم، وشعورٍ دافئٍ في بطونهم، فاستخدمتْ كلّ المقادير التي وجدتْها في الخزائن لإعداد وليمة. وحين دقَّت الساعات في منتصف الليل وانطلقت الألعاب الناريَّة في الخارج، سمحتْ آدا لوالدها وخالتها أن يحضناها، فشعرتْ بحبِّهم يغلِّفها، بحضنٍ ناعمٍ لكنَّه قويّ، مثل قماشةٍ منسوجةٍ من ألياف نباتٍ قويّ.

في اليوم التالي، بدأتْ مريم في حزم حقائبها، على الرَّغم من أنَّها كانت تعاني في إغلاق حقائب مارلين مونرو بعد كلّ الأشياء التي اشترتها. قضتْ عصر ذلك اليوم كلّه مع آدا في المطبخ، مصرَّةً على تعليم ابنة أختها مهارات الطبخ الأساسيَّة، وتكرَّمتْ عليها أيضًا ببعض النصائح «النسائيَّة».

«اسمعي يا آداسيم. أنتِ في حاجةٍ إلى قدوةٍ أنثى في حياتك. قد لا أكون قدوةً كبيرةً في عينيْكِ، لكنَّ لي تجربةً طويلةً كامرأة. يمكنكِ الاتِّصال بي في أيِّ وقت. وأنا أيضًا سأتَّصل بكِ كثيرًا، إن لم يكن لديكِ مانع».

«بالطبع لا».

«يمكننا أن نتحدَّث في أيِّ شيء. قد لا أعرف الإجابات أصلاً. على رأي المثل، لو يعرف الأصلع علاج صلعَته لفرَكَه على رأسه. لكنَّني سأكون إلى جانبكِ دائمًا، لن أكون بعيدةً كالسابق. أعدكِ».

حدجتها آدا بنظرةٍ طويلةٍ متأمِّلة. «وماذا عن المقابلة؟ هل نجريها قبل أن تسافري؟»

«الواجب المدرسيّ؟ أوه، نعم، نسيت. تعالي نجريها الآن». فكَّت مريم ضفائر شعرها، وأعادت تضفيره بسرعة. «لكنْ دعيني أعدّ الشاي أوّلاً. وإلاَّ فلن أستطيع التركيز جيّدًا».

فلمَّا بدأ السماور يغلي ويملأ المطبخ بالبخار الضعيف، أخذت مريم كأسَيْن صغيرَيْن. ملأتهما إلى نصفهما بالشاي، ثم أضافت الماء الساخن إلى واحدٍ منهما، والحليب إلى الآخر، وهي تعبس مع هذه الإضافة الأخيرة.

قالت آدا على الرَّغم من أنَّها لم تكن تحبّ الشاي كثيرًا: «شكرًا. جاهزة؟»

«جاهزة».

ضغطتْ آدا على المسجِّل في هاتفها، وفتحتْ دفترها على حُجرها. «حسنٌ، أخبريني عن حياتك في طفولتك. هل كانت لديكم حديقة؟ كيف كان بيتكم؟»

فقالت مريم بوجهٍ مشرق: «نعم، كانت لدينا حديقة. من أشجار السنط والماغنوليا. وكنتُ أزرع الطماطم في أصص... ولدينا شجرة فرصادٍ في الفناء. أبي كان رجلاً عصاميًّا، طبَّاخًا شهيرًا، على الرَّغم من أنّه نادرًا ما كان يطبخ في البيت. فتلك وظيفة النساء. لم يحصل أبي على تعليمٍ كثير، لكنَّه كان يشجِّع ابنتَيْه على الدراسة. فألحقني أنا وديفني بأفضل المدارس. تلقَّينا تعليمًا إنجليزيًّا، وكنَّا نعتقد أنَّنا جزءٌ من أوروبا. ثم تبيَّن أنَّ الأوروبيّين لم يقرُّونا على ذلك».

«هل كانت طفولةً سعيدة؟»

«كانت طفولتي مقسَّمةً إلى جزأيْن. النصف الأوَّل كان سعيدًا».

أمالت آدا راسها. «والنصف الثاني؟»

«تغيَّرت الأحوال. كان يمكن الإحساس بذلك في الجوِّ المحيط. كانوا يقولون إنَّ اليونانيّين والأتراك كالظفر واللحم، فالظفر لا يخرج من اللحم. يبدو أنَّهم كانوا مخطئين. يمكن أن يحدث ذلك. الحرب أمرٌ فظيع. كلّ الحروب. لكنَّ الحروب الأهليَّة قد تكون أسوأها، حين يصبح جارك القديم عدوّك الجديد».

أصغتْ آدا باهتمامٍ لمريم وهي تحكي عن الجزيرة. روتْ لها كيف كانت تنام مع ديفني في الخارج في ليالي الصيف الحارَّة، تنشران الفُرش على الشرفة تحت شبكةٍ بيضاء شفَّافةٍ للوقاية من البعوض، وهما تعدَّان نجوم السماء. كم كانتا تفرحان حين تُقدِّم لهم جارتهم اليونانيَّة حلوى السفرجل، على الرَّغم من أنَّ أكلتهما المفضَّلة كانت كعكة العام الجديد ڤاسيلو�يتا، بالعملة المعدنيَّة المخبَّأة داخلها. كانت أمّها ترى أنَّ طبق الجار لا ينبغي إعادته فارغًا، فتملأه بمهلبيَّة المستكة في شراب الورد. حكتْ لها أيضًا عمَّا حدث بعد التقسيم، حيث أكياس الرمل ومخافر الحرس في الشوارع التي كانوا يلعبون ويمرحون فيها ذات يوم. وأخبرتها عن دردشات الأطفال في الشارع مع الجنود الأيرلنديّين والكنديّين والسويديّين والدنماركيّين، فقد تقبَّلوا قوَّات الأمم المتَّحدة كجزءٍ محتومٍ من حياتهم اليوميَّة.

«تخيَّلي يا آداسيم جنديًّا أبيض البشرة أشقر الشعر لم يرَ في حياته الشمس من على بعد أميال، يزرع نفسه في هذه الجزيرة لا لشيءٍ إلاَّ ليمنعكِ من قتل جارك، أو ليمنع جاركِ من قتلك. أمرٌ محزن. لمَ لا نستطيع أن نعيش كلّنا في سلامٍ، دون جنودٍ وبنادق آليَّة؟»

توقَّفت عن الكلام وشردتْ عيْناها بضع دقائق، ثم عادتا مرَّةً أخرى إلى ابنة أختها. «هل يدرِّسون شيئًا عن قبرص في المدارس؟»

«لا».

«توقَّعتُ ذلك. أولئك السيَّاح الذين يسافرون إلى المتوسِّط في عطلاتهم يريدون الشمس والبحر والحبَّار المقليّ. ثم يقولون من فضلكم لا نريد تاريخًا كئيبًا». أخذتْ مريم رشفةً من شايها، وتابعت: «كنتُ أنزعج من ذلك في الماضي، لكنَّني صرتُ أقول لنفسي قد يكونون محقِّين يا آداسيم. فلو بكى المرء على كلِّ أحزان العالم، لما بقيت له عيْنان».

حين قالت ذلك استرختْ في جلستها وهي تبتسم. غير أنَّ بسمتها سرعان ما اختفت حين سمعت سؤال آدا الآتي:

«أتفهَّم السبب الذي جعل أقربائي الكبار لا يتقبَّلون زواج أبي وأُمِّي. ذاك جيلٌ مختلف. ولعلَّهم مرُّوا بتجاربَ كثيرةٍ مريرة. لكنَّ الذي لا أفهمه هو لماذا لم يتحدَّث والداي أبدًا عن الماضي، حتى بعد انتقالهما إلى إنجلترا. لماذا الصمت؟»

فقالت مريم بشيءٍ من الحذر في صوتها: «لا أدري ما إذا كنتُ أستطيع الإجابة عن ذلك»!

مالت آدا إلى الأمام وأوقفت المسجِّل. «حاولي. فهذا بالمناسبة ليس للمدرسة. بل لي أنا».

المسكوت عنه

لندن، أوائل الألفيَّة الثانية

بعد تسعة أشهر من ولادة آدا، قرَّرت ديفني العودة للعمل مع لجنة المفقودين. صحيحٌ أنَّها بعيدةٌ عن قبرص، لكنَّها كانت ترى أنَّ بمقدورها المساعدة في البحث عن المفقودين. فبدأتْ تزور الجماعات القبرصيَّة المهاجرة التي استقرَّت في نواحي لندن وضواحيها. كانت بالتحديد تريد أن تتحدَّث إلى كبار السنِّ الذين عاصروا الأزمة، وقد يكونون مستعدِّين في نهاية حياتهم للبوْح ببعض الأسرار.

في كلِّ يومٍ من أيَّام الخريف تقريبًا، كانت ترتدي معطفها الأزرق الواقي من المطر وتمشي في الشوارع ذات اللافتات اليونانيَّة والتركيَّة، فيما المطر يطقطق على الأرصفة ثم يسيل في المجاري. كانت تتحدَّث إلى الناس، وفي كلِّ مرَّةٍ تقريبًا، كان أحدهم يُشير إلى بيتٍ هنا أو هناك، ملمِّحًا إلى أنَّها قد تجد ما تبحث عنه في ذلك البيت. وأغلب العائلات التي التقتها بهذه الطريقة كانت مضيافةً مرحِّبة، تقدِّم لها الشاي والمعجَّنات، مع وجود ستارٍ من انعدام الثقة بينهم، مكتومٍ لكنَّه محسوس بين الجميع.

وقد لاحظتْ ديفني في بعض المرَّات أنَّ الجدّ أو الجدَّة يرغبان في الحديث حين لا يكون أحدٌ من أفراد العائلة حاضرًا. ذلك أنَّهم يتذكَّرون. الذكريات مراوغةٌ وهشَّةٌ مثل خصلات الصوف التي تنثرها الريح. كان هناك عددٌ منهم (ممَّن وُلد وعاش في قرى مختلطة) يتحدَّث التركيَّة واليونانيَّة، وفي نوبةٍ من نوبات ألزهايمر يسقط القليل منهم على منحدرات الزمن إلى لغةٍ لم يستخدمها منذ عقود. البعضُ منهم كان شاهد عيانٍ على بعض الفظاعات، وبعضهم سمع عنها، في حين بدا لديفني أنَّ بعضهم كان مراوغًا.

في هذه الحوارات الصعبة، أدركت ديفني أنَّ اليد هي الطرف الأكثر صدقًا في جسم الإنسان. فالعيون تكذب، والشفاه تكذب، والوجوه تتخفَّى وراء آلاف الأقنعة. أمَّا الأيادي فنادرًا ما تخفي. لاحظتْ آدا أنَّ أيادي الكبار (وهي ترتاح على حجورهم ذابلةً، متجعِّدةً، منمَّشةً، مقوَّسةً، مزرقَّة) كائناتٌ لها عقولٌ وضمائر خاصَّةٌ بها. ولاحظتْ كيف أنَّها حين تسأل سؤالاً غير مريح، تُجيب الأيادي بلغتها الخاصَّة، تتململ، وتومئ، وتعبث بالأظافر.

وعلى الرَّغم من أنَّ ديفني كانت تشجِّع الأشخاص على أن يفتحوا قلوبهم لها، إلاَّ أنَّها كانت حريصةً على ألاَّ تطلب أكثر ممَّا هم مستعدُّون لتقديمه. وقد أزعجها أن ترى الشقوق العميقة بين أفراد العائلة من الأعمار المختلفة. ففي أحيانٍ كثيرةٍ جدًّا، كان الجيل الأوَّل من الناجين (الذين عانوا أكثر من غيرهم) يحتفظون بآلامهم قرب السطح. فالذكريات كالشظايا الساكنة تحت الجلد، بعضها ينتأ، وبعضها يظلّ مخبوءًا عن الأعين. أمَّا الجيل الثاني فقد اختار أن يقمع الماضي، بما فيه من أشياء يعرفها وأشياء يجهلها. في مقابل ذلك، كان الجيل الثالث توَّاقًا إلى النبش واستخراج المسكوت عنه. كم هو غريبٌ أن يمتلك الأصغر سنًّا أقدم ذاكرةٍ في العائلات التي تركت فيها الحروب ندوبًا، ونزوحًا إجباريًّا، وقسوة!

خلف تلك الأبواب الكثيرة التي طرقتْها ديفني، صادفتْ مجموعةً من الموروثات التي أُحضرت من الجزيرة. تأثَّرت روحُها وهي ترى البطَّانيَّات المخيطة، والمفارش المنسوجة، والتماثيل الخزفيَّة الصغيرة، وساعات المواقد، وقد حُملت كلّها بحبٍّ عبر الحدود. لكنَّها في الوقت نفسه، أدركت وجود منتجاتٍ ثقافيَّةٍ لا ينبغي أن تكون هناك: أيقونات كنيسةٍ مسروقة، وكنوزٌ مهرَّبة، وفسيفساءٌ مكسور. كان نهبًا للتاريخ. لم يولي العالمُ اهتمامًا يُذكر بالكيفيَّة التي وصلت بها تلك الأعمال والمصنوعات إلى السوق. كان الزبائن في العواصم الغربيَّة يشترونها دون أن يتساءلوا عن مصدرها. ومن بين المشترين مغنُّون وفنَّانون ومشاهيرُ معروفون.

كانت ديفني في أغلب الوقت تذهب لزيارة تلك البيوت بمفردها، وفي بعض الأحيان، تصحبها زميلةٌ من لجنة المفقودين. ذات مرَّةٍ، عاملهما الابن الأكبر لناجٍ يبلغ من العمر اثنيْن وتسعين عامًا بفظاظةٍ شديدة، واتَّهمهما بالبحث غير الضروريّ في الماضي الذي ينبغي تركه وشأنه، وأنَّهما تعملان لصالح القوى الغربيَّة ولوبيَّاتهم وأتباعهم، وتُشوِّهان صورة قبرص في العالم.

غادرت ديفني وزميلتها اليونانيَّة البيت مصدومتَيْن، فتوقَّفتا تحت عمود إنارةٍ لالتقاط أنفاسهما، يرتعش وجهاهما في وهَج الصوديوم.

قالت المرأة الأخرى: «توجد حانةٌ هنا في الزاوية. ما رأيك في مشروبٍ سريع؟»

وجدتا طاولةً في الخلف، وكانت رائحة السجَّاد المضمَّخ بالبيرة والمعاطف الرطبة مريحةً على نحوٍ غريب. أحضرتْ ديفني كأسَيْن من النبيذ الأبيض من البار. كان أوَّل مشروبٍ تتناوله من بعد أن اكتشفت حملها ــــ وهي الآن تُرضع طفلتها. انتشر في وجهها شيءٌ يشبه الراحة، فأمسكت بالكأس بين راحتَيْها، تستشعر برودته التي تنقلب شيئًا فشيئًا إلى دفء. قهقهتْ بتوتُّرٍ، وما هي إلاَّ لحظات حتى كانتا تضحكان بقوَّةٍ، وتدمعان، حتى إنَّ الزبائن الآخرين بدأوا ينظرون إليهما في استنكار، متسائلين عن سبب هذا الضحك. لم يتصوَّر أحدٌ منهم أنَّ سبب الضحك كان الألم الذي كانتا تخرجانه من قيوده.

في تلك الليلة، عادت ديفني إلى البيت متأخِّرةً، فوجدت كوستاس نائمًا على الأريكة والطفلةُ إلى جانبه. جفل واستيقظ حين سمع خطواتها.

«آسفة حبيبي، أيقظتك».

نهض ببطءٍ وهو يمدّ ذراعَيْه. «لا بأس».

«كيف آدا؟ هل أعطيتها الحليب الذي تركتُه؟»

«نعم، لكنَّها استيقظت بعد ساعتيْن تبكي. لذلك أعطيتها حليبًا صناعيًّا، وإلاَّ لم تكن لتسكت».

«أوه، آسفة. كان ينبغي ألاَّ أتأخَّر».

فقال كوستاس وهو يتفحَّص وجهها: «لا بأس، لا تعتذري. أنتِ في حاجةٍ إلى راحة. هل أنتِ بخير؟»

لم تجب، ولم يدرِ ما إذا كانت قد سمعتْه. قبَّلتْ جبين الطفلة وابتسمت وهي ترى وجهها المتغضِّن وفمها الورديّ. ثم قالت: «لا أريد أن نُثقل آدا بالأشياء التي تألَّمنا منها. أريدك أن تعدني يا كوستاس. عدني أنَّك لن تقول لها الكثير عن ماضينا. تكفي بضعة أشياء أساسيَّة. لا شيء أكثر».

«حبيبتي، لا يمكنكِ منع الأطفال من طرح الأسئلة. سينتابها الفضول وهي تكبر».

في الخارج، كانت شاحنةٌ تحفر طريقها في الشارع، في تلك الساعة المتأخِّرة، ودمدمتُها تملأ الفراغ الذي تركه صوتاهما قبل لحظة.

قطَّبت جبينها وهي تُفكِّر في كلامه. «الفضول مؤقَّت. يأتي ويذهب. ولو حاولت آدا أن تنبش في الماضي أكثر، يمكنك أن تردّ عليها دون أن تُجيب».

لمس ذراعها، وقال: «دعكِ من هذا يا ديفني».

فسحبتْ نفسها وقالت: «لا!»

قال كوستاس وقد شعر بردِّها البارد وحركتها المفاجئة مثل حدّ الشفرة: «الوقتُ متأخِّر. لنتحدَّث غدًا».

كانت عيْناها الداكنتان غامضتَيْن. «لا تكلِّمني كطفلة. لقد فكَّرتُ في هذا الأمر طويلاً. ورأيتُ بنفسي كيف تجري الأمور. أتحدَّث إلى الناس طوال الوقت. تلك الأشياء لا تختفي يا كوستاس. بمجرَّد أن تدخل ذكرياتك أو ذكريات والديْك أو أجدادك في رأسك، يصبح هذا الألم ابنُ الحرام جزءًا من لحمك. يبقى معك ويترك آثاره فيك إلى الأبد. يُفسد نفسيَّتك، ويُشكِّل نظرتك عن نفسك وعن الآخرين».

تقلَّبت الطفلةُ لحظتها، فاستدار كلاهما ناحيتها خشية أن يكونا قد أقلقا منامها. لكنَّ آدا لم تترك الحلم الذي كانت تسبح فيه، بتعابير على وجهها تلتمع في هدوءٍ كما لو أنَّها تصيخ السمع لشيءٍ ما.

جلستْ ديفني على الأريكة، وذراعاها متدلِّيتان إلى جانبَيْها، كدميةٍ بلا روح. «عِدني. هذا ما أطلبه. إذا ما أردنا لطفلتنا مستقبلاً أفضل، فعلينا أن نفصلها عن ماضينا».

التقط كوستاس رائحة الكحول في أنفاسها. كانت نفحةً خافتةً ذكَّرتْه بمساءٍ بعيد، وهو جالسٌ في عجزٍ وسكون، ينظر إلى الطيور المغرِّدة المحفوظة في الجِرار. هل عادت إلى الشرب مرَّةً أخرى؟ أقنع نفسه بأنَّها كانت في حاجةٍ إلى الخروج والسهر، وقضاء بعض الوقت بمفردها بعد شهور الحمل والولادة ورعاية الطفلة. أقنع نفسه بأنَّه لا ضرورة للقلق. لقد أصبحوا أسرة.

المطبخ

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

قبل يومٍ من سفر مريم، حرصت على الإكثار من نصائحها، فأطلقتْ رشقةً من نصائح الطبخ والتنظيف.

«لا تنسي، استخدمي الخلّ دائمًا للتخلُّص من الكلس في رأس الدُش. جرِّبي فرك حوض الاستحمام بنصف ثمرة غريب فروت. وانثري ملح الصخور عليه أوَّلاً. سيلمع من النظافة».

«حسنًا».

مسحتْ مريم المطبخ بعينَيْها. «دعينا نَرَ. نظَّفتُ الكلس من الإبريق، ولمَّعتُ أدوات الأكل. هل تعرفين كيف تُزيلين الصدأ؟ افركيه ببصلة. ماذا بعد... آه نعم، أزلتُ بقع القهوة على الطاولة. الأمر بسيط، لا تحتاجين إلاَّ إلى معجون أسنان، وكأنَّك تفركين أسنانك. واحتفظي دائمًا ببيكربونات الصوديوم في البيت. فهي تفعل العجائب!»

«عُلم».

«طيِّب. وأخيرًا، هل لديكِ شيءٌ تودِّين أن أطبخه قبل أن أسافر؟»

هزَّتْ آدا كتفَيها: «لا أدري». ومن خارج تجاويف الذاكرة، ظهرت نكهةٌ لم تجرِّبها منذ وقتٍ طويل. «ربما كتيفي».

بدتْ مريم سعيدةً لسماع ذلك ومنزعجةً في الوقت نفسه. «لا مشكلة، سنعدّها الآن». ثم قالت وهي تترجم الاسم من اليونانيَّة إلى التركيَّة: «لكنَّ اسمها كدايف».

«كتيفي أو كدايف. لا فرق».

بالنسبة إلى مريم هناك فرقٌ كبير، فقد ظلَّت تُصحِّح الأسماء بحماس مدرِّس لغةٍ يرى خطأً نحويًّا. ليست هلُّومي، بل هِلِّم. ليس تزاتزيكي بل جاجِك. ليست دولماديس بل دولما. وليست كورابيديس بل كُرابيه، وما إلى ذلك. وما يُسمَّى «البقلاوة اليونانيَّة» ليس في عُرف مريم إلاَّ «البقلاوة التركيَّة»، حتى وإنْ ادَّعى السوريُّون واللبنانيُّون والمصريُّون والأردنيُّون أنَّها بقلاوتهم. وفي حين أنَّ التغيير البسيط في مفردات الطعام قد يستفزّ مريم، إلاَّ أنَّ ما كان يحرق دمها حقًّا هو اسم «القهوة اليونانيَّة». فقد كانت وسوف تبقى دائمًا «قهوة تركيَّة».

كانت آدا قد اكتشفت منذ مدَّةٍ أنَّ خالتها مليئةٌ بالتناقضات. فرغم أنَّها تحترم الثقافات الأخرى وتتعاطف معها، وتُدرك مخاطر العداوات بين الثقافات، إلاَّ أنَّها في المطبخ تتحوَّل تلقائيًّا إلى بطلةٍ قوميَّةٍ طبخيَّة. في سرِّها، كانت آدا ترى أنَّه من المضحك أن تتحسَّس امرأةٌ ناضجةٌ من الكلمات هكذا. لكنَّها احتفظتْ برأيها لنفسها. مع ذلك، مازحت خالتها قائلةً: «يا إلٰهي، أنتِ حسَّاسة فيما يخصّ الأكل».

«الأكل موضوعٌ حسَّاس، ويمكن أن يتسبَّب في مشكلات. على رأي المثل، كُل خبزك طازجًا، واشرب ماءك نظيفًا، وإنْ كان في صحنك لحمٌ فقل للناس إنَّه سمك». ولئن كان الطعام موضوعًا شائكًا، فالجنس يأتي في المرتبة الثانية في قائمة مريم. إذْ لا يمكنها أبدًا أن تتطرَّق إلى الموضوع مباشرةً، بل تفضِّل أن تحوم حوله.

«أليس لديكِ أصدقاء في المدرسة؟»

«قليل. إدْ مثلاً».

«إدْ.. اختصار لإدوينا؟»

«اختصار لإدوَرد».

ارتفع حاجبا مريم. «قطنٌ يلعب بالنار. الأولاد ليسوا «أصدقاء» في سنِّك. قد يكونون هكذا حين يكبرون ويذبلون ويفقدون أسنانهم... أمَّا الآن، فهم لا يفكِّرون سوى في شيءٍ واحد».

بشيءٍ من الشيطنة، قالت آدا: «وما هو ذلك الشيء؟»

لوَّحت مريم بيدها: «تعرفين ما أقصد».

«كنتُ أريدكِ أن تقوليه بصراحة. هل تقصدين أنَّ الأولاد يريدون الجنس، والبنات لا يردنه؟»

«النساء مختلفات».

«لأنَّنا لا نمتلك رغبات جنسيَّة؟»

«لأنَّنا مشغولات! لدى النساء أشياءُ أهمّ يفعلنها. نحن نرعى أسرنا، والدَيْنا، أطفالنا، جماعتنا، ونحرص على أن تجري الأمور بسلاسة. النساء يحافظن على ثبات العالم، وليس لدينا وقتٌ للكلام الفارغ هذا».

لوَت آدا شفتَيْها، تكتم ابتسامتها.

«ما الذي يضحكك؟»

«أنتِ. طريقة كلامك. كما لو أنَّكِ لم تشاهدي قطّ فيلمًا وثائقيًّا عن الطبيعة. ما رأيكِ أن تتحدَّثي إلى أبي؟ سيُخبرك عن الظباء والنحل وتنِّين الكومودو... قد يفاجئكِ أنَّ الإناث أكثر اهتمامًا بالجنس من الذكور بكثير».

«للإنجاب يا كانيم. هذا هو السبب الوحيد. ولولاه لما اهتمَّت الحيوانات الإناث بالجنس».

«ماذا عن قرد البونوبو؟»

«لم أسمع عنه».

أخرجتْ آدا هاتفها وأرتْ خالتها صورةً للقرد. لكنَّ مريم قالت: «هذا قرد، ونحن بشر».

«نتشارك مع البونوبو في حوالى 99پ من الحمض النوويّ». ثم أعادت هاتفها إلى جيبها، وقالت: «على أيِّ حال، أعتقد أنَّكِ تتوقَّعين الكثير جدًّا من النساء. تريدين منهنَّ أن يضحَّيْنَ بأنفسهنَّ من أجل سعادة الآخرين، وأن يحاولن استيعاب الكلّ والانصياع لمعايير الجمال غير الواقعيَّة أساسًا. هذا ظلم».

«الدنيا ظالمة. لو سقط حجرٌ على بيضة، فهذا من سوء حظِّ البيضة. وإنْ وقعتْ بيضةٌ على حجر، فهذا أيضًا من سوء حظِّها».

تفحَّصت آدا خالتها لحظةً. «لا أظنُّ أنَّه يجدر بنا نحن النساء أن نقسو على أنفسنا بهذا القدر».

«لا يجدر بالمرء أن يقول آمين على دعاءٍ مستحيل».

«ليس مستحيلاً! لِمَ لا نكون مثل الإوزّ الكَنَديّ؟ تتشابه أشكال الذكور والإناث تمامًا. بل إنَّ معظم إناث الطيور ليس لديها حتى ريشٌ مبهرج. الذكور عادةً هم الذين لديهم ألوانٌ أكثر».

هزَّت مريم رأسها. «لا، لن ينفع هذا. القواعد تختلف عندنا نحن البشر. المرأة تحتاج إلى ريشٍ جميل».

«لماذا؟»

«لئلاَّ تأتي أنثى أخرى وتخطف شريكها. صدِّقيني، حين تصل أنثى الطير إلى مثل سنِّي، لا تريد أن تبقى وحيدةً في عشّها».

توقَّفت آدا عندها عن طرح الأسئلة، لا لأنَّها تتَّفق مع ما تقوله خالتها، ولكنْ لأنَّها أحسَّت مرَّةً أخرى بأنَّ ثمَّة شخصيَّةً خائفةً ضعيفة تختبئ خلف الشخصيَّة الواثقة والكلام المتحمِّس.

قالت آدا: «سأضع هذا في اعتباري. طيِّب، هل من مزيدٍ من نصائح التنظيف؟»

طُرقٌ للنظر
لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

جلس كوستاس يطبع في مكتبه (الذي كان في السابق سقيفةً للأصص)، ووجهه مائلٌ على راحةٍ تنبعث من الضوء الأزرق في شاشة حاسوبه. لقد صنع لنفسه منتبذًا هنا، بطاولته التي راكم عليها الملفَّات والكتب والدراسات. كان ينظر من حينٍ إلى آخر عبر النافذة، كي تستقرّ نظرته على الحديقة. الآن وقد رحلت العاصفة هيرا، كان ثمَّة شيءٌ جديدٌ في الأجواء، إحساسٌ بسكونٍ رقيقٍ يأتي بعد معركةٍ طاحنة. وخلال بضعة أسابيع سيحلّ الربيع، ويستخرج التينة.

في الأسبوع الذي تُوفِّيت فيه ديفني، كان في أستراليا في رحلةٍ بحثيَّة، يقود فريقًا دوليًّا من العلماء. فبعد أن دمَّرت الحرائق مساحاتٍ كبيرةٍ من الغابة، أراد هو وزملاؤه أن يفهموا ما إذا كانت الأشجار التي تحمَّلت الجفاف أو الحرارة الشديدة في السابق، أو الأشجار التي لها أسلافٌ تكيَّفت مع أحداثٍ مشابهة، قد استجابت إلى الحرائق الحاليَّة بطريقةٍ مختلفةٍ عن الأشجار الأخرى.

أجروا تجارب عديدةً جدًّا على النباتات المعمِّرة في التربة الغنيَّة بالرماد، لكنَّهم كانوا يركِّزون أساسًا على نوعٍ من يوكالبتوس غرانديس. فحين أخضعوا الشتلات الناجية لحرائق شديدة في ظروفٍ مخبريَّة، اكتشفوا أنَّ الأشجار التي مرَّت أسلافها بمصائب كانت تستجيب على نحوٍ أسرع وتنتج بروتينات إضافيَّة تستخدمها بعد ذلك لحماية خلاياها وتقويتها. وقد كانت النتائج التي توصَّلوا إليها متَّسقةً مع دراساتٍ سابقةٍ أظهرت كيف أنَّ الأنواع المتطابقة جينيًّا من شجر الحور التي تنمو في ظروفٍ متشابهة تجاوبت مع المصائب (كالجفاف) على نحوٍ مختلف، وفقًا لمنشئها. هل يعني هذا أنَّ الأشجار لا تمتلك شكلاً من أشكال الذاكرة فحسب، بل تستطيع توريثها لذرِّيَّتها؟

كان متحمِّسًا لإخبار ديفني عن تلك النتائج، فاتَّصل بها لكنَّها لم تردّ. واتَّصل بها في وقتٍ لاحق، ثم حاول الاتِّصال بالخطِّ الأرضيّ وهاتف آدا المحمول، لكنَّ أحدًا لم يردّ عليه.

لم يجد سبيلاً إلى النوم في تلك الليلة، وانقبض صدره كما لو أنَّ أفعى طوَّقته. في الثالثة صباحًا، بدأ الهاتف في غرفته يرنّ. صوتُ آدا، عرفه بصعوبة، شهقاتها بين الكلمات لا تقلّ يأسًا عن بكائها. أومضت لافتةُ النيون في خارج فندقه بالبرتقاليّ والأبيض، فاخترقت غرفته عبر الستائر السميكة، ثم عادت سوداء مرَّةً أخرى. في الحمَّام، كان يغسل وجهه، فوجد أنَّ العينَيْن اللتين تحدِّقان فيه من المرآة عينا رجلٍ غريبٍ مذعور. ترك التجارب والفريق، واستقلَّ سيَّارة أجرةٍ إلى المطار، وعاد إلى لندن في أوّل رحلة.

*

كان كوستاس منذ صباه يجد في الأشجار سلواه وملاذه، ينظر إلى الحياة عبر ألوان الغصون والأوراق، وكثافتها. مع ذلك، فقد أصابه ولعه بالنبات بحسٍّ غريبٍ من الذنب، كما لو أنَّه حين يولي كلّ ذلك الاهتمام بالطبيعة فإنَّه يتجاهل شيئًا آخر على القدر نفسه من الإلحاح والأهمِّيَّة: المعاناة الإنسانيَّة. أتُراه في حبِّه للعالم الشجريّ ونظامه البيئيّ المعقَّد كان يتجنَّب بالطريقة نفسها حوادث العالم اليوميَّة في السياسة والصراعات؟ كان هناك جزءٌ منه يفهم أنَّ الناس (لا سيَّما أهل بلده) قد ينظرون إلى الأمر بهذه الطريقة، لكنَّ جزءًا أكبر منه كان يرفض الفكرة. كان يؤمن دائمًا أنَّه لا توجد (أو لا ينبغي أن توجد) تراتبيَّةٌ بين آلام البشر وآلام الحيوانات، ولا تفوُّقٌ للحقوق البشريَّة على الحقوق الحيوانيَّة، أو حقوق النباتات. كان يعرف أنَّ كثيرين من أبناء بلده سينزعجون جدًّا لو أنَّه صرَّح بذلك.

حين رأى أعمال لجنة المفقودين في نيقوسيا خطرت له فكرةٌ لا يمكنه التصريح بها. كانت من وجهة نظره فكرةً مُطمْئنة. فأجسادُ المفقودين حين تُستخرج تلقى عنايةً من أهلها، وتُدفن دفنًا لائقًا. ولكنْ حتى أولئك الذين لن يُعثر عليهم أبدًا ليسوا مخذولين تمامًا. فالطبيعة ترعاهم. إذْ ينمو الزعتر البرِّي والبردقوش الحلو من التربة نفسها، فتنفتح الأرض مثل شقٍّ في نافذةٍ، فتهيِّئ المكان لاحتمالاتٍ كثيرة. عشرات الطيور والخفافيش والنمل تحمل تلك البذور إلى مكانٍ بعيد، فتنمو إلى خضرةٍ جديدة. كان الضحايا إذن يستمرُّون في العيش بطريقةٍ ما، فهذا ما تفعله الطبيعة بالموت؛ تحوِّل النهايات المبتورة إلى آلاف البدايات الجديدة.

كانت ديفني تفهم مشاعر كوستاس. فعلى مدى السنوات، كانا يختلفان في الرأي، لكنَّهما في كلِّ مرَّةٍ يحترمان اختلافاتهما. كانا زوجَيْن غير عاديَّيْن، لا لأنَّها تركيَّة وهو يونانيّ، وإنَّما

للاختلاف الصارخ بين شخصيَّتها وشخصيَّته. فبالنسبة إليها، كانت المعاناة البشريَّة سامية، والعدالة هي الغاية المثلى، بينما يرى هو في الوجود البشريّ قيمةً كبيرة، إلاَّ أنَّه لا أولويَّةَ خاصَّةً لها في السلسلة الإيكولوجيَّة.

أحسَّ بغصَّةٍ وهو ينظر إلى الصورة المبروزة على طاولته، تلك التي التُقطت له وزوجته وابنته في رحلةٍ إلى جنوب إفريقيا. لمس وجه زوجته بطرف سبَّابته، ثم مرَّره على ابتسامة ابنته. لقد رحلت ديفني، لكنَّ آدا ها هنا، وهو يخشى أن يخذلها. لقد ظلَّ منطويًا صموتًا طوال السنة الماضية، فيما تحوم سحابةٌ من فتورٍ على كلِّ ما يقوله، وما لا يستطيع قوله.

كان فيما مضى قريبًا جدًّا من ابنته. ومثل الشاعر الذي يشرِّب حكايته بالإثارة، كان يحكي لها عن أزهار الشوكولاتة التي تتفتَّح ليلاً، ونبات الليثوبس (الحجر المزهر) الذي يبدو كالحصاة، وميموسا بوديكا النبتة الخجلى التي تنكمش من أقلِّ لمسة. كان يشعر بالسعادة وهو يرى افتتان ابنته الكبير بالطبيعة، ولا يملّ من الإجابة على أسئلتها. هكذا كانت قوَّة العلاقة بينهما، لدرجة أنَّ ديفني قالت له مازحةً: «صرتُ أغار. انظر كيف تنظر آدا إليك. إنَّها مفتونةٌ بك يا حبيبي».

لقد انتهت تلك المرحلة من حياة آدا، فقد كانت مرحلةً بصرف النظر عن عدد سنواتها. أمَّا الآن، فحين تنظر إليه ابنته لا ترى سوى الضعف والفشل وانعدام الأمان. لعلَّ مرحلةً أفضل سوف تأتي ذات يوم، لكنَّهما لم يصلا إليها بعد. أغمض كوستاس عينَيْه، يفكِّر في ديفني، وعينَيْها الذكيَّتَيْن، وابتسامتها الجادَّة، واستشاطة غضبها، وحسِّها القويّ بالعدل والمساواة... ماذا تراها تفعل لو كانت في مكانه الآن؟

«حارب يا أشكيم... حارب للخروج ممَّا أنت فيه».

فجأةً، ودون سابق تفكير، نهض كوستاس وترك طاولته. مشى في الممرِّ الذي يصل مكتبه بالبيت، وعيْناه تلتمعان قليلاً مع تغيُّر الضوء. فلمَّا وصل إلى غرفة آدا وجد الباب مفتوحًا. شعرُها مثبَّت بقلم، ورأسها مدفون في هاتفها، فيما وجهها متجمِّدٌ في تركيزٍ خافت. كانت لها نظرة تأمُّلٍ ذكَّرتْ كوستاس بأمِّها.

«مرحبًا حبيبتي».

خبَّأتْ هاتفها فورًا. «أهلاً بابا».

تظاهر بأنَّه لم يلاحظ، فلا فائدة من إلقاء محاضرةٍ عن الاستخدام المفرط للأجهزة الإلكترونيَّة.

«كيف واجبك الدراسيّ؟»

«جيِّد. وكيف الكتاب؟»

«أُوشك على الانتهاء منه».

«واو، هذا عظيم! مبروك».

«لا أدري ما إذا كان جيِّدًا...». سكت قليلاً وتنحنح ثم قال: «كنتُ أتساءل ما إذا كنتِ تريدين أن تقرأيه وتخبريني برأيك. يهمّني جدًّا».

«أنا؟ لكنِّي لا أعرف شيئًا عن الأشجار».

«لا بأس. تعرفين الكثير جدًّا عن كلِّ شيءٍ آخر».

ابتسمت وقالت: «طيِّب. تمام».

«تمام». دقّ كوستاس مفاصل أصابعه على الباب، يعزف نغمةً سمعها في وقتٍ سابقٍ من ذلك اليوم. وذكر لها مغنِّيًا كان يعرف أنَّها تحبّ الاستماع إليه ليل نهار. «ليس سيِّئًا. في الواقع جيِّد. مغنٍّ رهيب ولديه ألحانٌ فظيعة...».

كتمتْ آدا ابتسامتها، وهي تضحك في داخلها من محاولة أبيها العقيمة للتواصل معها من خلال موسيقى راب الإيمو التي لم يكن يعرف شيئًا عنها. لعلَّ الأفضل أن تتحدَّث معه بلغته.

«بابا، هل تذكر حين قلتَ لي إنَّ الناس ينظرون إلى الشجرة لكنَّهم لا يرون الشيء نفسه؟ حاولتُ أن أتذكَّر الكلام الذي قلته لي قبل أيَّام فلم أفلح».

«نعم، أعتقد أنَّني قلت يُمكن استشفاف شخصيَّة الإنسان وفقًا لأوَّل ما يلاحظه في الشجرة».

«أها؟»

«هذا بالطبع ليس مبنيًّا على أيِّ منهجيَّةٍ علميَّةٍ أو بحثٍ تجريبيّ ــــ».

«أعرف! أكمل».

«ما قصدته هو أنَّ بعض الناس حين يقفون أمام شجرةٍ فإنَّ أوَّل ما يلاحظونه فيها هو الجذع. هؤلاء الذين يعطون الأولويَّة للنظام والقواعد والاستمراريَّة. وهناك من يرون الأغصان قبل أيّ شيءٍ آخر. وهؤلاء يتوقون إلى التغيير، وحسٍّ من الحرِّيَّة. هناك أيضًا من تسقط أبصارهم نحو الجذور على الرَّغم من أنَّها مخفيَّةٌ تحت الأرض. هؤلاء لديهم ارتباطٌ عاطفيٌّ عميقٌ بتراثهم وهُويَّتهم وعاداتهم...».

«وأنتَ من أيِّ نوعٍ منهم؟»

«لا تسأليني أنا. فوظيفتي هي أن أدرس النبات». ثم مرَّر يده على شعره، وقال: «لكنِّي لفترةٍ طويلة ربَّما كنت من النوع الأوَّل. كنتُ أبحث عن حسٍّ من النظام والأمان».

«وأُمِّي؟»

«من النوع الثاني دون شكّ. كانت ترى الأغصان أوَّلاً ودائمًا. كانت تعشق الحرِّيَّة».

«ماذا عن خالتي مريم؟»

«خالتك قد تكون من النوع الثالث. التقاليد».

«وأنا؟»

تبسَّم كوستاس وهو ينظر في عينَيْها. «أنتِ يا حبيبتي من فصيلٍ مختلفٍ تمامًا. أنتِ تريْن الشجرة، وتريدين أن تربطي الجذع بالأغصان بالجذور. تريدين أن تريها كلّها معًا. حبّ الاستطلاع هذا مهارةٌ كبيرة. لا تتخلِّي عنها أبدًا».

*

في تلك الليلة، كانت آدا تستمع في غرفتها إلى المغنّي الذي حاول والدها جاهدًا أن يحبّه. فتحت الستائر وحدَّقتْ في الظلام الذي يظلّل الحديقة. أدركتْ أنَّ التينة كانت هناك، تنتظر وتنمو وتتغيَّر وتتذكَّر، بجذعها وأغصانها وجذورها، كلّها معًا.

التينة

كان القدماء يؤمنون بوجود دعامةٍ تشقّ الكرة الأرضيَّة فتربط ما تحت الأرض بالأرض والسماء، وفي وسط هذه الدعامة، شجرةٌ كونيَّة عظيمة عالية، أغصانها تمسك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات النجميَّة، فيما تصل جذورها إلى أعماق المحيط. لكنَّ البشر اختلفوا حول ماهيَّة هذه الشجرة. فبعضهم قال إنَّها بالتأكيد حور البلسم، وذهب آخرون إلى أنَّها لا بدَّ من أن تكون شجرة التمر الهنديّ. وآخرون أصرُّوا على أنَّها شجرة أرْزٍ أو جوزيَّة أو باوباو أو صندل. هكذا انقسم البشر إلى أقوامٍ متخاصمين وقبائل متحاربة.

كان هذا في رأيي أمرًا عديم الحكمة؛ فكلّ الأشجار مهمَّةٌ تستحقّ الاهتمام والإطراء. قد نقول إنَّ هناك شجرةً لكلِّ مزاجٍ، وكلّ لحظة. فحين يكون لديك شيءٌ ثمينٌ تريد أن تُقدِّمه للعالم، كأغنيةٍ أو قصيدة، لا بدَّ من أن تُطلع سنديانةً ذهبيَّة عليها قبل أيِّ شخص. وإنْ أحسستَ باليأس والضعف، فابحث عن شجرة سروٍ متوسِّطيَّةٍ أو كستناءةٍ هنديَّةٍ مزهرة. كلتاهما شديدة الصلابة، وسوف تخبرانك عن جميع الحرائق التي نجتا منها. وإن أردت أن تخرج من مصابك أقوى وأكثر طيبةً، فابحث عن شجرة حورٍ رجراجٍ تتعلَّم منها، فهي شجرةٌ شديدة التماسك يمكنها أن تصدّ اللهب الذي يريد حرقها.

وإن شعرت بالألم ولم تجد من يُنصت إليك، فقد يُفيدك أن تقضي وقتًا إلى جانب قيقبةٍ سكَّريَّة. وإن عانيت من تقديرٍ زائدٍ للذات، فعرِّج على شجرة كَرَزٍ وانظر إلى أزهارها. فهي أزهارٌ جميلةٌ من دون شكّ، لكنَّها زائلة، كالغطرسة. ولن تخرج من هناك إلاَّ وقد شعرت بتواضعٍ أكبر، واتِّصالٍ أقوى بالأرض. وإن أردت أن تستذكر الماضي، فابحث عن نبتة البهشيَّة واجلس تحتها. ولكي تحلم بالمستقبل، اختر شجرة ماغنوليا. وإن كان الأصدقاء والصداقة ما يشغل تفكيرك، فإنَّ

أفضل صاحب لك شجر التنُّوب أو الجنكو. وحين تصل إلى مفترق طرقٍ ولا تعرف أيّ مسارٍ تأخذ، فقد يفيدك التفكير بهدوءٍ عند شجرة الجمَّيز.

إن كنت فنَّانًا تحتاج إلى إلهام، يمكن للجاكارندا الزرقاء أو السنط ذي الرائحة الحلوة أن يحرِّك خيالك. وإن كنت تسعى إلى التجديد، فابحث عن الدردار الأجرد. وإن عانيتَ من الندم الشديد فسوف تمنحك الصفصافةُ البابليَّة السلوى. حين تقع في مشكلةٍ أو تكون في أضعف حالاتك، ولم تجد شخصًا تفضي إليه، فالزعرور هو الخيار الأمثل. فلهذا أصبح الزعرور بيت الجنِّيَّات، ولهذا عُرف عنه أنَّه يحمي آنيةً من الكنوز.

شجرُ الزان للحكمة، والصنوبر للذكاء، والسمّن للشجاعة، والبندق للكرم، والعرعر للمرح. وحين تريد أن تتخلَّى عن شيءٍ لا تستطيع التحكُّم به، فابحث عن البتولا، بلحائها الأبيض الفضِّيّ الذي يتقشَّر طبقةً تلو طبقة مثل جلدٍ قديم. وإنْ كنت تبحث عن الحبّ أو فقدته، فتعال إلى التينة وحدها، لا غيرها.

المخبوء

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

في ذلك المساء الذي سافرت فيه مريم، ذهبت آدا إلى غرفتها للنوم باكرًا وهي تعاني من انقباضات الدورة. حاولت أن تقرأ قليلاً وهي تحتضن قارورةً من الماء الساخن عند بطنها، لكنَّ مزيجًا من الأفكار كان يتسارع في عقلها، يحرمها من التركيز. عبر النافذة، كانت ترى أضواء أعياد الميلاد في بيت الجيران ما تزال تومض، على الرَّغم من أنَّها أقلّ وهجًا وبهجةً بعد انتهاء العطلة. ثمَّة إحساسٌ في الأجواء بأنَّ الأشياء تقترب من نهايتها.

غير أنَّ الانقباضات لم تكن وحدها التي تزعجها. فكلام خالتها عن القدوة الأنثى في البيت أعاد إلى روحها قلقًا قديمًا، من أنَّ أباها قد يتزوَّج امرأةً أخرى قريبًا. فمنذ وفاة والدتها، أصبح هذا الشكّ جزءًا منها كنبض قلبها. لكنَّها في هذا المساء لم تشأ أن تعْلَق في تلك الشِّبّاك، شِباك القلق التي كانت تُجيد نسجها.

خرجتْ في الممرّ. شظايا من الضوء تنزّ من تحت باب أبيها. لا بدَّ من أنّه سهران، مرَّةً أخرى. كان والداها يسهران كثيرًا في الماضي، وكلٌّ منهما منكبٌّ على كتبه فوق الطاولة، فيما يغنِّي دوك إلغنتن في الخلفيَّة.

دقَّت على الباب وفتحتْه، فوجدتْ أباها عند حاسبه، جبينه مضاءٌ بوهج الشاشة، وعيناه مغمضتان، ورأسه مائل، وكوب الشاي على الطاولة.

«بابا؟»

للحظةٍ، خشيَت أن يكون قد مات. كان الخوف من فقده هو الآخر يزحف إليها، لكنَّها هدأت حين رأت صدره يعلو ويهبط.

نقلتْ ثقلها إلى رجلها الثانية، فصرَّتْ ألواحُ الأرضيَّة تحتها.

استيقظ كوستاس وهو يفرك عينَيْه. «آدا؟ لم أسمعكِ حين دخلتِ». ارتدى نظّارته، وابتسم لها. «حبيبتي، لماذا لم تنامي؟ هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟»

«نعم. الأمرُ وما فيه أنَّك كنت تعدّ لي الشطائر المحمَّصة. لماذا لم تعد تعدّها كالسابق؟»

رفع حاجبَيْه. «ثلاَّجتنا تغصّ بما تبقَّى من طبخ خالتك، وتشتهين شطائري؟»

«هذه مختلفة. تُذكِّرني بما اعتدنا أن نفعله».

كان ذلك سرًّا من أسرارهما. فرغم اعتراضات ديفني، كان كوستاس وابنته يتناولان الشطائر أمام التلفاز في وقتٍ متأخِّرٍ من الليل. كانا يعرفان أنَّها عادةٌ غير صحِّيَّة، لكنَّهما استمتعا كثيرًا بها.

«في واقع الأمر أنا أيضًا أشتهي شطيرة».

*

كانت رائحةُ المطبخ المستحمّ بضوء القمر تنضح بالخلّ وبيكربونات الصوديوم. أخذتْ آدا تبشر الجبن، فيما قطَّع كوستاس شرائح الخبز ووضعها في الوعاء.

خرجت الكلماتُ قبل أن تستطيع آدا إيقافها: «أُدركُ تمامًا أنَّك قد تودّ ذات يومٍ أن تواعد امرأة... وأظنّ أنَّ الأمر لن يزعجني».

فاستدار ناحيتها بنظرةٍ متسائلة.

«سيحدث هذا. أريدك فقط أن تعرف أنَّ الأمر لن يزعجني لو بدأت تواعد... أريدك أن تكون سعيدًا. وأظنّ ماما أيضًا تريدك أن تكون سعيدًا. إنْ لم تواعد، فسوف تبقى وحيدًا حين أذهب أنا إلى الجامعة».

«ما رأيكِ أن نعقد اتِّفاقًا؟ أستمرُّ أنا في إعداد الشطائر المحمَّصة لكِ وتكفِّين عن القلق عليَّ».

حين جهز الأكل، جلس قبالتها إلى طاولة المطبخ، فيما يتكثَّف هواء الليل في قطراتٍ من الماء على النافذة.

«لقد أحببتُ أمّك. كانت حبّ حياتي». لم يبدُ صوتُه متعبًا كالسابق. بل كان فيه إشراقٌ، مثل خيطٍ ذهبيٍّ ينسدل.

حدَّقت آدا في يدَيْها. «لم أستوعب قطّ لماذا فعلتْ ذلك. لو أنَّها كانت تهتمّ بي... وتهتمّ بك... لما فعلت ذلك».

لم يتحدَّثا بصراحةٍ قطّ عن وفاة ديفني. كانت جمرةً مشتعلةً في حياتهما، من المستحيل لمسها.

«كانت أمّك تحبّك كثيرًا».

«إذن لماذا... كانت تشرب كثيرًا كما تعرف. وكانت تتناول حبوبًا كثيرةً في غيابك، ولا بدَّ من أنَّها كانت تُدرك خطورتها. قلتَ لي إنَّ الأمر لم يكن انتحارًا. والطبيب الشرعيّ قال إنَّه ليس انتحارًا. فماذا كان إذن؟»

«كان شيئًا يفوق قدرتها يا أديتسا».

«اعذرني، لا أستطيع أن أصدِّق. لقد اختارت هذا، أليس كذلك؟ على الرَّغم من أنَّها كانت تعرف ما سيحدثه بنا. كان تصرُّفًا أنانيًّا جدًّا. لا أستطيع أن أسامحها. أنت لم تكن هنا. كنتُ أنا الوحيدة معها في البيت. طوال اليوم، كانت تجلس في غرفتها. قلتُ لعلَّها نائمة. حاولتُ ألاَّ أُزعجها. تعرف كيف كانت تصبح أحيانًا... منغلقةً على نفسها. مرَّ العصرُ ولا أثر لها. طرقتُ الباب، ولم أسمع صوتًا. دخلتُ، ولم تكن في سريرها. قلتُ في نفسي بحماقةٍ لا بدَّ من أنَّها رحلت. لعلَّها تسلَّقت من النافذة وتركتني... ثم رأيتُها، مطروحةً على السجَّاد مثل دميةٍ تالفة، وركبتاها ملتصقتان بقوَّة». رَمَشت آدا في اهتياج. «لا بدَّ من أنَّها سقطتْ من السرير».

أخفض كوستاس عينَيْه، وتتبَّع خطوط راحته بطرف إبهامه. حين رفع عينَيْه كانتا مليئتَيْن بالألم، وبشيءٍ آخر أقرب إلى السكينة.

«حين كنتُ عالم نباتٍ شابّ، اتَّصل بي أكاديميٌّ من أكسفوردشير. كان رجلاً واسع الاطِّلاع، بروفسورًا في اللغات والآداب القديمة، لكنَّه لم يكن يفقه شيئًا في الأشجار، وكانت لديه كستناءةٌ إسبانيَّةٌ في حديقته في وضعٍ سيِّءٍ. لم يفهم المشكلة فطلب مساعدتي. تفحَّصتُ الأغصان والأوراق، وأخذتُ عيِّنات من اللحاء، وفحصتُ التربة. جميع النتائج كانت سليمة. لكنَّني كلَّما نظرتُ أكثر اقتنعتُ برأي البروفسور. كانت الشجرة تُحتضر. لم أفهم السبب. في النهاية، أخذتُ مجرفةً وبدأتُ أحفر. وهنا تعلَّمتُ درسًا لم أنسه. كانت جذور الشجرة تطوِّق قاع الجذع، فتخنق تدفُّق الماء والمغذِّيات. لم يُدرك أحدٌ ذلك لأنَّه كان مخبوءًا، تحت سطح التربة...».

«لم أفهم».

«يُسمَّى هذا التطويق. قد تكون هناك أسبابٌ كثيرةٌ له. في هذه الحالة، زُرعت الكستناءة في حاويةٍ دائريَّةٍ قبل غرسها كشتلةٍ في الخارج. ما أريد قوله هو أنَّ الشجرة كانت تختنق بجذورها هي. لم يَرَ أحدٌ ذلك لأنَّه كان يحدث تحت الأرض. إن لم نجد الجذور المطوَّقة في الوقت المناسب، فقد تشكِّل ضغطًا لا تستطيع الشجرة احتماله».

لزمتْ آدا الصمت.

«كانت أُمُّك تحبُّك كثيرًا، أكثر من أيِّ شيءٍ في هذه الدنيا. وليس لوفاتها علاقةٌ بغياب الحبّ. كانت مليئةً بحبِّكِ، وبحبِّي أنا كما أعتقد. ولكنْ هناك في الأسفل، كان ثمَّة شيءٌ يخنقها. الماضي، الذكريات، الجذور».

عضَّت آدا على شفتها السفلى ولم تقل شيئًا. تذكَّرتْ كيف أنَّها حين كانت في السادسة كسرتْ إبهامها فتورَّم إلى أن أصبح في ضعف حجمه، وصار لحمُها يضغط بعضه بعضًا. هكذا بدت لها الكلماتُ في فمها الآن.

أمسك كوستاس بصحنه، وقد أدرك أنَّها لم تعد تريد الكلام. «لنذهب ونختر فيلمًا نشاهده».

في تلك الليلة، تناول كوستاس وآدا شطائرهما المحمَّصة أمام التلفاز. لم يتَّفقا على فيلمٍ يشاهدانه، لكنَّها استمتعت بمجرَّد الجلوس مع والدها بحثًا عن فيلم. لقد بدت لها تلك اللحظة خفيفةً جدًّا، إلى ما شاء لها أن تستمرّ.

الصقر المتهكِّم

لندن، أواخر العقد الثاني من الألفيَّة الثانية

في اليوم الأوَّل من الفصل الدراسيّ الجديد، استيقظت آدا باكرًا، لم تستطع أن تنام جيِّدًا لفرط توتُّرها. ارتدت ملابسها بسرعة، على الرَّغم من أنَّ لديها وقتًا كثيرًا، وتفحَّصت محتويات حقيبتها على الرَّغم من أنَّها وضعت كلّ شيءٍ بعنايةٍ في الليلة الماضية. لم تكن لديها أيّ شهيَّةٍ للإفطار، فاكتفت بكوبٍ من الحليب. غطَّت بعض الحبوب التي ظهرت على وجهها بالمكياج، ثم خافت أن يجعلها هذا أكثر وضوحًا. حاولتْ أن تضيف محدّدًا للعينَيْن وبعض المسكرة، ثم غيَّرت رأيها وقضت عشر دقائق في مسح وجهها. رآها والدها مرتبكة، فأصرَّ على أن يوصلها بسيَّارته.

أوقف كوستاس السيَّارة أمام المدرسة، وحبستْ آدا أنفاسها، ساكنةً مثل تمثال رخام، ترفض أن تخرج من السيَّارة. أخذا ينظران إلى التلاميذ عند البوَّابة، يتجمَّعون ويتفرَّقون في مجموعاتٍ كقطعٍ متغيِّرةٍ من مِشكال. تناهت إلى سمعهما دردشات التلاميذ وأصداء ضحكاتهم.

سألها كوستاس: «هل تريدين أن أدخل معك؟»

فهزّت آدا رأسها.

مدَّ يده وأمسك بيد ابنته. «سيكون الأمر على ما يرام آدامو. ستكونين بخير».

قلبت شفتَيْها لكنَّها لم تقل شيئًا. كانت تركِّز نظرها في الأوراق الجافَّة تحت منشِّفات الزجاج الأماميّ.

خلع كوستاس نظَّارته وفرك عينَيْه. «هل أخبرتكِ من قبل عن طائر أبو زريق؟»

«لا يا بابا. لا أعتقد».

«طائرٌ رائع. ذكيٌّ للغاية. حيَّر علماء الطيور بسلوكه».

«لماذا؟»

«لأنَّ هذا الطائر الصغير الذي لا يزيد طوله عن عشر بوصاتٍ ممتازٌ في تقليد الصقور. لا سيَّما الصقر ذا الكتف الأحمر».

استدارت آدا وهي تتحدَّث إلى انعكاس صورتها في النافذة. «ولماذا يفعل ذلك؟»

«يعتقد العلماء أنَّ التقليد هنا إشارةٌ لرفاقه، تحذيرًا لهم من وجود صقرٍ في مكانٍ قريب. لكنَّ بعض الناس يرون أنَّ هناك تفسيرًا آخر. فقد تكون استراتيجيَّةً للنجاة. حين يخافُ الطيرُ يلجأ إلى تقليد الصقر لتهدئة أعصابه. وبهذه الطريقة يُخيف أبو زريق أعداءه، ويشعر بأنَّه أكثر شجاعة».

حدجتْ آدا أباها، وقالت: «هل تقصد أن أتظاهر بأنَّني شخصٌ آخر؟»

«ليس تظاهرًا. حين يحلِّق أبو زريق في السماء وهو يصيح مثل الصقر ذي الكتف الأحمر، فإنَّه في تلك اللحظة يصبح صقرًا، وإلاَّ لن يستطيع أن يصدر الصوت نفسه. هل فهمتِ ما أقصده؟»

«حسنٌ يا بابا. فهمتُ الرسالة. سأذهب وأرفرف في الصفِّ كالصقر».

فقال مبتسمًا: «صقرٍ متهكِّم. أحبّكِ، وأنا فخور بكِ. إن أزعجكِ أولئك الأطفال فسوف نجد طريقةً لحلِّ الأمر. لا تقلقي».

ربَّتتْ آدا على يد أبيها. ثمَّة شيءٌ طفوليٌّ في حاجة الكبار إلى القصص. لديهم اعتقادٌ ساذجٌ بأنَّهم حين يحكون حكايةً ملهمةً (باختيار الحكاية المناسبة في الوقت المناسب)، فإنَّهم يستطيعون أن يعدِّلوا مزاج الأطفال ويحفِّزوهم إلى تحقيق إنجازٍ أكبر، ويغيِّرون الواقع ببساطة. ولا فائدة من إخبارهم بأنَّ الحياة أكثر تعقيدًا من ذلك، وأنَّ الكلام أقلّ سحرًا ممَّا يظنُّون.

«شكرًا بابا».

«أحبّك».

«وأنا أحبّك أيضًا».

التقطتْ آدا حقيبتها المدرسيَّة والشال المخيط الذي أهدتها إيَّاه خالتها، ثم خرجت من السيَّارة. مشت ببطءٍ، وساقاها تثقلان أكثر مع اقترابها من المبنى. على بعد بضعة أقدام، لمحت زفار مستندًا إلى درابزين يتحدَّث مع مجموعةٍ من الأولاد. شعرت بطعنةٍ حادَّةٍ وهي تتذكَّر كيف ضحك عليها. فأسرعت في مشيتها.

لكنَّه رآها. ترك أصدقاءه كي يتحدَّث معها. فتوقَّفت، وعضلات ظهرها تنقبض.

«آدا، كيف حالك؟»

«بخير».

«في الحقيقة، شعرتُ بالأسف لما حدث».

«لا داعي لأن تشعر بالأسف من أجلي».

فنقل زفار ثقله من ساقٍ إلى الأخرى، وقال: «أعرف ما حدث لوالدتك، ويؤسفني ذلك».

«شكرًا».

انتظر زفار أن تقول شيئًا آخر. وحين لم تقل شيئًا، دفن يدَيْه في جيبَيْ سترته، واحمرَّت وجنتاه. قال بسرعة: «طيِّب. أراكِ لاحقًا».

راقبتْه وهو يمشي مبتعدًا، بقفزةٍ في خطواته وهو يعود إلى أصدقائه.

*

في داخل الفصل، تحدَّثت آدا مع إدْ قليلاً، في شبه إنصاتٍ لما كان يقوله عن مزجِ الإيقاعَيْن باستخدام دوَّارتَي أسطوانات. ثم جلستْ في مقعدها المعتاد عند النافذة، تتظاهر بأنَّها لم تلاحظ نظرات التلاميذ، وهمساتهم، وقهقهاتهم المتفرِّقة.

كانت إمَّا روز في المقعد المجاور لها تنظر إليها بشيءٍ من التساؤل المنفصل. «هل تشعرين بتحسّن؟»

«أنا بخير».

سمعتا أصواتًا من الجانب الآخر من الفصل. مجموعة أولادٍ كانوا يقبضون على حلوقهم كما لو أنَّهم يختنقون أو يصرخون في صمت، بأفواهٍ مفتوحةٍ، وأعينٍ مغمضة، ووجوهٍ حُمرٍ بخبثٍ مكتوم.

فقالت إمَّا روز بعبوسٍ تحوَّل فورًا إلى ابتسامة: «تجاهليهم. كلُّهم حمقى. أوه، هل سمعتِ ما حدث؟ زفار قال لنوح إنَّه معجبٌ بفتاةٍ في فصلنا».

قالت آدا وهي تحاول أن تبدو غير مهتمَّة: «حقًّا؟... وعرفتِ من هي؟»

«ليس بعد. عليَّ أن أنبش أكثر».

شعرتْ آدا بوجنتيْها تسخنان. لم تتوقَّع أن تكون هي، ولكنْ ربَّما، ربَّما يكون هناك أمل.

خلال دقائق، دخلت مسز وولكوت.

«أهلاً بكم. ما أجمل أن أراكم جميعًا. أرجو أن تكونوا قد قضيتم عطلةً سعيدة. أفترض أنَّكم جميعًا قابلتم قريبًا من كبار السنِّ وعرفتم الكثير عن حياته. من فضلكم، أخرجوا الواجبات وسوف آتي لكي أجمعها منكم».

هكذا، دخلت مسز وولكوت في الدرس مباشرةً دون أن تنتظر ردًّا منهم. نظرتْ آدا إلى إمَّا روز، فرأتْها تقلِّب عينَيْها. لم تستطع أن تمنع نفسها من التبسُّم على تلك الحركة الصبيانيَّة، فتذكَّرت تعليق خالتها. مرَّت بسرعةٍ على ملاحظاتها والمقال الذي كتبته، وشعرت بدفقة اعتزازٍ حين تصوَّرت مسز وولكوت وهي تقرأ عن حياة الخالة مريم.

*

في المساء، اتَّصلتْ خالتُها.

«آداسيم، كيف كانت المدرسة؟ هل ضايقوكِ؟»

«في الحقيقة، كانت على ما يرام. بل جيِّدة، عكس ما توقَّعت».

«هذا رائع».

«نعم. هل ترتدين ثيابًا زاهية الألوان؟»

قهقهة. «ليس بعد».

«ابدأي بتلك التنُّورة الفستقيَّة». توقَّفت قليلاً، ثم قالت: «أتعلمين، وعدني أبي أن يأخذني إلى قبرص في الصيف القادم، بعد قمَّة الأرض».

فارتفع صوتُ مريم: «حقًّا؟ يا له من خبر! كم رجوتُ أن يحدث هذا. لا أستطيع الانتظار. سآخذك إلى كلِّ مكان... ولكنْ مهلاً، أيّ جانبٍ ستزورون؟ أقصد، لا مشكلة في زيارة الجانبَيْن طبعًا، ولكنْ أيّ جانبٍ سيكون الأوَّل؟ الشمال أم الجنوب؟»

فقالت آدا بنبرةٍ جديدةٍ في صوتها: «سآتي إلى الجزيرة. أريد أن ألتقي بأمثالي، من أهل الجزر».

كيف تستخرج تينةً في سبع خطوات
وضع الصور

1 ـــــ حدِّد المكان الدقيق الذي دفنتَ فيه تينتك قبل أسابيع أو أشهر.

2 ـــــ برفقٍ، قشِّر طبقات العزل التي وضعتها في الأعلى.

3 ـــــ احفر لإخراج التربة والأوراق، مع الحرص على عدم إيذاء الشجرة بمجرفتك.

4 ـــــ تفحَّص تينتك وتأكَّد من أنَّ البرد لم يسبِّب لها أيّ تلف.

5 ـــــ أوقف تينتك بحرصٍ وفكّ الحبال التي ربطتْها بها. قد تنكسر بعض الأغصان أو تنثني، لكنَّ الشجرة ستكون بخير وستفرح بانتصابها ثانية.

6 ـــــ رصّ التراب حول الجذور للتأكُّد من دعم الشجرة جيِّدًا، واستعدادها لاستقبال الربيع.

7 ـــــ تحدَّث إلى تينتك بكلامٍ لطيفٍ ورحِّب بعودتها إلى العالم.

التينة

ها أنا أحسُّ بأنَّ الشتاء القاسي قد بدأ في تخفيف قبضته، وأنَّ عجلة الفصول عادت إلى الدوران. وها هي بيرسيفوني (إلٰهة الربيع) تعود إلى الأرض، بإكليلٍ من الزهور الفضِّيَّة حول شعرها الذهبيّ. تمشي الهوينى على الأرض، في يدها باقةٌ من الخشخاش الأحمر وحزمٌ من القمح، وفي اليد الأخرى، مكنسةٌ تكنس بها الثلج وتزيل الطين والصقيع. أسمعُ الذكريات تذوب إلى سائل، والماء يتقطَّر من الأفاريز، ينطق بحقيقته: تك، تك، تك.

كلّ شيءٍ في الطبيعة يتحدَّث، طوال الوقت. خفافيش الفاكهة، والنحل، والماعز البرّيّ، وأفاعي العشب... بعضها يصيح، وبعضها يصرّ، وأخرى تنعب أو تزقزق أو تنقّ. الجلاميد تقعقع، والكروم تحفحف. بحيراتُ الملح تحكي قصص الحرب والعودة إلى الوطن. أزهار الحقول تغنِّي معًا حين تهبّ رياح الملتيمي. بساتين الحمضيَّات ترتِّل أناشيد الشباب الخالد.

أصواتُ أوطاننا يظلّ صداها يتردَّد في عقولنا. نحملها معنا أينما ذهبنا. لكنِّي اليوم، هنا في لندن، وأنا مدفونةٌ في هذا القبر، أسمع الأصوات نفسها، واستيقظ مرتعشةً، مثل مسرنمٍ يُدرك أنَّه يجازف حين يطوف في الليل.

في قبرص، جميع الكائنات تعبِّر عن نفسها، صغيرها وكبيرها. كلُّها، باستثناء اللقالق. وعلى الرَّغم من أنَّ قبرص لا تقع في مسار هجرتها، إلاَّ أنَّ قليلاً منها قد تحيد عن مسارها بسبب تيَّارات الهواء، فتقضي عدَّة أيَّامٍ في الجزيرة قبل أن تستأنف رحلتها. اللقالق كبيرةٌ، ورشيقةٌ، وعاجزةٌ عن الغناء، بعكس الطيور الأخرى. لكنَّ القبارصة يقولون إنَّ هذا لم يكن عهدها دائمًا. فقد كان هناك حينٌ من الدهر ردَّدتْ فيه هذه الطيور طويلة السيقان ألحانًا ساحرةً، عن ممالك بعيدةٍ، ووجهاتٍ غير معروفة، تُغوي مستمعيها بحكاياتٍ عن رحلاتٍ بطوليَّةٍ وأسفارٍ ملحميَّةٍ في ما وراء البحار. فأولئك الذين سمعوها افتُتنوا بها، حتى إنَّهم نسوا ريَّ محاصيلهم، أو جزّ خرافهم، أو حلب أبقارهم، أو

اغتياب الآخرين مع جيرانهم. بل إنَّهم في الليل، كانوا ينسون أن يطارحوا حبيباتهم الغرام. فما الذي يدفعك إلى العمل المنهك، أو الانخراط في لغوٍ، أو رهن قلبك لشخصٍ، حين يكون كلّ مبتغاك أن تبحر إلى السواحل البعيدة؟ توقَّفت الحياة. وفي نهاية المطاف، انزعجت أفروديت من هذا الخلل، فتدخَّلت كما كانت تفعل دائمًا. هكذا صبَّت لعنةً على كلِّ اللقالق التي تمرُّ من فوق قبرص. ومنذ ذلك الحين، بقيت هذه الطيور صامتةً، مهما رأت، ومهما سمعت.

لعلَّها محض أساطير. لكنَّني لا أقلِّل من شأنها.

فأنا أصدِّق الأساطير، والأسرار المكتومة التي تحاول الأساطير أن توصلها لنا.

مع ذلك، عليكم أن تأخذوا كلَّ ما قلته وما لم أقله بشيءٍ من التشكُّك، فلستُ أكثر الساردين موضوعيَّةً. لديَّ تحيُّزاتي. وفوق هذا وذاك، أعترف أنَّني لستُ مولعةً بالآلهة وعداواتهم التي لا تنتهي.

تأثَّرتُ كثيرًا بما فعلتْه مريم، بارك الله في قلبها، حين صنعتْ برجًا من الحجارة في الحديقة تلك الليلة، فكان جسرًا من الأغنيات والأدعية، كي أستطيع مغادرة هذا العالم بسلام، والعبور إلى الحياة الآخرة، إنْ كانت موجودة. كانت أمنيةً لطيفةً. لكنَّني وأختي طالما اختلفنا في الرأي. ففي حين أنَّها كانت تريد منِّي أن أنتقل إلى الحياة الآخرة، على أمل الوصول إلى بوَّابات الفردوس، كنتُ أُفضِّل أن أبقى في مكاني، أمدّ جذوري في الأرض.

بعد أن مِتُّ وابتلعني الفراغ مثل فمٍ ضخمٍ متثائب، هِمتُ بلا هدفٍ بعض الوقت. رأيتُ نفسي على سرير مستشفى، في غيبوبة، وكنتُ أعرف أنَّ الأمر محزن، لكنِّي لم أستطع أن أشعر بما أعرفه. كان الأمر كما لو أنَّ جدارًا زجاجيًّا وُضع بين قلبي والحزن المحيط به. بعدها، انفتح بابٌ ودخلتْ منه آدا تحمل أزهارًا في يدها، تتلاشى ابتسامتُها مع كلِّ خطوةٍ خجلى، فلم أستطع أن أحتمل النظر.

لم أكن مستعدَّةً لتركهما. ولم أكن قادرةً على تغيير مكاني مرَّةً أخرى. كنتُ أريد أن أبقى راسيةً في الحبِّ، ذلك الشيء الوحيد الذي لم يدمِّره الإنسانُ بعد. ولكنْ أين تراني أسكن وقد فارقتُ الحياة ولم يعد لي جسدٌ أو هيكلٌ أو شكل؟ ثم عرفت.. شجرة التين. فأين يمكن أن أجد الملاذ إلاَّ في حضنها الشجريّ؟

بعد الجنازة، بقيتُ أرقب ما تبقّى من النهار وهو يرحل بعيدًا، فخرجتُ ورقصتُ في دوائرَ حول الفيكس كاريكا. تسرَّبتُ إلى أنسجتها الوعائيَّة، وامتصصتُ الماء من أوراقها، وتنفَّستُ الحياة ثانيةً من مساماتها.

يا للتينة المسكينة! حين تحوَّلتُ إليها، وجدتْ نفسَها فجأةً تحبّ زوجي حبًّا عميقًا، لكنَّني لم أنزعج. بل أسعدني أن أرى ذلك، ورحتُ أسأل نفسي ماذا سيحدث لو بادلها كوستاس الشعور ذات يوم؟ لو أنَّ إنسانًا أُغرم بشجرة.

لقد ظلَّت المرأة (من أهل بلادي على الأقلِّ) تُحوِّل نفسها إلى نباتٍ مرَّةً بعد مرَّةٍ، لأسبابٍ تخصُّها. ديفني، دافني. حين تجرَّأتْ دافني على رفض أبولو، تحوَّلت إلى نبات الغار. تصلَّب جلدُها إلى لحاء، وامتدَّ ذراعاها إلى أغصانٍ رفيعةٍ، وانتشر شعرها إلى أوراقٍ حريريَّة، غير أنَّ «قدمَيْها الرشيقتَيْن قبل لحظةٍ علقتا في جذورٍ بطيئة النموّ» ـــ كما يقول أوفيد. وفي حين أنَّ دافني تحوَّلت إلى شجرةٍ تجنُّبًا للحبِّ، فقد تحوَّلتُ أنا إلى شجرةٍ كي أتشبَّث به.

يزداد الجوّ دفئًا، والسماء فوق لندن ترتدي طيفًا خجولاً من الأزرق. أشعر بشعاعٍ شاحبٍ من الشمس يمشِّط الأرض، بطيئًا على نحوٍ لا يُطاق. سيأخذ بعض الوقت، هذا التجدُّد. سيأخذ بعض الوقت، هذا التعافي.

لكنِّي أعرف تمامًا أنَّ حبيبي كوستاس سيخرج في أيِّ لحظةٍ إلى الحديقة بمجرفةٍ في يده. لعلَّه يرتدي معطف الفرو الأزرق مرَّةً أخرى (ذلك الذي اشتريناه معًا من محلِّ موضاتٍ قديمة في شارع بورتوبيلو). وسوف يستخرجني، ويسحبني، ويمسك بي بين ذراعَيْه. خلف عينَيْه الجميلتَيْن، ستظلّ محفورةً في روحه فضلةٌ من جزيرةٍ في الطرف القصيّ من البحر الأبيض المتوسِّط، بقايا حبّنا.

ملاحظات للقارئ

كثيرٌ من قصص المفقودين المذكورة في الرواية مبنيٌّ على شهاداتٍ حقيقيَّة. ومن المصادر المؤثِّرة التي يمكن للقارئ أن يعود إليها للاستزادة كتاب تحت أشجار الخرُّوب: حيوات قبرص المفقودة من تأليف نِك دانزِغر وروري مكلين[13]، والذي دشَّنته لجنة المفقودين التابعة لبرنامج الأمم المتَّحدة الإنمائيّ.

لقد استفدتُ كثيرًا من أعمال النبش التي جرت في إسبانيا وأميركا اللاتينيَّة حين كنتُ أُجري البحث لكتابة هذه الرواية. فقصَّةُ سائق الأجرة خياليَّة، لكنَّها مستوحاةٌ من شهادةٍ حقيقيَّة، في تعليقٍ مروِّعٍ قاله مُرشدٌ فرانكويٌّ لمندوبي الصليب الأحمر، وقد وجدتُه في الكتاب الرائع من تأليف ليلى رنشو نبشُ الفقد: ذاكرةُ الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة ومادِّيّتها وقبورها الجماعيَّة[14].

أمَّا قصّة إطلاق الجنود النارَ على جدِّ كوستاس أثناء حظر التجوال فهي محاكاةٌ لمأساةٍ شبيهةٍ وقعت فعلاً، وذُكرت في كتاب البريطانيُّون وقبرص: من البؤرة الاستعماريَّة إلى القواعد ذات السيادة[15]. وثمَّة كتابٌ آخرُ مفيدٌ بعنوان مشكلة قبرص: ما يحتاج الجميع إلى معرفته[16].

والمقال الذي قرأه كوستاس في آب/أغسطس 1974 م، مستوحى من مقالٍ منشورٍ في العام التالي، في الثامن من آب/أغسطس 1975 م في مجلَّة ساينس بعنوان «هل نحن على شفا احترارٍ عالميّ واضح؟» من تأليف العالم المناخيّ والجيوكيميائيّ والي بروكر[17]، والذي كان واحدًا من أوائل الذين حذَّرونا من العلاقة بين انبعاثات الكربون وارتفاع درجات الحرارة.

المعلومات الواردة في الرواية عن مزارع الأزهار وأكاليل الجنود البريطانيِّين القتلى، إلى جانب عدَّة تفاصيل مذهلةٍ عن الجزيرة، مستقاةٌ من كتاب جزيرة الحلو والمرّ: تاريخ البريطانيّين في قبرص[18]. كما يُعدّ كتاب ليمون قبرص المرّ نظرةً مضيئة وشخصيَّة ثاقبة النظر لقبرص في الفترة

ما بين 1953 و1956 م. هذا ويقدِّم كتاب الأمبرياليَّة البريطانيَّة في قبرص روايةً رائعة عن الفترة ما بين 1878 و1915 م

؛ في حين نجد في الأنطولوجيا نيقوسيا بلا حدود تمثيلاً متميِّزًا لأصوات الكتَّاب القبارصة اليونانيِّين والأتراك. وللاطِّلاع على حكاياتٍ شخصيَّةٍ وخرافاتٍ وتاريخ، يمكن الرجوع إلى كتاب رحلة إلى قبرص.

وقعتُ على رسالةٍ مرسلة إلى نزلاء فندق ليدرا �الاس (نُشرت في صحيفة الأوبزرفر في 15 أيلول / سبتمبر 1974 م) وذلك في كتاب فندق هوليدي إن بسراييفو على جبهة السياسة والحرب.

حين كنتُ أبحث في موضوع البعوض، أذكر كتابًا واحدًا تحديدًا استفدتُ منه كثيرًا بعنوان البعوضة: تاريخٌ بشريّ لأكثر مفترسينا فتكًا بنا.

للاطِّلاع على إرشاداتٍ مفصَّلة حول طريقة دفن شجرة التين، يمكنكم زيارة الموقع الإلكترونيّ أدناه.

أمَّا الملاحظة الواردة حول «التفاؤل» و«التشاؤم» في النباتات فهي مستوحاةٌ من مقالٍ ورد في كتاب الأشجار في بيئةٍ متغيِّرة. وفيما يتعلَّق بالموضوع المثير للتفكير حول الوراثة فوق الجينيَّة وكيف يمكن نقل الذكريات من جيلٍ إلى الجيل التالي، لا في النباتات فقط بل في الحيوانات أيضًا، يرجى الاطِّلاع على كتاب ما تعرفه النبتة.

صُوِّر القسمُ المتعلِّق بالبشر حين لا يرون الأشجار في مبادرة «تيد» حول الأزمة المناخيَّة وطرق بناء عالمٍ خالٍ من انبعاثات الدفيئة. وللاستزادة حول التجارب مع الأشجار، يمكنكم زيارة الموقع الوارد أدناه.

وهناك كتبٌ ممتازةٌ يمكنكم الاطِّلاع عليها للاقتراب أكثر من عالم أشجار التين، مثل كتاب آلهة ودبابير وخنَّاقات، وكتاب التين: تاريخ كوني، وكتاب كباريه النباتات، وكتاب الغابة المستترة. أمَّا عنوان أحد كتب كوستاس المذكور في الرواية فهو مستوحى من كتاب حياة متشابكة.

كثيرٌ من الأشياء الواردة في هذا الكتاب مبنيَّةٌ على وقائع وأحداثٍ تاريخيَّة، بما في ذلك مصير ڤاروشا / فاماغوستا، والوفاة الغامضة للأطفال البريطانيِّين، والصيد غير المشروع للطيور المغرِّدة، وغير ذلك. أردتُ أيضًا أن أحتفي بالفلكلور المحلِّي والتراث الشفهيّ. مع ذلك، فكلّ شيءٍ هنا عملٌ خياليّ، مزيجٌ من الدهشة والأحلام والحزن والأسى والخيال.

صبّار التين الشوكيّ ينمو عبر السلك الشائك في خطّ الحدود في نيقوسيا، قبرص.

حقوق الصورة لكونستانتين ماركيديس.

شكرٌ وامتنان

حين غادرتُ إسطنبول آخر مرَّةٍ، قبل سنواتٍ طويلة، لم أكن أعرف أنَّني لن أعود إليها. ومنذ ذلك الحين وأنا أتساءل عمَّا كنتُ سأحمله معي في حقائبي لو كنتُ أعلم. أتراه ديوان شعرٍ، أم بلاطةً خزفيَّةً مزجَّجةً بالتركواز، أم حليةً زجاجيَّة، أم قوقعةً حملتْها الأمواج، أم صيحة نورسٍ في الريح..! بمرور الوقت، بدأتُ أُفكِّر في أنَّني سأحبّ أن آخذ شجرةً معي، شجرةً متوسِّطيَّة ذات جذورٍ محمولة، وهذه هي الصورة، والفكرة، وذلك الاحتمال البعيد الذي شكَّل هذه الرواية.

أودّ أن أُعرب عن جزيل امتناني لميري ماونت على إرشادها الرائع في التحرير، وانتباهها الدقيق للتفاصيل، وإيمانها الثابت بالأدب. كما أوجِّه شكري العميق إلى إيزابيل وول، بأسلوبها اللطيف في تمكين الكتَّاب. إنَّني أعمل مع نساءٍ طيِّباتٍ محبَّاتٍ قويَّاتٍ في دار ڤايكنغ، ما يجعلني أشعر بامتنانٍ شديد.

شكرًا لوكيلي الرائع جوني غيلر على إنصاته، ووقوفه إلى جانبي، حتى حين تأخذني القصَّة إلى أوديةٍ من القلق وأنهارٍ من الاكتئاب. والشكر موصول أيضًا للأرواح الجميلة الدؤوبة في وكالة كِرتس براون.

شكرًا جزيلاً لستيفن باربر، صديقي العزيز والروح القادمة من عصر النهضة. أتعلَّم الكثير من حواراتنا، بدءًا من نبتة الغاردينيا وحتى الأحافير الجزيْئيَّة.

وأودّ أن أعرب أيضًا عن حبِّي وشكري العميقَيْن لليزا بابالس. كيف لي أن أعبِّر عن امتناني لكِ يا ليزا، سي اف خارستو �ارا �ولي. شكري واحترامي كذلك لغولدين �لومر كوتشوك وزملائها في لجنة المفقودين على كلِّ ما فعلتموه لنشر السلام والصلح والتعايش.

أُقدِّم أيضًا أجزل الشكر لكارين وِتلوك، على عنايتك الدقيقة وسخاء قلبك، فالعمل معكِ كان نعمةً وبهجة. تقديري أيضًا لدونا �و�ي وكلوي ديفِس وإلزابيث فيلي�ولي وهانا سوير ولورنا أوين وسارا كاورد وإلي سمث، إلى جانب أنتون مولر الذي ما يزال يلهمني بكلامه وحماسه من الجانب الآخر من المحيط الأطلسيّ. وشكرًا لرتشرد مابي على حبّك للطبيعة، وروبرت مكفارلن على حبّك للأرض، وجوناثن دروري على حبّك للأشجار، وجيمس كير ــــ لندزي على حبّك للجزيرة القريبة إلى قلوبنا.

وكالعادة، لا بدّ أن أشكر أسرتي التي أجد في حبِّها ودعمها إلهامي، والتي لا تتوقَّف أبدًا عن تصحيح أخطائي الكثيرة في النطق. تشكُّر اديوروم يوركتن.

وفوق كلّ شيء، أودّ أن أشكر أهل قبرص الذين أجابوا بصبرٍ عن أسئلتي، وحدَّثوني عن تجاربهم ومشاعرهم، لا سيَّما الشباب من القبارصة اليونانيّين والأتراك، الذين سيبنون بشجاعتهم وبصيرتهم وحكمتهم عالمًا أفضل من الذي ورثوه عن أسلافهم.

أليف شافاك: روائيَّةٌ وناشطةٌ تركيَّة. صدر لها عن دار الآداب:

قواعد العشق الأربعون

لقيطة إسطنبول

شرف

قصر الحلوى

الفتى المتيَّم والمعلِّم

حليب أسود

بنات حوَّاء الثلاث

البنت التي لا تحبّ اسمها

عشر دقائق و38 ثانية في هذا العالم الغريب

www.elifshafak.com

Notes

[1←]

صيغة تحبُّب باليونانيَّة وكلمة (مو) هي ضمير الملكيَّة كأن تقول الأمُّ لابنتها نادية مثلًا (ناديتي). (المترجم)

[2←]

صيغة تصغير وتدليل في اليونانيَّة إذ يُصبح اسم (آدا) بالتصغير (آديتسا) ويصبح اسم (إيليني) مثلًا (إيلينيتسا).. وهكذا مثل صيغ التصغير للتدليل والتلطُّف في العربيَّة (شمسية سُويلم صوّيحب بُنيَّ) . (المترجم)

[3←]

تحكي الميثولوجيا الرومانيَّة عن الأخَويْن الرضيعَيْن رومولوس وريموس اللذيْن أُلقيا في النهر بأمرٍ من أموليوس كي لا يرثا العرش إلى أن علقت السلَّة التي وُضعا فيها بجذور شجرة تين فوجدتْهما هناك ذئبةٌ وأرضعتهما إلى أن عثر عليهما الراعي فوستولوس ورمولوس هو الذي سيؤسّس روما بعد ذلك. (المترجم)

[4←]

حزقيا ملك يهوذا (في القرنَين الثامن والسابع قبل الميلاد تقريبا). وقد جاء في الإصحاح 38 من سفر إشعياء: (وكان إشعياء قد قال ليأخذوا قرص تينٍ ويضمّدوه على الدبل فيبرأ). (المترجم)

[5←]

.autant que les Gr@ces, pas plus que les muses

[6←]

ترجمة العبارة بالفرنسيّة: على عدد ربّات الجمال، ولا أكثر من ربّات الفنّ...

[7←]

منطقة الكوت دور هي إحدى مناطق جهة البورغون المعروفة بخمورها الرفيعة والعريقة في شرق فرنسا. وقد اختير لهذه المنطقة اسم غير جغرافي على عكس سائر المناطق هو «كوت دور» أي تلّة الذهب، إشارة إلى اللون الذي تنصبغ به = أوراق الكرم الذهبيّة في فصل الخريف. وقد ألهمت هذه التسمية أحد الأدباء، فأطلق على الشريط المتوسّطي في فرنسا كوت دازير، أي التلال الزرقاء، المشهورة عالميًّا بشواطئها.

[8←]

بروسبرين هي ربّة الفصول عند الرومان، وتقابل برسيفون عند اليونان التي تمضي ستّة أشهر في الجنّة مع أمّها (فصلي الربيع والصيف) وستّة أشهر في جهنّم (فصلي الخريف والشتاء) مع زوجها بلوتن إلٰه النيران الذي اختطفها.

[9←]

حراملك: كلمة تركيّة مأخوذة من الكلمة العربية «حرام» بإضافة اللاصقة التركية «لِكْ» في آخر الكلمة، والتي تفيد المكان. فهو المكان المحرّم دخوله على الأجانب. كما أنّ السَّلامْلِك هو الجناح التي يستقبل فيه السلطان الوفود للسلام عليه. وهناك حاجز بين الحراملك والسلاملك، ويقوم الآغوات وهم الخصيان بحراسة المجالين.

[10←]

إنّ كلمة «أُوطَة» في عامِّية بعض الدول العربيّة مأخوذة من الكلمة التركية «أوطة أي الغرفة». وخادمة هذه الغرفة تسمّى في الحريم العثماني «أوداليك». وقد دخلت الكلمة إلى معجم اللغات الأوروبيّة وأصبحت إحدى الشخصيّات البارزة في مدرسة الفنّ الأوروبي المعروف باسم التيّار الشرقي Orientalisme، حيث نجد لوحات مشهورة لماني وماتيس وغيرهما تصوّر الأوداليسك في أوضاع عارية غير محتشمة.

[11←]

وصلتْ إلى المغرب في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مجموعة من النساء الشركسيّات، تزوّج من بعضهنّ السلطان الحسن الأوّل (1873 ـــ 1894)، مثل للاّرقية التي أنجبت له السلطان مولاي عبد العزيز (1894 ـــ 1908)، وللاّ آمنة التي أنجبت له السلطان مولاي يوسف (1912 ـــ 1927)، والد الملك محمّد الخامس (1927 ـــ 1961) وجد الملك الحسن الثاني (1961 ـــ 1999). ومن بين النساء الشركسيّات الأخريات في عهد الحسن الأوّل: للاّ خديجة، وللاّ نُضار وللاّ فَخِيتَة. ونظرًا لأنّه كان من عادة سلاطين آل عثمان الزواج بالشركسيّات دون غيرهنّ، فقد أرسل السلطان عبد الحميد الثاني هذه الهديّة تقديرًا للسلطان مولاي الحسن الأوّل ومكانته.

[12←]

عرش وعاصمة آل عثمان.

[13←]

الخليفة عبد المجيد الثاني هو آخر الخلفاء العثمانيّين.

[14←]

انظر ما نقله الدكتور عبد الكريم الخطيب أحد أقطاب الحركة الوطنيّة في المغرب عن قدّور بن غبريط مدير التشريفات الملكيّة ومدير معهد مسجد باريس عن = الخليفة عبد المجيد الثاني الذي أوصى ابن غبريط قبل وفاته في باريس. وقد بقيت رفاة عبد المجيد في مسجد باريس مدّة عشر سنوات قبل أن يُنقل إلى البقيع الشريف: «من عادة أمراء المؤمنين أن تكون لديهم بعض آثار النبيh ، وأنا عندي نعاله عليه السلام، ولا يستحقّها الآن من أمراء المسلمين إلاّ محمّد الخامس، فأطلب منك بعد وفاتي أن تهديها له كوارث للخلافة». ص 118: «الدكتور عبد الكريم الخطيب: مسار حياة»، تقديم نلسون مانديلاّ، منشورات إفريقيا الحرّة، المغرب، الطبعة الثانية، 2001.

[15←]

إنّ أوّل مسجد سمحت فرنسا ببنائه على أراضيها هو مسجد نور الإسلام في مدينة سان دوني في جزيرة لاريينيون، والذي بناه المسلمون من أصول هنديّة هناك سنة 1905.

[16←]

تغيّر اسمها إلى منظمة التعاون الإسلامي سنة 2011. لقد أُلغيت الخلافة في 3 مارس 1924، ونلاحظ أنّ الملك الحسن الثاني الذي كان مع الملك فيصل رحمهما الله وراء تأسيس منظّمة التعاون الإسلامي في فاس بالمغرب، قد اختار يوم 3 مارس عيدًا للعرش، فهل كان هذا محض صدفة أم إرادة حقيقيّة من هذا القائد بصفته أميرًا للمؤمنين على ضرورة استمرار حمل سرّ لخلافة الإسلاميّة في آل البيت؟

[17←]

إشارة إلى سهده واكتحال عيونه بالسهر في رعاية مصالح الناس.

[18←]

إشارة إلى مثال النعال النبويّة التي قاسها أهل الوراثة المقتفين أثر المصطفى، فصارت لهم بمنزلة قدم الصدق ﴿وَبَشِّرِ الذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.